

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد السادس

دار إحياء التراث العربي

الآية: ٥٠ - ٦٩

الآية: ٧٠ - ٩٩

الآية: ١٠٠ - ١٢٢

سورة يوسف

الآية: ١ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٥٩

الآية: ٦٠ - ٧٩

الآية: ٨٠ - ١١١

سورة الرعد

الآية: ١ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٤٣

سورة إبراهيم

الآية: ١ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٥٢

١٥ - سورة الحجر

الآية: ١ - ٤٠

الآية: ٤١ - ٩٩

١٦ - سورة النحل

الآية: ١ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٨١

الآية: ٨٢ - ١٢٨

١٧ - سورة الاسراء

الآية: ١ - ٣٠

الآية: ٣١ - ٦٠

الآية: ٦١ - ٩٠

الآية: ٩١ - ١١١

(١)

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد السادس

دار إحياء التراث العربي

(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفقنا لاتمام طبع المجلد الخامس من هذا السفر النفيس، وسهل لنا السبل لاتجاز المجلد السادس والشكر له وحده فانه المتفضل باصول النعم والحمدله على إليها منا الحمد، والشكر له على إليها منا الشكر، ولا حول لنا ولا قوة إلا به ومآبنا اليه واتكالنا عليه نسأله أن يلهمنا الصواب، ويوفقنا إلى ما فيه مرضاته، وصلى الله عليه نبينا محمد وآله الذي أرسله الله لهداية خلقه وتبليغ كتابه وتطبيق تشريعه في الارض وإظهار كلمة التقوى، وكلمة الله العليا، فقام باداء الرسالة خير قيام، وقد بلغ عن ربه ما أمر به على تمام وكمال، وقام بعده أهل العلم بما وجب عليهم، ومنهم المؤلف قدس الله روحه الطاهرة (راجع ترجمته في المقدمة بقلم اية الله الاغا بزرك الطهراني - مد ظله العالي -)

وبالختام ابتهل إلى الله - جل شأنه - أن يوفقنا وجميع المؤمنين لما فيه السداد انه أرحم الراحمين.

(٥)

قوله تعالى:

(وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون) (٥٠) آية
بلاخلاف.

قوله " أخاهم " نصب بتقدير (ارسلنا) كأنه قال: وأرسلنا إلى عاد أخاهم ودل عليه ماتقدم من
قوله " ولقد أرسلنا نوحا " و (عاد) مصروف، لأن المراد به الحي وقد يقصد به القبيلة،
فلا يصرف قال الشاعر:

لو شهد عاد في زمان عاد * لابتزها مبارك الجلابد (١)

وإنما سمي هودا أخا عاد مع أنهم كفار، وهو نبي لأن المراد بذلك الاخوة في النسب، لا في
الدين، فحذف لدلالة الحال عليه.

وقوله " مالكم من إله غيره " حكاية ماقال هود (ع) لهم وأمرهم ان يوجهوا عبادتهم إلى الله
ونفى ان يكون معبود يستحق العبادة غيره.

ومن ضم الرءاحمله على الموضع، لأن فيها معنى الاستثناء، فكأنه قال ما لكم من إله إلا هو،
ولا يجوز في هذا الاستثناء الحمل على اللفظ، لأن الواجب لا يدخله (من) الزائدة.

ومن جره حمله على اللفظ. وقال بعضهم تقديره مالكم إله غيره و (من)

زائدة، فلذلك رفع.

وقوله " ان أنتم إلا مفترون " أخبار من الله تعالى: حكاية ماقال هود لهم بأنه ليس أنتم إلا
مفترسون. وإنما سماهم مفترين بعبادة غير الله، لأنهم في حكم من قال هي جائزة لغير الله،

فلذلك قال لهم ذلك. ومساكن عاد كانت بين بلاد الشام واليمن تعرف بالاحقاف، وكانوا
أصحاب بساتين وزروع، ويسكنون

(١) مجمع البيان ٣: ١٦٩ وروايته (لاغيرها) بدل (لابتزها)

(٦)

الرمال، دعاهم هود إلى الايمان بالله وتوجيه العبادة اليه، فكفروا به فأهلكهم الله بالريح، فذكر
انها كانت تدخل في أفواههم فتخرج من استاهم فتقطعهم عضوا عضوا، نعوذ بالله منها.

قوله تعالى:

(ياقوم لا أسئلكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون) (٥١) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية عن هود أنه قال لقومه: لست أطلب منكم - على دعائي لكم إلى عبادة الله - أجرا، لأنه ليس جزائي في ذلك إلا على الله الذي خلقني، فهلا تتكفرون - بعقولكم - في ذلك، فتعلمون أن ذلك محض النصيحة لأنه لو كان لغيره لطلبت عليه الاجر. اللغة.

والسؤال والطلب معناهما واحد، إلا ان الطلب قد يكون في غير معنى السؤال، لان من ضاع منه شئ يطلبه، او طلب الماء اذا استعذبه أو طلب المعادن، لايقال فيه (سأل) ولاهو سائل. و (الاجر) هوالجزاء على العمل على عمل الخير بالخير. وقد يستحق الاجر على الشكر، كالاجر الذي يعطيه الله العبد على شكره لنعمه. و (الفطر) الشق عن أمر الله، كما ينفطر الورق عن الثمر، ومنه فطر الله الخلق. ومنه قوله " اذا السماء انفطرت " (١) و " هل ترى من فطور " (٢) ومنه فطر الله الخلق لأنه بمنزلة ماشق عنه فظهر. وقوله " افلا تعقلون " يقال لمن عدل عن الاستدلال: لايعقل، لأنه بمنزلة من لايعقل،

(١) سورة الانفطار آية ١ .

(٢) سورة الملك آية ٣ .

(٧)

في انه لاينتفع بموجب العقل. وقيل ان المنى " أفلا تعقلون " أني اطلب بذلك نصحكم وصلاحكم فتقبلوه ولاتردوه.

قوله تعالى:

(وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولانتولو مجرمين)
(٥٢) آية بلاخلاف.

هذه الآية عطف على ماقبلها، وفيها حكاية ايضا عما قال هود لقومه، فانه ناداهم، وقال " ياقوم استغفروا ربكم " اي اطلبوا منه المغفرة " ثم توبوا اليه " وانما قدم الاستغفار قبل التوبة، لأنه طلب المغفرة التي هي الغرض، ثم بين مابه يتوصل اليها هوالتوبة، والغرض مقدم في النفس، لان الحاجة اليه ثم السبب، لأنه يحتاج اليه من اجله. وقيل ان (ثم) في الآية بمعنى الواو، كماقال " خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها " (١) وكان جعل الزوج منها قبل جميع البشر.

وقبل ان المعنى استغفروا ربكم من الوجه الذي يصح، من الايمان به وتصديق رسله، والاقلاع عن معاصيه، والتوبة من القبائح " ثم توبوا اليه " بمعنى استديموا على ذلك وجددوا

التوبة بعد التوبة، لئلا يكونوا مصرين. وكل ذلك جائز وظاهر هذه الآية يقتضي أن الله تعالى يجعل الخير بالتوبة ترغيبا فيها، لأنه وعد متى تاب العاصي يرسل السماء عليهم مدرارا وهو الدرر الكثير المتتابع على قدر الحاجة إليه دون الزائد المفسد المضر، ونصبه على الحال. وروي انهم كانوا أجدبوا، وانهم متى تابوا أخصبت بلادهم واثمرت اشجارهم وانزل عليهم الغيث الذي يعيشون به.

(١) سورة الزمر آية ٦.

(٨)

و (مفعال) صفة للمبالغة كقولهم: منجار، ومعطار، ومغزار. ومثله " ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب " (١) ولولا هذا الوعد لما وجب ذلك. واما الثواب على التوبة فمعلوم عقلا.

وقوله " ويزدكم قوة إلى قوتكم ولاتتولوا مجرمين " معنا ان الله تعالى اذا تبتم " يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى " القوة التي فعلها فيكم، ويجوز ان يريد بذلك تمكينهم من النعم التي ينتفعون بها ويلتذون باستعمالها، فان ذلك يسمى قوة. وقوله " ولاتتولوا مجرمين " تمام الحكاية عنه انه قال لقومه لاتتولوا من عصا الله وترك عبادته.

قوله تعالى:

(قالوا ياهود ما جئنا ببينة ومانحن بتاركي ألهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين) (٥٣) آية بلاخلاف.

في هذه الآية حكاية عما قاله قوم هودله حين دعاهم إلى عبادة الله وترك ما سواه بأنهم قالوا له ياهود لم تجئنا ببينة يعني بحجة دالة على صدقك ولسنا نترك عبادة ألهتنا لاجل قولك ولسنا مصدقك، ولا معترفين بعبادة إلهك الذي تدعي انك رسوله، فالبينة الحجة الواضحة التي تفصل بين الحق والباطل. والبيان فصل المعنى من غيره حتى يظهر للنفس متميزا مما سواه، ويجوز ان يكون حملهم على رفع البينة مع ظهورها أمور:

احدها - تقليد الآباء والرؤساء فدفعوها لذلك ومنها اتهامهم لمن جاء بها حيث لم ينظروا فيها.

(١) سورة الطلاق آية ٢ - ٣

(٩)

ومنها انهم دخلت عليهم الشبهة في صحتها.
ومنها اعتقادهم لاصول فاسدة تدعوهم إلى جردها.
واما الداعي إلى عبادة الاوثان فيحتمل ان يكون احد اشياء:
احدها - انهم ظنوا انها تقربهم إلى الله زلفى اذا عبدوها.
الثاني - ان يكونوا على مذهب المشبهة فجعلوا وثنا على صورته فعبدوه.
الثالث - ان يكون القى اليهم ان عبادتها تحظي في دار الدنيا.
وقوله " عن قولك " معناه بقولك، وجعلت (عن) مكان الباء، لان معنى كل واحد من الحرفين
يصح فيه. وقال الرماني: من عبد إلها في الجملة هو ممن عبد غير الله، لان كل واحد منها لم
تخلص العبادة له ولا اوقعها على وجه يستحق به الثواب.
قوله تعالى:

(إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أنني برئ مما تشركون)
(٥٤) آية.

في هذه الاية تمام الحكاية عن جواب قوم هود لهود، وهو انهم قالوا مع جردهم لنبوته " ان
نقول " لسنا نقول " إلا اعتراك " أصابك من قولهم عراه يعروه إذا اصابه، قال الشاعر:
من القوم يعروه اجترام ومأثم (١)
وقيل " اعتراك " اصابك يحنون خبل عقلك، ذهب اليه ابن عباس، ومجاهد.
وانما جاز ان يقول " إلا اعتراك " مع انهم قالوا اشياء كثيرة غير هذا، لان المعنى

(١) قائله ابوخراس: مجمع البيان ٣: ١٦٩، وتفسير الطبري ١٢: ٣٥ ومجاز القرآن ١: ٢٩٠ وصدرة: (تذكر
داخلا عندنا وهو فاتك)

(١٠)

مانقول في سبب الخلاف الا اعتراك، فحذف، لان الحال يقتضي ان كلامهم في الخلاف
وسببه.

وقوله " قال اني اشهد الله " اخبار عما اجابهم به هود بأن قال: اشهد الله على ادائي اليكم
ونصحي اياكم، وعلى ردكم ذلك علي وتكذيبكم اياي و " اشهدوا " انتم ايضا انني برئ مما
تشركون، وانما اشهدهم - على ذلك وان لم يكونوا اهل شهادة من حيث كانوا كفارا فساقا -
اقامة للحجة عليهم لالتقوم الحجة بهم، فقيل هذا القول اعذارا وانذارا، ويجوز ان يكون يريد
بذلك اعلموا كما قال " شهد الله " بمعنى علم الله.

قوله تعالى (من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون (٥٥) آية بلاخلاف.

في هذه الآية دلالة على صحة النبوة، لأنه قال لقوم من اهل البأس والنجدة " كيدوني جميعا ثم لا تنتظرون " اي لا تمهلوني ثقة بأنهم لا يصلون اليه بسوء، لما وعده الله (عزوجل) من العز والغلبة. ومثله قال نوح لقومه " فاجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمّة ثم اقصوا الي ولا تنتظرون " (١) وقال نبينا (صلى الله عليه وآله) " فان كان لكم كيد فكيدون " (٢). والفرق بين الانظار والتأخير ان الانظار امهال لينظر صاحبه في امره، والتأخير خلاف التقديم من غير تضمين.

وفي هذه الآية تضمين بما قبلها، لان التقدير اني برئ مما تشركون من دونه، وههنا يحسن الوقف ويحسن ايضا ان يقف على قوله " تشركون " كان ذلك وقفا كافيا، لانه يحسن الوقف عليه، ولا يحسن استئناف مابعد. واما الوقف التام

(١) سورة يونس آية ٧١.

(٢) سورة المراسلات آية ٣٩.

(١١)

فهو الذي يحسن الوقف عليه ويحسن استئناف مابعد نحو قوله " واياك نستعين " ثم يستأنف " اهدنا صراط المستقيم " (١).

والكيد طلب الغيظ بالسر وهو الاحتيال بالسر، تقول: كاده يكيد كيدا وكايدته مكايده مثل غايظه مغايظة.

قوله تعالى:

(انني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) (٥٦) آية بلاخلاف.

هذه الآية فيها حكاية ما قال هود لقومه بعد ذكر ما قدم من القول فيه اني توكلت على الله. والتوكل تفويض الامر إلى الله تعالى على طاعته فيما امر به، لان ذلك من تسليم التدبير له، لانه افعاله كلها جارية على ما هو اصلح للخلق.

وقوله " مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها " معناه ليس من حيوان يدب الا وهو تعالى آخذ بناصيته اي قادر على التصرف فيه، وتصريفه كيف شاء.

و (الناصية) قصاص الشعر ومنه قوله " فيؤخذوا بالنواصي والاقدام " (٢) وفي جر الرجل بناصيته اذلال له. واصل الناصية الاتصال من قولهم: (مفازة بناصي مفازة) اذا كانت الاخيرة متصلة بالاولى قال الشاعر:

فئ تناصيها بلاد فئ (٣)

وقال ذوالرمه:

ينصو الجماهين (٤)

ونصوته انصوه نصوا اذا اتصلت به.

(١) سورة الفاتحة اية ٥ - ٦ (٣) مجمع البيان ٣: ١٦٩ (٢) سورة الرحمن آية ٤١ (٤) لم اجده

(١٢)

وقال ابوالنجم:

ان يمس رأسي اشمط العناصي * كأنما فرقه مناصي (١)

اي يحاذب ليتصل به في مره، وانما قال اخذ بناصيتها مع انه مالك لجميعها لما في ذلك من تصوير حالها على عادة معروفة من امرها في اذلالها، فكل دابة في هذه المنزلة في الذلة لله تعالى. وقوله " ان ربي على صراط مستقيم " معناه أن أمر ربي في تدبير خلقه على صراط مستقيم لا عوج فيه ولا اضطراب، فهو يجري على سبيل الصواب لا يعدل إلى اليمين والشمال والفساد. والفائدة هنا ان ربي وإن كان قادرا على التصريف في كل شئ فانه لا يفعل إلا العدل ولا يشاء الا الخير.

قوله تعالى:

(فإن تولوا فقد أبلغنكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شئ حفيظ (٥٧) آية بلاخلاف.

معنى الآية حكاية ما قال هود لقومه من قوله لهم ان توليتهم، فليس ذلك لتقصير في ابلاغكم وانما هو لسوء اختياركم في الاعراض عن نصحكم، ويجوز ان يكون ذلك حكاية ما قال الله لهود انهم ان تولوا فقل لهم فقد ابلغتكم. وقال الزجاج: التقدير فان تولوا فحذف احدى التائين، لدلالة الكلام عليها، فعلى هذا تقديره قل لهم فان تولوا، ومثله قال الجبائي. والتولي الذهاب إلى خلاف جهة الشئ وهو الاعراض عنه. والمعنى هنا التولي عما دعوتكم اليه من عبادة الله، واتباع امره، والابلاغ إلحاق الشئ بنهايته، وذلك انه قد يلحق الحرف بالحرف على جهة الوصل، فلا يكون إبلاغا، لانه لم يستمر إلى نهايته.

(١) اللسان (نصا) ومجمع البيان ٣: ١٦٩.

(١٣)

وقوله " ويستخلف ربي قوما غيركم " فالاستخلاف جعل الثاني بدل الاول يقوم مقامه فيما كان عليه الاول، فلما كانوا قد كلوفا، فلم يجيبوا، جعل الثاني بدلا منهم في التكليف.

وقوله " ولا تضرونه شيئا " معناه انه اذا استخلف غيركم، لاتقدرون له على ضرر ولا نفع. وقيل ان معناه لا ينقصه هلاككم شيئا، لانه يجلب عن الحاق المنافع والمضاربه.

وقوله " ان ربي على كل شئ حفيظ " لاعمال العباد حتى يجازيهم عليها.

وقيل معناه يحفظني من ان تتالوني بسوء.

قوله تعالى:

(ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) (٥٨) آية.

المعنى ولما جاء امرنا بهلاك عاد، ودلائله " نجينا هودا، والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ " يعنى من عذاب الدنيا والآخرة فسلموا من الامرين.

والنجاه السلامة من الهلاك، وقد تكون السلامة من اصابة الم ماء، والرحمة قد تكون مستحقة بدلالة قوله " ونجيناهم برحمة منا " ويجوز ان يكون المراد بما اريناهم من الهدى والبيان الذي هو رحمة. والرحمة مستحقة بالوعد وحسن التدبير في الفصل بين الولي والعدو. والغليظ عظيم الجثة والكثيفة، وانما وصف.

به العذاب لانه بمنزلته في النقل على النفس وطول المكث.

(١٤)

قوله تعالى:

(وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد) (٥٩) آية بلاخلاف.

قوله " وتلك " اشارة إلى من تقدم ذكره، وتقديره و " تلك " القبيلة " عاد جحدوا بآيات ربهم " والجحد الخبر بأن المعنى ليس بكائن على صحة، فعلى هذا جحدوا هؤلاء الكفار بآيات الله، اي اخبروا بأن المعنى لانعرف صحته، والنفي خبر بعدمه.

وقال صاحب العين: الجحد انكارك بلسانك ما تستيقنه نفسك.

وقوله " وعصوا رسله " فيه أخبارانهم مع جحدهم دلالة رسل الله، وانكارهم آيات الله، خالفوا ما اراده الدعاة إلى الله، على طريق الايجاب بالترغيب والترهيب فالرسول دعاهم إلى عبادة الله، فخالفوه وانما قال " عصوا رسله " وهم عصوا هودا، لان الرسل قد تقدمت عليهم بمثل ذلك، وذلك عصيان لهم فيما امروا به ودعوا اليه من توحيد الله وعدله وان لا يشركوا به شيئا.

وقوله " واتبعوا امر كل جبار عنيد والعنيد العاتي الطاعي، عند يعند عندا وعنودا اذا حاد عنه كثيرا قال الشاعر.

اني كبير لا اطيق العندا (١)

قوله تعالى:

(وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا إن عادا

(١) مجاز القرآن ١ : ٢٩١ وتفسير الطبري ١٢ : ٣٥ والقرطبي ٩ : ٥٤ وصدرة:

إذا رحلت فاجعلوني وسطا.

(١٥)

كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود) (٦٠) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان عادا لما عصوه، وكفروا به، وكذبوا هودا ألحق الله بهم الهلاك واتبعهم في دار الدنيا لعنة، بمعنى انه اخبر نبينا والامم المستقبلة باهلاكهم وانه لعنهم وامر بلعنهم، وعرفهم انه ابعدهم من رحمته.

واللعنة الدعاء بالابعاد من قولك لعنه اذا قال عليه لعنة الله، واصله الابعاد من الخير يقال ذنب لعين اي طريد، ولايجوز ان يلعن شئ من البهائم، وان كانت مؤذية، لانه لايجوز ان يدعى عليها بالابعاد من رحمة الله.

وقوله " ويوم القيامة " اي ويتبعون لعنة يوم القيامة، يعني يوم يقوم الناس من قبورهم للجزاء والحساب، كما قال " يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون " (١) وقوله " ألا ان عادا كفروا ربهم " (ألا) معناها التنبيه، ومابعدا أخبار بأن قوم عاد كفروا ربهم.

وقوله " الابعاد لعاد قوم هود " نصب (بعدا) على المصدر، والمعنى ابعدهم الله بعدا، ووقع (بعدا) موضع ابعاد، كما وقع نبات موضع انبات في قوله " انبتكم من الارض نباتا " (٢).

قوله تعالى:

(وإلى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب) (٦١) آية بلاخلاف.

حكى الله تعالى في هذه الآية أنه أرسل " إلى ثمود أخاهم صالحا " ونصب

(١) سورة المعارج آية ٣٤.

(٢) سورة نوح آية ١٧.

(١٦)

(أخاهم) بأرسلنا، عطف على ماتقدم، وأنه " قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره " وقد
فسرناه (١). وقوله " هو انشاكم من الارض " قيل في معناه قولان:

احدهما - انه خلقكم من آدم وآدم من تراب.

الثاني - انه خلقكم من الارض، والاول اختيار الجبائي وهو الاقوى. والانشاء اليجاد ابتداء
من غير استعانة بشئ من الاسباب، وهما نشأتان الاولى في الدنيا والثانية في الآخرة.

وقوله " واستعمركم فيها " اي جعلكم قادرين على عمارة الارض، ومكنكم من عمارتها
والحاجة إلى سكنها. والاستعمار جعل القادر يعمر الارض كعمارة الدار.

وقال مجاهد معنى " استعمركم فيها " أي اعماركم بأن جعلها لكم طول اعماركم. ومنه العمري
المسألة المعروفة في الفقه.

وفي الآية دلالة على فساد قول من حرم المكاسب، لانه تعالى امتن على خلقه بأن مكنهم من
عمارة الارض فلو كان ذلك محرما لم يكن لذلك وجه، والعبادة لا تستحق إلا بالنعمة
المخصوصة التي هي أصول النعم فلذلك لا يستحق بعضها على بعض العبادة ابتداء، وان
استحق الشكر، ولذلك لا تحسن العبادة ابتداء، كما لا يحسن الشكر إلا في مقابلة النعم.

وقوله " فاستغفروا ربكم ثم توبوا اليه " قد بينا معناه (٢) وقوله " ان ربي قريب مجيب " معناه
أنه قريب الرحمة لامن قرب المكان، لكنه خرج هذا المخرج لحسن البيان في المبالغة، وقيل
ان بلاد ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام، وكانت عاد باليمن.

(١) في تفسير آية. ٥ من هذه السورة صفحة ٥ من هذا المجلد.

(٢) انظر ٥: ٥١٤ في تفسير آية ٣ من هذه السورة.

(١٧)

قوله تعالى:

(قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهينا أن نعبد ما يعبد آبأؤنا وإننا لفي شك مما
تدعوننا إليه مريب)

(٦٢) آية بلاخلاف.

في هذه الآية حكاية ما أجاب به قوم صالح له حين قالوا له يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل
هذا، ومعناه قد كنا نرجو منك الخير، ونطمع فيه من جهتك قبل هذا لما كنت عليه من الاحوال
الجميلة، فالان يئسنا منك.

والرجاء تعلق النفس بمجئ الخير على جهة الظن، ومثله الامل والطمع.

وقوله " اتنهانا ان نعبد ما يعبد آبأؤنا " معناه تحظر علينا عبادة كان يعبدها آبأؤنا.

وقوله " اننا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب " معناه ان الذي أتيتنا به لا يوجب العلم بل يوجب الشك فنحن في شك مما جئتنا به. والريبة هي الشك إلا ان مع الريبة تهمة للمعنى ليست في نقيضه، والشك قد يعتدل فيه النقيضان.

قوله تعالى:

(قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير) (٦٣) آية بلاخلاف.

حكى الله تعالى في هذه الآية ما أجاب به صالح قومه ثمود بأن قال لهم " أرأيتم ان كنت على بينة " أي حجة من ربي ودليل من جهته ولا مفعول تفسير التبيان ج ٦ - م ٢

(١٨)

ل (رأيتم) لانه يلغى كما يلغى اذا دخل عليه لام الابتداء، في قولك (رأيت لزيد خير منك) فكذلك الجزاء. وجواب (إن) الاولى الفاء، وجواب (إن) الثانية محذوف، وتقديره ان عصيته فمن ينصرني، إلا انه يستغني بالاول، فلا يظهر.

وقوله " فمن ينصرني من الله ان عصيته " صورته صورة الاستفهام، ومعناه النفي كأنه قال فلانصر لي من الله ان عصيته، ومعنى الكلام أعلمتم من ينصرني من الله ان عصيته بعد بينة من ربي ونعمة، وانما جاز إلغاء (رأيتم) لانها دخلت على جملة قائمة بنفسها من جهة انها تفيد لو انفردت عن غيرها، و (من) يتعلق بمعناها دون تفصيل لفظها.

وقوله " فما تزيد ونني غير تخسير " قيل في معناه ثلاثة اقوال:

احدها - ليس تزيدونني باحتجاجكم بعبادة آبائكم اي ما تزدادون انتم الا خسارا، هذا قول مجاهد.

والثاني - قال قوم: تزيدونني لانهم يعطونه ذاك بعد اول امرهم.

الثالث - قال الحسن معناه ان اجبتكم إلى ما تدعونني اليه كنت بمنزلة من يزداد الخسران.

وقال اخرون معناه ما تزيدونني على ما انا عندكم الا خسارا.

قوله تعالى:

(وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) (٦٤).

في هذه الآية حكاية ما قال صالح لقومه بعد ان انذرهم وخوفهم عبادة غير الله، وحذرهم معاصيه. " وياقوم هذه ناقة الله لكم آية " وأشار إلى ناقته التي جعلها الله معجزة، لان الله

تعالى اخرجها لهم من جوف صخرة وهم يشاهدونها على تلك الصفة، وخرجت وهي حامل كما طلبوا، انها كانت تشرب يوما فتتفرد به ولهم يوم وتأتي المرعى يوما والوحش يوما.

(١٩)

وقوله " ولا تمسوها بسوء " نهى منه لهم ان يمسوا الناقة بسوء اي بعقر او ضرر. المس واللمس متقاربان. وفرق بينهما الرماني بان المس يكون بين جمادين واللمس لا يكون إلا بين حيين لمافيه من الادراك، وقوله " فيأخذكم عذاب قريب " جواب النهي بالفاء وكذلك نصبه. والمعنى ان مسستموها بضر اخذكم عذاب عاجل.
قوله تعالى:

(فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدْ غَيْرَ مَكذُوبٍ) (٦٥) آية بلاخلاف.
اخبر الله تعالى عن قوم صالح بانهم عصوه فيما امرهم وارتكبوا مانهاهم عنه من اذى الناقة وانهم عقروها والعقر قطع العضو الذي له سراية في النفس قال امرؤ القيس:

يقول وقد مال الغبيط بنا معا * عقرت بعيري يا المرء القيس فانزل (١)

وكان سبب عقروهم لها انهم كرهوا أن يكون لها يوم، ولهم يوم في الشرب لضيق الماء عليهم والمرعى على ماشيتهم فعقرها (احمر ثمود) وضربت به العرب المثل في الشؤم، فلما فعلوا ذلك قال لهم صالح " تمتعوا في داركم ثلاثة ايام " أي تلذذوا، فيما يريدون من المدركات الحسان من المناظر والاصوات وغيرها مما يدرك بالحواس، ويقال للبلاد: دار، لانها تجمع اهلها كما تجمع الدار. ومنه قولهم:

ديار ربيعة، وديار مضر.

وقيل معنى " في داركم " اي في دار الدنيا وايام اصله (ايوام) فقلبت الواو ياء وادغمت الياء الاولى فيها فصارت ايام لاجتماعها وسكون الاولى وانما وجب ذلك لاشتراكهما في انهما حرفا علة. وقوله " ذلك وعد غير مكذوب " معناه إن

(١) ديوانه ١٢٧ (الطبعة المصرية)

(٢٠)

ما وعدتكم به من نزول العذاب بعد ثلاثة ايام وعد صدق ليس فيها كذب.
قوله تعالى:

(فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز) (٦٦) آية بلاخلاف.

قرأ أهل المدينة إلا اسماعيل والكسائي والبرجمي والسموني "يومئذ" بفتح الميم، هنا وفي المعارج. الباقر بكسر الميم على الإضافة. قال أبو علي قوله "يومئذ" ظرف - كسرت أو فتحت - في المعنى إلا أنه اتسع فيه فجعل اسماً كما اتسع في قوله "بل مكر الليل والنهار" (١) فاضيف المكر إليهما وإنما هو فيهما، فكذلك العذاب والخزي والفرع أضفن إلى اليوم، والمعنى على أن ذلك كله في اليوم كما أن المكر في الليل والنهار. ومن كسر الميم من "عذاب يومئذ" فلان يوماً اسم معرب أضاف إليه ما أضافه من العذاب والخزي والفرع، فأنجر بالاضافة، ولم تفتح اليوم فتبنيه لاضافته إلى المعنى، لأن المضاف منفصل عن المضاف إليه ولا يلزمه الإضافة، والمضاف لم يلزم البناء. ومن فتح فقال: من عذاب يومئذ فيفتح مع أنه في موضع جر، فلان المضاف يكتسب من المضاف إليه التعريف والتذكير، ومعنى الاستفهام والجزاء في نحو غلام من تضرب اضربه، فلما كان يكتسب من المضاف إليه هذه الأشياء اكتسب منه الأعراب والبناء أيضاً، إذا كان المضاف من الأسماء الشائعة المبنية نحو (ابن). وكيف) ولو كان المضاف مخصوصاً نحو (رجل وغلام) لم يكتسب منه البناء كما اكتسبت من الأسماء الشائعة. ومن أضاف على تقدير من عذاب يومئذ ومن خزي

(١) سورة سبأ آية ٣٣.

(٢١)

يومئذ، فلانها معارف تعرفت بالاضافة إلى اليوم. أخبر الله تعالى أنه لما جاء أمره باهلاك قوم صالح الذين هم ثمود نجا صالحاً والمؤمنين معه برحمة منه تعالى. وقوله "ومن خزي يومئذ" فالخزي العيب الذي تظهر فضيحته ويستحي من مثله، خزي يخزي خزيًا إذا ظهر له عيب بهذه الصفة. وقوله "إن ربك هو القوي العزيز" فالقوي هو القادر، والعزيز هو القادر على منع غيره من غير أن يقدر أحد على منعه. وأصله المنع فمنه عز علي الشيء إذا امتنع بقلبه ومنه العز الأرض الصلبة الممتنعة بالصلابة، ومنه تعزز بفلان أي امتنع به ويقال (من عزب) أي من غلب سلب. وكانت علامة العذاب في ثمود ما قال لهم صالح: آية ذلك أن وجوهكم تصبح في اليوم الأول مصفرة وفي اليوم الثاني حمرة وفي الثالث مسودة، ذكره الحسن، هذا من حكيمته تعالى وحسن تدبيره في الإنذار بما يكون من العقاب قبل أن يكون، للمظاهرة في الحجة.

ولم يختار ابو عمرو بناء (يوم) إذا اضيف إلى مبني كما اختير في قوله " على حين غفلة " (١) لان هذا اضيف إلى اسم مبني، وذلك اضيف إلى فعل مبني فباعده من التمكن باكثر مما باعده الاول.

قوله تعالى:

(وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين)
(٦٧) آية بلا خلاف.

اخبار الله تعالى أنه لما نجا صالحا والمؤمنين وأراد اهلاك الكفار أخذ الذين ظلموا الصيحة، وهي الصوت العظيم من الحيوان. وقال الجبائي لا تكون

(١) سورة القصص آية ١٥.

(٢٢)

الصيحة إلا حدوث صوت في فم وحلق حيوان. وقيل ان جبرائيل (عليه السلام) صاح بهم، ويجوز ان يكون الله تعالى احدث الصيحة في حلق حيوان، وانما ذكر اللفظ لانه حمله على المعنى، لان الصيحة والصياح واحد، ويجوز تأنيثه حملا على اللفظ، كما جاء في موضع آخر (١). وقوله " فاصبحوا في ديارهم جاثمين " معناه أنه لما اتتهم الصيحة ليلا أصبحوا في ديارهم خامدين على هذه الصفة، والعرب تقول في تعظيم الامر: (واسوأ صباحاه). والجثوم السقوط على الوجوه. وقيل هو القعود على الركب، يقال: جثم على القلب إذا ثقل عليه، وذكرهم الله بالظلم هنادون الكفر ليعلم أن الكفر ظلم النفس إذ يصير إلى أعظم الضرر بعذاب الابد.

قوله تعالى:

(كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) (٦٨) آية بلاخلاف.

قرأ الكسائي وحده " لثمود " بخفض الدال وتثوينها. والباقون بغير صرف.

وقرأ حمزة وحفص ويعقوب " ألا إن ثمود " وفي الفرقان. و " عادا وثمود " وفي العنكبوت " وثمود فما ابقى " بغير تثوين فيهن وافقهم يحيى والعلمي والسموني في سورة (النجم).

قال الفراء قلت للكسائي: لم صرفت (ثمود) هنا؟ فقال: لانه قرب من المنصوب، وهو مجرور، وانما صرف ثمود في النصب دون الجر والرفع، لانه لما جاز الصرف اختير الصرف في النصب، لانه اخف.

قال ابو علي الفارسي: الاسماء التي تجري على القبائل والاحياء على اضرب

(١) سورة هود آية ٩٥ وسورة الحجر آية ٧٣، ٨٣، وسورة المؤمنون آية ٤١ وغيرها كثير والآيات التي ذكرناها الفعل فيها لمؤنث.

(٢٣)

أحدها - ان يكون اسما للحي او للاب.
والثاني - ان يكون اسما للقبيلة.
الثالث - ان يكون غلب عليه الاب دون الحي والقبيلة.
والرابع - ان يستوي ذلك في الاسم فيجري على الوجهين، ولا يكون لاحد الوجهين مزية على الآخر في الكثرة، فمما جاء اسما للحي قولهم ثقيف وقريش، وكلما لا يقال فيه بنو فلان. واماماجاء اسما للقبيلة فنحو تميم بنت مرة قال سيبويه سمعناهم يقولون: قيس ابنة عيلان، وتمام صاحب ذلك، وقال تغلب ابنة وابل. واما ماغلب عليه اسم ام الحي او القبيلة، فقد قالوا باهلة ابن اعصر، وقالوا يعصر، وباهلة اسم امرأة، قال سيبويه جعل اسم الحي، ومحوس لم يجعل اسم قبيلة، وسدوس اكثرهم يجعله اسم القبيلة، وتمام اكثرهم يجعله اسم قبيلة ومنهم من يجعله اسم الاب. واما مايستوي فيه اسم قبيلة، وان يكون اسما للحي، فقال سيبويه نحو ثمود وعاد، وسماهما مرة للقبيلتين ومرة للحيين، فكثرتهما سواء.
قال: وعادا وثمودا، وقال " ألا إن ثمود كفروا ربهم " وقال " واتينا ثمود الناقة " فاذا استوى في ثمود ان يكون مرة للقبيلة ومرة للحي ولم يكن لحمله على احد الوجهين مزية في الكثرة: فمن صرف في جميع المواضع كان حسنا، ومن لم يصرف ايضا كذلك، وكذلك ان صرف في موضع ولم يصرف في موضع آخر إلا انه لا ينبغي ان يخرج عما قرأت به القراء لان القراء سنة، فلا يجوز ان تحمل على مايجوز في العربية حتى تتضمن اليه الرواية.
معنى قوله " كان لم يغنوا " أي كأن لم يقيموا فيها لانقطاع آثارهم بالهلاك وما بقي من اخبارهم الدالة على الخزي الذي نزل بهم، يقال غنى بالمكان اذا اقام به والمغاني المنازل قال النابغة:

(٢٤)

غنيت بذلك اذهم لك جيرة * منها بعطف رسالة وتودد (١)
واصل الغنى الاكتفاء فمنه الغنى بالمال والغناء الصوت الذي يتغنى به، والغناء الاكتفاء بحال الشئ وغنى بالمكان اذا اقام به، لاكتفائه بالاقامة فيه، والغانية الشابة المتزوجة. و (ألا) معناها التنبيه وهي الف استفهام دخلت على (لا) فالالف يقتضي معنى و (لا) ينفي معنى، فاقتضى الكلام بهما معنى التنبيه مع نفي الفعلية.

قوله تعالى:

(ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) (٦٩)
آية بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي " قال سلم " بكسر السين وسكون اللام من غير الف هنا، وفي الذاريات.
قال محمد بن يزيد المبرد (السلام) في اللغة يحتل أربعة أشياء، منها مصدر سلمت، ومنها
جمع سلامة، ومنها اسم من أسماء الله، ومنها اسم شجرة، ومنه قول الأخطل:
الاسلام وحرمل وقوله " دار السلام " (٢) يحتل ان يكون مضافا إلى الله تعظيما لها، ويجوز
ان يكون دار السلام من العذاب لمن حصل فيها. واما انتصاب قوله " سلاما " فانه لا يحك شيئا
تكلّموا به فيحكي كما تحكى الجمل، ولكن هو ما تكلمت به الرسل، كما ان القائل اذا قال لا اله
الا الله، فقلت له قلت حقا او قلت اخلاصا اعلمت القول في المصدر لانك ذكرت معنى ما قال،
فلم يحك نفس الكلام الذي هو جملة يحكى، فكذلك نصب سلاما هنا، لما كان معنى ما قيل ولم
يكن نفس

(١) ديوانه: ٦٥ ومجمع البيان ٣: ١٧٨ وتفسير الطبري ١٥: ٥٦، ٤٦٥.

(٢) سورة الانعام ١٢٧ وسورة يونس آية ٢٥.

(٢٥)

القول بعينه وقوله " اذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " (١) قال بسبويه زعم ابو الخطاب: ان
مثله يراد به مثل قولك سبحان الله الذي، تفسيره براءة الله من السوء، وقولك للرجل سلاما
تريد مسلما منك لا ابتلي بشئ من امرك. وقوله " سلام " مرفوع، لانه من جملة الجملة
المحكية، وتقديره سلام عليكم فحذف الخبر كما حذف من قوله " فصبر جميل " (٢) اي فصبر
جميل امثل او يكون المعنى امري سلام وشأني سلام، كما يجوز ان يكون في قوله " فصبر
جميل " المحذوف منه المبتدأ، ومثله على حذف المبتدأ قوله تعالى " فاصفح عنهم وقل سلام " (٣)
او حذف الخبر ويكون سلام مبتدأ واكثر ما يستعمل (سلام) بغير الف ولام لانه في معنى
الدعاء، فهو مثل قولهم خير بين يديك، فمن ذلك قوله " قال سلام عليك سأستغفر لك ربي " (٤)
وقوله " سلام عليكم بما صبرتم " (٥) وقوله " سلام على نوح " (٦) و " سلام؟ على
ابراهيم " (٧) وقوله " سلام على عباده الذين اصطفى " (٨) وقد جاء بالالف والاقال تعالى " (٩)
والسلام على من اتبع الهدى " (٩) و " السلام علي يوم ولدت " (١٠) وز ابو الحسن ان من
العرب من يقول: السلام عليكم، ومنهم من يقول سلام عليك فمن ألحق فيه الالف واللام حملة

على المعهود. ومن لم يلحقه حملة على غير المعهود وزعم أن منهم من يقول سلام عليكم بلا تنوين، وحمل ذلك على وجهين:
أحدهما - انه حذف الزيادة من الكلمة كما يحذف الاصل في نحو لم يك ولا ادر ويوم يأت.

-
- (١) سورة الفرقان آية ٦٣. (٢) سورة يوسف آية ١٨، ٨٣.
(٣) سورة الزخرف آية ٨٩. (٤) سورة مريم آية ٤٧.
(٥) سورة الرعد آية ٢٦. (٦) سورة الصافات آية ٧٩.
(٧) سورة الصافات آية ١٠٩. (٨) سورة النمل آية ٥٩.
(٩) سورة طه آية ٤٧. (١٠) سورة مريم آية ٣٣.

(٢٦)

والآخر - انه لماكثر استعمال هذه الكلمة، وفيها الالف والام جاز حذفها منها لكثرة الاستعمال كماحذفوا من اللهم فقالوا: لاهم كماقال الشاعر:
لاهم لا هم ان عامر العجوز * قد حبس الخيل على يعمور
ومن قرأ (سلم) بلا الف احتمل امرين: احدهما - ان يكون بمعنى (سلم)
والمعنى أمرنا سلم وسلم عليكم، ويكون سلام بمعنى سلم، كقولهم حل وحلال، وحرم وحرام،
انشد الفراء:

وقفنا فقلنا ايه سلم فسلمت * كما اكيل بالبرق الغمام اللوائح (١)

وروي كما انكل. ثم قال الفراء في رفع سلام انه حين نكرهم، قال هو سلم ان شاء الله، من أنتم؟ فعلى هذا القراءتان بمعنى واحد. والآخر أن يكون (سلم) خلاف العدو، والحرب. كأنهم لما كفوا عن تناول ماقدم اليهم فنكرهم وواجس منهم خيفة، قال انا سلم، ولست بحرب ولا عدو، فلا تمتنعوا من تناول طعامي، كما يمتنع من تناول طعام العدو، وقوله " ولقد " دخلت اللام لتأكيد الخبر، كما يؤكد القسم، ومعنى (قد) هنا ان السامع لقصص الانبياء يتوقع قصة بعد قصة، و (قد) للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع في حال توقع. أخبر الله تعالى أنه لما جاءت رسل ابراهيم يبشرونه.

وقيل في البشارة بماذا كانت قولان:

احدهما - قال الحسن كانت بأن الله تعالى يهب له اسحاق ولدا ويجعله رسولا إلى عباده.
وقال غيره كانت البشارة باهلاك قوم لوط. وقوله " قالوا سلاما " حكاية ما قال رسل الله لابراهيم مجيبا لهم " سلام " .

(١) تفسير الطبري ١٢: ٣٩ واللسان (سلم) وقد روى ايضا:
وقفنا فقلنا ايه سلم فسلمت * فماكان الا ومؤها بالحواجب

(٢٧)

وقوله " فما لبث ان جاء بعجل حنيذ " معنى ذلك لم يتوقف حتى جاء - على عادته في اكرام الاضياف وتقديم الطعام اليهم - بعجل، وهو ولد البقرة يسمى بذلك لتعجيل امره بقرب ميلاده. ويقال: فيه عجول وجمعه عجاجيل، و " الحنيذ " المشوي ومعناه محنوذ، ف جاء " فعيل " بمعنى " مفعول " كطبيخ ومطبوخ، وقتيل ومقتول تقول: حنذ حنذا ويحنذه قال العجاج:

ورهبنا من حنذه أن يهجرا (١)

يعني الحمراء الوحشية أي حنذها حر الشمس على الحجارة. وقال الحسن حنيذ بمعنى نضيح مشوي. وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد: نضيح.

وحكى الزجاج أن الحنيذ هو الذي يقطر ماؤه تقول العرب أحنذ هذا الفرس أي جلله حتى يقطر عرقا.

وانماقدم الطعام اليهم وهم ملائكة لانه رآهم في صورة البشر، فظنهم أضيافا.

وقال الحسن: جاؤوه فاستضافوه، والالم يخف عليه أن الملائكة لا يأكلون ولايشربون. وقوله " أن جاء " في موضع نصب بوقوع لبث عليه، كأنه قال فما ابطأ عن مجيئه بعجل، فلما حذف حرف الجر نصب.

قال الفراء: ويحتمل " ان جاء بعجل " أن يكون في موضع رفع بأن تجعل (لبث) فعلا له كأنك قلت فما ابطأ مجيئه بعجل حنيذ، قال الفراء: (الحنيذ) ما حفرت له في الارض ثم عمته وهو فعل أهل البادية. قال الفراء وغيره: وانما

(١) ديوانه: ٩ ومجاز القرآن ١: ٢٩٢ وتفسير الطبري ١٢: ٤١ واللسان (حنذ)، (هـرج).

(٢٨)

خافهم ابراهيم من حيث لم ينالوا طعامه، لان عادة ذلك الوقت اذا قدم الطعام إلى قوم فلا يمسونه ظنوا أنهم أعداء قوله تعالى:

(فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) (٧٠) آية بلاخلاف.

قيل في وجه اتيان الملائكة ابراهيم صلى الله عليه وسلم في صورة الاضياف قولان: احدهما - قال الحسن أنهم اتوه على الصفة التي كان يحبها، لانه كان يقري الضيف.

والآخر - انهم أروه معجزا من مقدور الله في صورتهم مع البشارة له بالولد على الكبر، فاخبر الله تعالى ان ابراهيم لمارآهم ممتنعين من تناول الطعام وان ايديهم لاتصل اليه، والعقل لم يكن مانعا من أكل الملائكة الطعام وإنما علم ذلك بالاجماع وبهذه الآية، والا ماكان يجوز أن يقدم ابراهيم الطعام مع علمه بانهم ملائكة. ويجوز بأن يأكلوه وانما جاز ان يتصور الملائكة في صورة البشر مع ما فيه من الايهام لانهم أتوه به دلالة، وكان فيه مصلحة فجرى مجرى السراب الذي يتخيل انه ماء من غير علم انه ماء وقوله " نكرهم " يقال نكرته وانكرته بمعنى. وقيل نكرته اشد مبالغة وهي لغة هذيل واهل الحجاز، وانكرته لغة تميم قال الاعشى في الجمع بين اللغتين:

وانكرتتي وماكان الذي نكرت * من الحوادث الا الشيب والصلعا (١)

(١) ديوانه: ٧٢ القصيدة ١٣ وتفسير الطبري ١٢: ٤١ والاغاني ١٦: ١٨، والصحاح، والتاج واللسان (نكر) وتفسير القرطبي ٩، ٦٦. ومجمع البيان ٣: ١٧٧ وتفسير الشوكاني ٢: ٤٨٦.

(٢٩)

وقال ابو ذؤيب:

فنكرته فنفرن وافترست به * هو جاء هاربة وهاد خرسع (١)
وقوله " اوجس منهم خيفة " اي اضمر الخوف منهم، والايحاس الاحساس
قال ذو الرمة:

وقد توجس ركزا مغفرا ندسا * بنبأة الصوت مافي سمعه كذب (١)
اي تجسيس. وقيل أوجس أضمر، وانما خافهم حين لم ينالوا من طعامه لانه رآهم شبابا اقوياء
وكان ينزل طرفا من البلد لم يأمن - من حيث لم يتحرموا بطعامه ان يكون ذلك البلاء حتى
قالوا له لا تخف يا ابراهيم " انا ارسلنا إلى قوم لوط " بالعذاب والاهلاك وقيل انهم دعوا الله
فاحيا العجل الذي كان ذبحه ابراهيم وشواه فظهر ورعى، فعلم حينئذ انهم رسل الله.
قوله تعالى:

وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب (٧١) آية بلاخلاف.
قرأين عباس وحمزة وحفص ويعقوب (فبشرناها) بنصب الباء. الباؤون بالرفع. قال ابو علي
من رفع فباحد امرين: احدها بالابتداء، والآخر بالظرف على مذهب من رفع وذلك بين. ومن
فتح احتمل ثلاثة اشياء:

أحدها - ان يكون في موضع جر والمعنى فبشرناها باسحاق ويعقوب، وقال ابوالحسن: وهو قوي في المعنى، لأنها قد بشرت به قال وفي اعمالها ضعف، لانك فصلت بين الجار والمجرور بالظرف كما لايجوز مررت بزید في الدار والبيت

(١) مجمع البيان ٣: ١٧٨ (٢) مجمع البيان ٣: ١٧٨

(٣٠)

عمرو. وقال الرماني لايجوز ذلك لانه يجب منه العطف على عاملين، وذلك لا يجوز، لانه أضعف من العامل الذي قام مقامه وهو لا يجز ولا ينصب. الثاني - بجملة على موضع الجار والمجرور كقول الشاعر: اذا ما تلاقينا من اليوم او غدا (١) وكقراءة من قرأ " حورا عينا " بعد قوله " يطاف عليهم " بكذا (٢) ومثله قوله:

فلسنا بالجبال ولا الحديد (٣)

وكقول الشاعر:

جنني بمثل بني بدر لقومهم * او مثل اسرة منظور بن سيار

او عامر بن طفيل في مراكبه * او حارثا حين نادى القوم يا جار (٤)

فنصب (عامرا) و (حارثا) كأنه قال او جنني بعامر فلما اسقط حرف الجر نصب.

الثالث - أن تحمله على فعل مضمر، كأنه قال فبشرناه باسحاق، ووهبنا له يعقوب.

قال ابو علي الفارسي: والوجه الاول نص سيبويه في فتح مثله نحو مررت بزید اول امس

وأمس عمرو، وكذلك قال ابوالحسن قال: لوقلت مررت بزید اليوم وامس عمرو، كان حسنا

ولم يحسن الحمل على الموضع على حد مررب بزید وعمرا، فالفصل فيها ايضا قبيح كما قبح

الحمل على الجار وغير الجار، فهذا في القياس مثل الجار في القبح لان الفعل يصل بحرف

العطف وحرف العطف هو الذي يشرك في الفعل، وبه يصل

(١) لم اجده.

(٢) سورة الصافات آية ٤٥ وسورة الزخرف آية ٧١ وسورة الدهر آية ١٥ (٣) مر هذا البيت في ٣: ٤٥٥ تاما

(٤) تفسير الطبري ١٢: ٤٣ (الطبعة الاولى)

(٣١)

الفعل إلى المفعول به، كما يصل الجار فاذا قبح الامران وجب أن تحمل قراءة من قرأ بالنصب على تقدير فعل آخر مضمر يدل عليه (بشرنا).

وقيل في معنى قوله " وامرأته قائمة " ثلاثة اوجه:

أحدها - انها كانت قائمة بحيث ترى الملائكة فضحكت سرورا بالسلامة وأردف ذلك السرور بماكان من البشارة.

والثاني - انها كانت قائمة من وراء الستر تستمع إلى الرسل.

والثالث - انها كانت قائمة تخدم الاضياف و ابراهيم جالس.

وقال مجاهد: معنى فضحكت حاضت، قال الفراء: لم أسمع ذلك من ثقة وجدته كتابة قال الكميث.

واضحكت السباع سيوف سعد * لقتلى مادفن ولا ودينا (١)

يعني بالحيض وقالوا لحرب بن كعب: تقول ضحكت النخلة إذا أخرجت الطلع والبسر، وقالوا الضحك الطلع وسمع من يحكى أضحكت حوضك إذا ملاته حتى فاض، وانشد بعضهم في الضحك بمعنى الحيض قول الشاعر:

وضحك الارانب فوق الصفا * كمثل دم الجوف يوم القا (٢)

وقال قوم: الضحك العجب وانشد لابي ذؤيب.

فجاء بمزج لم ير الناس مثله * هو الضحك إلا انه عمل النحل (٣)

وقيل في معنى " ضحكت " ثلاثة اقوال:

(١) تفسير الطبرى ١٢: ٤٢ ومجمع البيان ٣: ١٨٠.

(٢) مجمع البيان ٣: ١٨٠ وتفسير القرطبي ٨: ٦٦ والطبرى ١٢: ٤٢ والشوكاني ٢: ٤٨٦.

(٣) تفسير القرطبي ٨: ٦٧ والطبرى ١٢: ٥٤٣.

(٣٢)

أحدها - انها ضحكت تعجبا من حال الاضياف في امتناعهم من اكل الطعام مع أن ابراهيم وزوجته سارة يخدمانهم.

وثانيها - قال قتادة: ضحكت تعجبا من حال قوم لوط اتاهم العذاب وهم في غفلة.

وثالثها - قال وهب بن منية: انها ضحكت تعجبا من ان يكون لهما ولد، وقد هرما، فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير، كأنه قال فبشرناها باسحاق فضحكت بعد البشارة.

قوله " فبشرناها " يعني امرأة ابراهيم سارة باسحاق انها تلده ومن بعد اسحاق يعقوب من ولده فبشرت بنبي بين نبين، وهو اسحاق أبوه نبي وابنه نبي.

وقال الزجاج: انما ضحكت لانها كانت قالت لابراهيم اضمم لوطا ابن اخيك اليك فاني أعلم ان سينزل على هؤلاء القوم عذاب فضحكت سرورا لما تاتي الامر على ماتوهمت.
وقال ابن عباس والشعبي والزجاج يقال لولد الولد هذا ابني من ورائي هو ابن ابني.
قوله تعالى:

(قالت ياويلتي ألدوانا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب) (٧٢) آية بلا خلاف.
في هذه الآية اخبار عما قالت امرأة ابراهيم حين بشرت بانها تلد اسحاق وهو ان قالت ياويلتي. ومعنى ياويلتي الانذار بورود الامر الفطيع تقول العرب يا للدواهي اي تعالين فانه من ازمانك بحضور محضر من اشكالك. والف (يا ويلتي) يجوز ان يكون الف ندبة. ويحتمل ان يكون للاضافة انقلبت من الياء

(٣٣)

وكان هذا القول من امرأة ابراهيم على وجه التعجب بطبع البشرية، إذ ورد عليها ما لم تجربه العادة قبل ان تفكر في ذلك كما ولى موسى مدبرا حين انقلبت العصاحية حتى قيل له " أقبل ولا تخف " (١) وإلا هي كانت مؤمنة عارفة بأن الله تعالى يقدر على ذلك.
قال الرماني: والسبب في ان العجوز لا تلد أن الماء - الذي يخلق الله (عز وجل) منه الولد مع نطفة الرجل - قد انقطع بدلالة ارتفاع الحيض، فجعل الله الولد على تلك الحال معجزا لنبيه ابراهيم (ع).

وقال مجاهد: كان لابراهيم في ذلك مئة سنة ولها تسع وتسعون سنة.
وقال ابن اسحاق: كان لابراهيم مئة وعشرون سنة، ولسارة تسعون سنة.
والبعل الزوج، واصله القائم بالامر، فيقولون للنخل الذي يستغني بماء السماء عن سقي الانهار والعيون: بعل، لانه قائم بالامر في استغنائه عن تكلف السقي له، ومالك الشيء القيم بتدبيره: بعل، ومنه قوله تعالى " ادعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين " (٢).
و (شيوخا) نصب على الحال، والعامل فيه مافي هذا من معنى الاشارة أو التنبيه. وفي قراءة ابن مسعود بالرفع. ويحتمل الرفع في قوله سيبيويه والخليل أربعة أوجه، فيرفع (هذا) بالابتداء، و (بعلي) خبره، و (شيخ) خبر ثاني، كأنه قال هذا شيخ، ويجوز ان يكونا خبرين لهذا، كقولك هذا حلو حامض، ويجوز ان يكون (بعلي) بدلا من (هذا) وبيانا له و (شيخ) خبره.
وقوله " ان هذا لشيء عجيب " ان يكون الولد بين عجوزين شيخين شيء يتعجب منه.

(١) سورة القصص آية ٣١.

(٢) سورة الصافات آية ١٢٥.

(٣٤)

قوله تعالى:

(قالوا) أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد (٧٣) آية بلاخلاف.

في هذه الآية حكاية عما قالت الملائكة لامرأة ابراهيم، حين تعجبت من ان تلد بعدالكبر، فانهم قالوا لها " أتعجبين من أمر الله " وهذه الالف للاستفهام ومعناها ههنا التنبيه، وليست الف انكار، وانما هي تنبيه وتوقيف. والعجب يجري على المصدر وعلى المتعجب منه كقولك: هذا أمر عجب، ولايجوز العجب من أمر الله، لانه يجب ان يعلم انه قادرعلى كل شئ من الاجناس، لايعجزه شئ، وما عرف سببه لايعجب منه.

وقوله " رحمة الله وبركاته عليكم " يحتمل معنيين:

احدهما - الدعاء لهم بالرحمة والبركة.

الثاني - التذكير بنعمة الله وبركاته عليهم، والايخبار لهم بذلك وقوله " اهل البيت " يدل على ان زوجة الرجل تكون من أهل بيته في - قول الجبائي - وقال غيره إنما جعل سارة من أهل البيت لماكانت بنت، عمه على ماقاله المفسرون.

وقوله " انه حميد مجيد " معناه مستحمد إلى عباده. وقال ابوعلي: يحمد المؤمن من عباده، والمجيد الكريم - في قول الحسن - يقال: مجد الرجل يمجد مجدا اذا كرم قال الشاعر:
رفعت مجد تميم باهلل لها * رفع الطرف على العلياء بالعمد (١).

(١) لم اجده في محاضرتي من المصادر.

(٣٥)

قوله تعالى:

(فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) (٧٤) آية في الكوفي والمدني.

أخبر الله تعالى انه حين ذهب عن ابراهيم الروح، وهو الافزاع، يقال: راعه يروعه روعا اذا افزعه قال عنتره:

ماراعني الاحمولة اهلها * وسط الديار تسف حب الخمخ (١)

أي مافزعني، وارتاع وارتياعا اذا خاف. و (الروح) بضم الراء النفس، يقال ألقى في روعي، وهو موضع المخافة و " جاءته البشرى " يعنى بالولد " يجادلنا " وتقديره جعل يجادلنا، فجواب (لما) محذوف لدلالة الكلام عليه، لان (لما) تقتضيه، والفعل خلف منه. وقال الاخفش (يجادلنا) بمعنى جادلنا.

وقال الزجاج: يجوز ان يكون ذلك حكاية حال قد جرت، والا فالجيد ان تقول: لما قام قمت، ولما جاء جئت. ويضعف ان تقول: لما قام اقوم، والتقدير في الآية لماذا ذهب عن ابراهيم الروح وجاءته البشرى اقبل يجادلنا واخذ يجادلنا.

وقوله " يجادلنا " يحتمل معنيين احدهما يجادل رسلنا من الملائكة - في قول الحسن - الثاني - يسألنا في قوم لوط. والمعنى انه سأل الله، إلا انه استغني بلفظ (يجادلنا) لانه حرص في السؤال حرص المجادل.

وقيل في مابه جادل ثلاثة اقوال:

احدها - قال الحسن: انه جادل الملائكة بأن قال لهم: " ان فيها لوطا " (٢)
كيف تهلكونهم، فقالت له الملائكة " نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله " (٣).

(١) ديوانه (دار بيروت): ١٧ والمعلقات العشر: ١٢٤ وتفسير الطبري ١٥: ٤٠١.
(٢، ٣) سورة العنكبوت آية ٣٢.

(٣٦)

الثاني - قال قتادة انه سألهم: أتعذبون خمسين من المؤمنين ان كانوا؟ قالوا:
لا، ثم نزل إلى عشرة فقالوا: لا.

الثالث - قال ابو علي: جادلهم ليعلم بأي شئ استحقوا عذاب الاستئصال وهل ذلك واقع بهم
لامحالة أم على سبيل الاخافة؟ ليرجعوا إلى الطاعة.
قوله تعالى:

(إن إبراهيم لحليم أواه منيب) (٧٥) آية في الكوفي والمدني وهذا آخر الآية مع الاولى في
البصري.

هذا إخبار من الله تعالى عن حال ابراهيم، وصفه بانه كان اوها. وقيل في معناه ثلاثة اقوال:
احدها - قال الحسن: الاواه الرحيم. وقال مجاهد هو الرجاء، وقال الفراء: هو كثير الدعاء.
وقال قوم: هو المتأوه. وقال قوم: هو الرجاء المتأوه خوفا من العقاب، ولمثل ذلك حصل له
الامان لتمكين الاسباب الصارفة عن العصيان. و (الحليم)

هو الذي يمهل صاحب الذنب، فلا يعاجله بالعقوبة.

وقيل: كان ابراهيم ذا احتمال لمن آذاه وخنى عليه لايتسرع إلى المكافأة، وان قوي عليه. والإنابة السكون عند الحال المزعجة عن المبادرة، وكذلك التأنى: التسكن عند الحال المزعجة من الغضب، ويوصف الله تعالى بأنه حلِيم من حيث لايعجل العصاة بالعقاب الذي يستحقونه لعلمه بمافي العجلة من صفة النقص.

و (المنيب) هو الراجع إلى الطاعة عندالحال الصارفة، ومنه قوله " وانيبوا إلى ربكم " (١) و التوبة الانابة، لانها رجوع إلى حال الطاعة، وكون ابراهيم منيبا.

(١) سورة الزمر آية ٥٤.

(٣٧)

إلى طاعة الله لايدل على انه كان عاصيا قبل ذلك، بل انه يفيد أنه كان يرجع إلى طاعته في المستقبل، وان كان على طاعته أيضا فيما مضى، وقال ابوعلي: كان يرجع إلى الله في جميع أموره ويتوكل عليه.

قوله تعالى:

(ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود (٧٦) آية. في هذه الآية حكاية ماقلت الملائكة لأبراهيم (ع) فانها نادته بأن قالت " يا ابراهيم اعرض عن هذا " القول. والاعراض الذهاب عن الشئ في جهة العرض، ويكون انصرافا عنه بالوجه والتفكر.

والاشارة بقوله " عن هذا إلى الجدل، وتقديره يا ابراهيم اعرض عن هذا الجدل في قوم لوط، لان العذاب نازل بهم لامحالة.

وقوله " جاء أمرربك " يحتمل أمرين: احدهما - جاء امره لنا بالعذاب.

والثاني - جاء اهلاكه لهم بما لامرد له.

وقوله " غير مردود " اي غير مدفوع، والرد اذهاب الشئ إلى حيث جاء منه، تقول رده يرده ردا، فهو راد والشئ مردود والردو الدفع واحد، ونقيضه الاخذ. والفرق بين الدفع والرد، ان الدفع قد يكون إلى جهة القدام والخلف، والرد لا يكون إلا إلى جهة الخلف.

قوله تعالى:

(ولما جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب) (٧٧) آية
بلاخلاف.

(٣٨)

في هذه الآية إخبار من الله تعالى أنه لما جاءت رسله لوطا سئ بهم، معناه ساءه مجيؤهم، وأصله سؤى بهم فنقلت حركة الواو إلى السين، وقلبت همزة، والضمير في " بهم) عائد إلى الرسل، ويجوز تخفيف الهمزة بإلقاء الحركة على ما قبلها، ومنهم من يثدد على الشذوذ. وقوله " وضاق بهم ذرعا " قال ابن عباس ساء بقومه " وضاق بهم ذرعا " أي باضيافه، وأنه لمارأى لهم من جمال الصورة، وقد دعوه إلى الضيافة، وقومه كانوا يسارعون إلى امثالهم بالفاحشه، فضاق بهم ذرعا، لهذه العلة.

والمعنى انه ضاق بهم ذرعه: ضاق بأمره ذرعا اذ لم يجد من المكروه مخلصا. وقوله " ضاق " بحفظهم من قومه ذرعه. حيث لم يجد سبيلا إلى حفظهم من فجار قومه. والفرق بين السوء والقبيح ان السوء ما يظهر مكروهه لصاحبه، والقبيح ما ليس للقادر عليه ان يفعله.

وقوله " وقال هذا يوم عصيب " حكاية ماقاله لوط في ذلك الوقت بأن هذا يوم شديد الشر، لان العصيب الشديد في الشر خاصة، كأنه التف على الناس بالشر اويكون التف شره بعضه على بعض يقال يوم عصيب، قال عدي بن زيد:

وكننت لزاز قومك لم اعر د * وقد سلوكوك في يوم عصيب (١)
وقال الراجز:

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٤٠٩ والاعاني (دار الثقافة) ٢ : ٩٣ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ وقد روى (خصمك) بدل (قومك) والبيت من قصيدة قالها وهو في حبس النعمان بن المنذر. و (الزاز) هو شدة الخصومة. ومعنى (لم اعر د) لم احجم، ولم اتكص.

(٣٩)

يوم عصيب يعصب الابطالا * عصب القوي السلم الطوالا (١)
وقال آخر:

فانك إلا لا ترض بكر بن وائل * يكن لك يوم بالعراق عصيب (٢)
وقال كعب بن جعيل:

ويلبون بالحضيض قيام * عارفات منه بيوم عصيب (٣)
قوله تعالى:

(وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد) (٧٨).
اخبر الله تعالى عن قوم لوط أنهم حين أحسوا بمن نزل بلوط، وظنوهم أضيافه.

جاءوا لوطاً " يهرعون " أي يسرعون، والاسراع: الاهراع في الشيء - في قول مجاهد، وقتادة، والسدي - وانما أهرعوا لطلب الفاحشة، لما علمتهم عجوز السوء: امرأة لوط بمكان الاضياف، فقالت ما رأيت احسن وجوهاً، ولاطيب ريحاً، ولا انطق لساناً وثنايا منهم. وقال الشاعر:

بمعجلات نحوه مهارع (٤)

(١) تفسير الطبري ١٥ : ١٠٤ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ وروح المعاني ١٢ : ٩٥ ولم يعرف قائله.

(٢) تفسير الطبري ١٥ : ١٠٤ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤.

(٣) تفسير الطبري ١٥ : ١٠٤ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ وروايته (فنام).

(٤) تفسير الطبري ١٥ : ١٢٤ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤.

(٤٠)

وقال مهلهل:

فجاءوا يهرعون وهم أسارى * نقودهم على رغم الانوف (١)

وقوله " ومن قبل كانوا يعملون السيئات " وهي اتيان الذكور في الادبار، ومعناه انهم كانوا قبل هذا المجيء يعملون ذلك. قيل من قبل ألفوا الفاحشة، فجاهروا بها، ولم يستحيوا منها.

وقوله " قال يا قوم " يعني لوطاً لما رآهم هموا باضيافه عرض عليهم النكاح المباح، وأشار إلى نساء فقال " هؤلاء بناتي هن اطهر لكم " قال قتادة، كن بناته لصلبه. وقال مجاهد كن بنات امته فكن كالبنيات له، فان كل نبي ابو امته وأزواجه امهاتهم وهو أب لهم.

وقوله " فاتقوا الله " امر من لوط لهم بتقوى معاصي الله وأن لايفضحوه في أضيافه. وقوله " أليس منكم رجل رشيد " خرج مخرج الانكار عليهم وان كان لفظه لفظ الاستفهام. والرشيد هو الذي يعمل بما يقتضيه عقله، لانه يدعو إلى الحق، ومنه الارشاد في الطرق، فقال: أما منكم من يدعو إلى الحق ويعمل به.

ونقيض الرشيد الغي.

ولا يجوز نصب (أطهر) في - قول سيبويه واكثر النحويين - لان الفصل إنما يدخله مع الخبر ليؤذن بأنه معتمد الفائدة دون ما هو زائد في الفائدة، او على معنى الصفة، فلهذا لم يخبر في الحال. وأجمعوا على انه لايجوز (قدم زيد هو ابنك) الا بالرفع. ومن اجاز فانما يجيزه مع المبهم من (هذا) ونحوه تشبيهاً بخبر (كان). وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو بالنصب.

وقيل في وجه عرض المسلمة على الكفار قولان:

قال الحسن: ان ذلك كان جائزاً في شرع لوط، وفي صدر الاسلام أيضاً،

(١) اللسان (هرع) وتفسير الطبري ١٥: ٤١٢ وتفسير روح المعاني ١٢: ٩٥، وغيرها.

(٤١)

ولذلك زوج النبي صلى الله عليه وسلم بنته بابي العاص قبل أن يسلم. ثم نسخ بقوله " ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا " (١).

والثاني - قال الزجاج إن ذلك عرض بشرط ان يؤمنوا، على ما هو شرط النكاح الصحيح. والضيف يقع على الواحد والاثنين والجماعة.

قوله تعالى:

(قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد) (٧٩) آية بلا خلاف.

هذا حكاية مأجاب به قوم لوط حين عرض عليهم بناته ونهاهم عن الفواحش، ودعاهم إلى النكاح المباح، بأن قالوا: " مالنا في بناتك من حق " وقيل في معناه قولان:

قال ابن اسحاق والجبائي: معناه انهن لسن لنا بازواج.

والآخر - اننا ليس لنا في بناتك من حاجة، فجعلوا تناول ما ليس لهم فيه حاجة بمنزلة ما لا حق لهم فيه. فمن قال بالاول رده على ظاهر اللفظ. ومن قال بالثاني حمله على المعنى. وقوله "

وانك لتعلم ما نريد " تمام حكاية ما قالوه للوط، كأنهم قالوا له انك تعلم مرادنا من اتيان الذكران دون الاناث.

قوله تعالى:

(قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد) (٨٠)

آية بلاخلاف.

هذه حكاية ما قال لوط عند أياسه من قبول قومه، بأنه قال " لو ان لي بكم قوة "

(١) سورة البقرة آية ٢٢١.

(٤٢)

ومعناه اني لو قدرت على دفعكم وقويت على منعكم من اضيافي لحتت بينكم وبين ما جئتم له من الفساد، وحذف لدلالة الكلام عليه.

وقوله " او آوي إلى ركن شديد " معناه لو كان لي من استعين به في دفاعكم.

وقيل معناه لو كان لي عشيرة، قال الراجز:

يأوي إلى ركن من الاركان * في عدد طيس ومجد بان (١)

والركن معتمد البناء بعد الاساس، وركنا الجبل جانبا. وإنما قال هذا القول مع انه كان يَأوي إلى الله تعالى، لانه انما أراد العدة من الرجال، وإلا، فله ركن وثيق من معونة الله ونصره، إلا انه لا يصح التكليف إلا مع التمكين.

والقوة القدرة التي يصح بها الفعل، ويقال للعدة من السلاح قوة، كقوله " واعدوا لهم ما استطعتم من قوة " (٢) والشدة بجمع يصعب معه التفكك، وقد يكون بعقد يصعب معه التحل. قوله تعالى:

(قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبيها ماأصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) (٨١) آية بلاخلاف.

القراءة والحجة:

قرأ أهل الحجاز (فاسر) بوصل الهمزة من سرية. الباقر بقطعها. وقرأ ابن كثير وابوعمر " إلا امرأتك " بالرفع. الباقر بالنصب.

(١) مجاز القرآن ١: ٢٩٤ وتفسير الطبري ١٥: ٤٢٢ ومعنى (عدد طيس) عدد كثير.

(٢) سورة الانفال آية ٦١.

(٤٣)

فحجة من قرأ بقطع الهمزة قوله تعالى " سبحان الذي أسرى بعبده " (١) ومن وصل الهمزة فالمعنى واحد.

اللغة والمعنى:

يقال اسرى يسرى وسرى يسرى، فهو سار لغتان بمعنى واحد. والاسراء:

سير الليل قال امرؤ القيس:

سريت بهم حتى تكل مطيهم * وحتى الجياد مايقدن بارسان (٢)

وقال النابغة:

اسرت عليه من الجوزاء سارية * تزجي الشمال عليه جامد البرد (٣)

اخبر الله تعالى عما قالت الملائكة رسله للوط حين رأته كئيبا بسببهم " انا رسل ربك " بعثنا الله لا هلاك قومك، فلا تغتم، فانهم لاينالونك بسوء (فاسر باهلك " اي امض ومعك اهلك بالليل.

وقوله " بقطع من الليل " والقطع القطعة العظيمة تمضي من الليل. وقال ابن عباس: طائفة من الليل. وقيل هو نصف الليل كأنه قطع نصفين، ذكره الجبائي وقيل معناه في ظلمة الليل.

وقوله " ولايلتفت منكم احد " قيل في معناه قولان:
احدهما - قال مجاهد لاينظر احد وراءه، كأنهم تعبدوا بذلك للنجاة بالطاعة في هذه العبادة.
والآخر - قال أبو علي لايلتفت منكم احد إلى ماله ولامتاعه بالمدينة، وليس

(١) سورة الاسرى آية ١.

(٢) ديوانه: ٢١٠ وروايته (مطوت) بدل (سريت) والمعنى واحد لان المطو: هو امتداد السير. و (مطيهم) مايركبونه
من خيل او جمال. والارسان هي الحبال التي يقودون الخيل بها.

(٣) ديوانه ٣١ ومجمع البيان ٣: ١٨٢.

(٤٤)

المعنى لايلتفت من الرؤية، كأنه أراد ان في الرؤية عبرة، فلم ينهوا عنها وانما نهوا عما
يفترهم عن الجد في الخروج من المدينة.

ومن رفع (امراتك) جعله بدلا من قوله " ولايلتفت منكم احد " ومن نصبه جعله استثناء من
قوله " فأسر بأهلك " كأنه قلا فأسر بأهلك إلا امرأتك، وزعموا ان في مصحف عبدالله وأبي "
فاسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك "، وليس فيه " ولايلتفت منكم احد " وجاز النصب على
ضعفه. والرفع الوجه. وقيل ان لوطا لما عرف الملائكة اذن لقومه في الدخول إلى منزله،
فلما دخلوه طمس جبرائيل (ع) اعينهم فعميت - هكذا ذكره قتادة - وعلى أيديهم، فجفت حكاة
الجبائي.

وقوله " ان موعدهم الصبح اليس الصبح بقريب " معناه ان موعد اهلاكهم عندالصبح. وإنما
قال " اليس الصبح بقريب، لانه لما اقتضى عظيم ماقصدوا له - من الفحش - إهلاكهم، فقالت
الملائكة هذا القول تسلية له.

وقيل انه قال لهم اهلكوهم الساعة، فقالت الملائكة له ان وقت اهلاكهم الصبح " اليس الصبح
بقريب ".

قوله تعالى:

(فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل * منضود (٨٢) مسومة
عند ربك وماهي من الظالمين ببيعد) (٨٣) آيتان تمام الآية الاولى في المدني قوله " سجيل "
وعند الباقرين قوله " منضود ".

قيل في قوله " فلما جاء امرنا " ثلاثة أقوال.

احدها - جاء امرنا الملائكة باهلاك قوم لوط.

(٤٥)

الثاني - جاء امرنا يعني العذاب، كأنه قيل (كن) على التعظيم وطريق المجاز، كما قال الشاعر:

فقلت له العينان سمعا وطاعة * وحدرتا كالدر لما يثقب (١)

والثالث - ان يكون الامر نفس الاهلاك، كما يقال: لامر ما، أي لشيء ما وقال الرماني: انما قال أمرنا بالاضافة ولم يجز مثله في شيء، لان في الامر معنى التعظيم، فمن ذلك الامر خلاف النهي، ومن ذلك الامارة، والتأمر.

وقوله " جعلنا عاليها سافلها " معناه قلبنا القرية أسفلها أعلاها " وامطرنا عليها " يعني أرسلنا على القرية حجارة بدل المطر حتى أهلكتهم عن آخرهم. والامطار إحدار المطر من السماء.

وقوله " من سجيل " قيل في معنى سجيل ثمانية أقوال:

أحدها - انها حجارة صلبة ليست من جنس حجارة الثلج والبرد. وقيل هو فارسي معرب (سنل، وكل) ذكره ابن عباس وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير.

والثاني - قال الفراء من طين قد طبخ حتى صار بمنزلة الأجر، ويقويه قوله " لنرسل عليهم حجارة من طين " (٢). وقال ابو عبيدة انها شديدة من الحجارة وانشد لابن مقبل:

ضربا توأسى به الابطال سجيناً " (٣)

إلا ان النون قبلت لاما.

الثالث - من مثل السجيل في الارسال، والسجيل الدلو، وقال الفضل ابن العباس:

من يساجلني يساجل ماجدا * يملا الدلو إلى عقد الكرب (٤)

(١) مرتخيه في ١: ٤٣١ وهو في مجمع البيان ٣. ١٨٥.

(٢) سورة الذاريات آية ٣٣.

(٣) مجمع البيان ٣. ١٨٣ ومجاز القرآن ١. ٢٩٦ واللسان (سجل)، (سجن) وتفسير الطبري ١٥. ٤٣٤.

(٤) تفسير الطبري ١٥. ٤٣٥.

(٤٦)

الرابع - من اسجلته اذا أرسلته، فكأنه مثل ما يرسل في سرعة الارسال.

الخامس - من اسجلته اذا اعطيته، فتقديره مرسل من العطية في الادرار.

السادس - من السجل وهو الكتاب، فتقديره من مكتوب الحجارة، ومنه قوله " كلا ان كتاب

الفجار لفي سجين وما دراك ماسجين كتاب مرقوم " (١)

وهي حجارة كتب الله ان يعذبهم بها، اختاره الزجاج.

السابع - من سجين اي من جهنم ثم ابتدلت النون لاما.
الثامن - قال ابن زيد من السماء الدنيا، وهي تسمى سجيلا.
ومعنى " منضود " قيل فيه قولان:
احدهما - قال الربيع نضد بعضه على بعض حتى صار حجرا، وقال قتادة مصفوف في
تتابع، وهو من صفة سجيل، فلذلك جره.
وقوله " مسومة " يعنى معلمة، وذلك انه جعل فيها علامات تدل على انها معدة للعذاب،
فاهلكوا بها، قال قتادة: كانوا أربعة آلاف الف. وقيل:
كانت مخططة بسواد وحمزة ذكره الفراء فتلک تعليمها، ونصب (مسومة) على الحال من
الحجارة.
وقوله " عند ربك " معناه في خزائنه التي لا يتصرف في شئ منها إلا باذنه، فاذا أمر الملك ان
يمطرها على قوم فعل ذلك باذنه. واصل المسومة من السيماء، وهي العلامة، وذلك ان الابل
السائمة تختلط في المرعي، فيجعل عليها السيماء لتمييزها.
وقوله " وماهي من الظالمين ببعيد " قيل في معناه قولان:
احدهما - ان مثل ذلك ليس ببعيد من ظالمي قومك يا محمد اراد به اذهاب قريش، وقال
ابوعلي ذلك لا يكون إلا في زمان نبي أو عند القيامة، لانه معجز.
والثاني - قال " وماهي من الظالمين ببعيد " يعنى من قوم لوط انها لم تكن تخطيهم. وقال
مجاهد: إن جبرائيل (ع) ادخل جناحه تحت الارض السفلى من قوم

(١) سورة المطففين آية ٧ - ٩

(٤٧)

لوط ثم أخذهم بالجناح، الايمن فاخذهم مع سرحهم ومواشيهم. ثم رفعها إلى سماء الدنيا حتى
سمع اهل السماء نباح كلابهم. ثم قلبها، فكان اول ماسقط منها شرافها، فذلك قول الله تعالى "
فجعلنا عاليها سافلها " قال السدي وهو قوله " والمؤتفة اهوى " (١) وإنما أمطر الله عليهم
الحجارة بعد أن قبلت قريتهم تغليظا للعذاب وتعظيما له، وقيل قتل بها من كان بقي حيا،
وقرية قوم لوط يقال لها:
سدوم، بين المدينة والشام. وقيل ان ابراهيم (ع) كان يشرف عليها فيقول:
سدوم يوم مالك.
قوله تعالى:

(وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تتقصوا المكيال والميزان
إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط) (٨٤) آية بلاخلاف.
أخبر الله تعالى انه أرسل شعيبا - أخامدين - اليهم نبيا، وانما سمي شعيبا أخاهم، لانه كان
من نسيبهم. وقيل: انهم من ولد مدين بن ابراهيم. وقيل ان مدين اسم القبيلة او المدينة التي
كانوا فيها - في قول الزجاج - فعلى هذا يكون التقدير، والى أهل مدين أخاهم كما قال "
واسأل القرية، فقال لهم شعيب:
يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، فانه ليس لكم إله يستحق العبادة سواه، ونهاهم ان يبخسوا
الناس فيما يكيلوا به لهم ويزينونه لهم، وقال لهم إني أراكم بخير، يعني برخص السعر،
وحذرهم الغلاء - في قول ابن عباس والحسن - وقال قتادة وابن زيد: اراد بالخير زينة الدنيا
والمال. وقال لهم " إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط " يعني يوم القيامة، لانه يحيط عذابه
بجميع الكفار في قول الجبائي، فوصف اليوم بالاحاطة، وهو من نعت العذاب في الحقيقة، لان
اليوم

(١) سورة النجم آية ٥٣.

(٤٨)

محيط بعذابه بدلا من إحاطته بنعيمه، وذلك أظهر في الوصف وأهول في النفس.
والنقصان اخذ الشئ عن المقدار والزيادة ضم الشئ إلى المقدار، وكله خروج عن المقدار أو
نقصه عنه. والوزن تعديل الشئ بغيره في الخفة والنقل بألة التعديل، وإذا قيل شعر موزون
معناه معدل بالعروض.

قوله تعالى:

(ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض
مفسدين) (٨٥) آية بلاخلاف.

وهذا أيضا حكاية ما قال شعيب لقومه، وإنه امرهم ان يوفوا المكيال والميزان بالقسط يعني
بالعدل والسوية، " ولا تبخسوا الناس اشياءهم " أي لا تتقصوهم " ولا تعثوا في الارض مفسدين
" أي لا تضطربوا بالقبيح.

اللغة:

يقال عثى يعثى عثاء، وعات يعيث عيثا، بمعني واحد، والوفاء تمام الحق.
والوفاء به إتمامه يقال: وفي يفي وأوفى لغتان، ونقيض الوفاء البخس. والفرق بين البخس
والظلم أن الظلم أعم، لان البخس نقصان الحق اللازم، وقد يكون الظلم بالام بغير حق.

قوله تعالى:

(بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنون * وما أنا عليكم بحفيظ) (٨٦) آية.

البقية تركه شئ من شئ قد مضى، والمعنى بقية الله من نعمه. وقيل "بقية الله" طاعة الله - في قول الحسن ومجاهد - لأنه يبقى ثوابها أبداً، وكانت هذه البقية خيراً من تعجيلهم النفع بالبخس في المكيال والميزان، وإنما شرط أنه خير بالإيمان في قوله "إن كنتم مؤمنين" وهو خير على كل حال، لأنهم إن كانوا مؤمنين بالله

(٤٩)

عرفوا صحته. ووجه آخر - إن المراد "إن كنتم مؤمنين" فهو ثابت. وقوله "وما أنا عليكم بحفيظ" معناه ههنا إن هذه النعمة التي انعمها الله عليكم لست أقدر على حفظها عليكم وإنما يحفظها الله عليكم. إذا اطعمتموه، فإن عصيتموه أزالها عنكم. وقال قوم "وما أنا عليكم بحفيظ" احفظ عليكم كيحكم ووزنكم حتى توفوا الناس حقوقهم، ولا تظلموهم، وإنما علي إن أنها كم عنه.

قوله تعالى:

(قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد) (٨٧) آية بلاخلاف.

قرأ أهل الكوفة إلا أبابكر "أصلاتك" على التوحيد. الباقر على الجمع.

هذا حكاية ما قال قوم شعيب له (ع) حين نهاهم عن بخس المكيال والميزان وأمرهم بإيفاء الحقوق "يا شعيب أصلاتك تأمرك" بهذا، قال الحسن وأرادوا بالصلاة الدين أي دينك. وقال الجبائي يريدون ما كانوا يرونه من صلته لله وعبادته إياه، وإنما أضاف ذلك إلى الصلاة، لأنها بمنزلة الأمر بالخير، والتناهي عن المنكر، وقيل أدينك، على ما حكيناها عن الحسن. وقوله "إن نترك ما يعبد آباؤنا" كرهوا الانتقال عن دين آباءهم ودخلت عليهم شبهة بذلك، لأنهم كانوا يعظمون آباءهم وينزهونهم عن الغلط في الأمر، فقالوا لولم يكن صواباً ما فعلوه، وإن خفي عنا وجهه. وقوله "إنك لانت الحليم الرشيد" قيل في معناه قولان:

تفسير التبيان ج ٦ - م ٤

(٥٠)

أحدهما - أنهم قالوا ذلك على وجه الاستهزاء - في قول الحسن وابن جريج وابن زيد. والآخر - أنهم أرادوا "أنت الحليم الرشيد" عند قومك، فلا يليق هذا الأمر بك، وقال المؤرج

" الحليم الرشيد " معناه الاحمق السفيه، بلغة هذيل، والحليم الذي لايعاجل مستحق العقوبة بها،
والرشيد المرشد.

قال الزجاج " او ان نفعل " موضع (أن) نصب والمعنى او تأمرك ان نترك او ان نفعل في
اموالنا مانشاء، والمعنى إنا قد تراضينا بالبخس فيما بيننا. وقال الفراء: معناه اتمرر ان نترك
ان نفعل في اموالنا مانشاء، ف (ان) مردودة على نترك. ووجه آخر، وهو ان يجعل الامر
كالنهي، كأنه قال أصلاتك تأمرك بذا أو تنهانا عن ذا، فهي حينئذ مردودة على (ان) الاولى
ولااضمار فيه، كأنك قلت تنهانا ان نفعل في اموالنا مانشاء، كما تقول اضربك ان تسيء، كأنه
قال انهاك بالضرب عن الاساءة. ويقرأ " ان نفعل في اموالنا مانشاء ". والذي نقوله ان قوله "
ان نفعل " ليس بمعطوف على (ان) الاولى، وانما هو معطوف على (ما) وتقديره فعل مانشاء
في اموالنا، وليس المعنى اصلاتك تأمرك ان نفعل في اموالنا مانشاء، لانه ليس بذلك امرهم.
و " الرشيد " معناه رشيد الامر، في امره إياهم ان يتركوا عبادة الاوثان.
وقيل ان قوم شعيب عذبوا في قطع الدراهم وكسرها وحذفها.
قوله تعالى:

(قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى
ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وماتوفايقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)
(١٨) آية بلاخلاف.

(٥١)

جواب (أن) في الآية محذوف، والتقدير يا قوم إن كنت على حجة ودلالة من ربي، ومع ذلك
رزقني منه رزقا حسنا، وانما وصفه بأنه حسن مع ان جميع رزق الله حسن لأميرين:
احدهما - انه اراد ب (حسنا) حسن موقعه لجلالته وعظمته.
والثاني - انه اراد ما هو عليه على وجه التأكيد. وقيل إن الرزق الحسن ههنا النبوة. وقال
البلخي معناه الهدى والايمان، لانهما لا يوصل اليهما إلا بدعائه وبيانه ومعونته ولطفه،
وتريدون أن أعدل عما انا عليه من عبادته مع هذه الحال الداعية اليها؟، وانما حذف لدلالة
الكلام عليه، والرزق عطاء الخير الجاري في حكم المعطي، والعطية الواصلة من الانسان
رزق من الله. وصلة من الانسان، لادرار الخير على العبد في حكمه.
وقوله " وما أريد ان اخالفكم إلى ما انهاكم عنه ". قيل في معناه قولان:
احدهما - ليس نهيي لكم لمنفعة اجرها إلى نفسي بما تتركون من منع الحقوق.
والثاني - أنا لا انهي عن القبيح وافعله مثل من ليس بمستبصر في امره، كما قال الشاعر:
لاتنه عن خلق وتاتي مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم (١)

وقوله " ان أريد الا الاصلاح " معناه لست أريد بما أمركم به وانهاكم عنه الا اصلاح حالكم ما قدرت عليه.

وقوله " وماتوفيقى الا بالله " والتوفيق عبارة عن اللطف الذي تقع عنده الطاعة وذلك بحسب ما يعلم الله تعالى. وانما لم يكن الموفق للطاعة الا الله، لان احدا لا يعلم ما يتفق عنده الطاعة - من غير تعليم - سواه تعالى.

وقوله " عليه توكلت " معناه على الله توكلت وفوضت أمري اليه على وجه الرضا بتدبيره مع التمسك بطاعته " واليه أنيب " قيل في معناه قولان:

(١) مر هذا البيت في ١: ١٩١ و ٢: ١٩٣ و ٣: ٤ و ٥: ١٢٥.

(٥٢)

احدهما - قال مجاهد: اليه ارجع. والثاني - قال الحسن: اليه ارجع بعلمي وبنيتي اي اعمل اعمالى لوجه الله. قوله تعالى:

(ويا قوم لا يجر منكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) (٨٩) آية بلاخلاف. هذا حكاية ما قال شعيب لقومه حين لم يقبلوا أمره ونهيه " يا قوم لا يجر منكم " وقيل في معناه قولان:

احدهما - قال الحسن وقتادة لا يحملنكم.

والثاني - قال: الزجاج معناه لا يكسبنكم، كانه قال لا يقطعنكم اليه بحملكم عليه.

والشقاق والمشاققة المباحدة بالعداوة إلى جانب المباينة، وشقها. وكان سبب هذه العداوة دعائه لهم إلى مخالفة الآباء والاجداد في عبادة الاوثان. وما ينقل عليهم من الأيفاء في الكيل والميزان.

وقوله " ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح " قيل اهلك الله قوم نوح بالغرق، وقوم هود بالريح العقيم، وقوم صالح بالرجفة، وقوم لوط بالانتفak، فحذرهم شعيب ان يصيبهم مثل ذلك.

وقوله " وما قوم لوط منكم ببعيد " قيل في معناه قولان:

احدهما - قريب منكم في الزمان الذي بينهم وبينكم، في قول قتادة.

والاخر - ان دارهم قريبة من دارهم فيجب ان يتعظوا بهم.

قوله تعالى:

(واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم)

(٥٣)

(ودود) (٩٠) آية بلاخلاف.

في هذه الآية حكاية ما قال شعيب أيضا لقومه بعد تحذيره اياهم عذاب الله وحثهم على ان يطلبوا مغفرة الله. ثم يرجعوا إلى طاعته، واخبرهم ان الله رحيم بعباده، يقبل توبتهم ويعفو عن معاصيهم، ودود بهم أي محب لهم، ومعناه مريد لمنافعهم.

وقيل في معنى " استغفروا ربكم ثم توبوا إليه " قولان:

احدهما اطلبوا المغفرة من الله بأن يكون غرضكم. ثم توصلوا اليها بالتوبة.

الثاني - استغفروا ربكم ثم اقيموا على التوبة.

ووجه ثالث - ان معناه استغفروا ربكم على معاصيكم الماضية. ثم ارجعوا اليه بالطاعات في المستقبل.

والمودة على ضربين: احدهما - بمعنى المحبة، تقول وددت الرجل اذا احببته، والثاني - وددت الشيء اذا تمنيته أود فيهما مودة وانا واد، والودود المحب لاغير.
قوله تعالى:

(قالوا يا شعيب مانفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت

علينا بعزير) (٩١)

آية بلاخلاف.

في هذه الآية حكاية ما اجاب به قوم شعيب له (ع) فقالوا له حين سمعوا منه الوعظ والتخويف: لسنا نفقه أي لسنا نفهم عنك معنى كلامك، والفقة: فهم الكلام على ماتضمن من المعنى، وقد صار علما لضرب من علوم الدين، فصار الفقة عبارة عن علم مدلول الدلائل السمعية، واصول الدين علم مدلول الدلائل العقلية.

(٥٤)

وقوله " وانا لنراك فينا ضعيفا " قيل في معناه اربعة اقوال: قال الحسن:

معناه مهينا، وقال سفيان: معناه ضعيف البصر، وقال سعيد بن جبير وقتادة:

كان اعمى. قال الزجاج ويسمى الاعمى بلغة حمير ضعيفا.

وقال الجبائي معناه: ضعيف البدن.

وقوله " ولولا رهطك " فالرهط عشيرة الرجل وقومه، واصله الشد، والترهط شدة الاكل، ومنه

الرهطاء حجر اليربوع لشدته وتوثيقه ليخبئ فيه ولده.

وقوله " لرجمناك " فالرجم الرمي بالحجارة، والمعنى لرميناك بالحجارة.
وقيل معناه لسبيناك " ومانت علينا بعزير " اي علينا لست بمتع،
فلانقدر عليك بالرجم، ولا أنت بكريم علينا، وانما تمتع لمكان عشيرتك. وعشيرته كانوا على
دينه.

قوله تعالى:

(قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط)
(٩٢) آية.

هذا حكاية ماقال شعيب لقومه حين قالوا " لولا رهطك لرجمناك " يا قوم اعشيرتي وقومي أعز
عليكم من الله. والاعز الاقوى الامنع. والاعز نقيض الازل، والعزة نقيض الذلة والعزير
نقيض الدليل.

وقوله " واتخذتموه وراءكم ظهريا " فالاتخاذ اخذ الشئ لامر يستمر في المستأنف كاتخاذ
البيت واتخاذ المركوب، والظهري جعل الشئ وراء الظهر قال الشاعر:
وجدنا نبي البرصاء من ولد الظهر (١)

(١) قائله ارطاة ابن سيهته، انظر نسبه في الاغاني ١٣ : ٢٧ (دار الثقافة). والبيت في اللسان (ظهر) ومجاز القرآن
٣٩٨ : ١ وتفسير الطبري (دار المعارف) ١٥ : ٥٩ وصدده:
فمن مبلغ ابناء مرة أننا..

(٥٥)

وقال آخر:

تميم بن قيس لاتكونن حاجتي * بظهر ولايعيا علي جوابها (١)
وقيل فيما تعود الهاء اليه من قوله " اتخذتموه " ثلاثة اقوال: فقال ابن عباس والحسن: انها
عائدة على الله. وقال مجاهد: هي عائدة على ماجاء به شعيب.
وقال: الزجاج: هي عائدة على أمر الله.
وقوله " ان ربي بما تعملون محيط " قيل في معناه ههنا قولان:
احدهما - انه محص لاعمالكم لايفوته شئ منها.
الثاني - انه خبير باعمال العباد ليجازيهم بها - ذكره الحسن - قال سفيان كان شعيب خطيب
الانبياء.

قوله تعالى:

(وياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون (٩٣)

من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب) (٩٤) آيتان.
فقال لهم شعيب ايضا " يا قوم اعملوا على مكانتكم " والمكانة الحال التي يتمكن بها صاحبها من
عمل ما، فقال لهم قد مكنتم في الدنيا من العمل، كما مكن غيركم ممن عمل بطاعة الله،
وسترون منزلتكم من منزلته. وهذا الخطاب وإن كان ظاهره ظاهر الامر فالمراد به التهديد،
وتقديره كأنكم انما أمرتم بأن تكونوا على هذه الحال من الكفر والعصيان. وفي هذا نهاية
الخزي والهوان.

وقوله " سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه " معناه انكم تعلمون في المستقبل

(١) قائله الفرزدق ديوانه ١ : ٩٥ وقد مر في ٣ : ٧٤ وهو في اللسان (ظهر) ورواية الديوان (زيد لاتهونن) بدل
(قيس لاتكونن).

(٥٦)

من يحل به العذاب الذي يخزيه اي يفضحه ويذله، وهو أشد من العذاب الذي لايفضح " ومن
هو كاذب " وتعرفون من هو الكاذب مني ومنكم.

وقوله " وارتقبوا " معناه انتظروا ما وعدتكم به من العذاب، يقال رقبه يرقبه رقوبا وارتقبه
ارتقبا وترقبه ترقبا " اني معكم رقيب " اي منتظر لنزول ذلك بكم. وموضع " من يأتيه " ان
جعلت (من) بمعنى الذي نصب، وقوله " ومن هو كاذب " عطف عليه، وان جعلتها للاستفهام
كان موضعها الرفع، ذكره الفراء وادخلوا (هو) في قوله " ومن هو " لانهم لايقولون: من
قائم؟ ولا من قاعد؟، وانما يقولون: من قام؟ ومن يقوم؟ أو من القائم؟ فلما لم يقولوا إلا
المعرفة او يفعل، ادخلوا (هو) مع قائم، ليكونا جميعا في مقام (فعل، ويفعل) لانهما يقومان
مقام اثنين، وقد ورد في الشعر من قائم؟ قال الشاعر:

من شارب مريح بالكأس نادمني * لا بالحصور ولافيها بسئوار (١)

قال الفراء: وربما خفضوا بعدها، فيقولون: من رجل يتصدق علي؟ بتأويل هل من رجل؟ قوله
تعالى:

(ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة
فأصبحوا في ديارهم جاثمين) (٩٥)

آية بلاخلاف.

اخبار الله تعالى انه " لما جاء أمر " الله باهلاك قوم شعيب، وقد بينا معناه فيما مضى (٢) "
نجينا شعيبا " اي خلصناه، ونجينا معه من كان مؤمنا من قومه برحمة

(١) قائله الاخطل ديوانه ١٠٧ واللسان (سور) وروايته: (وشارب مرج)

(٢) في ٤: ٤٦٢ - ٥٠٤.

(٥٧)

من جهته تعالى، ويجوز ان يكون في نجاته شعيب، ومن آمن معه لطف لمن سمع بأخبارهم فيؤمن، كما انه متى كان في نجاته الظالمين لطف وجب تخليصهم، وكذلك ان كان المعلوم من حال الكافر انه يؤمن فيما بعد وجب تبييته - عند أبي علي ومن وافقه - وعند قوم آخرين لا يجب.

وقوله " وأخذت الذين ظلموا الصيحة " انث الفعل ههنا لانه رده إلى الصيحة، وفيما قبل (١) ذكر، لانه رده إلى الصياح.

وقوله " فاصبحوا في ديارهم جائمين " قال الجبائي: معناه منكبين على وجوههم.

وقال قوم: الجنو على الركب. وقال قوم: معناه خامدين موتى. قال البلخي يجوز ان تكون الصيحة صيحة على الحقيقة، كما روي ان الله تعالى امر جبرائيل فصاح بهم صيحة ماتوا كلهم من شدتها، ويجوز ان يكون ضربا من العذاب اهلكهم واصطلمهم تقول العرب: صاح الزمان بال فلان إذا هلكوا. قال امرؤ القيس:

دع عنك نهبا صيح في حجراته * ولكن حديث ما حديث الرواحل (٢)

(معنى صيح في حجراته) اي اهلك وذهب به.

قوله تعالى:

(كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) (٩٦) آية بلاخلاف.

شبه الله تعالى هلاك قوم شعيب وانقطاع آثارهم منها بحالهم لولم يكونوا فيها يقال: غنى بالمكان إذا اقام به على وجه الاستغناء به عن غيره. واتخاذه وطنا ومأوى يأوي اليه، ولذلك قيل للمنازل المغاني، وانما شبه حالهم بحال ثمود خاصة، لانهم اهلكوا بالصيحة كما اهلكت ثمود مثل ذلك مع الرجفة.

(١) آية ٦٧ من هذه السورة.

(٢) ديوانه: ١٧٤ واللسان (حجر).

(٥٨)

وقوله " ألا بعدا لمدين " دعاء عليهم بانتفاء الرحمة بعدا من الرحمة، لأنه أظهر فيما يتصور فكأنهم يرونها حسرة يرحمهم، وجعل انتفاء الرحمة بعدا من الرحمة، لأنه أظهر فيما يتصور فكأنهم يرونها حسرة لأنها لاتصل اليهم منها منفعة لما يحصلون عليه من مضرة الحسرة، و (كأن) هذه يحتمل ان تكون مخففة من الثقيلة على ان يضم فيها، كالأضمار في (ان) من قوله " وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين " (١) ويجوز ان تكون (ان) التي تنصب الفعل بمعنى المصدر. وبعدت وهما واحدا. وقرأ ابو عبد الرحمن السلمي كما بعدت بضم العين. والآخر بعدا فنصب على المصدر، وتقديره ألا أهلكهم الله فيعدوا بعدا.

قوله تعالى:

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٩٧) إلى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون ومأمر فرعون برشيد) (٩٨)

آيتان بلاخلاف.

اخبر الله تعالى واقسم انه ارسل موسى نبيا بالآيات، وهي الحجج والمعجزات الدالة على نبوته " وسلطان مبين " اي وحجة ظاهرة مخصصة من تلبس وتمويه، على اتم ما يمكن فيه. والسلطان والآيات إن كان معناهما الحجج، فأنا عطف احدهما على الاخرى، لاختلاف اللفظ، ولان معناهما مختلف، لان الآيات حجج من وجه الاعتبار العظيم بها، والسلطان من جهة القوة العظيمة على المبطل، وكل علم له حجة يقهر بها شبهة من نازعه من اهل الباطل تشبهه، فله سلطان. وقد قيل إن سلطان الحجة انفذ من سلطان المملكة، والسلطان متى كان محقا حجة

(١) سورة يونس آية. ١.

(٥٩)

وجب اتباعه، واذا كان بخلافة لايجب اتباعه.

وقال الزجاج. سمي السلطان سلطانا، لأنه حجة الله في ارضه، واشتقاقه من السليط وهو مما يستضاء به، ومن ذلك قيل للزيت السليط.

وقوله " إلى فرعون وملائه " معناه انه ارسل موسى إلى فرعون واشراف قومه الذين تما لا الصدور هيبتهم.

وقوله " فاتبعوا أمر فرعون " فالاتباع طلب الثاني للتصرف بتصرف الاول في اي جهة اخذ، ولامر هو قول القائل لمن دونه: (افعل). وفيه أخبار ان قوم فرعون اتبعوه على ماكان يأمرهم به. ثم اخبر تعالى ان أمر فرعون لم يكن رشيدا. والرشيده هو الذي يدعو إلى الخير ويهدي إليه فأمر فرعون بضد هذه الحال، لانه يدعو إلى الشر ويصد عن الخير. واستدل قوم بهذه الآية على ان لفظه الامر مشتركة بين القول والفعل، لانه قال " وماأمر فرعون برشيده " يعني وما فعل فرعون برشيده، وهذا ليس بصحيح، لانه يجوز ان يكون اراد بذلك الامر الذي هو القول، او يكون مجازا.

قوله تعالى:

(يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود) (٩٩) آية بلاخلاف.

هذا اخبار من الله تعالى ان فرعون يوم القيامة يقدم قومه، ومعناه يمشي على قدمه يقودهم إلى النار، ولو قال يسبق، لجاز ان يوجد الله (عزوجل) قبلهم في النار. والقيامة هو وقت قيام الناس من قبورهم للجزاء والحساب باعمالهم.

وقوله " فأوردهم النار " معناه اوجب ورودهم إلى النار، والايراد ايجاب الورد إلى الماء او ما يقوم مقامه. قال ابو علي: انما لم يقل يوردهم النار، لانه

(٦٠)

ذكر ليوم القيامة انه يقدمهم فيه، يدل على انه فعل مستقبل فأجرى الماضي مجرى المستقبل لدلالة الكلام عليه.

وقوله " وبئس الورد المورود " قال ابو علي: انه مجاز، والمعنى بئس وارد النار. وقال البلخي: بل هو حقيقة، لانه تعالى وصف النار بانها بئس الورد المورود، وهي كذلك. والورد الماء الذي ترده الابل، والورد الابل التي ترد الماء، والورد مايجعله عادة لقراءة أو تلاوة للقرآن. والورد ورد الحمى، كل ذلك بكسر الواو، وحكي عن ابن عباس ان الورد الدخول. والمعنى ان ما ورودوه من النار هو المورود بئس الورد لمن وردوه. ويقال إنهم اذا وردوه عطاشا فيردون على الحميم والنيران ولايزيدون بذلك إلا عذابا وعطشا. وانما وصف بأنه بئس، وان كان عدلا حسنا لما فيه من الشدة مجازا.

قوله تعالى:

(وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الررفد المرفود) (١٠٠) آية بلاخلاف.

معنى قوله " واتبعوا في هذه لعنة " ان الله لعنهم والملائكة والمؤمنون، فاختصر على وجه ماذكرنا على ما لم يسم فاعله، لان الايجاز لا يخل بهذا المعنى. واللعن من العباد الدعاء

والمسألة لله تعالى بالابعاد من الرحمة - في قولهم لعنة الله - والذم الوصف بالقبيح على وجه التحقير.

ومعنى الآية انهم كيف تصرفوا، وحيث كانوا، فاللعنة تتبعهم. واللعنة من الله الابعاد من رحمته بان يحكم بذلك، فمن لعنه الله فقد حكم بابعاده من رحمته و انه لايرحمه. وقوله " ويوم القيامة بنس الردف " والردف العون على الامر، وانما قيل

(٦١)

ههنا - ردف، لان اللعنة جعلت بدلا من الردف بالعطية، ويقال: ردفه وهو يرفده ردفاء، ورفد - بفتح الراء وكسرهما - قال الزجاج كل شئ جعلته عوناً لشيء واسندت به شيئاً فقد ردفته، يقال عهدت الحائط ورفدته بمعنى واحد، والردف القرع العظيم، وروي - بفتح الراء - في الآية وهي لغة شاذة.

قوله تعالى:

(ذلك من انباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد)

(١٠١) آية بلاخلاف.

قوله " ذلك " اشارة إلى النبأ كأنه قال النبأ من انباء القرى، وقد تقدم ذكره. ثم وقعت الاشارة اليه، والانباء جمع نبأ كالاخبار جمع خبر الا انه لايقال نبأ الا في خبر عظيم، يقال لهذا الامر نبأ اي خبر عظيم.

قوله " نقصه عليه " فالقصص الخبر عن الامور التي يتلو بعضها بعضا، يقال قص قصصا وهو يقص اثره اي يتبع اثره، واقتص منه اي يتبعه بجنايته.

وقوله " منها قائم وحصيد " فالقائم المعمور، والحصيد الخراب من تلك الديار، لان الاهلاك قد اتى عليها ولم تعمر فيها بعد. وقيل " منها قائم " على بنائه وان كان خاليا من اهله، والحصد قطع الزرع من الاصل، فالحصيد منهم كالزرع المحصود، وحصدهم بالسيف اذا قتلهم.

قوله تعالى:

(وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيذ) آية بلاخلاف.

(٦٢)

اخبر الله تعالى انه بما فعله بالامم التي أهلكتها لم يظلم احدا منهم، ولكن ظلموا هم انفسهم بأن ارتكبوا المعاصي التي استحقوا بها الهلاك فكان ذلك ظلمهم لانفسهم، وبين انه " ما أغنت عنهم آلهتهم " يعني الاوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله مادفعت عنهم ولا اعانتهم بشئ لما جاء

امر الله واهلاكه وعذابه " وما زادوهم غير تنبييـب " بمعنى غير تخسير - في قول مجاهد وقتادة - مأخوذ من تبت يده أي خسرت، ومنه تباله، وقال جرير:

عرادة من بقية قوم لوط * ألا تبا لما فعلوا تبابا (١)

وانما قال يدعون من دون الله، لانهم كانوا يسمونها آلهة ويطلبون الحوائج منها، كما يطلب الموحدون من الله. ومعنى " من دون الله " من منزلته ادنى من منزلة عبادة الله، لانه من الادون، وهو الاقرب إلى جهة السفلى.

قوله تعالى:

(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) (١٠٣) آية بلاخلاف.

وجه التشبيه في قوله " وكذلك اخذ ربك " ان اخذه الظالم الذي يساوي من تقدمه في ظلمه وحاله في بطلان الفلاح ببقائه، كأخذه الذي قبله، لانه ليس هناك محاباة لاحد من خلقه. والخذ نقل الشئ إلى جهة الآخذ، فلما نقلهم الله إلى جهة عقابه كان قد اخذهم به، والظالم الفاعل للظلم والعاقل للعدل.

ثم اخبر تعال ان اخذه للظالم مؤلم شديد، والشدة تجمع يصعب معه التفكك، ويقال للنقص شدة، وشدة الالم لجمعه على النفس بما يعسر زواله.

(١) ديوانه: ٧٢ من قصيدة في هجاء الراعي النميري، وهو في تفسير الطبرى ١٥: ٤٧٢

(٦٣)

قوله تعالى:

(إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) (١٠٤) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى ان فيما أخبر به - من إهلاك من ذكره على وجه العقوبة لهم على كفرهم - آية أي علامة عظيمة بما فيها من البيان عن الامر الكثير قال الشاعر:

بآية تقدمون الخيل زورا * كأن على سنانها مداما (١)

قوله " لمن خاف عذاب الآخرة " أي لمن خشى عقوبة الله يوم القيامة، والخوف انزعاج النفس بتوقع الشر ونقيضه الامن، وهو سكون النفس بتوقع الخير. والفرق بين العذاب والالم أن العذاب استمرار الالم قال عبيد:

فامرؤ ماعاش في تكذيب * طول الحياة له تعذيب (٢)

وقوله " ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود " معناه ان يوم القيامة يوم يجمع فيه الناس ويشهده جميع الخلائق، وليس يوصف في هذه الصفة يوم سواه، والجمع ضم احد

الشيئين إلى الآخر. وقيل هو جعل الشيئين فصاعدا في معنى، والقبض ضم الشئ إلى الوسط كقبض البساط، وهو نقيض بسطه من غير تبزي اجزائه.
قوله تعالى:

(وما تؤخره إلا لأجل معدود (١٠٥) يوم يأتي لاتكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد) (١٠٦)
آيتان بلاخلاف.
قرأ أهل الكوفة إلا الكسائي وابن عامر يوم (يأت) بغير ياء. الباقر بياء في

(١) اللسان (أى) وروايته (شعثا) بدل (زورا)
(٢) مر هذا البيت في ٥: ٢١٦.

(٦٤)

الوصل دون الوقف، إلا ابن كثير، فإنه أثبت الياء في الحاليين.
قال أبو علي: من أثبت الياء في الوصل، فهو القياس البين، لأنه لأشئ ههنا - يوجب حذف الياء في الوصل، ومن حذفها في الوقف شبهها بالفاصلة، وان لم يكن فاصلة، لان هذه الياء تشه الحركات المحذوفة بدلالة أنهم قد حذفوها كما حذفوا الحركة، فكما ان الحركة تحذف في الوقف، فكذلك ما يشبهها من هذه الحروف، فكان في حكمها، ومن اثبتها في الحاليين فقد أحسن، لأنها أكثر من الحركة في الصوت، فلا ينبغي اذا حذفنا الحركة للوقف ان تحذف الياء له، كما لا تحذف سائر الحروف، ومن حذف الياء في الحاليين جعلها في الحاليين بمنزلة ما يستعمل محذوفاً مما لم يكن ينبغي في القياس ان يحذف نحو (لم يك، ولأدر) وهي لغة هذيل، وقال الشاعر:

كفك كفا لاتليق درهما * جوادا وأخرى تعط بالسيف الدما (١)
فحذف الياء في تعط، وليس هذا ما يوجب حذفها.

والضمير في قوله " وما تؤخره " عائد على قوله " يوم مشهود " وهو يوم الجزاء. ومعناه الاخبار بأنه تعالى ليس يؤخر يوم الجزاء إلا ليستوفي الاجل المضروب لوقوع الجزاء فيه. وانما قال " لاجل " ولم يقل إلى اجل، لان قوله " لاجل " يدل على الغرض، وان الحكمة أقتضت تاخيرها. ولو قال إلى اجل لمادل على ذلك. وقوله " يوم يأتي " يعنى يوم القيامة الذي تقدم ذكره بأنه مشهود والضمير في (يأتي) حين الجزاء، لأنه قد تقدم الدليل عليه في قوله " يوم مشهود " واحسن الاضمار ما يدل الكلام عليه، وانما أضاف (يوم) إلى الفعل، لأنه اسم زمان فناسب الفعل للزمان من حيث انه لا يخلو منه، وانه يتصرف بتصرفه. وانه لا يكون حادثاً الا وقتاً، كما ان الزمان لا يبقى.

ومعنى قوله " لاتكلم نفس إلا باذنه " أي لاتتكلم فحذف إحدى التائين.

(١) تفسير القرطبي ٩: ٩٨ واللسان (ليق)

(٦٥)

لدلالة الكلام عليه. وقيل في معنى " لاتكلم " قولان:
احدهما - ان فيه وقتا يمنعون من التكلم إلا بالحق فهو باذنه تعالى.
والاخر - انه لايتكلم بكلام ينفع إلا بإذنه: من شفاعه ووسيلة، بدلالة قولهم " والله ربنا ما كنا
مشركين. انظر كيف كذبوا على انفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون (١) ".
وقال الجبائي: الاذن الجاؤهم إلى الحسن، لانه لايقع منهم ذلك اليوم قبيح.
وقوله " فمنهم شقي وسعيد " اخبا رمنه تعالى بأنهم ينقسمون قسمين منهم الاثقياء، وهم
المستحقون للعقاب، ومنهم السعداء وهم المستحقون للثواب.
والشقاء قوة أسباب البلاء، والشقي من شقي بسوء عمله في معاصي الله، والسعيد من سعد
بحسن عمله في طاعة الله، وانما وصف الاجل بأنه معدود، لانه متناه منقضى، لان كل معدود
قد وجد عدده، لا يكون ذلك الا متناهيا.
فان قيل كيف قال - ههنا - " يوم يأتي لاتكلم نفس إلا باذنه " وقال في موضع آخر " هذا يوم
لاينطقون. ولايؤذن لهم فيعتذرون " (٢) وقال في موضع آخر " يوم تأتي كل نفس تجادل عن
نفسها " (٣) وقال " وقفوهم انهم مسؤولون (٤) وقال في موضع آخر فيومئذ لايسأل عن ذنبه
انس ولاجان " (٥)
وهل هذا إلا ظاهر التناقض؟! .!

قلنا: لاتناقض في ذلك لان معنى قوله " وقفوهم انهم مسؤولون " انهم يسألون سؤال توبيخ
وتقرير وتقريع، لايجاب الحجة عليهم لاسؤال استفهام، لانه تعالى

(١) سورة الانعام آية ٢٤ - ٢٥ (٢) سورة المرسلات ٣٥ - ٣٦ (٣) سورة النحل آية ١١١ (٤) سورة الصافات
آية ٢٤ (٥) سورة الرحمن آية ٣٩

(٦٦)

عالم بذلك لنفسه. وقوله " فيومئذ لايسأل عن ذنبه انس ولاجان " (١) اي لا يسأل ليعلم ذلك
منه حيث انه تعالى قد علم اعمالهم قبل ان يعملوها. وقيل ان معناه إنه لايسأل عن ذنب
المنذوب إنس ولاجان غيره، وانما يسأل المنذوب لا غير، وكذلك قوله " يوم لاينطقون " (٢) أي

لاينطقون بحجة، وانما يتكلمون بالاقرار بذنوبهم ولوم بعضهم بعضا، وطرح بعضهم على بعض الذنوب، فاما المتكلم بحجة، فلا. وهذا كما يقول القائل لمن يخاطبه بخطاب كثير فارغ من الحجة: ماتكلمت بشئ، ومانطقت بشئ، فسمي من يتكلم بما لا حجة فيه له: غير متكلم، كما قال " صم بكم عمي فهم لا يعقلون " (٣) وهم كانوا يبصرون ويسمعون إلا انهم لا يقبلون ولا يكفرون فيما يسمعون، ولا يتأملون، فهم بمنزلة الصم، قال الشاعر:

أصم عما ساءه سميع (٤)

وقال بعضهم ان ذلك اليوم يوم طويل له مواضع، ومواطن، ومواقف، في بعضها يمنعون من الكلام، وفي بعضها يطلق لهم ذلك بدلالة قوله " يوم يأتي لاتكلم نفس إلا باذنه " وكلاهما حسن والاول احسن.

قوله تعالى:

(فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق (١٠٧)

خالدين فيها مادامت السموات والارض إلا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد) (١٠٨) آيتان بلاخلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين شقوا باستحقاقهم عذاب النار جزاء بسوء اعمالهم داخلون في النار، وانما سمي الشقي شقيا قبل دخوله في النار، لانه

(١) سورة الرحمن آية ٣٩ (٢) سورة المرسلات ٣٥.

(٣) سورة البقرة آية ١٧١ (٤) مر تخريجه في ٢: ٨٠، ٤: ١٣٤، ٥: ٣٩

(٦٧)

على حال تؤديه إلى دخولها، من قبائح اعماله. فاما ماروي من قوله (ع) (إن الشقي شقي في بطن امه)، فجاز، لان المعنى ان المعلوم من حال انه سيشقى بارتكاب المعاصي التي تؤديه إلى عذاب النار، كما يقال لولد شيخ هرم هذا يتيم ومعناه انه سيتيم. وقوله " لهم فيها زفير وشهيق " قال أهل اللغة: الزفير أول نفاق الحمير، والشهيق آخر نفاقها، قال رؤبة:

حشرج في الجوف سحيلا أو شهق * حتى يقال ناهق ومانهق (١)

والزفير ترديد النفس مع الصوت من الحزن حتى تنتفخ الضلوع قال الجعدي:

خيظ على زفيرة فتم ولم * يرجع إلى دقة ولاهضم (٢)

وأصل الزفير الشدة من قولهم للشديد الخلق المزفور، والزفر الحمل على الظهر خاصة لشدته، قال الشاعر:

طوال انضية الاعناق لم يجدوا * ريح الاماء إذا راحت بأزفار (٣)
والزفر السيد، لانه يطيق عمل الشدائد، وزفرت النار اذا سمع لها صوت في شدة توقدها،
والشهيق صوت فظيع يخرج من الجوف عند النفس. واصله الطول المفرط من قولهم: جبل
شاهق أي ممتنع طولاً.
وقوله " خالدين فيها مادامت السموات والارض " فالخلود الكون في الامر أبداً، والدوام البقاء
أبداً، ولهذا يوصف الله تعال بأنه دائم، ولايوصف بأنه خالد.
وقوله " إلا ماشاء ربك " اختلفوا في هذا الاستثناء على عدة أقوال:
فالذي نختاره - ويليق بمذهبنا في الارزاء - ان الله تعالى أخبر ان الاشقياء

(١) ديوانه ١٠٦ وتفسير القرطبي ٩: ٩٨ واللسان (حشرج) وتفسير الطبري ١٥: ٧٩، (٢) اللسان (زفر) (٣)
اللسان (زفر)

(٦٨)

المستحقين للعقاب يحصلون في النار ثم استثنى من أراد من فساق أهل الصلاة إذا أراد
التفضل باسقاط عقابه، أو من يشفع فيه النبي صلى الله عليه وسلم فانه عند ذلك لايدخله النار
وتكون - على هذا - (ما) معناها (من) كأنه قال الا من شاء ربك، فلا يدخله النار، وهو قول
ابن عباس وقتادة والضحاك، وجابر بن عبدالله، وابي سعيد الخدري وجماعة من المفسرين.
ويجوز على هذا المذهب أن يكون استثناء من الخلود، فكأنه قال إلا ماشاء ربك بأن لايخلدهم
في النار بل يخرجهم عنها.
وقال قتادة: ذكرلنا أن ناسا يصيبهم سفع من النار بذنوب اصابوا، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل
ورحمته يقال لهم جهنميون، قال قتادة وحدثنا أنس ابن مالك أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال يخرج قوم من النار. وقال قتادة: ولانقول ما يقول اهل حروراء.
وروي عن ابن عباس أنه قال قوله " لايبثن فيها أحقابا " (١) وقوله " خالدين فيها إلا ماشاء
ربك " في اهل التوحيد. وروي عن ابن مسعود أنه قال:
ليأتين على جهنم زمان تخفق ابوابها ليس فيها أحد. وذلك بعد أن يلبثوا فيها أحقاباً. وقال
الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمراناً، وأسرعهما خراباً.
ثانيها - قال ابن زيد وحكاه الرماني: إن المعنى خالدين فيها مادامت السموات سموات،
والارض أرضاً إلا ماشاء ربك، من الزيادة المضاعفة.

وثالثها - قال الجبائي: إن المعنى مادامت السموات لاهل الآخرة وأرضهم إلا ماشاء ربك مما كان قبل أن يدخلوها من أوقات وقوفهم في صدر يومهم في الموقف، لان الله تعالى قال " يوم تبدل الارض غير الارض والسموات " .

ورابعها - مذكوره كثير من أهل العربية كالفراء والزجاج وغيرهم: ان (إلا) في الآية بمعنى (سوى) والتقدير مادامت السموات والارض سوى ماشاء ربك كما يقول القائل: لو كان معنا رجل إلا زيد أي سوى زيد، ولك عندني ألف درهم

(١) سورة النبأ آية ٢٣

(٦٩)

الا الالفين التي لك عندي، أي سوى الالفين ومثله قوله " ولا تتحكوا مانكح أبؤكم من النساء إلا ماقدم سلف " (١) أي سوى ماقد سلف، لان قوله " ولا تتكحوا " مستقبل " وإلا ماشاء ربك " ماض، والمعنى على هذا " خالدين فيها " مقدار دوام السموات والارض سوى " ماشاء ربك " من الخلود والزيارة.

وخامسها - ما قال الفراء: إن (الا) بمعنى الواو كما قال الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخوه * لعمر أبيك الا الفرقدان (٢)

وعلى هذا لو قال القائل لك عندي ألف الا الفين لزمه ثلاثة آلاف درهم، لانه أستثناء الزائد من الناقص، فكأنه قال الألفين منفردين. ولو قال مالك عندي الف الا الفين فانما أقر بألفين كأنه قال مالك عندي سوى الفين ولو قال لك عندي ألف الا ألفان بالرفع أقر بألف فقط، لانها صفة مثبتة، كأنه قال الف لا الفان.

وسادسها - أن ذلك تعليق لما لا يكون بما لا يكون، كأنه قال " الا ما شاء ربك " وهو لا يشاء ان يخرجهم منها وتكون الفائدة أن لو شاء أن يخرجهم لقد ر، ولكنه قد أعلمنا انهم خالدون أبدا. وسابعها - ذكره الزجاج: ان الاستثناء وقع على أن لهم زفيرا وشهيقا إلا ماشاء ربك من أنواع العذاب التي لم يذكرها.

وثامنها - ذكره البلخي: ان المراد بذلك الا ماشاء ربك من وقت نزول الآية إلى دخولهم النار، ولولا هذا الاستثناء لوجب ان يكونوا في النار من وقت نزول الآية أر من يوم يموتون. فان قيل كيف يستثنى من الخلود فيها ما قبل الدخول فيها؟! قلنا: يجوز ذلك إذا كان الاخبار به قبل دخولهم.

(١) سورة النساء آية ٢٢ .

(٢) امالي السيد المرتضى ٢ : ٨٨ وسيبويه ١ : ٣٧١ وتفسير القرطبي ٩ : ١٠١ وقد نسب إلى عمرو بن معد كرب .

(٧٠)

وتاسعها - مذكوره قوم من اصحابنا في التفسير إن المعنى انهم فيها يعني في النار في حال كونهم في القبور دائمين فيها مادامت السموات والارض، فانها اذا عدت انقطع عقابهم إلى أن يبعثهم الله للحساب .

وقوله " الا ماشاء ربك " مما يكون في الآخرة .

وقوله " إن ربك فعال لما يريد " معناه انه كلما أراد شيئاً فعله، لانه لا يجوز عليه البداء بالرجوع عما أراده، ولا المنع من مراده ولا يتعذر عليه شئ منه مع كثرتة بارادة من أفعاله .
قوله تعالى :

(وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ) (١٠٩) آية بلاخلاف .

القراءة واللغة :

قرأ أهل الكوفة الا أبابكر " سعدوا " بضم السين . الباقون بفتحها .

قال ابو علي : حكى سيبويه : سعد يسعد سعادة، فهو سعيد . وينبغي أن يكون غير متعد، كما أن خلافه الذي هو (شقي) كذلك، واذا لم يكن متعديا لم يجب أن يبنى منه المفعول به، وإذا كان كذلك، ضم السين مشكل الا ان يكون سمع فيه لغة خارجة عن القياس أو يكون من باب (فعل وفعلته) نحو غاض الماء وغضته، وحزن وحزنته، ولعلمهم استشهدوا على ذلك بقولهم (مسعود) فانه على سعد فهو مسعود، ولادلالة في ذلك، لانه يجوز ان يكون مثل أجنه الله فهو مجنون، واحبه فهو محبوب، فالمفعول جاء في هذا على أنه حذف الزيادة منه، كما حذف من اسم الفاعل في نحو (ويكشف جمانة دلو الدالي) وانما هو المدلي،

(٧١)

ومثله " وارسلنا الرياح لواقح " (١) يعني ملاقح فجاء على حذف الزيادة، فعلى هذا يكون أصله أسعدوا بحذف الزائد . وحكى البلخي انهما لغتان - ضم السين - لغة هذيل، وفتحها لغة سائر العرب .

المعنى :

لما اخبر الله تعالى أن الذين شقوا بفعلهم المعاصي واستحقوا الخلود في النار، اخبر ان الذين سعدوا بطاعات الله والانتهاة عن معاصيه يكونون في الجنة " ما دامت السموات والارض إلا ماشاء ربك، ومعنى مادامت السموات والارض المصدر، كأنه قال دوام السموات والارض الا

مشيئة ربك، وفيه حسن التقابل، وفيه جميع ما ذكرناه في الاستثناء من الخلود في النار إلا الوجهين الذين ذكرناهما في جواز إخراج بعض الأشقياء ممن تناول الوعيد لهم وإخراجهم من النار بعد دخولهم فيها، فان ذلك لا يجوز - ههنا - لاجماع الامة على أن كل مستحق للثواب لا بد أن يدخل الجنة، ولا يخرج منها بعد دخوله فيها.

وقيل فيه وجه آخر يوافق ما قلناه في الآية الاولى، وهو أن يكون المعنى " ان الذين سعدوا بطاعات الله يدخلون الجنة خالدين فيها، واستثنى من جملتهم من كان مستحقا للنار، و اراد الله عقابهم. ثم إخراجهم منها فكأنه قال خالدين فيها الامدة ما كانوا معاقبين في النار، ذهب اليه الضحاك وهو يلبق بقولنا في الارجاء.

وقوله " عطاء غير مجذوذ " يعني غير مقطوع - في قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك - يقال جذه يجذّه جذاً فهو جاذ، وجذ الله أثرهم قال النابغة:
يجذ السلوقي المضاعف نسجه * ويوقد بالصفاح نار الحباب (٢)

(١) سورة الحجر آية ٢٢.

(٢) ديوانه: ٤٤ وتفسير القرطبي ٩: ١٠٣ واللسان (حجب)، (سلق)، (صفح)

وروايته (تقد) بدل (يجذ) و (توقد) بدل (يوقد).

(٧٢)

ويقال جذه الله جذ الصليانة، وهي نبات، وقوله (عطاء) نصب على المصدر بما يدل عليه الاول كأنه قال اعطاهم النعيم عطاء غير مجذوذ.
قوله تعالى:

(فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنما لموفوهم نصيبهم

غير منقوص) (١١٠)

آية بلاخلاف.

نهى الله تعالى نبيه - والمراد به أمته - ان يكونوا في شك من عبادة هؤلاء يعني الكفار الذين تقدم ذكرهم، وانه باطل. و (المرية) - بكسر الميم وضمها - الشك مع ظهور الدلالة البيينة. وأصله مري الضرع ليدر بعد دروره، فلا معنى له إلا العبث بفعله.

وقوله " ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل " أنهم مقلدون في عبادتهم الاوثان، كما كان آباؤهم كذلك.

وقوله " وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص " أخبار منه تعالى انه يعطيهم - على جهة الوفاء - قسمتهم من خير أو شر على قدر استحقاقهم - في قول ابن عباس - وقال ابن زيد: ما

يستحقونه من العذاب من غير ان ينقص منه شئ على وجه العقوبة بعد أو يوفوا ما حكم لهم به من الخير في الدنيا.
و (النصيب) القسم المجعول لصاحبه ومنه انصباء الورثة. والنصيب الحظ والنقص البخس والمنقوص المبخوس.
قوله تعالى:
(ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة

(٧٣)

سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب (١١١)
آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى أنه أعطى موسى الكتاب يعني التوراة وإن قومه اختلفوا فيه يعني في صحة الكتاب الذي انزل اليه، وأراد بذلك تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه إياه وجددهم للقرآن المنزل عليه، فبين له أنه كذلك فعل قوم موسى بموسى، فلا تحزن لذلك، ولا تغتم له. ثم قال " ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم " معناه ولولا خبر الله السابق بأنه يؤخر الجزاء إلى يوم القيامة لمافي ذلك من المصلحة، لجعل الثواب والعقاب لاهله. (والكلمة) واحدة الكلم ولذلك، يقال للقصيد: كلمة. ثم أخبر عن حال كفار قوم النبي صلى الله عليه وسلم أنهم لفي شك مما أخبرناك به مريب، و (الريب) أقوى الشك. (والاختلاف) ذهاب كل واحد إلى جهة غير جهة الآخر، وهو على ثلاثة أوجه:

أحدها - اختلاف النقيضين فهذا لايجوز أن يصحا معا، فاحدهما مبطل لصاحبه.

والآخر اختلاف الجنسين، كاختلاف المجتهدين في جهة القبلة، فهذا يجوز أن يصحا، لانه تابع للمصلحة ولاتناقض في ذلك، ومنه اختلاف المجتهدين في الفروع على مذهب من قال بجوازه.

قوله تعالى:

(وإن كلا لما ليوفيهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير)

(١١٢) آية بلاخلاف.

القراءة:

اختلفت القراءة في قوله " وان كلا لما " على اربعة اوجه:

قرأ ابن كثير ونافع بتخفيف (إن) وتخفيف (لما) وقرأ ابن عامر وحمزة

(٧٤)

وحفص عن عاصم بتشديدهما معا. وقرأ أبو عمرو والكسائي بتشديد الاولى وتخفيف الثانية.

وقرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الاولى وتشديد الثانية.

اللغة والاعراب والمعنى:

وقيل في معنى (لما) بالتشديد خمسة أوجه:

أولها - قول الفراء إنها بمعنى (لمن ما) فاجتمعت ثلاث ميمات، فحذفت واحدة ثم ادغمت الاولى في الثانية، كما قال الشاعر:

واني لمأصدر الامر وجهه * اذا هو أعيأ بالسبيل مصادره (١)

ثم تخفف، كما قرأ بعض القراء: " والبغي يعظكم " (٢) فحذف احدى اليائين ذكره الفراء.

والثاني - ما اختاره الزجاج: أن (لما) بمعنى (إلا) كقولهم سألتك لما فعلت، ومثله " إن كل نفس لما عليها حافظ " (٣) لانه دخله معنى ماكلهم إلا لنوفينهم.

وقال الفراء هذا لايجوز إلا في التمييز، لانه لوجاز ذلك لجاز ان تقول جاءني القوم لما زيدا بمعنى الا زيدا، هذا لايجوز بلاخلاف.

الثالث - اختاره المازني: أنها هي المخففة شددت للتأكيد. قال الزجاج:

هذا لايجوز، لانه انمايجوز تخفيف المشددة عند الضرورة، فأما تشديد المخففة، فلايجوز بحال.

الرابع - حكاه الزجاج: إنها من لممت الشيء ألمه لما إذا جمعته إلا أنها

(١) قائله العجاج تفسير الطبري ١٥ : ٩٤٤ وتفسير القرطبي ٩ : ١٠٥ ومجمع البيان ٣ : ٢٠٠ (٢) سورة النحل آية ٩٠.

(٣) سورة الطارق آية ٤.

(٧٥)

بنيت على (فعلى) فلم تصرف نحو (نترى) كأنه قال وإن كلا جميعا ليوفينهم.

الخامس قراءة الزهري (لما) بالتثوين بمعنى شديدا، كقوله " وتأكلون التراث اكلا لما " (١). واللام في قوله (لما) يحتمل أن تكون لام القسم دخلت على (ما) التي للتوكيد، ويحتمل أن تكون لام الابتداء دخلت على (ما) بمعنى الذي، كقوله " فانكحوا ما طاب لكم من النساء " (٢) ومثله " وان منكم لمن ليبطئن " (٣) قال الشاعر فلو ان قومي لم يكونوا أعزة * لبعد لقد لاقيت لابد مصرعا (٤)

وحكي عن العرب اني لبحمد الله لصالح قال أبو علي من قرأ من قرأ بتشديد (إن)

وتخفيف (لما) فوجهه بين، وهو انه نصب (كلا) ب (إن) و (إن) تقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها لام، فدخلت هذه اللام وهي لام الابتداء على الخبر في قوله " وان كلا لما " وقد دخلت الخبر لام اخرى وهي التي يتلقى بها القسم، وتختص بالدخول على الفعل ويلزمها في اكثر الامر النونين، فلما اجتمعت اللامان واتفقا في تلقى القسم، واتفقا في اللفظ فصل بينهما، كما فصل بين (إن)

واللام، فدخلت (ما) لهذا المعنى، وان كانت زائدة للفصل، كما جاءت النون - وإن كانت زائدة - في قوله " فاما ترين من البشر " (٥) وكما صارت عوضا من الفعل في قولهم: أمالي، فهذا بين، ويلي هذا الوجه في البيان قول من خفف (ان) ونصب (كلا) وخففت (لما)، كما قال الشاعر:

كأن ثدييه حقان (٦)

(١) سورة الفجر آية ١٩ (٢) سورة النساء آية ٣ (٣) سورة النساء آية ٧٢ (٤) تفسير الطبري ١٥ : ٤٩٨ (٥) سورة مريم آية ٢٦ (٦) الكتاب لسبويه ١ : ٢٨٠ والفيء ابن عقيل ١ : ٣٣٤ الشاهد ١٠٨ وتفسير الطبري ١٥ : ٤٩٧ وتمام البيت:

وصدر مشرق النحر * كأن ثدياه حقان

(٧٦)

وأراد (كأن) المشددة، فخفف، واعمل، لان سبويه حكى عن يثق به أنه سمع من العرب من يقول: ان عمرا لمنطلق، قال وأهل المدينة يقرؤون " وان كلا لما جميع لدينا محضرون " (١) يخفون وينصبون، ووجه النصب بها مع التخفيف ان (ان) مشبهة في نصبها بالفعل، والفعل يعمل محذوفا كما يعمل غير محذوف في نحو (لم يك زيد منطلقا، فلا تك منطلقا) وكذلك " فلاتك في مرية " فاما من خفف (ان) ونصب (كلا) وشدد (لما) فقراءته مشكلة لان (أن) اذا نصب بها وكانت مخففة كانت بمنزلة الثقيلة و (لما) اذا شددت كانت بمنزلة (إلا) فكذاك قراءة من شدد (لما) وثقل (ان) مشكلة، لانه كما لا يحسن أن تقول: ان زيد إلا منطلقا فكذاك لا يحسن تثقيل (ان) وتخفيفها ويراد الثقيلة مع تثقيل (لما)

فاما قولهم: نشدتك الله لما فعلت، والا فعلت، فقال الخليل: معناه لتفعلن، كما تقول: أقسمت عليه لتفعلن وإنما دخل (إلا ولما) لان المعنى الطلب، فكأنه قال: ما أسألك إلا فعل كذا، فلم يذكر حرف النفي في اللفظ، وإن كان مرادا، وليس في الآية معنى نفي ولا طلب، وضعف ابو علي. الوجه الذي حكيناه من ان اصله (لمن ما) فادغم النون في الميم بعد ما قلبت ميما. قال: لان الحرف المدغم، إذا كان قبله ساكن نحو (يوم مالك) لم يقو الادغام فيه على أن

يحرك الساكن الذي قبل الحرف المدغم، فإذا لم يجز ذلك فيه، وكان التغيير أسهل من الحذف، فإنه لا يجوز الحذف الذي هو أجدر، في باب التغيير من تحريك الساكن على أن في هذه السورة ميمات أجمعت في الإدغام، أكثر مما اجتمعت في (لمن ما) ولم يحذف منها شيء نحو قوله " وعلى امم ممن معك " (٢) ولم يحذف شيء منها فبأن لا يحذف - ههنا اجدر وحكي عن الكسائي أنه قال لأعرف وجه التثقل في (لما) قال أبو علي: ولم يبعد في ذلك، قال أبو علي: ولو خففت مخفف (ان) ورفع (كلا) وثقل (لما) ويكون المعنى مائل الا ليوفينهم، كما قال " وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا " (٣) لكان ذلك أبين من النصب في (كل) وتثقل

(١) سورة يس آية ٣٢ (٢) سورة هود آية ٤٨ (٣) سورة الزخرف آية ٣٥

(٧٧)

(لما) و (كل) في الآية معرفة، والمعنى وإن كل المكافين ليوفينهم ربك أعمالهم أو كل المختلفين على ماتقدم ذكره كما يقولون: مررت بكل قائما، والتوفية بلوغ المقدار من غير نقصان، والتوفية مساواة المقدار في معناه، لانه اذا ساواه في جنسه لم يجب به توفية. المعنى أخبر الله تعالى في هذه الآية انه يوفي جميع المكلفين ما يستحقونه على اعمالهم من الثواب والعقاب، لانه عالم بما فعلوه خبير به، لا يخفى عليه شيء من ذلك ومن ليس بعالم لا يمكنه ذلك، لانه يجوز ان يكون قد خفي عليه كثير منه، وهو تعالى لا يخفى عليه خافية. قوله تعالى:

(فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير) (١١٣) آية بلا خلاف. أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم وأمته أن يستقيموا كما أمرهم الله، وكذلك من رجع إلى الله وإلى نبيه " ولا تطغوا " يعني في الاستقامة، فيخرجوا عن حدها بالزيادة على ما أمرهم فرضا كان أو نفلا. وقيل: معناه لا تطغينكم النعمة، فتخرجوا من الاستقامة. و (الاستقامة) الاستمرار في جهة واحدة، وان لا يعدل يمينا وشمالا. و (الطغيان) تجاوز المقدار في الفساد. والطاغي كالباطي في صفة الذم، وطغى الماء مشبه بحال الطاغي، وانما خص من تاب دون ان أسلم من أول حاله للتغليب في الاكثر ويدخل فيه الاقل على وجه التبع.

وقوله " انه بما تعملون بصير " اخبار منه تعالى أنه عالم بأعمالهم لا يخفى عليه شيء منها

(٧٨)

قوله تعالى:

(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم تتصرون) (١١٤) آية بلا خلاف.

نهى الله تعالى في هذه الآية عباده المكلفين عن أن يركنوا إلى الذين ظلموا نفوسهم وغيرهم. و (الركون) إلى الشئ هو السكون اليه بالمحبة اليه والانصات اليه، ونقيضه النفور عنه. وانما نهاهم عن الركون إلى الظلمة لما في ذلك من الاستئناس به " فتمسكم النار " جواب النهي وبيان، لانهم متى خالفوا هذا النهي، وسكنوا إلى الظالمين نالتهم النار، ولم يكن لهم ناصر من دون الله يدفع عنهم ثم لا يجدون من ينصرهم، ويدفع عنهم على وجه المغالبة، والولي ضد العدو، وجمعه أولياء. وقال الجبائي معنى " ثم لاتتصرون " انكم إن ركنتم إلى الكفار والظالمين: وسكنتم اليهم مستكم النار في الآخرة ثم لا تتصرون في الدنيا على الكفار. قوله تعالى:

(وأقم الصلوة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) (١١٥) آية بلا خلاف.

قرأ أبو جعفر (زلفا) بضم اللام. أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه صلى الله عليه وسلم وأمة نبيه باقامة الصلاة، واقامتها هو الاتيان بأعمال الصلاة على وجه التمام في ركوعها وسجودها وسائر فروضها. وقيل اقامة الصلاة هو عمل على استواء كالقيام الذي هو الانتصاب في الاستواء. وقيل هو الدوام على فعلها من قولهم: قائم اي دائم واقف.

(٧٩)

وقوله " طرفي النهار " يريد بهما صلاة الفجر والمغرب - في قول ابن عباس والحسن وابن زيد الجبائي - وقال الزجاج يعنى الغداة الظهر والعصر، وبه قال مجاهد، ومحمد بن كعب القرطبي، والضحاك. ويحتمل أن يريد بذلك صلاة الفجر والعصر، لان طرف الشئ من الشئ وصلاة المغرب ليست من النهار.

وقوله " وزلفا من الليل " قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد: يريد العشاء الآخرة وقال الزجاج يعنى المغرب والعشاء الآخرة. و (الزلفة) بمنزلة وجمعها زلف قال العجاج:

ناج طواه الاين مما وجفا * طي الليلي زلفا فزلفا (١)

قال الزجاج: ويجوز زلفا بضم اللام، ونصبه على الظرف وهو واحد مثل الحلم، ويجوز أن يكون جمع زليف مثل قريب وقرب، ومنه اشتقاق المزلفة لان ازدلاف الناس اليها منزلة من عرفات.

ومن قال: المراد ب (طرفي النهار) الفجر والمغرب، قال ترك ذكر الظهر والعصر لاحد أمرين:

احدهما ترك ذكرهما لظهورهما في انهما صلاة النهار، والتقدير أم الصلاة طرفي النهار مع الصلاة المعروفة من صلاة النهار.

والآخر - انهما ذكرا على التبع للطرف الاخير، لانهما بعد الزوال، فهما أقرب اليه. وقد قال الله تعالى " أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل " (٢) ودلوها زوالها.

(١) ديوانه: ٨٤ ومجاز القرآن ١ / ٣٠٠ وسبويه ١: ١٨٠ واللسان (زلف، حقف، سما، وجف) والصاح، والتاج (زلف) يصف الشاعر بغيره. وبعده:

* سماوة الهلال حتى احقوقفا * والابن التعب، والوجف السرعة في السير. شبهه بالهلال. لعوجاجه، عند علوه وصعوده.

(٢) سورة الاسرى آية ٧٨.

(٨٠)

وقوله " ان الحسنات يذهبن السيئات " قيل فيه وجهان:

احدهما - تذهب به على وجه التكفير اذا كانت المعصية صغيرة.

والآخر - ان المراد بالحسنات التوبة تذهب بالسيئة أي تسقط عقابها، لانه لاخلاف في ان سقوط العقاب عند التوبة. وقد قيل ان الدوام على فعل الحسنات يدعو إلى ترك السيئات فكأنها اذهبت بها.

وقوله " ذلك ذكرى للذاكرين " يعني ماذكره من قوله " ان الحسنات يذهبن السيئات فيه تذكار لمن تذكر به وفكر فيه.

قوله تعالى:

(واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) (١١٦) آية بلاخلاف.

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه وتكذيبهم اياه، والتجدد عليه، وعلى القيام بما افترض عليه من اداء الواجب، والامتناع من القبيح، وبين له انه يضيع ولايهمل أجر المحسنين على احسانهم بل يكافئهم عليه أتم الجزاء وأكمل الثواب، و (الصبر)

حبس النفس عن الخروج إلى ما لايجوز من ترك الحق، وضده الجزع قال الشاعر:

فان تصبرا فالصبر خير مغبة * وان تجزعا فالامر ماتريان (٣)

والصبر على الباطل مذموم، قال الله تعالى " وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على

آهتكم " (٢) ويعين على الصبر شيان:

(١) مرهذ البيت في ١ : ٢٠٢ .

(١) سورة ص آية ٦ .

(٨١)

احدهما - العلم بما يعقب من الخير في كل وجه وعادة النفس له .
والثاني - استشعار مافي لزوم الحق من العز والاجر بطاعة الله والصبر مأخوذ من الصبر
المر، لانه تجرع مرارة الحق بحبس النفس عن الخروج إلى المشتهى .
قوله تعالى:

(فلو لاكان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض إلا قليلا ممن أنجبنا
منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين (١١٧) آية بلاخلاف .
معنى " فلولا كان " هلاكاً، ولم لا، وألا كان، ومعناه النفي وتقديره لم يكن من القرون من
قبلكم، فهو تعجيب وتوبيخ لهؤلاء الذين سلكوا سبيل من كان قبلهم في الفساد نحو عاد وثمود،
وسائر القرون الذين مر ذكرهم في القرآن، وأخبر الله بهلاكها " أولوا بقية ينهون عن الفساد
في الارض " أي كان يجب أن يكون منهم قوم باقون في الارض ينهون عن الفساد في
الارض مع إنعام الله عليهم بكمال العقل والقدرة، وبعثة الرسل اليهم، واقامة الحجج . وأولوا
بقية هم الباقون، فعجب الله نبيه كيف لم يكن منهم بقية في الارض يأمرن فيها بالمعروف
وينهون فيها عن المنكر، وكيف اجتمعوا على الكفر حتى استأصلهم الله بالعذاب والعقوبات
لكفرهم بالله ومعاصيهم له ثم استثنى بقوله " الا قليلا " والمعنى انهم هلكوا جميعا الا قليلا ممن
انجى الله منهم، وهم الذين آمنوا مع الرسل، ونجوا معهم من العذاب الذي نزل بقومهم .
وقوله " واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين " معناه أنهم اتبعوا تفسير التبيان ج ٦
م - ٦

(٨٢)

التلذذ والتتعم بالاموال والنعم التي أعطاهم الله اياها، وقضوا الشهوات وذلك من الحرام . وبين
انهم كانوا بذلك مجرمين عاصين الله تعالى .
وقال الفراء والزجاج: ان قوله " الا قليلا " استثناء منقطع، لانه ايجاب لما تقدم فيه صيغة
النفي وإنما تقدم تهجين لمخرج السؤال، ولورفع لجاز في الكلام .
ومعنى " اترفوا فيه " اي عودوا الترفة بالمتعيم واللذة، وذلك ان الترفة عادة النعمة قال
الشاعر:

يهدى رؤس المترفين الصداد * إلى أمير المؤمنين الممتاد (١)

اي المسؤل، وأبظر بهم النعمة حتى طغوا وبغوا، وفي الآية دلالة على وجوب النهي عن المنكر، لانه تعالى ذمهم بترك النهي عن الفساد، وانه نجا القليل بنهيهم عنه، فلو نهى الكثير كما نهى القليل لما اهلكوا، ومعنى " أولوا بقية " اصحاب جماعة تبقى من نسلهم، والبقية ممدوحة يقال في فلان بقية أي فيه فضل وخير، كأنه قيل بقية خير من الخير الماضي. قوله تعالى:

(وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)

(١١٨) آية بلاخلاف.

وأخبر الله تعالى انه لم يهلك أهل قرية فيما مضى، ممن ذكر إهلاكهم مع أن أهلها او اكثرهم يفعلون الصلاح، وانما اهلكهم اذا افسدوا كلهم او اكثرهم والاصلاح فعل الصلاح. وقوله " بظلم " فيه ثلاثة أوجه: اولها بظلم صغير، فيكون منهم لانه يقع مكفرا بما معهم من الثواب الكثير.

(١) قاتلة روبة وقد مر في ٤ / ٦٣ من هذا الكتاب؟ وهو تفسير الطبري ١٢ / ٧٩ (الطبعة الاولى).

(٨٣)

الثاني - بظلم كثير من قليل منهم، مع أن اكثرهم المصلحون، لان القليل لا يعتد به في جنب الكثير.

الثالث - ان المعنى بظلم منا، كما قال الله تعالى " إن الله لا يظلم الناس شيئا " (١). قوله تعالى:

(ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين) (١١٩) آيتان في الكوفي والبصري تمام الاولى عند قوله مختلفين وهي آية فيما سوى ذلك.

هذه الآية تتضمن الاخبار عن قدرته تعالى بأنه لو شاء تعالى لجعل الناس أمة واحدة أي على دين واحد، كماقال " إنا وجدنا آباءنا على أمة " (٢) وقال " ولو لا ان يكون الناس أمة واحدة " (٣) أي على دين واحد بأن يلجئهم إلى الاسلام بأن يخلق في قلوبهم العلم بأنهم لو داموا على غير ذلك لمنعوا منه، لكن ذلك ينافي التكليف ويبطل الغرض بالتكليف لان الغرض به استحقاق الثواب.

وقوله " ولايزالون مختلفين " معناه في الاديان كاليهود والنصارى والمجوس وغير ذلك من اختلاف المذاهب الباطلة في قول مجاهد وقتادة وعطا والاعمش والحسن في رواية، وفي

رواية أخرى عن الحسن أنهم يختلفون بالارزاق والاحوال ويتحيز بعضهم لبعض والاول أقوى.

(١) سورة يونس آية ٤٤. (٢) سورة الزخرف آية ٢٢، ٢٣.

(٣) سورة الزخرف آية ٣٣.

(٨٤)

والاختلاف هو اعتقاد كل واحد نقيض مايعتقده الآخر، وهو مالايمكن أن يجتمعا في الصحة وان امكن ان يجتمعا في الفساد، ألا ترى أن اليهودية والنصرانية لايجوز أن يكونا صحيحين مع اتفاقهما في الفساد، ويجوز ان يكون في اختلاف اهل املل المخالفة للاسلام حق، لان باعتقاد اليهودي ان النصرانية باطلة واعتقاد النصراني ان اليهودية فاسدة حق.

وقوله " الا من رحم ربك " استثناء منقطع، ولذلك جعل رأس آية، ولوكان متصلا لم يجز ذلك، وانما كان استثناء منقطعا، لان الاول على انهم يختلفون بالباطل، وليس كذلك من رحم لاجتماعهم على الحق. والمعنى " ولايزالون مختلفين " بالباطل " الا من رحم ربك " بفعل اللطف لهم الذي يؤمنون عنده ويستحقون به الثواب، فان من هذه صورته ناج من الاختلاف بالباطل.

وقوله " ولذلك خلقهم " قيل في معناه قولان:

احدهما - قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ان المراد وللرحمة خلقهم وليس لاحد ان يقول لو أراد ذلك لقال: ولتلك خلقهم لان الرحمة مؤنثة اللفظ وذلك ان تأنيث الرحمة ليس بتأنيث حقيقي، وماذلك حكمه جاز ان يعبر عنه بالتذكير، ولذلك قال الله تعالى " ان رحمة الله قريب من المحسنين " (١) ولم يقل قريبة على انه لايمتنع ان يكون المراد: ولان يرحم خلقهم، لان الرحمة تدل على ذلك، فعلى هذا يكون التذكير واقعا موقعه.

الثاني - ان يكون اللام لام العاقبة، والتقدير أنه خلقهم وعلم أن عاقبتهم.

تؤل إلى الاختلاف المذموم، كما قال " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " (٢) وكما قلنا في قوله " ولقد ذرانا لجهنم " (٣) وهو المروي عن ابن عباس والحسن وعطاء ومالك، وقد يكون اللام بمعنى (على) كقولك اكرمتك على

(١) سورة الاعراف آية ٥٦. (٢) سورة القصص آية ٨.

(٣) سورة الاعراف آية ١٧٩.

(٨٥)

برك بي اي لبرك بي، فيكون التقدير، وعلى ذلك خلقهم، ولا يجوز ان يكون اللام لام الغرض، ويرجع إلى الاختلاف المذموم، لان الله تعالى لا يخلقهم ويريد منهم خلاف الحق، لانه صفة نقص يتعالى الله عن ذلك. وايضا فلو أراد منهم ذلك الاختلاف، لكانوا مطيعين له، لان الطاعة هي موافقة الإرادة والامر، ولو كانوا كذلك لم يستحقوا عقابا. وقد قال تعالى " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " (١) فبين تعالى انه خلقهم وأراد منهم العبادة، فكيف يجوز مع ذلك ان يكون مريدا لخلاف ذلك، وهل هذا الا تناقض؟! يتعالى الله عن ذلك.

على ان في اختلاف أهل الضلال ما يريد به الله، وهو اختلاف اليهود والنصارى في التثليث، واختلاف النصارى لليهود في تأييد شرع موسى وقيل ان معنى الاختلاف ههنا هو مضي قوم ومجئ قوم آخرين، كما قال " هو الذي جعل الليل والنهار خلفه " (٢) وهذا الاختلاف يجوز ان يريد به الله.

وقال الحسن قوله " ولذلك خلقهم " مردود على قوله " وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون " (٣) والمعنى خلقهم ليكون عدله فيهم، هذا، لا أن يهلكهم وهم مصلحون. وقوله " ولو شاء ربك جعل الناس امة واحدة " على الايمان، وهذه مشيئة القدرة " ولذلك خلقهم " ان تكون مشيئته وقدرته عليهم، ولا يزالون مختلفين " الا من رحم ربك ولذلك خلقهم " قال ليخالف اهل الحق اهل الباطل، وهو كقوله " لتتذر أم القرى ومن حولها وتتذر يوم الجمع لاريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير " (٤)

(١) سورة الذاريات آية ٥٦. (٢) سورة الفرقان آية ٦٢.

(٣) سورة هود آية ١١٨. (٤) سورة الشورى آية ٧.

(٨٦)

ويقوي هذا التأويل قوله " وان كذبتك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وانا برئ مما تعملون " (١). وقوله " قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون ولانتم عابدون ما عابد " (٢)، فيكون الله خلقهم ليخالفوا الكافرين والمبطلين. وقال عمر عن الحسن: ان معنى " ولذلك خلقهم " ليكون أمر الكفار مختلفا بكفرهم وتكذيبهم. وقال البلخي: أخبر أنهم لا يزالون مختلفين إلا من رحم، فانهم غير مختلفين، هذا معنى الآية، والا فلا معنى لها. ثم قال " ولذلك خلقهم " اي لان يكونوا أمة واحدة متفقين غير مختلفين.

وقوله " وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين "، معناه التحذير لكل احد ان يكون ممن تملأ جهنم به، وتامها وقوع مخرها على ماتقدم بها، وهذا يمين أقسم الله به،

وتقديره يمينا لا ملان، كما تقول: حلفي لا ضربتك، وبدا لي لا ضربتك. وكل فعل كان تأويله كتأويل بلغني، أو قيل لي أو انتهى الي، فان (اللام) و (ان) يصلحان فيه، فتقول بدا لي لا ضربتك، وبدا لي ان اضربك، فلو قيل وتمت كلمة ربك أن يملا جهنم من الجنة والناس كان صوابا.

قوله تعالى:

(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) (١٢٠) آية بلا خلاف.

قوله " وكلا " نصب على المصدر، وتقديره، كل القصص نقص عليك. وقال قوم: نصب على الحال، فقدم الحال قبل العامل، كما تقول: كلا ضربت، ويجوز ان يكون نصبا على انه مفعول به، وتقديره: وكل الذي تحتاج اليه نقص عليك،

(١) سورة يونس آية ٤١.

(٢) سورة الكافرون آية ١ - ٢.

(٨٧)

ويكون " مانثبت به فؤادك " بدلا منه - في قول الزجاج - والقصص الخبر عن الامور بما يتلو بغضه بغضا، مأخوذا من قصه يقصه اذا اتبع أثره، ومنه قوله " قالت لاخته قصيه " (١) أي اتبعي اثره. والانباء جمع نبأ، وهو الخبر بما فيه عظم الشأن، وكذلك يقولون لهذا الامر نبأ، والتثبيت تمكين اقامة الشيء تثبته تثبيتا اذا مكنه، ومعنى " مانثبت به فؤادك " يحتمل ان يكون ذلك بتسكينه، ويحتمل ايضا ان يكون بالدلالة على وجوده. والفؤاد القلب مأخوذ من المفتاد، وهو المشوي قال النابغة:

كان خارجا من حيث صفحته * سفود شرب نسوه عند مفتأد (٢)

ومعنى " وجاءك في هذه الحق " قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: يعني في هذه السورة. وقال الجبائي يعني جاءك في هذه الانباء. وقال الزجاج: يعني في هذه الازمان. وقال قتادة: معناه في هذه الدنيا. والاول أصح، والتقدير وجاءك في هذه السورة الحق مع ما جاءك في سائر السور.

ومعنى (الاية) الاعتبار بقصص الرسل لما فيه من حسن صبرهم على أمتهم واجتهادهم في دعائهم إلى عبادة الله مع الحق الذي من عمل عليه نجا، ومع الوعظ الذي يلين القلب لسلك طريق الحق، ومع تذكر الخير والشر، وما يدعو اليه كل واحد منهما في عاقبة النفع أو الضرر.

وقوله " وموعظة " يعني جاءك موعظة تعظ الجاهلين بالله.
وقوله (وذكرى للمؤمنين " معناه تذكرة تذكر المؤمنين بالله ورسله كي لا يفعلوا غير الواجب.

(١) سورة القصص آية ١١ .

(٢) اللسان (فأد) ومجمع البيان ٣ / ٢٠٣

(٨٨)

قوله تعالى:

(وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون) (١٢١) وانتظروا إنا منتظرون
(١٢٢). آيتان في الكوفي والبصري، وإحدى المدينين تمام الاولى انا عاملون، وآية فيما سوى ذلك.

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يقول للكفار الذين لا يصدقون بتوحيد الله ولا يعترفون
بنبوة نبيه صلى الله عليه وسلم " اعملوا على مكانتكم " والمكانة الطريقة التي يتمكن من العمل
عليها، ويقال: له مكانة عند السلطان - أي جاه، وقدر وهذا خرج مخرج التهديد، وهو مثل
قوله " اعملوا ماشئتم " (١).

وقوله " إنا عاملون " معناه إنا عاملون على الايمان الذي أمرنا الله به ودعانا اليه.
وقوله " وانتظروا " أي توقعوا، وقد فرق بينهما بأن التوقع طلب ما يقدر أنه يقع، لانه من
الوقوع. والانتظار طلب ما يقدر النظر اليه، لانه من النظر.
والفرق بين الانتظار والترجي، أن الترجي للخير خاصة، والانتظار في الخير والشر. ولو
دخلت الفاء في قوله " إنا " لافاد أن الثاني لاجل الاول وحيث لم تدخل لم تفد ذلك.
ومتعلق الانتظار يحتمل أمرين:

احدهما - انتظروا ما يعدكم الشيطان من الغرور، فانا منتظرون ما يعدنا ربنا من النصر
والعلو، في قول ابن جريج.

(١) سورة حم السجدة آية ٤٠ .

(٨٩)

الثاني - انتظروا ما يعدكم ربكم على الكفر من العذاب، فانا منتظرون ما يعدنا على الايمان
من الثواب.

قوله تعالى:

(ولله غيب السموات والارض وإليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون) (١٢٣)
آية بلاخلاف.

قرأ نافع وحفص يرجع - بضم الياء وفتح الجيم - وقرأ أهل المدينة، وابن عامر، وحفص، ويعقوب (يعملون) بالياء - ههنا، وفي النمل. الباقرن بالتاء.
من ضم الياء فلقوله " ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق " (١)، والمعنى رد أمرهم إلى الله.
ومن فتح الياء فلقوله " والامر يومئذ لله " (٢)، والمعنيان متقاربان.
ومن قرأ بالتاء في " تعملون " جعل الخطاب للنبي ولأمتة، وهو أعم فائده ومن قرأ بالياء في " يعملون " جعل ذلك متوجها إلى من تقدم ذكره من الكفار، وفيه ضرب من التهديد.
أخبر الله تعالى في هذه الآية بأن له غيب السموات والارض، وخص الغيب بذلك لآحد امرين:
أحدهما - لان ذلك يدل على ان له شهادة ايضا.

(١) سورة الانعام اية ٦٢، وفي سورة يونس آية ٣٠ " ورددوا إلى الله ".

(٢) سورة الانفطار آية ١٩.

(٩٠)

الثاني - لعظم شأن الغيب الذي له. ومن كان له الغيب كان له الشهادة، والغيب كون الشئ بحيث لا يلحقه الحس، ومنه " عالم الغيب والشهادة " (١).
أي عالم الموجود والمعدوم، وما يغيب عن احساس الناس وما يظهر لها، ومعنى " وإليه يرجع الامر كله " أي يذهب إلى حيث ابتدأ منه، فرجوع الامر إلى الله بالاعادة بعد النشأة الاولى.
وقيل ترجع الامور إلى ان لا يملكها سواه تعالى - في قول أبي علي الجبائي.
وقوله " فاعبده " أي وجه عبادتك إليه وحده " وماربك بغافل عما تعملون " فالغفلة السهو، الا ان الغفلة يغلب عليها ان تكون بعد اليقظة، كالنوم بعد الانتباه، والسهو نقيض الذكر من غير علة في الصفة. والمعنى انه ليس ربك يا محمد صلى الله عليه وسلم بساه عن اعمال عبادته، بل هو عالم بها ومجاز كلا على ما يستحقه من ثواب أو عقاب، فلا يحزنك إعراضهم عنك، وترك قبولهم منك. وقال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة هود.

(١) سورة التوبة آية ٩٥، ١٠٦ وسورة المؤمنون آية ٩٣، وسورة الزمر آية ٤٦، وسورة الجمعة آية ٨.

(٩١)

(١٢) سورة يوسف مكية في قول مجاهد، وقتادة، وهي مئة واحد عشر آية بلاخلاف في ذلك بسم الله الرحمن الرحيم.

(الر تلك آيات الكتاب المبين) (١) آية بلاخلاف.

لم يعدوا (الر) آية، لانه على حرفين، ولايشاكل رؤوس الآي، فيعد من الفواصل بالوجهين، لانه بالحرفين يجري مجرى الاسماء الناقصة، وإنما يؤم بالفواصل التمام، وانما يعد (طه) لانه يشبه رؤوس الآي. وقد بينا فيما تقدم اختلاف المفسرين في مبادئ السور بهذه الحروف (١).

وقلنا أن أقوى الاقوال قول من قال إنها اسماء للسور، فلاوجه، لاعادة القول فيها.

قوله " تلك آيات " قال قوم: هو اشارة إلى ماتقدم من ذكره السورة في قول " الر " كأنه قال سورة يوسف " تلك آيات الكتاب المبين " .

الثاني - انه اشارة إلى مايتي من ذكرها على وجه التوقع لها. وقال قوم:

(١) انظر ١ / ٤٧ - ٥٠، ٢ / ٣٨٨، ٤ / ٣٦٧، ٥ / ٣٨١، ٥١١.

(٩٢)

معناه هذه تلك الآيات التي وعدتم بها في التوراة، كما قال " الم ذلك الكتاب " المبين " معناه المظهر لحلال الله وحرامه والمعاني المرادة به، وهو قول مجاهد وقتادة، ويروي عن معاذ أنه قال (المبين) قال بين الحروف التي سقطت عن السن الاعاجم، وهي ستة يعني حروف الحلق.

والبيان هو الدلالة. وقال الرماني البيان: إظهار المعنى من الطريق التي من جنسه. والبرهان إنما هو إظهار صحة المعنى بمايشهد به، وإنما سميت (آيات) لما فيها من الدلالة القاطعة على صحة ماتضمنته الآية الدالة.

قوله تعالى:

(إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (٢)

آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى أنه انزل هذا الكتاب قرآنا عربيا لكي يعقلوا معانيه وأغراضه، وسماه (قرآنا) لما تضمن مجموع خبر يوسف وغير ذلك. و (القرآن)

كلام في أعلا طبقة البلاغة، ووجه بلاغة القرآن كونه في نهاية التلاؤم المنافي للتناظر في تأليف اللفظ والمعنى: مع تشاكل المقاطع في الفواصل بمايقنضيه المعنى ومع تصريف القول على احسن ماتصرف به المعنى.

والعقل مجموعة علوم يتمكن معها من الاستدلال بالشاهدين على الغائب، ويفصل به بين الحسن والقبیح. ثم يجري على كل مايعقله الانسان في نفسه من المعاني.

وفي الآية دليل على ان كلام الله محدث، لانه وصفه بالانزال وبأنه عربي، ولا يوصف بذلك القديم.

وفيه دلالة على أن القرآن غير الله، لانه وصفه بأنه عربي، ومن يزعم أن الله عربي، فقد كفر، وماكان غير الله فهو محدث.

(٩٣)

والهاء في قوله " انا أنزلناه " كناية عن الكتاب الذي تقدم ذكره. قال الزجاج: ويجوز ان يكون المعنى إنا انزلنا خبر يوسف، وقصته، لان علماء اليهود، قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم لم انتقل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف، فانزل الله الآية ودليله قوله " لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين. قوله تعالى:

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) (٣) آية بلاخلاف.

أخبر الله انه يقص على نبيه احسن القصص، و (القصص) يتعدى بحرف الجر في عليك لان معناه يتلو بعض الحديث بعضا، ولوقال: نخبرك، لتعدى بنفسه وقوله " أحسن القصص " يدل على ان الحسن يتفاضل ويتعاضم، لان لفظ أفعل حقيقتها ذلك، وانما يتعاضم بكثرة استحقاق المدح عليه.

وقوله " بماأوحينا اليك هذا القران " دخلت الباء في بما اوحينا، لتبيين أن القصص يكون قرآنا وغير قرآن، والقصص - ههنا - بالوحي: القرآن كأنه قال أوحينا اليك هذا القرآن، ونصب القرآن بايقاع الوحي عليه، وكان يجوز فيه الجر على البذل من (ما) والرفع على ان يكون جواب (ما) (هذا) في قول الزجاج، ولم يقرأ بغير النصب.

وقوله " وان كنت من قبله لمن الغافلين " بمعنى كنت يامحمد صلى الله عليه وسلم قبل وحيننا اليك غافلا عن الاحكام التي ذكرناها في القرآن حتى أتيناك بها، ودللتناك عليها، ولم تكن تهتدي اليها. وقيل معناه من الغافلين عن قصة يوسف وأخوته، حتى أخبرناك بها.

(٩٤)

قوله تعالى:

(إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) (٤) آية بلاخلاف.

قرأ ابن عامر وابوجعفر " يأببت " بفتح التاء في جميع القرآن. الباقيون بكسر التاء، وابن كثير يقف بالهاء. الباقيون يقفون بالتاء، وقرأ ابوجعفر أحد عشر وتسعة عشر بسكون العين فيها. الباقيون بفتحها.

العامل في (إذ) أحد أمرين: أحدهما - اذكر " اذقال يوسف ". والثاني - نقص عليك " اذقال " في قول الزجاج، ولا يكون على هذا الوجه ظرفاً للقصص في معنى نذكره، ويجوز في " يأببت " ثلاثة أوجه من الاعراب:

أحدهما - الكسر على حذف ياء الإضافة.

الثاني - (يأببت) بفتح التاء على حذف الالف المنقلبة عن ياء الإضافة، كأنه أراد يأببتا، فحذف الالف كما تحذف الياء، فتبقى الفتحة دالة على الالف، كما ان الكسرة دالة على الياء، قال رؤبة:

* يأببتا علك أو عساكا (١) *.

فلما كثرت هذه الكلمة في كلامهم ألزموه القلب، قال ابو علي الفارسي: ويحتمل ان يكون مثل ياطلحة اقبل، ووجهه ان الاسماء التي فيها تاء التأنيث أكثر ما ينادى مرخما، فلما كان كذلك رد التاء المحذوفة في الترخيم وترك الامر يجري على ما كان يجري عليه في الترخيم من الفتح، فلم يعتد بالهاء، واقحامها كما قالوا: واجمعت اليمامة يريدون أهل اليمامة، قالوا: أجمعت أهل اليمامة، فلم يعتدوا برد أهل.

(١) تفسير القرطبي ٩: ١١٩ وصدده:

* تقول بنتي قد انى اتاكا *

(٩٥)

الثالث - يأببة بضم الهاء في قول الفراء ولم يجره الزجاج، قال: لان التاء عوض من ياء الإضافة. قال الرماني هذا جائز لان العوض لا يمنع من الحذف، والوقف يجوز على التاء، لان الإضافة مقدره بعدها، وان قدر على حذف الالف لم يجز الوقف، الا بالتاء وان قدر على الاقحام جاز الوقف كقول النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب * وليل اقاويه بطئ الكواكب (١)

وانما دخلت الهاء في (يأببت) للعوض من ياء الإضافة اذ يكثر في النداء، مع لزوم معنى الإضافة، فكان أحق بالعلامة لهذه العلة. وقال أبو علي: إنما وقف ابن كثير بالهاء، فقال يأببة، لان التاء التي للتأنيث تبدل منها الهاء في الوقف، ولم يجز على تقدير الإضافة، لانه اذا وقف

عليها سكنت للوقف واذا سكنت كانت بمنزلة ما لا يراد به الاضافة فأبدل منها الهاء كما إذا قال
ياطلحة أقبل بفتح التاء، واذا وقف عليها أبدل الهاء ياء.

وإنما - أعاد ذكر " رأيتهم " لامرين: احدهما - للتوكيد حيث طال الكلام.

الثاني - ليدل انه رآهم ورأى سجودهم، وفي معنى سجودهم قولان:

احدهما - هو السجود المعروف على الحقيقة تكرمة له لاعبادة له.

الثاني - الخضوع - في قول ابي علي - كما قال الشاعر:

ترى الا كم فيه سجدا للحوافر (٢)

وهو ترك للظاهر، وقال الحسن: الاحد عشر اخوته، والشمس والقمر أبواه، وانما قال ساجدين

بالباء والنون، وهو جمع ما لا يعقل، لانه لما وصفها بفعل ما يعقل من السجود أجرى عليها

صفات ما يعقل، كما قال " يأيتها النمل ادخلوا مساكنكم " (٣) لما أمروا امر من يعقل.

(١) مرتخرجه في ٥: ٣٦٨.

(٢) مر هذا الشعر في ١: ١٤٨، ٢٦٣، ٣١١، ٤: ٢٣٣، ٣٨٣.

(٣) سورة النمل آية ١٨.

(٩٦)

و (كوكبا) منصوب على التمييز و (أحد عشر) الاسمان جعلنا اسما واحدا، وكذلك إلى تسعة
عشر، واللغة الجيدة عند البصريين فتح العين، وحكي سكون العين، وحكى الزجاج احدى
عشر وهي لغة ردية.

قوله تعالى:

(قال يابني لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين) (٥)
آية بلاخلاف.

قرأ الكسائي الا أبا الحارث وقتيبة، والعبسي، وابن اليزيدي بامالة " رؤياك " والرؤيا في جميع
القرآن، وروى ابو الحارث فتح " رؤياك " وامالة الباقي. وقرأ قتيبة امالة " الرؤيا " ونصب "
رؤياك ".

وقرأ خلف في اختياره بامالة مافيه ألف ولام. الباقيون بالتفخيم.

وخفف الهمزة في جميع ذلك أبو جعفر، وورش، والسموني، وشجاع والترمذي في الادراج، إلا
ان أبا جعفر يدغم الواو في الياء فتصير ياء مشددة، قال ابو علي النحوي (الرؤيا) مصدر
كالبشرى والسقيا والبقيا والشورى إلا انه لما صار اسما لهذا التخيل في المنام جرى مجرى
الاسماء، كما أن (در) لما كثر في كلامهم في قولهم لله درك جرى مجرى الاسماء، وخرج من

حكم الاعمال: فلا يعمل واحد منهما اعمال المصدر، ومما يقوي خروجه عن أحكام المصادر تكسيرهم لها (دري) فصادر بمنزلة (ظلم) والمصادر في الاكثر لا تكسر، والرؤيا على تحقيق الهمزة، فان حذف قلبتها في اللفظ واوا ولم يدغم الواو في الياء، لان الواو في تقدير الهمزة فهي لذلك غير لازمة، فلا يقع الاعتداد بها فلم تدغم، وقد كسر اولها قوم فقالوا (ريا) فهؤلاء قبلوا الواو قلبا لاعلى وجه التخفيف، ومن ثم كسروا الفاء، كما كسروا من قولهم: قرن لوى وقرون لي.

(٩٧)

في هذه الآية حكاية ماأجاب به يعقوب يوسف حين قص عليه رؤياه ومنامه، فقال له " يا بني لاتقص رؤياك على أخوتك " أي لا تخبرهم بها فانك إن أخبرتهم بذلك حسدوك وكادوك واحتالوا عليك، وانماقال ذلك لعلمه بأن تأويل الرؤيا أنهم يخضعون له. وقوله " يا بني " فيه ثلاث يآت، الياء الاصلية، وياء الاضافة، وياء التصغير. وحذفت ياء الاضافة اجتزاء بالكسرة وادغمت احدى اليائين في الاخرى. وفتح الياء وكسرها لغتان. وانما صغر (بني) مع عظم منزلته، لانه قصد بذلك صغر السن، ولم يقصد به تصغير الذم.

والرؤيا تصور المعنى في المنام على توهم الابصار، وذلك أن العقل مغمور بالنوم، فاذا تصور الانسان المعنى توهم أنه يراه.

والاخ المساوي في الولادة من أب او أم أو منهما، ويجمع أخوة وآخاء. والكيد طلب الغيظ بأذى الطالب لغيره كاده يكيد كيدا، فهو كائد.

وقوله " ان الشيطان للانسان عدو مبين " اخبا رمنه تعالى بأن الشيطان معاد للانسان، ويلقى العداوة بينهم، واللام في قوله (لك كيدا) لام التعدية، كما يقال قدمت له طعاما، وقدمت اليه طعاما. وقال قوم: هو مثل قولهم شكرته وشكرت له، لانه يقال كاده يكيده، وكادله.

وحكى الكسائي أن قوما يقولون: (الريا) بكسر الراء وتشديد الياء فيقلبون الهمزة واوا ويدعمون الواو في الياء. و (رؤيا) فيها أربع لغات بضم الراء مع الهمزة وبالواو بلا همزة. وقد قرئ بهما، وبضم الراء والادغام. وبكسر الراء، ولا يقرأ بهاتين. قوله تعالى:

(وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث تفسير التبيان ج ٦ - م ٧

(٩٨)

ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم (٦) آية بلاخلاف.

هذه حكاية ما قال يعقوب لابنه يوسف (ع) وقوله له ان الله يجتبيك، ويختارك، ويصطفيك ويكرمك بذلك، كما أكرمك بأن اراك في منامك هذه الرؤيا، فوجه التشبيه وهو اعطاء الرؤيا باعطاء الاجتباء مع ما انضاف اليه من الصفات الكريمة المحمودة التي ذكرها. والاجتباء إختيار معالي الامور للمجتبي مثل ما اختاره الله تعالى ليوسف من الخصال الكريمة والامور السنية، وقال الحسن: اجتباه الله بالنبوة، وبشره بذلك. وأصله من جبيت الشيء اذا اخلصته لنفسك، ومنه جبيت الماء في الحوض.

وموضع الكاف من و (كذلك) نصب، والمعنى مثل ما رأيت تأويله يجتبيك ربك. " ويعلمك من تأويل الاحاديث " معناه أنه تعالى يعرفك عبارة الرؤيا في قول قتادة، ومجاهد - وذلك تأويل أحاديث الناس عما يرونه في منامهم، وقيل كان أعبّر الناس للرؤيا، ذكره ابن زيد. وقال الزجاج، والجبائي: معناه يعلمك تأويل الاحاديث في آيات الله تعالى ودلائله على توحيده، وغير ذلك من أمور دينه. والتأويل في الاصل هو المنتهى الذي يؤل اليه المعنى. وتأويل الحديث فقهه الذي هو حكمه، لانه اظهار مايؤل اليه أمره مما يعتمد عليه وفائدته. وقوله " ويتم نعمته عليك " فاتمام النعمة هو أن يحكم بدوامها على اخلاصها من شائب بها فهذه النعمة التامة بخلوصها مما ينغصها، ولا تطلب الا من الله تعالى لانه لا يقدر عليها سواه. وقوله " كما اتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحاق " اخبار من يعقوب ليوسف أن الله تعالى يديم عليه هذه النعمة، كما أدامها على أبويه قبله: ابراهيم وإسحق، واصطفائه إياهما وجعله لهما نبيين رسولين إلى خلقه.

(٩٩)

ثم أخبر مع ذلك أن الله تعالى عليم بمن يصلح أن يجتبي، حكيم في اجتهائه من يجتبيه واضع للشيء في موضعه، وفي غير ذلك من افعاله. قال الفراء: قوله " وكذلك يجتبيك ربك " جواب لقوله إني رأيت أحد عشر كوكبا، فقبل له، وهكذا يجتبيك ربك (فكذلك، وهكذا) سواء في المعنى، وقال ابن اسحاق إنما قص الله تعالى قصة يوسف علي محمد (صلى الله عليه وسلم) ليعلمه أنه بغى عليه أخوته وحسدوه، فيسليه بذلك من بغى قومه عليه وحسدهم إياه. قوله تعالى:

(لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) (٧)

آية بلاخلاف.

قرأ ابن كثير وحده " آية للسائلين " على التوحيد الباقيون " آيات " على الجمع. قال أبو علي النحوي من أفرد جعل شأنه كله آية. ويقوي ذلك قوله " وجعلنا ابن مريم وامه آية " (١) فأفرد، وكل واحد منهما على انفراده يجوز أن يقال آية، فأفرد مع ذلك، ومن جمع جعل كل واحد من احواله آية، ومن جمع على ذلك على أن المفرد المنكر في الايجاب يقع دالا على الكثرة كما يكون ذلك في غير الايجاب قال الشاعر:

فقتلا بتقتيل وضربا بضربكم * جزاء العطاش لاينام من النار (٢)

اللام في قوله " لقد " هي اللام التي يتلقى بها القسم. أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه كان في يوسف وفي اخوته آيات. والآية الدلالة على ما كان من الامور العظيمة. والآية والعلامة والعبارة نظائر في اللغة. وقال الرماني: الفرق بين الآية والحجة: أن الحجة معتمد البينة التي توجب الثقة بصحة المعنى. والآية تكشف عن المعنى

(١) سورة المؤمنون آية ٥١ (٢) مجمع البيان ٣: ٢١٠

(١٠٠)

الذي فيه أعجوبة. ووجه الآية في يوسف واخوته أنهم نالوه للحسد بالاذى مع أنهم أولاد الانبياء: يعقوب واسحاق وابراهيم، فصيح وعفا، وأحسن ورجع إلى الاولى، وكان ذلك خروجاً عن العادات.

وقال الزجاج: معناه بصيرة للذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فانبأهم بقصة يوسف - وهو صلى الله عليه وسلم لم يقرأ كتاباً، ولم يعلمه إلا من جهة الوحي - جواباً لهم حين سألوه.

وفي يوسف لغتان ضم السين وكسرها، وكذلك يونس بضم النون، وكسرها، والقراء على الضم فيهما، وحكى قطرب فتح النون في يونس وهي شاذة. قوله تعالى:

(إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين) (٨) آية بلاخلاف.

قرأ ابن كثير ونافع والكسائي " مبين اقتلوا " بضم التنوين. الباقيون بكسره قال أبو علي: من ضم التنوين اتبع حركة التنوين ضمة الهمزة بعده، لأن تحريكه ملزم لالتقاء الساكنين، كما قالوا مذ به وفي ظلمات فاتبعوا الضمة وكذلك " مبين اقتلوا " وقالت اخرج "، ومن كسر لم يتبع، وكسر على أصل الحركة لالتقاء الساكنين في الامر الاكثر.

والعامل في (إذا) اذكر، وتقديره اذكر إذ قالوا ليوسف. ويحتمل أن يكون العامل فيه ما في الآية الأولى من قوله " لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين. إذ قالوا ليوسف ". وفي الآية اخبار عما قالت أخوة يوسف حين سمعوا منام يوسف وتأويل يعقوب إياه. وقولهم: ان يوسف وأخاه لابييه وأمه، وهو ابن يامين " احب إلى أبينا " يعقوب " منا " مع انا عصبه أي جماعة، والحب ضد البغض، والحب

(١٠١)

- بفتح الحاء - سمي به، لانه مما يحب، والحب بكسر الحاء - المفرط لما فيه من الحب، والاحباب ان يبرك البعير فلايثور، لانه يحب البروك والمحبة، على ضربين: احدهما - المحبة التي هي ميل الطباع. والثاني - ارادة المنافع.

والفرق بين المحبة والشهوة أن الانسان يحب الولد، ولا يشتهييه بأن يميل طبعه اليه ويرق عليه ويريد له الخير. والشهوة منازعة النفس إلى مافيه اللذة. والعصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض، وقولهم " ونحن عصبة " أي جماعة يعين بعضها البعض، وكانوا عشرة. والعصبة يقع على الجماعة من عشرة إلى خمسة عشر، ولاواحد له من لفظه، كالرھط والقوم والنفر.

وقوله " ان ابانا لفي ضلال مبين " معناه الاخبار عن قولهم ان ابانا في ذهاب عن طريق الحق والصواب الذي فيه التعديل بيننا في المحبة. وقيل: انهم أرادوا انه غلط في تدبير أمر الدنيا إذ كانوا انفع له من يوسف وأخيه من أمه وأبيه إذ كانوا يقومون بأمواله ومواشيه، ولم يريدوا الضلال في الدين، لانهم لو أرادوا ذلك، لكانوا كفارا، وذلك خلاف الاجماع.

واكثر المفسرين على ان اخوة يوسف كانوا انبياء، وقال قوم: لم يكونوا كذلك، وهو مذهبنا، لان الانبياء، لايجوز ان تقع منهم القبائح، وخاصة ما فعلوه مع أخيه يوسف من طرحه في الجب، وبيعهم إياه بالثمن البخس، وادخالهم الغم به على أبيهم يعقوب، وكل ذلك يبين أنهم لم يكونوا أنبياء. وقال البلخي:

ذهب قوم إلى أنهم لم يكونوا في تلك الحال بلغوا اللحم، وقد يقع مثل ذلك ممن قارب البلوغ، وان لم يبلغ، ويعاتب عليه ويذم، ويضرب على فعله.

ومن قال: كانوا بالغين غير انهم لم يكونوا انبياء استدل على بلوغهم بقوله " وتكونوا من بعده قوما صالحين "، وقولهم " ياابانا استغفر لنا ذنوبنا " وقال الانبياء الاسباط من بني يعقوب غير هؤلاء..

(١٠٢)

قوله تعالى:

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين) (٩) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى عن اخوة يوسف انهم قال بعضهم لبعض " اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم، وتكونوا من بعده قوما صالحين " ومعناه اطرحوه في أرض تأكله السباع او يهلك بغير ذلك من الامور. وقيل: معناه اطرحوه في أرض يبعد عن أبيه، ولا يقدر عليه. وقوله " يخل لكم وجه أبيكم " جواب الامر في قوله " اقتلوا يوسف " ولا يجوز فيه غير الجزم، لانه ليس فيه ضمير، والمعنى انكم متى قتلتموه او طرحتموه في أرض اخرى خلا لكم أبوكم وحن عليكم " وتكونوا من بعده قوما صالحين " معناه إنكم اذا فعلتم ذلك وبلغتم أغراضكم تبتم مما فعلتموه، وكنتم من جملة الصالحين الذين يفعلون الخيرات، فيكفر عنكم عقاب ما فعلتموه. وقال الحسن: معناه تكونوا قوما صالحين في أمر دنياكم، ولم يريدوا أمر الدين. قوله تعالى:

(قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) (١٠) آية بلاخلاف.

قرأ نافع وابوجعفر، " غيابات " على الجمع. الباقون " غيابة " على التوحيد، وقرأ الحسن تلتقطه بالتاء، كما قالوا ذهب بعض اصابعه، قال ابو علي: وجه قول من أفرد، أن الجب لا يخلوا ان يكون له غيابة واحدة او غيابات، فغيابة المفرد يجوز ان يعنى به الجمع، كما يعنى به الواحد، ووجه قول من جمع: انه يجوز ان يكون له غيابة واحدة، فجعل كل جزء منه غيابة، فجمع على ذلك، كقولهم

(١٠٣)

شابت مفارقة، ويجوز ان يكون عنده للجب غيابات، فجمع على ذلك. اخبر الله تعالى في هذه الآية عن واحد من جملة القوم أنه قال على وجه المشورة عليهم " لا تقتلوا يوسف " ولكن اطرحوه في جب عميق قليل الماء. وقيل إنه كان اسم القائل لذلك (روبييل) وكان ابن خالة يوسف - في قول قتادة وابن اسحاق - وقال الزجاج: كان يهودا، والغيابة الموضع الذي يغيب فيه صاحبه وغيابة البئر شبه الجاف او طاف فوق الماء وضعوه فيها. وكما غيب شئ عن الحس بكونه، فهو غيابة. وقال الحسن يعني في قعر الجب قال المنخل:

فان انا يوم غيبتني غيابتني * فسيروا بسيري في العشيرة والاهل (١)

والجب البئر التي لم تطو، لانه قطع عنها ترابها حتى طغى الماء من غير طي، ومنه
المجبوب قال الاعشى:

لئن كنت في جب ثمانين قامة * ورقيت أسباب السماء بسلم (٢)

و (السيارة) الجماعة المسافرون، لانهم يسيرون في البلاد. وقيل: هم مارة الطريق. و
(الالتقاط) تناول الشئ من الطريق، ومنه اللقطة واللقطة.

وقيل: انهم أشاروا عليه بأن يقعد في دلو المدلي إذا استسقى ليخرجه من البئر ففعل. ومعنى
التقاطه أن يجدوه من غير ان يحسبوه، يقال وردت الماء التقاطا إذا وردته من غير ان تحسبه.
قوله تعالى:

قالوا ياأبانا مالك لاتأمننا على يوسف وإنا له لناصحون

(١١) آية بلاخلاف.

(١) الشاعر هو المنخل بن نسيح العنبري. تفسير القرطبي ٩ / ١٣٢ والتاج (غيب) ومجاز القرآن ١ / ٣٠٢ (٢)
ديوان (دار بيروت) ١٨٢ والصبح المنير ٨٤ ومجاز القرآن ١ / ٣٠٢ وتفسير القرطبي ٩ / ١٣٢ والكتاب لسبويه
٢٣١ / ١

(١٠٤)

كلهم قرأ " تامنا " بفتح الميم وادغام النون الاولى في الثانية، والاشارة إلى اعراب النون
المدغمة بالضم اتفاقا، قال ابو علي وجه ذلك ان الحرف المدغم بمنزلة الموقوف عليه من حيث
جمعهما السكون، فمن حيث اشموا الحرف الموقوف عليه إذا كان مرفوعا في الادراج اشموا
النون المدغمة في (تامنا) وليس ذلك بصوت خارج إلى اللفظ، وانما هي هيئة العضو لاجراج
ذلك الصوت به ليعلم بذلك أنه يريد ذلك المتهياً له.

حكى الله تعالى عن أخوة يوسف لما تأمروا على مايفعلونه بيوسف أنهم، قالوا لابيهم لم
لاتأمننا على يوسف " قال الزجاج: يجوز في (تأمننا) أربعة أوجه:

تأمننا بالاظهار ورفع النون الاولى، لان النونين من كلمة، و " تأمننا " بالادغام وهي قراءة
القراء لانتقاء المثليين، و (تأمننا) بالادغام والاشمام، وهو الذي حكاه ابن مجاهد عن الفراء،
للاشعار بالضممة، و (تئمننا) بكسر التاء وهي قراءة يحيى ابن وثاب، لان ماضيه فعل، كماقالوا
تعلم ونعلم إلا ان القراءة بالادغام والاشمام.

والامن سكون النفس إلى إنتقاء الشر، وضده الخوف، وهو انزعاج النفس لما يتوقع من
الضر. وقوله " واناله لناصحون " تمام الحكاية عنهم أنهم قالوا إنا ليوسف لنا صحنون مشفقون
عليه. والنصح إخلاص العمل من فساد يتعمد.

ونقيضه الغش. والنصح في التوبة اخلاصها مما يفسدها. وذلك واجب فيها وهي التوبة
النصوح.

قوله تعالى:

(أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنما له لحاظون) (١٢)

آية بلاخلاف.

قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو " نرتع ونلعب " بالنون فيهما. وكسر العين من " يرتع " من
غير بلوغ إلى الياء أهل الحجاز، إلا المالكي. والعتار عن الزبيبي اثبات (ياء) في الوصل،
والوقف بعد العين. الباقيون بسكون العين، ولم

(١٠٥)

يختلفوا في سكون الباء من ويلعب، وقرأ نافع يرتع، ويلعب بالياء فيهما، وكسر العين. وقرأ
أهل الكوفة بالياء فيهما، وجزم العين والياء. قال ابو علي: قراءة ابن كثير حسنة، لأنه جعل
الارتعاء القيام على المال لمن بلغ وجاوز الصغر، واسند اللعب إلى يوسف لصغره، ولالوم
على الصغير في اللعب، ولانم.

والدليل على صغر يوسف قول أخوته " واناله لحاظون " ولو كان كبيرا ما احتاج إلى حفظهم.
وايضا قال يعقوب أخاف ان يأكله الذئب، ولولم يكن صغيرا ماخاف عليه، وانما يخاف الذئب
على من لادفاع فيه، ولامانعة له: من شيخ، فان اوصبي صغير قال الشاعر:

اصبحت لا أحمل السلاح ولا * املك رأس البعير ان نفرا

والذئب اخشاه ان مررت به * وحدي واخشى الرياح والمطرا (١)

فأما اللعب فمما لا ينبغي ان ينسب إلى اهل النسك والصلاح، ألا ترى إلى قوله: " أجتنتنا بالحق
ام انت من اللاعبين " (٢) فقول اللعب بالحق فدل على انه خلافه، وقال " ولئن سألتهم ليقولن
انما كنا نخوض ونلعب " (٣) وقال " وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا " فأما الارتعاء فهو
افتعال من رعيت مثل سويت واستويت وكل واحد منهما متعد إلى مفعول به، قال الشاعر:

ترتعي السطح فالكتيب فذا قا * رفروض القطا فذات الرئال (٤)

وقال ابو عبيدة: ويجوز ان يقال نرتع ويراد ترتع إيلهم ووجه ذلك انه كان الاصل ترتع إيلنا ثم
حذف المضاف وأسند الفعل إلى المتكلمين، فصار نرتع وكذلك نرتعي على ترتعي إيلنا، ثم
يحذف المضاف فيكون نرتعي. وقال أبو عبيدة: نرتع نلهو، وقد تكون هذه الكلمة على غير
معنى النيل من الشئ كقولهم في المثل العبد والرتعة، فكان على هذا النيل والتناول مما يحتاج
اليه الحيوان.

(١) قائله الربيع بن ضبيح الفزاري. سيبويه ١: ٤٦ ومجمع البيان ٣: ٢١٤.
(٢) سورة الانبياء آية ٥٥، (٣) سورة التوبة ٩ آية ٦٥ (٤) قائله الاعشى، ديوان: ١٦٣ واللسان (سفع)، (رأل).

(١٠٦)

واما قراءة ابي عمرو، وابن عامر، فعلى أن معناه نرتع أبلنا، او على اننا ننال مانحتاج اليه ومعناه ننال. فأما قوله " ونلعب " فحكي ان ابا عمرو قيل له كيف يقولون نلعب، وهم انبياء؟ فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء، فعلى هذا سقط الاعتراض ولايجوز ان يكون المراد به مثل ما قال الشاعر.

حدث حداد تلاعب وتفشعت * غمرات قالت ليسه حيران (١)

فكان اللعب ههنا الذي لم يتشمر في امره، فدخله بعض الهوينا، فهذا أسهل من الوجه الذي قوبل بالحق، وقدروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لجابر: (فهلا بكرت تلاعبها وتلاعبك) وانما اراد بذلك التشاغل بالمباح والعمل بما يتقوى به على العبادة والطاعة. وقد روي عن بعض السلف انه كان اذا اكثر النظر في مسائل الفقه قال احمضونا، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق فان المبتت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى. فليس هذا اللعب من الذين " قال انما كنا نخوض ونلعب " في شئ. ومن قرأ بالياء فإن كان يرتع من اللهو، كما فسره ابو عبيدة، فلا يمتنع ان يخبر به عن يوسف لصغره، كما لا يمتنع ان ينسب اليه اللعب كذلك إن كان " يرتع " من النيل من الشئ، فلذلك ايضا لا يمتنع عليه ايضا، فوجهها بين، وهو أبين من قول من قال " ونلعب " بالنون، لانهم سألوا ارساله ليتنفس بلعبه، ولم يسألوا ارساله ليلعبواهم. والرتع الاتساع في البلاد بالذهاب في جهاتها من اليمين والشمال، فلان يرتع في المال وغيره من ضروب الملاذ، واصل الرتعة التصرف في الشهوات رتع فلان في ماله اذا انفق في شهواته قال القطامي:

أكفرا بعد رد الموت عني * وبعد عطائك المائة الرتعا (٢)

(١) مجمع البيان ٣: ٢١٤ وروايته:

حدث حداد بلاعب وتفشعت * غمرات قالت ليسه حيران

(٢) مر في ١ / ٢٦ وتفسير الطبري (دار المعارف) ١٥: ٥٦٩، والطبعة الاولى ١٢ / ٨٨.

(١٠٧)

وقال مجاهد معنى " نرتع " يحفظ بعضنا بعضا من الرعاية. واللعب يحتمل ما يستهجن ويستتر
ذل لطلب الفرح من غير مراعاة شئ من الحلم كفعل الصبي اذا قصد هذا القصد.
أخبر الله تعالى عن اخوة يوسف انهم قالوا لابيهم ارسل يوسف معنا ينال الملاذ ويتفرح،
ونحن حافظون له ومراعون لاحواله فلا تخشى عليه.
قوله تعالى:

(قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) (١٣) آية
بلاخلاف.

قرأ الكسائي وخلف في اختياره، وابوجعفر ووررش والاعشى واليزيدي في الادراج إلا
سجادة، ومدين من طريق عبدالسلام " الذيب " بتخفيف الهمزة في المواضع الثلاثة. الباقون
بالهمزة. والهمز وترك الهمز لغتان مشهورتان قال ابو علي: والاصل فيه الهمزة، فان خفف
جاز، وان وقع في مكان الرفع قلب قلبا كما قال الشاعر:

كأن مكان الرفع منه على رال (١)

فقلب الهمزة الفا.

أخبر الله تعالى حكاية عن يعقوب انه قال حين طلب اخوة يوسف انفاذ يوسف معهم، واحتيالهم
في ذلك. واشفق من ذلك، قال " اني ليحزنني " اي يؤلم قلبي. يقال حزنتك وأحزنتك لغتان،
والحزن ألم القلب بفراق المحب ويعظم اذا كان فراقه إلى ما يبغض " أن تذهبوا به " اي
ليحزنني اذهبكم به، والذهاب

(١) قاتله امرؤ القيس، ديوانه: ١٦٥ وامالي الشريف المرتضى ١: ٢٢٩ وصدرة:

وصم صلاب مايقين من الوجى وهو يصف حوافر الفرس بانها (صم) اي صلبة (لايقين) ليس فيها تجويف (من
الوجى)

وهو الخفاء. و (مكان الرفع) الموضع الذي يردف عليه الراكب. و (الرال) فرخ الغزال.

(١٠٨)

والمرور والانطلاق نظائر وبين انه يخاف عليه الذئب ان يأكله لان الذئب كانت ضارية في
ذلك الوقت. والذئب سبع معروف، واشتقاقه من تذابح الرياح اذا جاءت من كل جهة، فالذئب
يختل بالحيلة من كل وجه وقوله " وانتم عنه غافلون " جملة في موضع الحال وتقديره اخاف
ان يأكله الذئب في حال كونكم ساهين عنه، والخوف والفرع والقلق نظائر ونقيضه الامن.
قوله تعالى:

(قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون)

(١٤) آية بلاخلاف.

لما قال لهم يعقوب ما ذكره في الآية الاولى، قالوا في الجواب عن ذلك " لئن اكله الذئب ونحن جماعة متعاضدون متناصرون نرى الذئب قد قصده، فلا نمنع عنه " انا اذا لخاسرون " أي بمنزلة الخاسر الذي ذهب رأس ماله على رغم منه، والخسران ذهب رأس المال، والربح زيادة على رأس المال. واللام في قوله " لئن " هي التي يتلقى بها القسم، فكأنهم أقسموا على ما قالوه. وأعظم الخسران ما يذهب بالثواب، ويؤدي إلى العقاب، فلذلك أقسموا عليه، وقال المؤرج: معناه إنا اذا لمضيعون بلغة قيس عيلان.

قوله تعالى:

(فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب وأوحينا إليه لتبتئنهم بأمرهم هذا وهم

لا يشعرون) (١٥)

آية بلاخلاف.

(١٠٩)

حكى الله تعالى انه لما أذن يعقوب ليوسف في المضي معهم، وذهبوا به " وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب " اي عزموا على فعل ذلك، ولا يقال:

أجمع الا اذا قويت الدواعي إلى الفعل من غير صارف وأما من دعاه داع واحد، فلا يقال فيه أنه أجمع، فكأنه مأخوذ من اجتماع الدواعي، ويجوز ان يكون المراد انهم اتفقوا على إلقائه في غيابة الجب، والجعل والتصيير والعمل نظائر في اللغة.

والغيابة البقعة التي يغيب فيها الشئ عن الحس. وقيل طلبوا بئرا قليلة الماء تخييه ولا تغرقه. وقيل بل جعلوه في جانب جبها، وسمى البئر التي لم تطو جبا لانه جب ترابها عنها فقط، كأنه ليس فيها إلا قطع التراب. وجواب (لما) محذوف وتقديره عظمت فتنتهم أو كبر ما قصدوا له. وقال قوم: الواو في وأجمعوا مقحمة. والمعنى أجمعوا أن يجعلوه وهو مذهب الكوفيين، وأنشدوا قول امرئ القيس:

فلما اجزنا ساحة الحي وانتحي * بنابطن خبت ذي قفاف وعقنقل (١)

يريد، فلما اجزنا ساحة الحي انتحي، وقال آخر:

حتى اذا قملت بطونكم * ورأيتم ابناكم شبوا

وقلبتم ظهر المجن لنا * ان اللئيم العاجز الخب (٢)

يريد قلبتم، فادخل الواو. والبصريون لا يجيزونه. وقوله " واوحينا إليه " يعني إلى يوسف، قال الحسن أعطاه الله النبوة، وهو في الجب " لتبتئنهم بأمرهم هذا " معناه ستخبرهم بذلك في

المستقبل و " هم لايشعرون " قال ابن عباس والحسن وابن جريج لايشعرون بأنه يوسف. وقال مجاهد وقتادة: لايشعرون بأنه اوحى اليه.
والشعور ادراك الشئ بمثل الشعرة في الدقة، ومنه المشاعر في البدن. وقال

(١) ديوانه: ١٤٩ من معلقته الشهيرة وتفسير الطبري ١٥ : ٥٧٥ وفي المعلقات العشر (حقاف) بدل (قفاف) وقال وروي (حقف ذي ركام).
(٢) انظر ٣ : ١٩ تعليقة ٤.

(١١٠)

قوم: معنى قوله " لتنبئنهم بأمرهم " لتجازينهم على فعلهم، تقول العرب للرجل: تنوعده بمجازاة سوء فعله: لانبنئك، ولاعرفنك، يعني لاجازينك.
قوله تعالى:

(وجاؤا أباهم عشاء يبكون (١٦) قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وماأنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) (١٧) آيتان بلاخلاف.
في الكلام حذف، لان التقدير إنهم أجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب، وفعلوا ذلك، فلما فعلوه جاؤوا حينئذ " أباهم عشاء يبكون " والمجئ والمصير إلى الشئ واحد، وقد يكون المصير بالانقلاب، كمصير الطين خزفا، وقد يكون بمعنى الانتقال. والعشاء آخر النهار. ونصبه لانه من ظروف الزمان. ومنه اشتق (الاعشى) لانه يستضى ببصر ضعيف. والبكاء جريان الدمع من العين عند حال الحزن، فكانوا يعلمون أن اباهم يحزن لما جاؤا من خبر يوسف، فبكوا مع بكائه عليه، وفي حال خبره لما تصوروا تلك الحال. وقيل: إنهم أظهروا البكاء ليوهموا أنهم صادقون فيما قالوه.

وقوله " إنا ذهبنا نستبق " قيل في معناه قولان:

احدهما - قال الزجاج: ذهبنا نتصل مشتق من السباق في الرمي. وقال الجبائي: نستبق في العدو لنعلم اينأ أسرع عدوا " وتركنا يوسف عند متاعنا " يعني تركناه عند الرحل ليحفظه.
وقوله " وماأنت بمؤمن لنا " أي لست بمصدق لنا " ولو كنا صادقين " وجواب (لو) محذوف، وتقديره: ولو كنا صادقين ماصدقتنا، لاتهامك لنافي أمر يوسف، ودل الكلام عليه. ولم يصفوه بأنه لايصدق الصادق، لان المعنى

(١١١)

انه لا يصدقهم إتهاما لهم لشدة محبته ليوסף يسئ الظن بهم، ولا تسكن نفسه إلى خبرهم.
قوله تعالى:

(وجاؤا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) (١٨)
آية بلاخلاف.

حكى الله تعالى عن أخوة يوسف انهم جاؤا أباهم، ومعهم قميص يوسف ملطخ بدم. وقالوا له هذا دم يوسف حين أكله الذئب. وقال ابن عباس ومجاهد كان دم سخلة، قال الحسن: لما رأى يعقوب القميص صحيحا، قال: يا بني والله ما عهدت الذئب عليما.

قال عامر الشعبي: كان في قميص يوسف ثلاث آيات:

أحدها - حين ألقى على وجه أبيه، فارتد بصيرا، وحين قد من دبر، وحين جاؤا على قميصه بدم كذب. ومعنى (كذب) مكذوب فيه، كما قيل الليلة الهلال فيرفع، وكما قال " فما ربحت تجارتهم " (١) أي ماربحوا في تجارتهم إلا انه وصف في المصدر، وتقديره بدم ذي كذب، لكن إذا بولغ في الصفة اجري على هذه الصفة، وقال الفراء يجوز ان يكون المصدر وقع موقع مفعول، كما يقع مفعول موقع المصدر في مثل قول الراعي القطامي:
حتى اذا لم يتركوا لعظامه * لحما ولا لفؤاده معقولا (٢)

(١) سورة البقرة آية ١٦.

(٢) تفسير الطبري ١٥: ٥٨٣، وجمهرة اشعار العرب: ١٧٥ ومجاز القرآن ١: ٣٠٣ وامالي الشريف المرتضى ١: ١٠٦.

(١١٢)

ولا يجيزه سيبويه، ويقول مفعول لا يكون مصدرا، ويتأول قولهم: خذ ميسوره، ودع معسوره أي خذ مايسر ودع ما عسر عليه، وكذلك: ليس لفؤاده معقولا أي ما يعقل به.

وقوله " قال بل سولت لكم انفسكم امرا " حكاية ما قال يعقوب لهم. والتسويل تزيين النفس مالم يسبحسن - في قول قتادة - وقيل معناه تقرير معنى في النفس على الطبع في تمامه، وهو تقدير معنى في النفس على توهم تمامه.

وقوله " فصبر جميل " فالصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه على ما يدعو إليه العقل، ويحتمل رفع الصبر أمرين: أحدهما - ان يكون خبر ابتداء وتقديره فأمرى صبر جميل.

الثاني - ان يكون مبتدأ، وخبره محذوف، وتقديره فصبر جميل أولى من الجزع الذي لا ينبغي لي، قال الشاعر:

يشكوا الي جملي طول السرى صبر جميل فكلانا مبتلى (١)
ولو نصب لجاز، ولكن الاحسن الرفع، لانه موصوف. وقوله " والله المستعان على ماتصفون
" حكاية ما قال يعقوب عند ذلك، بأن الله تعالى هو الذي يطلب منه المعونة على ماذكروه،
وتقديره استعين بالله على احتمال ما تصفونه، وعلى الصبر كله.
قوله تعالى:

(وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشري هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم
بما يعملون) (١٩)
آية بلاخلاف.

(١) امالي الشريف المرتضى ١: ١٠٧، وروايته:

شكالي جملي طول السرى * يا جملي ليس الي المشتكى

الدرهمان كلفان ماترى * صبر جميل فكلانا مبتلى

(١١٣)

قرأ أهل الكوفة " يا بشري " بغير الف. الباقون بالالف والياء، وكان يجوز أن يقرأ بياء مشددة
" بشري " وهي لغة هذيل غير انه لم يقرأ به احد، قال أبو ذؤيب:
سبقوا هوي واعنقوا لهواهم * فتخرموا ولكل جنب مصرع (١)
قال ابو علي: من قرأ (يا بشري) فاضافه إلى الياء التي للمتكلم، كأن للالف التي هي حرف
الاعراب موضعان من الاعراب:

احدهما - ان تكون في موضع نصب لانه منادى مضاف.

والآخر - ان تكون في موضع كسر، لانه بمنزلة حرف الاعراب في غلامي.

ومن قرأ " يا بشري " احتمل وجهين:

احدهما - ان يكون في موضع ضم مثل يارجل بالنداء لاختصاصه كاختصاص الرجل.

والآخر - ان يكون في موضع النصب لانك اشعت النداء ولم تخص به، كما فعلت في الوجه

الاول كقوله " يا حسرتا على العباد " (٢).

اخبر الله تعالى أنه حين ألقى أخوة يوسف يوسف في غيابة الجب جاءت سيارة، وهم جماعة
مسافرون مارة فبعثوا واردهم، وهو الذي يصير إلى الماء ليستسقي منه " فأدلى دلوه " يعني

أرسل دلوه ليملا، يقال ادليت الدلو إذا ارسلتها لتملا، ودلوتها إذا اخرجتها مملأة، وقيل انه لما ارسل الدلو تعلق بها يوسف، فقال المدلي " يابشراي " هذا غلام، في قول قتادة والسدي. وقيل في معنى (بشراي) قولان:

(١) ديوانه ١: ٢ وامالي الشريف المرتضى ١: ٢٩٣ ورواية الامالي (لسبيلهم) بدله (لهوهم). (٢) سورة يس آية ٣٠.

تفسير التبيان ج ٦ - م ٨

(١١٤)

احدهما - انه بشر اصحابه بأنه وجد عبدا.
والثاني - قال السدي كان اسمه (بشري) فناداه.
وقوله " واسروه بضاعة " قيل في معناه قولان:
احدهما - قال مجاهد والسدي أسره المدلي، ومن معه من باقي التجار لئلا يسألوهم الشركة فيه.
الثاني قال ابن عباس اسره اخوته يكتمون أنه أخوهم وتابعهم على ذلك يوسف لئلا يقتلوه. والبضاعة قطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشيء اذا قطعت، ومنه الموضع، لانه يبضع به العرق. ومعنى " وأسروه " أنهم لما وجدوه أحبوا أن لا يعلم أنه موجود، وان يوهموا أنه بضاعة دفعها اليهم أهل الماء، ونصب بضاعة على الحال.
وقوله " والله عليم بما يعملون " اخبار منه تعالى بأنه عالم بافعالهم، فيجازيهم على جميعها، وان اسروا بها، وفي ذلك غاية التهديد.
قوله تعالى:

(وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) (٢٠) آية بلاخلاف.
حكى الله تعالى عن اخوة يوسف أنهم باعوا يوسف. يقال شريت أشري اذا بعت. ومنه قوله " ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون " (١) وقال يزيد ابن مفرغ الحميري:
وشريت بردا لبيتني * من بعد برد كنت هامه (٢)

(١) سورة البقرة آية ١٠٢ (٢) مر هذا البيت في ١: ٣٤٨، ٣: ٢٥٧.

(١١٥)

وقوله " بئس بئس درهم معدودة " أي بئس ذي بئس، أي ناقص. وقيل بئس ذي ظلم، لأنه كان حرا، لا يحل بيعه، فالثمن هو بدل الشيء من العين أو الورق. ويقال في غيرهما أيضا مجازا. والبئس النقص من الحق، يقال: بئسه في الوزن أو الكيل إذا نقصه من حقه فيهما. ومعنى " معدودة " اي قليلة، لان الكثير قد يمنع من عدده لكثرتة. وقيل: عدوها ولم يزنوها. وقيل: انهم كانوا لا يزنون الدرهم حتى تبلغ أوقية، وأوقيتهم أربعون درهما. وقال عبدالله بن مسعود وابن عباس وقتادة: إنها كانت عشرين درهما. وعن ابي عبدالله (ع) إنها كانت ثمانية عشر درهما. وقال ابن عباس ومجاهد: ان الذين باعوه اخوته، وانهم كانوا حضورا، فقالوا هذا عبد لنا بئس، فباعوه. وقال قتادة الذين باعوه السيارة.

وقوله " وكانوا فيه من الزاهدين " يعني الذين باعوه، زهدوا فيه، فلذلك باعوه بئس بئس، وتقديره وكانوا زاهدين فيه من الزاهدين بجهلهم بماله عند الله من المنزلة الرفيعة، وانما قدموا الظرف، لأنه أقوى في حذف العامل من غيره، ولا يجوز قياسا على ذلك (وكانوا زيدا من الضاربين)
قوله تعالى:

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الاحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٢١) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى عن من اشترى يوسف (ع) من بايعه من أهل مصر أنه قال:
لامرأته حين حمله اليها " أكرمي مثواه " يعني موضع مقامه، وانما امرها باكرام مثواه دون اكرامه في نفسه، لان من أكرم غيره لاجله كان اعظم منزلة ممن يكرم في نفسه فقط، والاكرام اعطاء المراد على جهة الاعظام، وهويتعظيم

(١١٦)

فأعلاه منزلة ما يستحق بالنبوة، وادناه ما يستحق لخصلة من الطاعة أدناها كإمطة الأذى من الطريق وغيره.

وقوله " عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا "، بين أنه إنما يأمرها باكرامه لما يرجو من الانتفاع به فيما بعد أو للتبني به. وقال ابن مسعود: احسن الناس فراسة ثلاثة:

العزير حين قال لامرأته " اكرمي مثواه عسى ان ينفعنا " وابنة شعيب حين قالت في موسى " يأبئ استأجره " (١) وأبو بكر حين ولى عمر.

وقوله " وكذلك مكننا ليوسف في الارض " ووجه التشبيه فيه انه تعالى شبه التمكين له في الارض بالتوفيق للأسباب التي صار بها إلى مآصار بالنجاة من الهلاك والخراج إلى أجل حال.

وقوله " ولنعلمه من تأويل الاحاديث " اللام فيه محمولة على تقدير دبرنا ذلك لنمكنه في الارض، ولنعلمه من تأويل الاحاديث.

وقوله " والله غالب على امره " معناه أنه قادر عليه من غير نافع حتى يقع ما أراد، ومنه وقوع المقهور بالغبلة في الذلة. وقيل غالب على امريوسف يدبره ويحوطه.

وقوله " ولكن اكثر الناس لا يعلمون " اخبار منه تعالى ان اكثر الخلق غير عالمين بحسن تدبير الله لخلقه، وما يجريه اليهم من مصالحهم وانه قادر لا يغالَب، بل هم جاهلون بتوحيده، ولا يدركون ذلك على ان من فعل ماكرهه الله يكون قد غالب الله، لان المراد بذلك ما قلناه من انه غالب على ما يريد فعله بعباده.

فاما ما يريد على وجه الاختيار منهم فلا يدل على ذلك، ولذلك لا يقال ان اليهودي المقعد قد غلب الخليفة حيث لم يفعل ما اراده الخليفة من الايمان، وفعل ماكرهه من اليهودية وهذا واضح.

(١) سورة القصص آية ٢٦.

(١١٧)

قوله تعالى:

(ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) (٢٢) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى ان يوسف لما بلغ أشده، وهو كمال القوة. وقال قوم هو من ثماني عشرة سنة إلى ستين سنة، وقال ابن عباس من عشرين. وقال مجاهد من ثلاث وثلاثين سنة، والأشد جمع، لا واحد له من لفظه مستعمل. وفي القياس واحد شد، كواحد الاضر ضر، وواحد الاشر شر قال الشاعر:

هل غير ان كثر الاشر واهلكت * حرب الملوك اكثر الاموال (١)

وقوله " آتيناه حكما وعلما " يعني أعطيناه ذلك، والحكم القول الفصل الذي يدعو إلى الحكمة ويقال تقديرا لما يوتى له بعلّة: يعلم من دليل الحكم ومن غير دليل الحكم. والاصل في الحكم تبين ما يشهد به الدليل، لان الدليل حكمة من أجل أنه يقود إلى المعرفة. وقيل: معناه آتيناه الحكم على الناس. وقيل آتيناه الحكمة في فعله بألطافنا له، والحكيم العامل بما يدعو اليه العلم. والعلم ما اقتضى سكون النفس. وقال قوم هو تبين الشيء على ما هو به، وزاد فيه الرماني: ما

يحل في القلب تحزرا من الرؤية، لانها يبين بها الشئ على ما هو به، لكنه معنى يحل في العين، ومن قال الادراك ليس بمعنى لا يحتاج إلى ذلك. وقوله " وكذلك نجزي المحسنين " معناه مثل ماجازينا يوسف ناجزي كل من أحسن وفعل الافعال الحسنة من الطاعات. والاحسان هو النفع بالحسن الذي يستحق به الحمد، فعلى هذا يصح أن يحسن الانسان إلى نفسه كما يصح أن يسيء إلى

(١) مجمع البيان ٣: ٢٢١ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢: ٩٨ وروايته (الاشد) بدل (الاشر).

(١١٨)

نفسه، ولا يصح ان ينعم على نفسه، لان النعمة تقتضي استحقاق الشكر عليها، ولا يصح ذلك بين الانسان ونفسه. قوله تعالى:

(ورأوته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون) (٢٣) آية بلاخلاف. قرأ ابو عمرو، وعاصم وحمزة والكسائي (هيت) بفتح الهاء والتاء، وقرأ ابن كثير بفتح الهاء، وضم التاء. وقرأ نافع وابن عامر (هيت) بكسر الهاء وفتح التاء. وروى هشام بن عامر عن ابن عامر (هئت) بالهمز من تهيات، وكسر الهاء، وضم التاء، وانكر الهمزة أبو عمرو بن العلاء والكسائي، قال طرفة:

ليس قومي بالابعدين إذا * ما قال داع من العشييرة هيت

هم يجيبون ذا هلم سراعاً * كالابابيل لا يغادر بيت (١)

فهذا شاهد لابن كثير قال ابو عبيدة: هيت لك " معناه هلم، قال: وقال:

رجل لعلني (ع):

أبلغ أمير المؤمنين أخوا العراق إذا أتيتنا ان العراق واهله سلم اليك فهيت هيتنا (٢)

قال ابو الحسن: وكسر الهاء لغة، وقال بعضهم بالهمز من تهيات لك، وهي حسنة إلا ان المعنى الاول أحسن، لانها دعت، والمفتوحة أكثر اللغات، ففيه ثلاث لغات.

(١) مجاز القرآن ١: ٣٠٣، وتفسير القرطبي ٩: ١٩٤، وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣: ١٥، وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) (١٢: ١٠٠).

(٢) انظر تخريجه في الصفحة التي بعدها.

(١١٩)

ومعنى قوله " وراودته " أي طالبته، والمرادة المطالبة بأمر للعمل به، ومنه المرود لانه يعمل به، ولا يقال في المطالبة بدين راوده. ومعنى " التي هو في بيتها " يعني امرأة العزيز " وغلقت الابواب " فالتعليق اطباق الباب بما يعسر فتحة. وانما قيل (غلقت) لتكثير الاغلاق او المبالغة في الاغلاق، وألف (باب) منقوبة من الواو لقولهم: بويب وأبواب ومعنى " هيت لك " تعال وهلم إلى ما هو لك، أنشد ابو عمرو بن العلاء:

أبلغ أمير المؤمنين اخا العراق اذا اتيت ان العراق واهله سلم اليك فهيت هيت (١)
ويقال للواحد والاثنين والجمع والذكر والانثى (هيت) بلفظ واحد. وقال ابن عباس والحسن وابن زيد معنى " هيت لك " هلم لك.

وقوله " معاذ الله " حكاية عن يوسف أنه قال ذلك. والمعنى أعوذ عيادا بالله أن أجيب إلى هذا أو ان يكون هذا أي اعتصم بالله من هذا. وقوله " ان ربي احسن مثواي " معناه ان الملك الذي هو زوجها، مالكي في الحكم " أحسن مثواي " باكرامي وبسط يدي ورفع منزلتي، وهو قول مجاهد وابن اسحاق والسدي والجبائي، وقال الحسن يعني العزيز، وقال الزجاج يجوز ان يكون اراد ان الله ربي احسن مثواي أي في طول مقامي. وقوله " انه لا يفلح الظالمون " حكاية ان يوسف قال: ان من ظلم نفسه بارتكاب المعاصي لا يفلح ولا يفوز بشئ من الثواب. قوله تعالى:

(ولقد همت به وهم بها لولا أن را برهان ربه كذلك

(١) اللسان (هيت) ومجاز القرآن ١: ٣٠٥، وتفسير القرطبي ٩: ١٩٤ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣: ١٥، وتفسير الطبري ١٢: ٩٩.

(١٢٠)

لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) (٢٤)
آية بلاخلاف.

قرأ أهل الكوفة، ونافع " المخلصين " بفتح اللام. الباقر بكسرها. قال أبو علي حجة من كسر اللام قوله " اخلصوا دينهم " (١) ومن فتح اللام، فيكون بنى الفعل للمفعول به، ويكون معناه ومعنى من كسر اللام واحد، فاذا اخلصوا هم دينهم فهم مخلصون، واذا اخلصوا فهم مخلصون.

ومعنى (الهم) في اللغة على وجوه، منها: العزم على الفعل، كقوله " إذهب قوم ان يبسطوا اليكم أيديهم " (٢)، أي أرادوا ذلك وعزموا عليه ومثله قول الشاعر:
هممت ولم افعل وكدت وليتني * تركت على عثمان تبكي حالته (٣)
وقال حاتم طي:

ولله صعلوك تساور همه * ويمضي على الايام والدهر مقما (٤)
ومنها: خطور الشئ بالبال، وان لم يعزم عليه. كقوله " اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما " (٥) والمعنى ان الفشل خطر ببالهم، ولو كان الهم ههنا عزما لماكان الله وليهما، لانه قال " ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال او متحيزا إلى فئة فقدباء بغضب من الله " (٦)، واردة المعصية والعزم عليها معصية بلاخلاف، وقال قوم: العزم على الكبير كبير، وعلى الكفر كفر، ولايجوز أن يكون الله ولي من عزم على الفرار عن نصره نبيه صلى الله عليه وسلم ويقوى ذلك ماقال كعب ابن زهير:

-
- (١) سورة النساء آية ١٤٥ . (٢) سورة المائدة آية ١٢ .
(٣) تفسير القرطبي ٩ : ١٦٦ ومجمع البيان ٣ : ٢٢٣ (٤) مجمع البيان ٣ : ٢٢٣ (٥) سورة آل عمران آية ١٢٢
(٦) سورة الانفال آية ١٦ .

(١٢١)

فكم فيهم من سيدمتوسع * ومن فاعل للخير إن هم أو عزم
ففرق بين الهم والعزم وظاهر التفرقة يقتضي اختلاف المعنى، ومنها المقاربة يقولون: هم
بكذا، وكذا أي كاد يفعله قال ذو الرمة:

أقول لمسعود بجرعاء مالك * وقد هم دمعي ان تسيح اوائله (١)
والدمع لايجوز عليه العزم، وانما أراد كاد، وقارب، وقال ابوالاسود الدؤلي:
وكننت متى تههم يمينك مرة * لتفعل خيرا يعتقبها شمالكا (٢)
وعلى هذا قوله تعالى " جدارا يريد ان ينقض " (٣) أي يكاد وقال الحارثي:
يريد الرمح صدر ابي براء * ويرغب عن دماء بني عقيل (٤)

ومنها الشهوة وميل الطباع، يقول القائل فيما يشتهي، ويميل طبعه ونفسه اليه هذا من همي،
وهذا أهم الاشياء الي. وروي هذا التأويل في الآية عن الحسن. وقال: اماهمها وكان اخبت
الهم، واما همه فما طبع عليه الرجال من شهوة النساء، واذا احتمل الهم هذه الوجوه نفينا عنه
(ع) العزم على القبيح واجزنا باقي الوجوه، لان كل واحد منها يليق بحال، ويمكن ان يحمل
الهم في الآية على العزم، ويكون المعنى، وهم بضربها ودفعها عن نفسه، كما يقول القائل

كنت هممت بفلان اي بأن اوقع به ضربا او مكروها وتكون الفائدة على هذا الوجه في قوله " لولا ان رأى برهان ربه " مع ان الدفع عن نفسه طاعة لا يصرف البرهان عنها، إنه لما هم بدفعها اراد الله برهاننا على انه ان اقدم على ما يهيم به، اهلكه اهلها وقتلوه، وانها تدعي عليه المراودة لها على القبيح وتقذفه بأنه دعاها اليه وضربها لامتناعها منه، فأخبر تعالى انه صرف بالبرهان عنه السوء

(١) الاغاني (دار الثقافة) ١٧: ٣٠٨ (٢) مجمع البيان ٣: ٢٢٤.

(٣) سورة الكهف آية ٧٨.

(٤) تأويل مشكل القرآن: ١٠٠، ومجمع البيان ٣: ٢٢٤.

(١٢٢)

والفحشا اللذين هما القتل والمكروه او ظن القبيح واعتقاده فيه.

فان قيل هذا يقتضي ان جواب (لولا) تقدمها في ترتيب الكلام، ويكون التقدير: لولا ان رأى برهان ربه لهم بضربها، وتقدم جواب (لولا) قبيح او يقتضي ان تكون (لولا) بغير جواب !. قلنا: اما تقدم جواب (لولا) فجائز مستعمل وسنذكر ذلك فيما بعد، ولا نحتاج اليه في هذا الجواب، لان العزم على الضرب والهم به وقعا إلا انه انصرف عنها بالبرهان الذي رآه، ويكون التقدير ولقد هممت به، وهم بدفعها لولا ان رأى برهان ربه، لفعل ذلك، فالجواب المتعلق ب (لولا) محذوف في الكلام، كما حذف في قوله " ولولا فضل الله عليكم ورحمته. وان الله رؤف رحيم " (١) معناه، ولولا فضل الله عليكم لهلكتم ومثله " كلا لو تعلمون علم اليقين " (٢) لم تنافسوا في الدنيا وتحرصوا على حطامها، وقال امرؤ القيس:

فلوانها نفس تموت سوية * ولكنها نفس تساقط انفسا (٣)

والمعنى فلو انها نفس تموت سوية لنقصت وفنيت، فحذف الجواب تعويلا على ان الكلام يقتضيه، ولا بد لمن حمل الآية على انه هم بالفاحشة ان يقدر الجواب، لان التقدير، ولقد هممت بالزنا وهم بمثله،، و " لولا ان رأى برهان ربه " لفعله.

وانما حمل همها على الفاحشة وهمه على غير ذلك، لان الدليل دل من جهة العقل والشرع على ان الانبياء، لا يجوز عليهم فعل القبائح، ولم يدل على انه لا يجوز عليها ذلك بل نطق القرآن بأنها هممت بالقبيح، قال الله تعالى " وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه. وقوله حاكيا عنها " الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين وقال " قالت فذلكن الذي لمتنني يه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم " واجمعت الامة من المفسرين واصحاب الاخبار

(١) سورة النور آية ٢٠ (٢) سورة التكاثر آية ٥.

(٣) ديوان: ١١٧ واللسان " جمع " وامالي السيد المرتضى ١: ٤٧٩. ورواية اللسان " جميعه " بدل " سوية " .

(١٢٣)

على انها همت بالمعصية، وقد بين الله تعالى ذلك في مواضع كثيرة ان يوسف لم يهم بالفاحشة. ولاعزم عليها منها قوله " كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء " وقوله " انه من عبادنا المخلصين " ومن ارتكب الفاحشة لا يوصف بذلك وقوله " ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب " ولو كان الامر على ماقاله الجهال من جلوسه مجلس الخائن وانتهائه إلى حل السراويل، لكان خائنا، ولم يكن صرف عنه السوء والفحشاء. وقال ايضا " ولقد راودته عن نفسه " فاستعصم " وفي موضع آخر حكاية عنها " أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين " وقوله حكاية عن العزيز حين رأى القميص قد من دبر " انه من كيد كن إن كيد كن عظيم " فنسب الكيد اليها دونه، وقوله ايضا " يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين " فخصها بالخطاب وأمرها بالاستغفار دونه. وقوله " رب السجن احب الي مما يدعونني اليه. وإلا تصرف عني كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن " والاستجابة تقتضي براءة ساحته من كل سوء، ويدل على انه لو فعل ماذكروه، لكان قد صبا ولم يصرف عنه كيدهن. وقوله " قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء " والعزم على المعصية من اكبر السوء. وقوله حاكيا عن الملك " اتتوني به استخلصه لنفسي، فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين " ومن فعل ماقاله الجهال لا يقال له ذلك.

ووجه آخر في الآية: إذا حمل الهم على ان المراد به العزم، وهو ان يحمل الكلام على التقديم والتأخير، ويكون التقدير ولقد همت به ولولا ان رأى برهان ربه لهم بها ويجري ذلك مجرى قولهم: قد كنت هلكت، لولا اني تداركتك، وقتلت لولا اني خلصتك، والمعنى لولا تداركي لك لهلكت ولولا تخليصي لك لقتلت، وان لم يكن وقع هلاك ولاقتل قال الشاعر:

فلا يدعني قومي صريحا لحره * لئن كنت مقتولا ويسلم عامر (١)

(١) الكتاب لسببوية ١ / ٤٢٧ وامالي الشريف المرتضى ١ / ٨٠ / ومجمع البيان ٣ / ٢٢٦

(١٢٤)

وقال آخر:

فلا يدعني قومي صريحا لحره * لئن لم أعجل طعنة أو اعجل (١)

فقدم جواب (لئن) في البيتين جميعا. وقال قوم: لو جاز هذا لجاز أن تقول: قام زيد لولا عمرو، وقصد زيد لولا بكر، وقد بينا أن ذلك غير مستبعد، وأن القائل قد يقول: قد كنت قمت لولا كذا، وكذا، وقد كنت قصدتك لولا أن صدني فلان، وأن لم يقع قيام ولا قصد. على أن في الكلام شرطا، وهو قوله " لولا أن رأى برهان ربه " فكيف يحمل على الإطلاق.

والبرهان الذي رآه، روي عن ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد: أنه رأى صورة يعقوب عاضا على أنامله.

وقال قتادة: أنه نودي يا يوسف أنت مكتوب في الانبياء وتعمل عمل السفهاء.

وروي في رواية أخرى عن ابن عباس: أنه رأى الملك.

وهذا الذي ذكره كله غير صحيح، لأن ذلك يقتضي الإلجاء وزوال التكليف، ولو كان ذلك لما استحق يوسف على امتناعه من الفاحشة مدحا ولا ثوابا، وذلك ينافي ما وصفه الله تعالى. من أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وأنه من عبادنا المخلصين.

ويحتمل أن يكون البرهان لطفًا لطف الله تعالى له في تلك الحال أو قبلها، اختار عنده الامتناع من المعاصي، وهو الذي اقتضى كونه معصوماً ويجوز أن تكون الرؤية بمعنى العلم، وقال قوم: البرهان هو ما دل الله تعالى يوسف على تحريم ذلك الفعل، وعلى أن من فعله استحق العقاب، لأن ذلك صارف عن الفعل ومقوي لدواعي الامتناع، وهذا أيضا جائز، وهو قول محمد بن كعب القرظي واختيار الجبائي.

(١) مجمع البيان ٣ / ٢٢٥ واملأ السيد المرتضى ١ / ٤٨٠

(١٢٥)

قوله تعالى:

(واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفا سيدها لدا الباب قالت ماجزاء من أرد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب أليم) (٢٥) آية بلاخلاف.

معنى قوله " واستبقا الباب " أي طلب كل واحد من يوسف وامرأة العزيز السبق إلى الباب، والسبق تقدم الشيء لصاحبه في مجيئه.

وقوله " وقدت قميصه من دبر " أي شقته طولاً، والقدر شق الشيء طولاً، ومنه: قد الأديم يقده قداً، فهو مقدود، إذا كان ذاهباً في جهة الطول على استواء.

وقوله " من دبر " أي من جهة الخلف. والقبل جهة القدم، يقال اتاه قبلاً، ودبراً، إذا أتاه من الجهتين ومعنى " الفيا سيدها " صادفاه، ألقى يلقى الفيا قال ذو الرمة:

ومطعم الصيد هبال لبغيته * الفيا اباه بذاك الكسب يكتسب (١)

وقوله " قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا " حكاية ما قالت المرأة للملك، ومافي مقابلة من اراد باهلك سوءا، والجزاء مقابلة العمل بما هو حقه من خير او شر يقال: جازاه يجازيه مجازاة، وجزاء " إلا ان يسجن او عذاب أليم " معناه انه ليس مقابلته إلا سجنه أو يعذب على فعله عذابا مؤلما موجعا. وعطف العذاب - وهو إسم - على الفعل، وهو قوله " ان يسجن " لان تقديره إلا السجن أو عذاب اليم.

قوله تعالى:

(قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان

(١) اللسان " طعم "

(١٢٦)

قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (٢٦) وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين (٢٧) فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم (٢٨) ثلاث آيات بلاخلاف.

حكى الله تعالى في الآية الاولى عن يوسف انه قال للملك حين قذفته زوجته بالسوء: هي طالبتني عن نفسي، وانا برئ الساحة، وشهد له بذلك شاهد من أهل المرأة. قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر - في رواية عنهما - وابو هريرة: انه كان صبيا في المهد. وفي رواية اخرى عن ابن عباس، وابن جبیر، وهو قول الحسن وقتادة: انه كان رجلا حكيما، واختاره الجبائي، قال: انه لو كان طفلا لكان قوله معجزا لا يحتاج معه إلى الثاني، فلما قال الشاهد إن كان قميصه كذا، وكذا ذهب إلى الاستدلال بأنه لو كان هذا المراد، لكان القميص مقدودا من قبل، وحيث هو مقدود من دبر علم أنها هي المرادة ومع كلام الطفل لا يحتاج إلى ذلك.

وقوله " ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين " حكاية ما قال الشاهد، وكذلك قوله " وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين " تمام الحكاية عن الشاهد. و (من) في قوله " قد من دبر... و... من قبل " لابتداء الغاية، لان ابتداء القدكان منها، التي في قوله " من الكاذبين " للتبعيض، لانه بعض الكاذبين واسقط (أن) من شهد أنه ان كان لانه ذهب مذهب القول في الحكاية، كما قال " يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين " (١) لان التقدير يوصيكم الله في اولادكم ان المال، وقال ابو العباس المبرد: معنى " ان كان

(١) سورة النساء آية ١١

(١٢٧)

قميصه " ان يكن، وجاز ذلك في كان، لانها ام الباب، كما جاز ماكان ابردها. ولم يجز ماأصبح أبردها. وقال ابن السراج: إن يكن بمعنى ان يصح قد قميصه من دبر. وقوله " فلما رأى قميصه قد من دبر " حكاية من الله ان الملك لما سمع قول الشاهد ورأى قميصه قد من دبر اقبل عليها وقال: " إنه من كيد كن إن كيد كن عظيم " وقال قوم إن ذلك من قول الشاهد. والكيد طلب الشئ بماكرهه، كما طلبت المرأة يوسف بماكرهه ويأباه. وقوله " فلما رأى " تحتل الرؤية أمرين:

احدهما - ان يكون المعنى رؤية العين، فلايكون روية للقد، لانه حال، وانما بين رؤية القميص.

والاخر - ان يكون بمعنى العلم فيكون رؤية للقد، لانه خبر والهاء في قوله (إنه) يحتمل ان تكون عائدة إلى السوء، ويحتمل ان تكون عائدة إلى ما تقدم ذكره من معنى الكذب. والنون في قوله " كيد كن " نون جماعة النساء، وشددت لتكون على قياس نظيرها من المذكر في ضربكموا في انه على ثلاثة احرف. وقال قوم ان ذلك من قول الزوج. وقال آخرون من قول الشاهد.

قوله تعالى:

(يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) (٢٩) آية بلاخلاف.

هذا حكاية مانادى زوج المرأة يوسف، فقال له يايوسف، ولذلك قال قوم: إنه لم يكن له غيرة. وروي عن ابن عباس انه قال ذلك من قول الشاهد واسقط حرف النداء لانه اسم علم ولم يجز ذلك في المبهم " اعرض عن هذا " اي اصرف وجهك عنه. والاعراض صرف الوجه عن الشئ إلى جهة العرض،

(١٢٨)

فكأنه قال اجعله بمنزلة ماتصرف وجهك عنه بأن لاتذكره " واستغفري لذنبك " اي اطلبني المغفرة من الله من خطيئتك، والذنب الخطيئة، والخطيئة العدول عما تدعوا اليه الحكمة إلى ماترجر عنه، ويقال لصاحبه خاطئ اذا قصد ذلك، فاذا وقع عن غير قصد قيل اخطأ المقصد، فهو مخطئ، وان لم يكن صفة ذم. واصل الخطأ العدول عن الغرض الحكمي بقصد أو غير قصد، فان كان بقصد قيل خطئ يخطأ خطأ فهو خاطئ قال أمية:

عبادك يخطئون وانت رب * بكفيك المنايا والحياة (١)

وانما قال " من الخاطئين " ولم يقل من الخاطئات تغليبا للمذكر على المؤنث اذا اختلط، كما تقول عبيدك واماءك جاؤني.

قوله تعالى:

(وقال نسوة في المدينة امرأت العزيز تراود فتها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين) (٣٠) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى أنه " قال نسوة في المدينة " التي كان فيها الملك وزوجته ويوسف إن امرأة العزيز تطلب فتاها عن نفسه، والعزيز المنيع بقدرته عن أن يضام في أمره وسمي بذلك لأنه كان ملكا ممتنعا بملكه واتساع قدرته قال أبو داود:

درة غاص عليها تاجر * حليت عند عزيز يوم ظل (٢)

والفتى الغلام الشاب والمرأة فتاة قال الشاعر:

(١) مجمع البيان ٣ / ٢٢٦، وتفسير الطبري " الطبعة الأولى " ١٢ / ١٠٩ وروايته " الحتموم " يدل " الحياة " (٢) تفسير الطبري ١٢ / ١١٠ ومجمع البيان ٣ / ٢٢٩. ورواية الطبري " عاص " بدل " غاص " و " جليت " بدل " حليت " .

(١٢٩)

كأنا يوم فري انما يقتل ايانا * قتلنا منهم كل فتى ابيض حسانا (١)

ومعنى " شغفها حبا " بلغ الحب شغاف قلبها، وهو داخله. وقوله " انا لنراها في ضلال مبين " معناه إنا لنعلمها في عدول عن طريق الرشد، فعابوها بذلك وذلك ان تصير إلى ما يذهلها ويبلغ صميم قلبها بحب إنسان. وإنما حذف حرف التأنيث في قوله " وقال نسوة " لأنه تأنيث جمع قدم عليه الفعل، وتأنيث الجمع تأنيث لفظ يبطل تأنيث المعنى، لأنه لا يجتمع في اسم واحد تأنيثان، وكما يبطل تذكير المعنى في رجال، فاذا صار كذلك جاز فيه وجهان، ان حمل على اللفظ انث، وان حمل على المعنى ذكر.

وقيل في معنى الشغاف ثلاثة اوجه: شغاف القلب غلافه، وهو جلدة عليه تقول دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب - في قول السدي وابي عبيدة - الثاني - قال الحسن: هو باطن القلب. الثالث - قال ابو علي الجبائي: هو وسط القلب قال النابغة:

وقد حال هم دون ذلك داخل * مكان الشغاف تبتغيه الاصابع (٢)

وروي شعفا بالعين اي ذهب بها الحب كل مذهب من شعف الجبال وهي رؤسها قال امرؤ القيس:

انقتلني وقد شعفت فؤادها * كما شغف المهنوءة الرجل الطالي (٣)

قال بو زيد هما مختلفان فالشعف بالعين في البغض وبالغين في الحب.

(١) الكتاب لسبويه ١ / ٢٧١ ، ٣٨٣ (٢) ديوانه ٧٩ وروايته (شاذل) بدل (داخل) وتفسير القرطبي ٩ / ١٧٩
وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢ / ١١٠ (٣) ديوانه ١٦٢ ، وتفسر الطبري ١٢ / ١١١ والقرطبي ٩ / ١٧٧
والشوكاني (الفتح القدير) ٣ / ١٩ ورواية الديوان:
ليقتلني اني شغفت فؤادها * كما شغف المهنوءه الرجل الطالي
تفسير التبيان ج ٦ - م ٩

(١٣٠)

قوله تعالى:

(فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكئا وأتت كل واحدة منهن سكيما وقالت
أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك
كريم) (٣١) آية بلاخلاف.
قرأ أبو عمرو ونافع في رواية الاصمعي عنه " حاشا " بألف. الباقر بلا الف، فمن حجة أبي
عمرو، قال الشاعر:

حاشى ابي ثوبان إن به * ضنا عن الملحاة والشتم (١)

قال ابو علي الفارسي لا يخلوا قولهم: حاش لله من ان يكون الحرف الجار في الاستثناء، كما
ذكرناه في البيت أو فاعل من قولهم: حاشى يحاشي، ولا يجوز ان يكون حرف الجر لان
حرف الجر لا يدخل على مثله، ولان الحروف لا تحذف اذالم يكن فيها تضعيف، فاذا بطل ذلك
ثبت انها فاعل مأخوذا من الحشا الذي هو الناحية. والمعنى انه صار في حشا اي ناحية مما
قذف به، وفاعله يوسف، والمعنى بعد عن هذا الذي رمي به " الله " اي لخوفه من الله، ومراقبة
امره. ومن حذف الالف، فكما حذف لم يك، ولا أدر، فاذا أريد به حرف الجر يقال حاشا،
وحاش، وحشا، ثلاث لغات قال الشاعر:

حشارهط النبي فان فيهم * بحورا لا تكدرها الدلاء (٢)

حكى الله تعالى عن امرأة العزيز انها حين سمعت قول نسوة المدينة فيها

(١) تفسير القرطبي ٩ / ١٨١ ومجاز القرآن ١ / ٣١٠، والمفضليات ١٩٠ والاصمعيات ٨٠، واللسان والتاج "
حشى " وتفسير الطبري " الطبعة الاولى " ١٢ / ١١٥ (٢) اللسان " حشا " ومجمع البيان ٣: ٢٢٩

(١٣١)

وعذ لهن اياها، ومكرهن بها. وقيل انهن مكرن بها لتريهن يوسف، فلما اطلعتن على ذلك
أشعن خبرها؟، والمكر الفتل بالحيلة إلى مايراد من الطلبة يقال: هي ممكورة الساقين بمعنى

مفتولة الساقين، وممكورة البدن أي ملتفة " أرسلت اليهن " أي بعثت اليهن تدعوهن إلى دعوتها.

وقوله " واعتدت لهن متكئا " معناه اعدت، ومعناه اتخذت من العتاد، وقولهم: اعتدت من العدوان، والالف فيه ألف وصل، والمتكأ الوسادة، وهو النمرق الذي يتكأ عليه. وقال قوم: انه الاترج. وانكر ذلك ابو عبيدة.

وقوله " وآتت كل واحدة منهن سكيناً " قيل انها قدمت اليهن فاكهة وأعطتهن سكيناً ليقطعن الفاكهة، فلما رأينه - يعني يوسف - دهشن " وقطعن ايديهن " وقوله " اكبرنه " أي أعظمه وأجللنه. وقال قوم: معنى ذلك انهن حضن حين رأينه وأنشد قول الشاعر:

يأتي النساء على اطهارهن ولا * يأتي النساء اذا اكبرن اكبارا (٣)

وانكر ذلك ابو عبيدة، وقال: ذلك لا يعرف في اللغة، لكن يجوز ان يكون من شدة ما أعظمه حضن، والبيت مصنوع لا يعرفه العلماء بالشعر.

وقوله " حاش لله " تنزيه له عن حال البشر، وانه لا يجوز ان تكون هذه صورة للبشر، وانما هو ملك كريم. وقال الجبائي: فيه دلالة على تفضيل الملائكة على البشر لانه خرج مخرج التعظيم، ولم ينكره الله تعالى، وهذا ليس بشئ، لان الله تعالى حكى عن النساء انهن أعظمن يوسف، لما رأين من وقاره وسكونه وبعده عن السوء. وقلن: ليس هذا بشرا، بل هو ملك يريدون في سكونه، ولم يقصدن كثرة ثوابه على ثواب البشر، وكيف يقصدنه، وهن لا طريق لهن إلى معرفة ذلك، على ان هذا من قول النسوة اللاتي وقع منهن من الخطأ والميل

(١) تفسير القرطبي ٩: ١٨٠ وتفسير الشوكاني ٣: ٢٠.

(١٣٢)

اليه ما لا يجوز ان يحتج بقولهن. وقوله لم ينكره الله، انما لم ينكره، لانه تعالى علم انهن لم يقصدن ما قال الجبائي، ولوكن قصدنه لانكره، على أن ظاهر الكلام انهن نفين ان يكون يوسف من البشر، وفيه قطع على انه ملك، وهذا كذب، ولم ينكره الله. والوجه فيه انهن لم يقصدن الاخبار بذلك عن حاله، وانما اخبرن بتشبيه حاله فيما قلناه بحال الملائكة، فلذلك لم ينكره الله.

وقوله " ما هذا بشرا " نصب بشرا على مذهب اهل الحجاز في اعمال (ما)

عمل ليس، فيرفعون بها الاسم، وينصبون الخبر، فأما بنو تميم، فلا يعلنونها قال الشاعر:

لشتان مأنوي وبنوي بنو أبي * جميعا فما هذان مستويان

تمنوا لي الموت الذي يشعب الفتى * وكل فتى والموت يلتقيان (٤)

وقد قرئ " ما هذا بشرى " أي ليس بمملوك، وهو شاذ، لا يقرأه.
وقرئ (منكأ) بتسكين التاء قال مجاهد: معنا الاترج، وقال قتادة:
معناه طعاما، وبه قال عكرمة وابن اسحق وابن زيد والضحاك، وقال مجاهد، وغيره: اعطي
يوسف نصف الحسن، وقيل ثلثه. وقيل ثلثاه، والباقي لجميع الخلق.
قوله تعالى:

(قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن
وليكونا من الصاغرين)
(٣٢) آية بلاخلاف.

هذه الآية فيها حكاية ما قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتي عدلنها على محبتها ليوسف،

(١) مجمع البيان ٣ / ٢٢٩ وتفسير الطبري ١٢ / ١١٥.

(١٣٣)

وانها حين رأت ما فعلت النسوة للدهش بيوسف، قالت لهن هذا هو ذلك الذي لمتنني فيه، واللوم
الوصف بالقبيح على وجه التحقير، ومثله الذم وضده الحمد.
وقوله " ولقد راودته عن نفسه " اعتراف منها انها هي التي طلبته عن نفسه وانه استعصم منها
أي امتنع من ذلك، والاستعصام طلب العصمة من الله بفعل لطف من أطفاه ليمتنع من
الفاحشة. وفيه دلالة على ان يوسف لم يقع منه قبيح.
وقوله " ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن " اخبار عما قالت امرأة العزيز على وجه التهديد ليوسف
من انه ان لم يفعل ما أمره به من المعصية ويجيبها إلى ملتمسها لئلا تمنعه التصرف من مراده
بالحبس، تقول: سجنه يسجنه سجنًا، والسجان المتولي للسجن على وجه الحرفة.
وقوله " وليكونن من الصاغرين " هذه النون الخفيفة التي يتلقى بها القسم، واذا وقفت عليها
وقفت بالالف، تقول: وليكونا، وهي بمنزلة التتوين الذي يوقف عليه بالالف قال الشاعر:
وصل على حين العشيات والضحي * ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا (١)
اي فاعبدن، فأبدل في الوقف من النون ألفا. والصغار الذل بصغر القدر صغر يصغر صغارا،
ومنه قوله " حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " (٢).
قوله تعالى:

(قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف

(١) قائله الاعشى، ديوانه ١٠٣ القصيدة ١٧ وروايته " فاحمدا " بدل " فاعبدا " وهو في مجمع البيان ٣٠٣ . ٢٣٠
وتفسير الطبري ١٢ : ١٦ " فاعبدا " .
(٢) سورة التوبة آية ٢٩ .

(١٣٤)

عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين (٣٣) آية بلاخلاف.
اخبر الله تعالى عن يوسف انه لما سمع وعيد المرأة له بالحبس والصغار ان لم يجبهما إلى
ماتريده، قال يا " رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه " من ركوب الفاحشة، وانما جاز ان
يقول السجن أحب الي من ذلك، وهو لا يحب ما يدعونه اليه، ولا يريد، ولا يريد السجن ايضا،
لانه ان اريد به المكان فذلك لايراد، وان اريد به المصدر، فهو معصية منهي عنها، فلايجوز
ان يريده لامرين:

احدهما - ان ذلك على وجه التقدير، ومعناه اني لو كنت مما اريد لكنت ارادتي لهذا أشد
الثاني - ان المراد ان توطين نفسي على السجن أحب الي.
وقيل معناه ان السجن أسهل علي مما يدعونني اليه.

وقرأ الحس (السجن) بفتح السين و اراد المصدر، وبه قرأ يعقوب، وتأويله ماقلنا ه. والدعاء
طلب الفعل من المدعو وصيغته صيغة الامر إلا ان الدعاء لمن فوقك والامر لمن دونك.
وقوله " إلا تصرف عني كيدهن " معناه ضرر كيدهن، لان كيدهن قد وقع، والصرف نفي
الشيء عن غيره بضده او بأن لايفعل، وصورته كصورة النهي إلا ان النهي مع الزجر لمن هو
دونك، وليس كذلك الصرف (و الصبا)

رقة الهوى، يقال صبا يصبو صبا فهو صاب، فكأنه قيل أميل هواي اليهن، قال الشاعر:
إلى هند صبا قلبي * وهند مثلها يصبي (٢)
وقال ايضا:

(١) قائله زيد بن ضبة، تفسير القرطبي ٩ : ١٨٥ ومجاز القرآن ١ : ٣١١ واللسان (صبا)
وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ٢١ وتفسير الطبري ١٢ / ١١٧ .

(١٣٥)

صبا صبوة بل لج وهو لجوج * وزالت له بالانعمين حدوج (١)
وقوله " وأكن من الجاهلين " معناه. أكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل، لانه بمنزلة من قد
اعتقد الشيء على خلاف ماهو ربه، وإلا فهو كان عالما بأن ذلك معصية، والغرض فيه بيان
ان صفة الجهل من أغلظ صفة الذم.

وقال البلخي والجبائي: في الآية دلالة على انه لا ينصرف احد عن معصية إلا بلطف الله عزوجل، لانه لو لم يعلم ذلك، لما صح خبره به، وليس في الآية ما يدل على ذلك، بل فيها ما يدل على ان يوسف كان له لطف، ولولاه لفعل المعصية، وأما ان يدل على انه لا أحد ينتهي عن معصية إلا بلطف، فلا، بل ذلك مجوز، وليس فيها ما يمنع منه، ويحتمل قوله " أصب اليهن " على لفظ الجمع اشياء:

احدها - قال ابو علي الجبائي: ان كل واحدة منهن دعته إلى مثل مادعت اليه امرأة العزيز بدلالة هذا الكلام. وقال قوم: انهن قلن لها نحن نسأله ان يفعل مادعوته اليه، فخلت كل واحدة منهن به. ويحتمل ان يكون المراد أصب إلى قولهن في الدعاء إلى اجابة امرأة العزيز. قوله تعالى:

(فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم)

(٣٤) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى انه اجاب يوسف إلى مادعاه به وأراد منه ورجب اليه فيه وانه فعل، لانه دعابه، فهو اجابة له واستجابة والذي تعلق به الارادة مستجاب، وقال ابو علي الجبائي: الاجابة من الله تعالى ثواب لقوله تعالى " ومادعاه

(١) قائله ابو ذؤيب الهذلي، ديوانه ١ / ٥٠ وشواهد المغنى ١٠٩، والخزانة ١ / ١٩٤ ومجاز القرآن ١ / ٣١١ ومجمع البيان ٣ / ٢٢٩.

(١٣٦)

الكافرين إلا في ضلال " (١) وهذا انما هو في الجملة، قال الرماني: وصرف الله تعالى له عن الفعل بالزجر عنه واعلامه الذم على فعله، وفرق بين الصرف عن الفعل والزجر عنه، بأن الزجر عنه بالذم على ايقاعه. والصرف عنه اعلامه ان غيره أصلح له من غير ذم عليه لو عمله كما يجب في الزجر، والظاهر بغير ذلك أشبهه، لان يوسف (ع) كان عالما بأن ما دعته اليه قبيح يستحق به الذم، ومع ذلك سأل ان يصرف ضرر كيدهن عنه، لان كيدهن الذي هو دعاؤهن وأغواؤهن، كان قد حصل، فكأنه قد سأل الله تعالى لطفا من أطفاه يصرفه عنده عن اجابة النسوة إلى مادعونه من ارتكاب المعصية، لان ظاهر القول خرج مخرج الشرط والجزاء المقتضيين للاستقبال، فكان ما قلناه أولى. فقوله " انه هو السميع العليم " معناه ههنا انه السميع لدعاء الداعي العليم باخلاصه في دعائه او ترك اخلاصه وبما يصلحه من الاجابة او يفسده، قال الرماني: ولا يجوز ان يكون السميع للصوت بمعنى العليم بالصوت موجودا، لانه قد يعلم الانسان موجودا، اذا كان بعيدا وهو لا يسمعه كعلمه بصوت المطارق في الحدادين،

وليس من طريق الحاسة وانما يعلمه بضرب من الاستدلال او يظن ذلك، واذا علمه من طريق الحاسة علمه ضرورة، فكان ذلك فرقا بين الموضوعين.

وقال ابو علي الجبائي: في الآية دلالة على جواز الدعاء بما يعلم انه يكون، لان يوسف عالما بأنه إن كان له لطف فلا بد ان يفعل الله به، ومع هذا سأله وليس في الآية ما يدل على ذلك لانه لا يمتنع ان يكون يوسف سأل لتجويزه ان يكون له لطف عند الدعاء، ولولم يدع له لم يكن ذلك لطفًا، فما سأل الا ما جوز ان لا يكون لولم يدع، غير ان المذهب: ما قال ابو علي لانه تعالى تعبدنا بأن نقول " رب احكم بالحق (٢) وقد علمنا انه لا يحكم الا بالحق، ولكن الآية لاتدل على ذلك.

(١) سورة الرعد آية ١٥ وسورة المؤمن (غافر) آية ٥٠.

(٢) سورة الانبياء آية ١١٢.

(١٣٧)

قوله تعالى:

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين)

(٣٥) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى انه ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات، يقال بدايبدو بدوا، وبدأ والبدا في الرأي التلون فيه، لانه كلما ظهر رأي مال اليه، وانما قال " لهم " ولم يقل (لهن) مع تقدم ذكر النسوة، لأميرين: احدهما - قال الحسن انه اراد بذلك الملك. والثاني - انه اراد ذكر الذكور معهن من اعوانها فغلب المذكر، فقال لهم، قال الرماني: وفاعل (بدا) مضمر وتقديره ثم بدا لهم بداء، ودل عليه قوله " ليسجننه ".

والآيات التي رأوها، قال قتادة: هو قد القميص وحز الايدي وقال غيره:

هو قطع الايدي والاستعظام، وقد القميص.

وقوله " ليسجننه " انما هو فعل المذكر كما قال " بدالهم " ولم نقل (لهن) ودخلت النون الثقيلة جوابا للقسم وليس بفعل المؤنث، ولو كان على صيغة فعل المؤنث قيل (ليسجن) (وليقتلن) ثم تدخل عليها نون التأكيد الشديدة فيصير ليسجنانه كقولك تقتلنانه.

وقوله " حتى حين " ف (حتى) تتصرف على اربعة اوجه، تكون حرف جر، وحرف عطف، وناصبه للفعل، وحرف من حروف الابتداء، فالجارة نحو هذه التي في الآية، والعاطفة كقولهم خرج الناس حتى الامير، والناصبه كقوله " حتى يأتي وعد الله " (١)، وحرف الابتداء كقولك سرحت القوم حتى زيد مسرح.

(١٣٨)

قوله تعالى:

(ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) (٣٦) آية بلاخلاف. وفي الآية تقدير فسجن يوسف، ودخل معه فتيان يعني شابان والفتى الشاب القوي قال الشاعر: ياعز هل لك في شيخ فتى ابدا * وقد يكون شباب غير فتيان وقال الزجاج: كانوا يسمون المملوك فتى، شيخا كان أو شابا. والفتيان قال السدي وقتادة: كانا غلامي ملك مصر الأكبر أحدهما صاحب شرابه والآخر صاحب طعامه، فمني إليه ان صاحب طعامه يريد ان يسمه. وظن ان الآخر ساعده ومالاه على ذلك. وقوله " قال احدهما " يعني احد الفتيين ليوسف: " إني اراني اعصر خمرا " من رؤيا المنام، والخمر عصير العنب اذا كان فيه الشدة والتقدير اعصر العنب للخمر، وقال الضحاك: هي لغة، تسمى العنب خمرا ذكر جماعة انها لغة عمان.

وقال الزجاج: تقديره عنب الخمر.

وقوله " وقال الآخر إني اراني احمل فوق رأسي خبزا " فالحمل رفع الشئ بعماد، يقال: حمل يحمل حملا، واحتمل احتمالا، وتحمل تحملا، وحمله تحميلا. و (الخبز) معروف " تأكل الطير منه " وقوله " نبئنا بتأويله " اي اخبرنا بتأويل رؤيانا " انا نراك من المحسنين " معناه انا نعلمك او نظنك ممن يعرف تأويل الرؤيا. ومن ذلك قول علي (ع) (قيمة كل ما يحسنه) اي ما يعرفه.

والاحسان النفع الواصل إلى الغير اذا وقع على وجه يستحق به الحمد واذا اختصرت فقلت هو النفع الذي يستحق عليه الحمد جاز، لان مايفعله الانسان لايسمى احسانا. وقيل انه * كان يداوي مريضهم ويعزي حزينهم

(١٣٩)

ويجتهد في عبادة ربه. وقال الزجاج: كان يعين المظلوم وينصر الضعيف ويعود المريض. وقيل " من المحسنين " في عبارة الرؤيا، لانه كان يعبر لغيرهم، فيحسن ذكره الجبائي.

قوله تعالى:

(قال لاياتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتیکما ذلكما مما علمني ربي إنني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) (٣٧) آية بلاخلاف. في هذه الآية اخبار بما اجاب به يوسف للفنتين اللذين سألاه عن المنام، فقال لهما " لاياتيكما طعام ترزقانه " والطعام كل جسم فيه طعم يصلح للاكل، غير انه يختلف باضافته إلى الحيوان. والرزق العطاء الجاري في الحكم وكذلك لو اعطاه مرة واحدة، وقد حكم بانه يجريه كان رزقا. وقال السدي وابن اسحاق: معنى ذلك اني عالم بتعبير الرؤيا اذ لا يأتیکما ماترزقانه في منامكما إلا نبأتكما بتأويله في اليقظة. وقال ابن جريج: كان الملك اذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معلوما، فأرسل به اليه، فعلى هذا يرزقانه في اليقظة. وقيل انه كان يخبر بما غاب كما كان عيسى (ع)، وإنما عدل عن تعبير الرؤيا إلى الجواب بهذا لاحد أمرين:

احدهما - ماقال ابن جريج: انه كره ان يخبرهما بالتأويل على احدهما فيه، فلم يتركاه حتى أخبرهما. وقال ابو علي: إنما قدم هذا، ليعلم ما خصه الله به من النبوة، وليقبلا إلى الطاعة، والاقرار بتوحيد الله. والانباء: الاخبار بما يستفاد وذلك ان النبأ له شأن، وفيه تعظيم الخبر بما فيه من الفائدة، ولذلك اخذت منه النبوة. والتأويل: الخبر عما حضر بما يؤل اليه أمره، فيما غاب.

ولذلك قال " قبل ان يأتیکما " وتأويل القرآن مايؤل اليه من المعنى أي يرجع

(١٤٠)

اليه والتعليم تفهيم الدلالة المؤدية إلى العلم بالمعنى، وقديكون الاعلام بخلق العلم بالمعنى في القلب.

وقوله " اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون " اخبار من يوسف أنه إنما علمه الله تعالى تأويل ماسألاه لايمانه بالله وحده لاشريك له وعدوله عن ملة الكفار وجحدهم البعث والنشور والجزاء بالثواب والعقاب، و (هم) الثانية دخلت للتأكيد لانه لما دخل بينهما قوله " وبالآخرة " صارت الاولى كالمغاة، وصار الاعتماد على الثانية، كما قال " وهم بالآخرة هم يوقنون " (١)

وكما قال " ايعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون " (٢) قوله تعالى:

(واتبعنا ملة آباي ايراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون) (٣٨) آية بلاخلاف.

في هذه الآية أخبار عن يوسف أنه قال لهما: إني في ترك اتباع ملة الكفار وجحدهم البعث والنشور وفي إيماني بالله وتوحيدي له اتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب، فالاتباع اقتفاء الاثر وهو طلب اللحاق بالاول، فاتباع المحق بالقصد إلى موافقته من أجل دعائه. والملة مذهب جماعة يحمي بعضها بعضا في الديانة، واصله الحمى من الميلية وهي حمى مايلحق الانسان دون الحمى. والآباء جمع أب وهو الذي يكون منه نطفة الولد، والام الانثى التي يكون منها الولد والجد أب بواسطة، ولا يطلق عليه صفة أب، وإنما يجوز ذلك بقريضة تدل على انه أب بواسطة الابن، وجد الاب اب بواسطتين.

(١) سورة النمل آية ٣، وسورة الروم آية ٤. (٢) سورة المؤمنون آية ٣٥

(١٤١)

وقوله " ماكان لنا ان نشرك بالله من شئ " إخبار من يوسف أنه ليس له، ولااحد من آبائه أن يشرك بالله شيئا، ودخلت (من) للنفي العام، والاشراك بلوغ منزلة الجمع لعبادة غير الله إلى عبادته - في عظم الجرم. واليهودي مشرك، لانه بكفره بالنبي قد بلغ تلك المنزلة في عظم الجرم. وقوله " ذلك من فضل الله علينا " اعتراف منه ان ذلك العدول عن عبادة غير الله هو من فضل الله عليهم من حيث كان بلطفه وهدايته وتوفيقه. والفضل النفع الزائد على مقدار الواجب بوجوب الدين الذي يستحق به الشكر، وكل مايفعله الله تعالى بالعبد، فهو فضل من فضله. والعقاب ايضا فضل، لانه زجر به عن المعاصي. وقيل ذلك من فضل الله علينا ان جعلنا أنبياء وعلى الناس ان جعلنا رسلا اليهم - في قول ابن عباس - وقوله " على الناس " دال على ان الله قد عم جميع خلقه بفضله وهدايته إياهم إلى التوحيد والايمان. قوله تعالى:

(ياصاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) (٣٩) آية.

هذاحكاية مانادى به يوسف للمتسفتين له عن تأويل رأياهما، فقال لهما " يا صاحبي السجن " اي يا ملازمي السجن. والصاحب الملازم لغيره على وجه الاختصاص بوجه من الوجوه، وهو خلاف ملازمة الاتصال، ولذلك قيل أصحاب مالك، واصحاب الشافعي للاختصاص بمذاهبهما، واصحاب النبي لملازمتهم له، والكون معه في حروبه، وصاحبنا السجن هما الملازمان له بالكون فيه.

والسجن هو الحبس الذي يمنع من التصرف قال الفرزدق:

وماسجنوني غير اني ابن غالب * واني من الاثرين غير الزعانف (١)

(١٤٢)

وقوله " ارباب متفرقون " فيه أقوال: قال قوم املاك متباينون خير أم المالك القاهر للجميع، يدلهم بهذا على أنه لا يجوز ان يعتقدوا الربوبية إلا الله تعالى - عزوجل - وحده. وقال الحسن متفرقون من صغير وكبير ووسط، يعني الاوثان. وقال قوم: معناه متفرقون بمباينة كل واحد للآخر بما يوجب النقص، والقاهر القادر بما يجب به الغلبة لامحالة والقهار مبالغة في الصفة يقتضى انه القادر بما يجب به الغلبة لكل احد والخير الا بلغ في صفة المدح، والشر الا بلغ في صفة الذم.

قوله تعالى:

ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٤٠) آية بلاخلاف.

وهذا تمام ما قال يوسف للكفار الذين يعبدون غير الله، فقال لهم لستم تعبدون من دون الله إلا أسماء سميتوها. وقيل في معناه قولان:

احدهما - انه لما كانت الاسماء التي سموها آلهتهم لاتصح معانيها صارت كأنها اسماء فارغة يرجعون في عبادتهم اليها فكأنهم إنما يعبدون الاسماء، لانه لا يصح معاني يصح لها من إله ورب الثاني - إلا اصحاب أسماء سميتوها لاحقيقة لها، والعبادة هي الاعتراف بالنعمة مع ضرب من الخضوع في أعلى الرتبة، ولذلك لا يستحقها إلا الله تعالى وقوله " ما انزل الله بها من سلطان " أي لم ينزل الله على صحة ما تدعونه حجة، ولا برهاناً فهي باطلة لهذه العلة، لانها لو كانت صحيحة، لكان عليها دليل.

(١٤٣)

وقوله " ان الحكم إلا لله " معناه ليس الحكم إلا لله فيما فعله او أمر به، والحكم فصل المعنى بماتدعو إليه الحكمة من صواب او خطأ. والامر قول القائل لمن دونه (افعل) والصحيح انه يقتضي الايجاب. وقوله " امر ان لاتعبدوا إلا إياه " معناه أمر أن تعبدوه، وكره منكم عبادة غيره، لان الامر لا يتعلق بأن لا يكون الشيء، لانه انما يكون أمراً بارادة المأمور والارادة لاتتعلق الا بحدوث الشيء.

وقوله " وذلك الدين القيم " معناه ان الذي أمر به من عبادته وحده، وان لايشرك به شئ هو " الدين القيم " المستقيم الصواب، ولكن اكثر الناس لا يعلمون صحة ماقوله، لعدولهم عن الحق، والنظر والاستدلال.

قوله تعالى:

(ياصاحبي السجن أما أحد كما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الامر الذي فيه تستفتيان) (٤١) آية بلاخلاف.

في هذه الآية اخبار عما أجاب به يوسف للفتيين في تأويل رؤياهما حين راجعاه في معرفته، فقال " ياصاحبي اما أحد كما فيسقي ربه خمرا " يعني سيده، ومالكه، لانه كان صاحب شرابه، واجرى عليه صفة الرب، لانه مضاف، كمايقال رب الدار، والضيعة. و " اما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه " فروي ان صاحب الصلب، قال مارأيت شيئا، فقال له قضي الامر الذي فيه تستفتيان.

وهذا يدل على انه كان ذلك بوحى من الله ولفظ احد لواحد من المضاف اليه مما له مثل صفة المضاف في الافراد نحو احد الانسانين، واحد الدرهمين، فهو إنسان ودرهم لامحالة. والبعض يحتمل ان يكون لاثنين فصاعدا، ولذلك اذا قال جاءني احد الرجال، فهم منه إنه جاءه واحد منهم. واذا قال جاءني بعض الرجال جاز ان يكون اكثر من واحد. والاستفتاء طلب الفتيا. والفتيا جواب بحكم

(١٤٤)

المعنى، فهو غير الجواب بعينه.

قوله تعالى:

(وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنسه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن

بضع سنين) (٤٢)

آية بلاخلاف.

وهذا حكاية عما قال يوسف (ع) للذي ظن انه ينجو منهما، وقال ابوعلي:

الظن ههنا بمعنى العلم لقوله " ظننت اني ملاق حسابه " (١) وقال قتادة: الرؤيا على الظن، وقال غيره: إلا رؤيا الانبياء، فانها يقين. والظن هو ماقوي عند الظان كون المظنون على ماظنه مع تجويزه ان يكون على خلافه. والنجاة هي السلامة. وقوله " اذكرني عند ربك " يعني عند سيدك كماقال الشاعر:

وإن يك رب أنواد فحسبي * أصابوا من لقائك ماأصابوا (٢)

وانما سأله ان يذكره عند سيده بخير ويعرفه علمه وماخصه الله تعالى من الفضل والعلم ليكون ذلك سبب خلاصه. والذكر حضور المعنى للنفس، وعلى حال الذكر يتعاقب العلم واضداده من الجهل والشك. والنسيان ذهاب المعنى عن النفس وعزوبه عنها. والهاء في قوله " فانساه " تعود إلى يوسف في قول ابن عباس - والتقدير فانسى يوسف الشيطان ذكر الله، فلذلك سأل غيره حتى قال مجاعة إن ذلك كان سبب للبتة في السجن مدة من الزمان. وقال ابن اسحاق والحسن والجبائي يعود على الساقى، وتقديره فأنسى الساقى الشيطان ذكر يوسف.

(١) سورة الحاقة آية ٢٠.

(٢) قائله النابغة الذبياني. ديوانه ١٩ (دار بيروت) وروايته:

وان تكن الفوارس يوم حسبي * اصابوا من لقائك ماصابوا

(١٤٥)

وقوله " فلبث في السجن بضع سنين " فاللبث في المكان هو الكون فيه على طول من الزمان، واللبث والثبوت والسكون نظائر. والبضع قطعة من الدهر. وقيل البضع من الثلث إلى العشر - في قول ابن عباس - وقال قتادة ومجاهد إلى التسع وقال وهب: إلى سبع سنين. والسنة إثنا عشر شهرا ويجمع سنين وسنوات. قوله تعالى:

(وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات ياأيها الملا أفتوني

في رعيي إن كنتم للرعي تعبرون) (٤٣) آية بلاخلاف.

حكى الله تعالى في هذه الآية: إن الملك الذي كان يوسف في حبسه، وكان ملك مصر فيما روي، قال إنه رأى في المنام " سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف " يعنى مهازيل " وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات " ثم أقبل على قومه، فقال " ياأيها الملا " اي ياأيها الاشرف والعظماء الذين يرجع اليهم " أفتوني في رؤيائي ان كنتم " تعبرون الرؤيا، وتدعون العلم بتأويلها، والملك القادر الواسع المقذور الذي اليه السياسة والتدبير.

والرؤيا تخيل النفس للمعنى في المنام حتى كأنه يرى، ويجوز فيها الهمزة وتركها. والبقرات جمع بقرة والسمن زيادة في البدن من الشحم واللحم وهو على الشحم أغلب، والعجف يبس الهزال يقال: عجف يعجف عجفا، فهو أعجف.

والانثى عجفاء، والجمع عجاف، وسنبلات جمع سنبل، والعبارة: نقل معنى التأويل إلى نفس السائل بالتفسير، وهي من عبور النهر وغيره، ومنه المعبر والعبارة، وإنما دخلت اللام في قوله " للرؤيا " مع أن الفعل يتعدى بنفسه، لأنه تفسير التبيان ج ٦ - م ١٠

(١٤٦)

إذا تقدم المفعول ضعف عمله، فجاز إدخال حرف الاضافة لهذه العلة، ولا يجوز يعبرون للرؤيا، لأنه في قوة عمله.

قوله تعالى:

(قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين)

(٤٤) آية بلاخلاف.

هذا حكاية ما أجاب به الملا الملك حين سأله عن تعبير رؤياه ولم يعرفوا معناها، قالوا: " أضغاث أحلام " أي هذه الرؤيا أضغاث أحلام، والأضغاث جمع ضغث، قال قوم: هو الحزمة من الحشيش، والبقل، وغيره. وقال آخرون: هو خلط قش المد، وهو غير متشاكل، ولا متلائم، فشبها به تخليط المنام، ونفوا ان يكونوا عالمين بمثل ذلك. وقال قتادة: هي اخلاط أحلام وقال ابن مقبل:

خود كان فراشها وضعت به * اضغاث ريحان عداه شمال (١)

وقال آخر:

يحمي ذمار جنين قل مانعه * طاو لضغث الخلا في البطن ممتكن (٢)

وقال آخر:

واستقل مني هذه قدر بطنها * والقيت صغثا من خلا متطيب (٣)

والاحلام جمع حلم، وهو الرؤيا في النوم، وقد يقال: جاء بالحلم أي الشئ الكثير، كأنه جاء بما لا يرى إلا في النوم لكثرتة. والحلم: الاناة، حلم حلما:

إذا كان ذا أناة وإمهال. والحلم ضد الطيش. ومنه " ان ابراهيم لحليم أواه

(١، ٢) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢: ١٢٥ وروايته (غداة) بدل (عداه).

(٣) مجاز القرآن ١: ٣١٢ وجمهرة اشعار العرب ٢: ٢٣ وقد نسب إلى عوف بن عطية ابن عمر بن الحارث بن تميم. انظر سمط اللالي ٣٧٧، ٧٢٣ ومعجم البلدان ٢٧٧.

(١٤٧)

منيب " (١) والحليم: من له ما يصح به الأناة دون الخرق والعجلة. والله الحليم، الكريم، و (الحلم) بضم اللام ما يرى في المنام، لأنها حال أناة وسكون ودعة تقول: حلم يحلم حلما بسكون اللام - إذا اردت المصدر، والحلمة رأس الثدي، لأنها، تحلم الطفل، والحلم الجدي الذي قد حلمه الرضاع، ثم كثر حتى قيل لكل جدي. قوله تعالى:

(وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) (٤٥) آية بلاخلاف. حكى الله تعالى في هذه الآية أن الذي نجا من الفتيين اللذين رأيا المنام، وفسره لهما يوسف وهو صاحب الشراب - على ما ذكره له يوسف، فتذكر بعد وقت وحين من الزمان، لامر يوسف، وقال لهم أنا اخبركم بما يؤل اليه هذا المنام، فابعثوني حتى ابحت عنه. و (النجاة) التخلص من الهلاك. والادكار طلب الذكر. ومثله التذكر والاستنكار، ووزنه (الافتعال) من الذكر وأصله الانتكار، فقلبت التاء ذالا وادغمت فيها الدال على أصل ادغام الاول في الثاني ويجوز اذكر، على تغليب الاصل على الزائد. و (الامة) المذكورة هي الجملة من الجبن، وأصله الجماعة من الجبن، وسميت الجماعة الكثير من الناس أمة، لاجتماعها على مقصد في امرها.

وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة: " بعدأمة " أي بعدحين، وحكى الزجاج وغيره عن ابن عباس " بعد أمة " اي بعد نسيان، يقال أمه يأمه أمها بفتح الميم -، وحكي عن ابي عبيدة - بسكون الميم - قال الزجاج هذا ليس بصحيح وأجازه غيره، وروى هذه القراءة عن جماعة كقتادة وعكرمة وغيرهم.

(١) سورة هود آية ٧٥.

(١٤٨)

وتأويل الرؤيا تفسير ما يؤل اليه معناه، وتأويل كل شئ تفسير ما يؤل اليه معنى الكلام. وحكي عن الحسن أنه قرأ " أنا اجبكم بتأويله " وهو خلاف المصحف. قوله تعالى:

(يوسف أيها الصديق أفنتا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) (٤٦) آية بلاخلاف.

حكى الله تعالى عن الذي نجا من الفتيين انه جاء يوسف بعد أن قال لهم أبعثوني. وقال له يا " يوسف " وحذف حرف النداء، لانه إسم علم " أيها الصديق " والصديق الكثير التصديق بالحق

للدلالة عليه، وكل نبي صديق بهذا المعنى " أفنتا في سبع بقرات " أي اخبرنا عن حكم هذه الرؤيا، و (الفتيا) جواب عن حكم المعنى، وقد يكون الجواب عن نفس المعنى فلا يسمى فتيا. وقوله " لعلي ارجع إلى الناس لعلمهم يعلمون " معنى (لعل) الشك، لأنها طمع واشفاق، وإنما قال ذلك لطمعه أن يكون، واشفق ان لا يكون، ولو قال لارجع إلى الناس ليعلموا، لكان فيه تعليل السؤال، غير ان الشك في (لعل) قد يكون للمتكلم، وقد يكون للمخاطب، و (الرجوع) إلى الشيء المرور إلى الجهة التي جاء منها، والرجوع عنه الذهاب عنه. وقوله " لعلمهم يعلمون " يحتمل أمرين:

- أحدهما لعلمهم يعلمون بمكانك ومنزلتك.

الثاني - لعلمهم يعلمون تأويل الرؤيا.

قوله تعالى:

(قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في

(١٤٩)

سنبله إلا قليلا مما تأكلون) (٤٧) آية.

حكى الله تعالى عن يوسف ما أجاب به المستفتي عن تعبير الرؤيا التي رآها الملك، فقال له إنكم " تزرعون سبع سنين دأبا " أي مستمرة. وقيل: متوالية.

وقيل: على عادتكم. والدأب استمرار الشيء على عادة، يقال هو دأب بفعل كذا إذا استمر في فعله، وقد دأب يدأب دأبا. وسكن القراء كلهم الهمزة، إلا حفصا فإنه فتحها، وهي لغة مثل سمع، وسمع، ونهر ونهر. ونصب (دأبا)

على المصدر أي تدأبون دأبا، وكلهم همز إلا من مذهبه ترك الهمزة وأبوعمر و إذا أدرج. وقوله " فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون " حكاية عن تمام ما قال يوسف له: من أن ماتحصدونه لاتذروه ولاتدرسونه، ودعوه في السنبل إلا القليل الذي تأكلونه. وقيل إنما أمرهم بذلك، لأن السنبل لا يقع فيه السوس، ولا يهلك، وإن بقي مدة من الزمان، وإذا صفي أسرع إليه الهلاك، و (الزرع)

طرح الحب في الارض بالدفن مع التعاهد له بالسقي، تقول. زرع يزرع زرعاً، وازرع ازراعاً، وزارعه مزارعة، و (الحصد) قطع الزرع، حصده يحصده حصدا استحصد الزرع إذا جاز حصاده.

قوله تعالى:

(ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون (٤٨) آية بلاخلاف.

وهذا تمام حكاية ما فسر به الرؤيا يوسف (ع)، فقال لهم: إنه يجئ بعد هذه السنين التي زرعتم فيها وحصدتم، سبع سنين أخر شداد وهي جمع شديدة، والشدة قوة الالتفات، والشدة والصلابة والصعوبة نظائر. وشدة الزمان

(١٥٠)

وصعوبته بمعنى. وضدها الرخاء. وقيل الشدة تكون في سبعة أصناف في الاصل: في العقد، والمد، والزمان، والغضب، والالم، والشراب، والبدن. وقوله " يأكلن ما قدمتم لهن " اضاف الاكل إلى السنين، لانها بمنزلة ما يأكل ذلك لوقوع الاكل فيها كما يكون الاكل في الأكل قال الشاعر:

نهارك يامغرور سهو وغفلة * وليلك نوم والردى لك لازم (١)

والتقديم التقريب إلى جهة القدام، والتأخير التباعد إلى جهة الخلف، والاحصان الاحراز، وهو إلقاء الشئ فيما هو كالحصن المنيع، أحصنه إحصانا اذا أحرزه. قوله تعالى:

(ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) (٤٩) آية بلاخلاف. قرأ حمزة والكسائي بالتاء (تعصرون) على الخطاب أي أنتم. الباقيون بالياء على الرجوع إلى الناس، وهذا حكاية ما بشر به يوسف المستفتي له أنه يأتي بعد هذه السنين الصعبة سنة. والعام السنة مأخوذ من العوم، لما لاهله فيه من السبح الطويل. وقال الخليل: العام حول يأتي على شتوة وصيفة. والحول، والسنة مثل ذلك. وقوله " فيه يغاث الناس " فالغوث النفع الذي يأتي على شدة حاجة ينفي المضرة، والغيث المطر الذي يجئ في وقت الحاجة، غائهم الله يغيثهم غيثا، وأصابهم غيث. والغيث الكلا الذي ينبت من ماء السماء وجمعه غيوث. والغياث أصله من الواو، اغاثه الله اغاثه، وغوث تغويثا: اذا قال واغوثاه من يغيثني، ويقول الواقع في بلية: اغثني اغاثك الله، و (يغاث) يحتمل ان يكون من الياء.

(١) تفسير القرطبي ٩: ٢٩٤ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢: ١٢٧

(١٥١)

ويحتمل ان يكون من الواو " ويعصرون " قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعصرون الثمار التي تعتصر في الخصب من العنب والزيتون والسمسم. وحكى بعضهم أنهم لم يعصروا - أربع عشرة سنة - زيتا ولاعنيا، فيكون المعنى تعصرون للخصب الذي أتاكم، كما كنتم تعصرون في أيام الخصب.

الثاني - في رواية أخرى عن ابن عباس تحلبون.

الثالث - قال ابو عبيدة والزجاج: تتجون نجاا المعتصر بالماء عند الغصص، كما قال عدي بن زيد:

لو بغير الماء حلقي شرق * كنت كالغصان بالماء اعتصاري (١)
وقال ابوزيد الطائي:

صاديا يستغيث غير مغاث * ولقد كان عصرة المنجود (٢)

واصل العصر عصر العنب، ونحوه من الرطب المستخرج مأؤه وكذلك ما فيه الدهن ليستخرج دهنه، ومنه العصارة ما يخرج بالعصر، والاعتصار شرب الماء قليلا قليلا عند الغصص، والمعصر الكاعب، لانه يجري فيهما ماء الشباب، والمعصرات السحائب التي تتعصر بالمطر، والاعصار ريح تثير السحاب او الغبار، لانه كالمعتصر منها. والعصرة المنجاة كنجاة الغصان باعتصار الماء، والعصرة الدنية في النسب، لانه كالمعتصر من الرطب. وقرئ يعصرون بضم الياء، وفتح الصاد شاذا ومعناه يمتطرون.

وقال البلخي: وهذا التأويل من يوسف يدل على بطلان قول من يقول:

ان الرؤيا على ما عبرت اولا، لانهم كانوا قالوا هي أصغات احلام، فلو كان ما قالوه صحيحا لما كان يتأولها.

(١) مر هذا البيت في ١: ٤١٢ (٢) تفسير القرطبي ٩: ٢٠٤ ومجاز القرآن ١: ٣١٣ وتفسير القرطبي ١: ٢٢٦

(١٥٢)

قوله تعالى:

(وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسنأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) (٥٠) آية بلاخلاف.

قرأ البرجمي والسلموني " النسوة " بضم النون. والباقون بكسرها، وهما لغتان. والكسر افصح. وفي الكلام حذف، لان تقديره إن الناجي الذي استفتى يوسف عن تفسير رؤيا الملك حين فسره له، رجع إلى الملك واخبره به، وعرفه ان ذلك فسره له يوسف، فقال الملك عند ذلك: ائتوني به والكلام دال عليه، وذلك من عجائب القرآن، وعظم فصاحته. ومعنى " ائتوني به " .

أجيبوني به " فلما جاء ه الرسول " يعني رسول الملك، قال له يوسف ارجع إلى سيدك. " فأسأله مابال النسوة اللاتي قطعن ايديهن " وانمارد الرسول ليبين للملك براءته مما قرف به، وانه حبس بظلم من غير بينة، ولا اعتراف بذنب، وقال قتادة: طلب العذر. وقوله " ان ربي بكيدهن عليم " قيل في معناه قولان: احدهما - وهو الصحيح - انه أخبر ان الله تعالى عالم بكيد النسوة. والثاني - ان سيدي العزيز عليم بكيدهن. والاول عليه اكثر المفسرين. والملك هو القادر الواسع المقدر الذي اليه السياسة والتدبير، وكان هذا الملك ملك مصر. ويجوز ان يمكن الله تعالى الظالم من الظلم، وينهاه عن فعله، ولايجوز أن يملكه الظلم، لان مايملكه، فقد جعله له، وذلك لايليق بعدله. والتملك تمكين الحي مما له ان يتصرف فيه في حكم الله تعالى بحجة العقل والسمع، وعلى هذا اذا مكن الله تعالى من الظلم او الغصب لا يكون ملكه، لانه لم يجعل له التصرف فيه. بل زجره عنه، قال الرماني: يجوز أن يسلب الله تعالى الخلق

(١٥٣)

ماملكهم في الدنيا بسوء افعالهم، كما يسلب بعضهم بكفرهم، والافهوه له، فان اخذ بالموت عنه على طريق العارية ثم يرد اليه ويعوض مما فاته بكرمه تعالى، وقيل: ان يوسف انما قال مابال النسوة جميع النساء ولم يخص امرأة العزيز حسن عشرة منه، وقال قوم ذلك يدل على ان كل واحدة منهن دعته إلى نفسها مثل امرأة العزيز. قوله تعالى:

(قال ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) (٥١) آية بلاخلاف. اخبر الله تعالى انه حين رجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف جمع النساء وقال لهن ماخطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه، والخطب الامر الذي يخاطب به صاحبه، مما يستعظم شأنه، يقال هذا خطب جليل، وماخطبك، وما شأنك؟.

وقوله " قلن حاش لله " حكاية عما اجابته به النسوة، فانهن قلن للملك على وجه التنزيه " حاش لله " اي عياذ بالله، وتنزيها من هذا الامر، كقوله " معاذ الله ". وقد يستثنى به، فيقال أتاني القوم حاشى زيد، بمعنى إلا زيدا " ما علمنا عليه من سوء " اي لم نعلم عليه امرا قبيحا. قالت امرة العزيز عند ذلك معترفة بخطئها " الآن حصحص الحق " أي بان الحق يقال حصحص الامر وحصص الحق اي حصل على امكن وجوهه، وهو قول ابن عباس، ومجاهد وقاتادة، واصله حصص من قولهم حصص شعره اذا استأصل قطعة منه، والحصصة اي القطعة

(١٥٤)

من الشيء، فمعنى " حصص الحق " انقطع عن الباطل بظهوره. ومثله كبوا وككبوا، وكف
الدمع وككفه، ورده وردده، فهو زيادة تضعيف دل عليها الاشتقاق ذكره الزجاج. واصله من
حصص البعير ثفناة في الارض إذا برك حتى يستبين آثارها فيها. قال حميد بن ثور الهذلي:
وحصص في صم القنا ثفناة * ورام القيام ساعة ثم صمما (١)
ويقال انحص الوبر عن جنب البعير وانحت اذا انحسر ومعنى " انا راودته " انا طالبته بذلك، "
وانه لمن الصادقين " في امتناعه من ذلك.
قوله تعالى:

(ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) (٥٢) آية بلاخلاف.
اختلفوا في من هذا الكلام حكاية عنه؟ فقال اكثر المفسرين كالحسن ومجاهد وقتادة والضحاك:
انه من قول يوسف " ذلك " يعني ذلك الامر من فعلي من رد الرسول ليعلم العزيز اني لم
اخنه بالغيب، وقطع الحكاية عن المرأة، وجاز ذلك لظهور الكلام الدال على ذلك، كما قال "
وكذلك يفعلون " وقبله حكاية عن المرأة " وجعلوا أعزة اهلها اذلة " (٢) وكما قال " فماذا
تأمرون " ومثله حكاية قول الملا " يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره " (٣) وقال الجبائي
والبلخي: انه من قول المرأة. والمعنى ان اعترافي على نفسي بذلك ليعلم يوسف اني لم اخنه
بالغيب، لان العزيز سألها ولم يكن يوسف حاضرا وكلا الامرين جائز ان، والاول أشبه،
والخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر، وضد الخيانة الامانة،

(١) اللسان (صمم) وروايته:

وحصص في صم القنا ثفناة * وناء بسلمى نوءة ثم صمما

(٢) سورة النمل آية ٣٤ (٣) سورة الاعراف آية ١٠٩ - ١١١

(١٥٥)

وهي تأدية الحق على ماوقع به العقد. والفرق بين الخيانة والغدر أن الخيانة تكون على وجه
السر والغدر نقض العهد بخلاف الحق جهرا، والكيد الاحتيال في ايصال الضرر إلى صاحبه،
كاده بكيده كيدا، فهو كائد.
واللام في قوله " ليعلم " لام (كي) ومعناها تعليق مادخلت عليه بالفعل الذي قبله، بمعنى انه
وقع من اجله، وانما يتعلق بذلك الارادة. وقوله " وان الله لا يهدي كيد الخائنين " اي لا يدعوهم
اليها ولا يرغبهم فيها وانما يفعلونها بسوء اختيارهم.

قوله تعالى:

(وما أبرئ نفسي إني النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم) (٥٣) آية
بلاخلاف.

هذا اخبار عما قال يوسف على وجه التواضع لله لست أبرئ نفسي من السوء، والتبرئة ازالة
الشيء عما كان لازما له، لان النفس امارة بالسوء اي تنازع إلى السوء، فلست ابرئ نفسي من
ذلك، وان كنت لا اطوعها فيما نازعت اليه، والامارة الكثيرة الامر بالشيء، والنفس بهذه
المنزلة لكثرة ما تشتهي وتنازع اليه مما يقع الفعل لاجله، وهذا مجاز في الاصل غير انه كثر
استعماله في العرف، فيقال نفسي تأمرني بكذا وتدعوني إلى كذا من جهة شهوتي له، والا فلا
يصح ان تأمر الانسان نفسه، لانه يقتضي الرتبة، لانه قول القائل لمن دونه (افعل) وذلك
لا يصح بين الانسان وبين نفسه، واكثر المفسرين على ان هذا من قول يوسف. وقال ابو علي
الجبائي هو من كلام المرأة.

وقوله " الامارح ربي " استثناء من الانفس التي يرحمها الله، فلاتدعو إلى القبيح، بان يفعل
معها من اللطاف ما تنصرف عن ذلك.

(١٥٦)

وقوله " ان ربي غفور رحيم " تمام الحكاية عن قائل ذلك انه اعترف بان الله تعال غفور رحيم
اي سائر عليهم ذنوبهم رحيم بهم بان يعفو عنهم ويقبل توبتهم.

قوله تعالى:

(وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) (٥٤) آية
بلاخلاف.

هذه السياقة تدل على ان ماضى حكاية عن قول المرأة، لان يوسف لم يكن حاضرا ذلك
المجلس، وان الملك حين سمع جميع ذلك قال ائتوني بيوسف استخلصه لنفسي، وطلب هذا
الملك ان يكون يوسف له وحده دون شريك فيه، والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شائب
الاشتراك. وقال ابن اسحاق كان هذا الملك: الوليد ابن ريان.

وقوله " فلما كلمه " فيه حذف، وتقديره انه لما امر باحضاره فأحضر قال له بعد ان كلمه "
انك " يا يوسف " اليوم لدينا مكين امين " اي عرفنا امانتك، وثقتك، وانت على حالة يتمكن من
كان عليها مما يريد، يقال لفلان مكانة عند الملك، وهو مكين عنده، واصله التمكن من الامر
(والامين) الموثوق به، والامانة حالة ثقة يؤمن معها نقض العهد بالفتح، وذلك كالعقد في
الوديعة وفي التولية والعقد في الدين، والعقد في القيام بالحق.

قوله تعالى:

قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم (٥٥)
آية بلاخلاف.

وهذا حكاية ما قال يوسف حين قال له الملك انك اليوم لدينا مكين امين

(١٥٧)

" اجعلني " على خزائن الارض " يعني ارضك، والالف واللام يعاقبان حرف الكناية، و اراد بذلك الارض التي هي ملكه ويجمع فيها ماله وطعامه، طلب اليه ذلك ليحفظ ذلك عن لا يستحقه ويوصله إلى الوجوه التي يجب صرف الاموال لها، فلذلك رغب إلى الملك فيه، لان الانبياء لا يجوز ان يرغبوا في جمع اموال الدنيا الا لما قلناه. وقوله " اني حفيظ عليم " معناه حافظ للمال عن لا يستحقه عليم بالوجوه التي يجب صرفها اليه، وفي الآية دلالة على جواز تقلد الامر من قبل السلطان الجائر اذا تمكن معه من اوصول الحق إلى مستحقه.
قوله تعالى:

(وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين) (٥٦)
آية بلاخلاف.

قرأ " نشاء " النون ابن كثير وحده. الباقرن بالياء.

من قرأ بالنون، فعلى معنى ان يوسف يتبوء من الارض حيث يشاء، وطابق بينه وبين قوله " نصيب برحمتنا من نشاء "، ويكون على احد معنيين:
احدهما - ان تكون المشيئة اسندت اليه، وهي ليوسف، لما كانت بأمره و ارادته كما قال " ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى " (١) فأضاف الرمي إلى الله، لما كان بقدرته و ارادته.
والثاني - ان يكون الموضوع المتبوء موضع نسك وعبادة او موضعا يقام فيه الحق، من أمر بمعروف، او نهى عن منكر، ويقوي النون قوله " نصيب برحمتنا من نشاء ".

(١) سورة الانفال آية ١٧.

(١٥٨)

ومن قرأ بالياء حملة، على انه يتبوء يوسف حيث يشاء هو نفسه.

اخبر الله تعالى أنه كما لطف ليوسف حين اخرجه من السجن وخلصه من المهالك كذلك مكنه من التصرف، والمقام في الارض حيث يشاء كيف يشاء، وقال الجبائي: كان هذا التمكن ليوسف ثوبا من الله على طاعته واحسانه الذي تقدم منه في الدنيا. وقال غيره: ليس في ذلك

دلالة على انه ثواب، ويجوز أن يكون تفضلا عليه بذلك من غير ان ينقص من ثوابه شيء،
والتمكن الاقدار بما يتسهل به الفعل من رفع الموانع وايجاد الالات والالطاف وغير ذلك مما
يحتاج اليه في الفعل. والنبوء هو اتخاذ منزل يرجع اليه واصله الرجوع من " باؤا بغضب من
الله " قال الشاعر:

فان تكن القتلى بواء فانكم * فتى ماقتلتم آل عوف بن عامر (١)
اي يرجع بدم بعضها على بعض، فان هذا المقتول لاكفاء لدمه. وقوله " نصيب برحمتنا من
نشاء " اخبار منه تعالى انه يفعل رحمته بمن يشاء من عباده على وجه التفضل عليهم
والاحسان اليهم، وانه لا يضيع اجر الذين يحسنون افعالهم ويفعلون ما أمرهم الله به على وجهه،
بل يثيبهم على ذلك.

والاحسان على ثلاثة اوجه:

احدها - ان يحسن إلى غيره، فذلك انعام.

وثانيها - ان يحسن إلى نفسه بأن ينفعها نفعا حسنا.

وثالثها - ان يفعل حسنا مبهما لا يضيفه إلى نفسه ولا إلى غيره.

واللام في قوله " مكننا ليوسف " يحتمل ان يكون مثل قوله " ردف لكم " (٢)

و " للرؤيا تعبرون " (٣) بدلالة قوله " مكناهم فيما ان مكناكم فيه " (٤) وقوله " مكناهم في
الارض مالم نمكن لكم " (٥) " ويتبوء " في موضع نصب على الحال.

(١) قاتلة ليلي الاخيلىة، قدام في ١: ٣٧٨ وهو في اللسان (بوا)

(٢) سورة النمل آية ٧٢ (٣) سورة يوسف آية ٤٤ (٤) سورة الاحقاف آية ٢٦ (٥) سورة الانعام آية ٦

(١٥٩)

قوله تعالى:

(ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون " (٥٧)

آية بلاخلاف.

اخبار الله تعالى ان الثواب الذي يثيب الله به الذين يؤمنون به ويتقون معاصيه في الآخرة،
وهي النشأة الثانية، فان الدنيا هي النشأة الاولى والآخرة خير واعظم نفعا من منافع الدنيا التي
تنالها الكفار.

وقال ابو علي الجبائي: اجر الآخرة خير من ثواب الدنيا، لان ما تقدم في الآية الاولى يقتضيه.

قوله تعالى:

(وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) (٥٨) آية بلاخلاف.

حكى الله تعالى عن اخوة يوسف الذين كانوا ألقوه في الجب، وباعوه بثمن بخس انهم جاؤه ودخلوا عليه، فعرفهم يوسف ولم يشك فيهم، ولم يعرفه اخوته بل كانوا جاهلين بحاله منكرين له، وكان سبب مجيئهم اليه مجئ سني القحط التي كان ذكرها يوسف في تعبير الرؤيا، فجاؤا إلى مصر يمتارون كما جاء غيرهم من الناس - في قول السدي، وابن اسحق وغيرهما، وليس لاحد ان يقول: كيف يجوز مع كمال العقل ان يعرفهم يوسف، وهم يجهلونه مع انه نشأ معهم؟.

وذلك ان عنه جوابين.

احدهما - قال الجبائي: انهم فارقوه وهو صبي امرد، فجاؤوه وقد التحى وكبر وتغيرت حاله، فلم يعرفوه. وقال البلخي: ان ذلك مما خرق الله تعالى فيه العادة لنبيه (ع).

(١٦٠)

قوله تعالى:

(ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أو في الكيل وأنا خير المنزلين) (٥٩) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان يوسف لما أمر بتجهيز اخوته فجهزهم، والجهاز فاخر المتاع الذي يحمل من بلد إلى بلد، ومنه قولهم: فلان يجهز، ومنه جهاز المرأة، قال لهم جيئوني " بأخ لكم من أبيكم " وانما قال ذلك، لانه كان اخا يوسف لابييه وامه، وهو ابن يامين - في قول قتادة وغيره - وكان اخاهم لابييه خاصة.

وقوله " الاترون اني أوفي الكيل " خطاب من يوسف لاختوته، فقال أليس قد عرفتم عدلي وإيفائي الكيل من غير بخس له. والوفاء تمام الامر على ما يوجب الحق، ويكون ذلك في الكيل، وفي الوزن، وفي الذرع، وفي العد، وفي العقد.

و (الكيل) مصدر كان يكيل، وهو فصل المكيال بمئنه. و (المكيال) مقدار يفصل عليه ما يطرح فيه.

وقوله " وانا خير المنزلين " فيه قولان: احدهما - قال مجاهد: خير المضيفين.

والثاني - خير المنزلين في سعر الطعام. و (المنزل) واضع الشئ في منزلته، وقد يكون للشئ منزلتان، احدهما اولى من الاخرى، فمن وضعها في الاولى فهو خير المنزلين كسعر الطعام الذي يضعه في اولى منزلتيه.

قوله تعالى:

(فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون) (٦٠)

آية بلا خلاف.

(١٦١)

ثم قال يوسف لاختوته بعد ان قال لهم " ائتوني بأخ لكم من ابيكم " متى مالم تفعلوا ما امرتكم به من اتيانكم بأخيكم، فأني لا اكيل لكم الطعام، ولا ابايعكم، ومع هذا فلا تقتربون يعني لاتجيبوني، والذي اقتضى طلبه الاخ من ابيهم انه فاوضهم وساءلهم عن اخبارهم واحوالهم، واخبار اهلهم، كما يتسأل الناس عن مثل ذلك، ودل الكلام على ذلك، وهو من عجيب فصاحة القرآن، وإنما استجاز ان يطلب اخاهم ولا معاملة بينه وبينهم، لانهم ذكروا ان اباهم آثره عليهم بالمحبة مع حكمته وفضله، احب ان يراه وتطلعت نفسه إلى ان يعلم السبب فيما يقتضي هذه الحال، وانما اخفاهم امره ولم يطلعهم على ما نعم الله عليه، لانه خاف ان يكتنوا اباه امره لماتقدم لهم فيه واحب ان يجري تدبيره على تدريج لئلا يهجم عليه ما يشتد معه اضطرابهم. قوله تعالى:

(قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون) (٦١) آية بلاخلاف.

هذاحكاية ما اجاب به اخوة يوسف حين حثهم على الاتيان بأخيهم بأنهم " قالوا سنراود عنه اباه " ونحن نفعل ذلك، والمرادة المطالبة من قولهم راد يرود، فهو رائد اي طلب، وفلان يرتاد موضعا اي يطلبه، وفي المثل (الرائد لا يكذب اهله) ومنه الارادة وهي طلب الفعل بما هو كالسبب له، لان الداعي إلى الفعل داع إلى ارادته، لان باجتماع الامرين يقع الفعل من عالم قادر، والفاعل من جعل الشيء موجودا بعد ان كان معدوما، وكل فاعل جاعل، وليس كل جاعل فاعلا، لانه قد يكون جاعلا على صفة، كالجاعل للجسم متحركا وقال الرماني: الفرق بين العامل والفاعل ان العامل للشيء قد يكون المتغير له، والفاعل لا يكون إلا الموجد له، والفرق بين العامل والجاعل ان العامل لا تفسير التبيان ج ٦ - م ١١

(١٦٢)

يكون الا مغيرا له، وقد يكون الجاعل غير مغير له، لانه يجعله على صفة بحكمه فيه كالذي يجعله كافرا بحكمه انه كافر.

وقال ابن اسحاق: الذي وعدوا بفعله الاجتهاد في المصير بأخيهم اليه لانهم جوزوا ان لا يجيبهم ابوهم إلى الارسال به معهم. وقال ابو علي: وعدوه بان يصيروا به اليه ان ارسله ابوه معهم، فالعدة به كانت واقعة بشرط. قوله تعالى:

(وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) (٦٢) آية بلاخلاف.

قرأ أهل الكوفة إلا أبابكر " لفتيانه " الباقون " لفتيته " قال ابو الحسن كلام العرب قال: لفتيانك، ومافعل فتيانك، وان كانوا ايضا في أدنى العدد إلا ان يقولوا: ثلاثة وأربعة. اخبر الله تعالى عن يوسف انه أمر فتيانه بأن يجعلوا بضاعتهم في رحالهم. و (الفتي) الشاب القوي، وجمعه فتية وفتيان. وقال قتادة: كانوا غلمانة. وقال غيره: كانوا مماليكه. و (البضاعة): قطعة من المال التي للتجارة. و (الرحال) جمع رحل وهو الشيء المعد للرحيل من وعاء المتاع او مركب من مراكب الجمال، وجمعه في القليل ارحل وفي الكثير رحال. وانما جعل بضاعتهم في رحالهم، ليقوي دواعيهم في الرجوع اليه اذا رأوا إكرامه اياهم، ورد بضاعتهم اليهم مع جدوب الزمان وشدته. ويجوز ان يكون جعلها في رحالهم ليرجعوا اليه متعرفين عن سبب ردها. وقال قوم معناه ليعلموا اني لست اطلب أخاهم للرغبة في مالهم. وقوله " لعلمهم يعرفونها " معناه لكي يعرفونها، وانما قال (لعل) لانه جوز أن تشتبه عليهم، فيمسكوا فيها " إذا انقلبوا " أي اذا رجعوا إلى اهلهم " لعلمهم

(١٦٣)

يرجعون " اي لكي يرجعوا، وللام لام الغرض، وانما اتى ب (لعل) لانه جوز أن لايعودوا. قوله تعالى:

(فلما رجعوا إلي أبيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون) (٦٣) آية بلاخلاف.

قرأ (يكتل) بالياء حمزة والكسائي. الباقون بالنون. من قرأ بالياء رد الكناية إلى أخو يوسف، ومن قرأ بالنون رده إلى جماعتهم، لقوله " ونمير اهلنا ".

حكى الله تعالى عن أخوة يوسف أنهم حين رجعوا إلى ابيهم وحصلوا معه، قالوا ياأبانا منعنا الكيل " فأرسل معنا أخانا " اي ابعثه " معنا نكتل " ونحن نحفظه ونحتاط عليه. والاكتيال هو الكيل للنفس، وهو افتعال من الكيل، وانما قال " منع منا الكيل، " وهو قد كال لهم، لان المعنى منع منا الكيل ان لم نأت باخينا. لقوله " فلاكيل لكم عندي ولاتقتربون " وهو قول الحسن والزجاج والجبائي. وهو الصحيح.

وقال قوم: معناه إنه لما كان لهم كمال لكل واحد كيل بغير ومنعهم تمام الكيل الذي أرادوه. قوله تعالى:

(قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فانه خير حافظا وهو أرحم الراحمين) (٦٤) آية بلاخلاف.

(١٦٤)

قرأ أهل الكوفة إلا أبابكر " حافظا " على وزن فاعل. الباقر " حفظا " على المصدر .
وهذا كناية ماقال يعقوب لولده حين قوالوا له " ارسل معنا اخانا " فانه قال لهم " هل آمنكم
عليه " والامن إطمئنان القلب إلى سلامة الامر يقال: آمنه يأمنه.
أما وائتمنه يأتمنه ائتمانا. ومنه قوله " فليؤد الذي أوتمن أمانته " (١) ثم أخبر تعالى، فقال "
فالله خير حافظا " فمن قال على لفظ الفاعل نصبه على الحال. ويحتمل ان يكون نصبه على
التمييز، ولم ينصبه على الحال، والحال يدل على انه تعالى الحافظ.
والتمييز يرجع إلى من يحفظ بأمره من الملائكة وكلا الوجهين أجازهما الزجاج.
ومن قرأ على المصدر نصبه على التمييز لاغير، ولوقرئ (خير حافظ) على الاضافة لدل
على ان الموصوف حافظ، وليس كذلك التمييز، وحقيقة (خير من كذا) انه أنفع منه على
الاطلاق، وانه لاشئ انفع منه، قال ابو علي الفارسي:
وجه قراءة من قرأ (حفظا) بغير ألف انه قد ثبت من قولهم " ونحفظ أخانا " وقولهم " وانا له
لحافظون " انهم اضافوا إلى انفسهم " حفظا " فالمعنى على الحفظ الذي نسبوه إلى انفسهم، وان
كان منهم تفریط في حفظ يوسف، كما قال " اين شركائي " (٢) ولم يثبت لله شريك، ولكن
على معنى الشركاء الذين نسبتهم الي، فكذلك المعنى على الحفظ الذي نسبوه إلى انفسهم،
والمعنى " فالله خير حفظا " من حفظكم الذي نسبتهم إلى انفسكم. ومن قرأ (حفظا) فعلى
التمييز دون الحال.
قوله تعالى:

(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا مانبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا
ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير) (٦٥) آية بلاخلاف.

(١) سورة البقرة آية ٢٨٣.

(٢) سورة النحل آية ٢٧، وسورة القصص آية ٦٢، ٧٤.

(١٦٥)

أخبر الله تعالى عن اخوة يوسف أنهم لما فتحوا متاعهم، والمتاع مبيع التجار مما يصلح
للاستمتاع، فالطعام متاع والبر متاع وأثاث البيت متاع، والمراد به ههنا أوعية الطعام "
وجدوا بضاعتهم ردت إليهم " اي اصابوا بضاعتهم التي كانوا وزنوها بشري الطعام قد جعلت
في وسط امتعتهم، فلما رأوا ذلك " قالوا يا أبانا مانبغي " وقيل في معناه قولان:

احدهما - قال قتادة: ما نطلب؟ على وجه الاستفهام.

والثاني - قال الجبائي: ما نبغي: فيما أخبرناك به عن ملك مصر ليس بالكذب.

ودليله ان هذه بضاعتنا ردت اليها، واجاز الفراء، والزجاج كلا الوجهين، وقولهم " ونمير اهلنا " اي نجلب لهم الميرة، والميرة الاطعمة التي تحمل من بلد إلى بلد يقال: ماره يميره ميرا اذا حمل له الطعام إلى بلده قال الشاعر:

بعثتك مائرا فمكثت حولا * متى يأتي غياتك من تغيث (٢).

وقوله " ونزداد كيل بعير " اي ويعطينا فضل كيل بعير، لمكان أختنا " ذلك كيل يسير " وقيل في معناه قولان:

احدهما - قال الجبائي: ان ذلك كيل قليل، لا يكفينا نحتاج ان نضيف اليه كيل بعير اخينا.

الثاني - قال الحسن: ان ذلك متيسر على من يكيل لنا، واليسر إتيان الخير بغير مشقة، وضده العسر. وكذلك اليسير والعسير.

قوله تعالى:

(قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأنتني

(٢) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ / ٨ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٢٤ واللسان (غوث)

وروايته:

بعثتك مائرا فلبثت حولا * متى يأتي غواثك من تغيث

(١٦٦)

به إلا أن يحاط بكم فلما اتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكي (٦٦) آية بلاخلاف.

هذه حكاية ما قال يعقوب - لبنيه حين سأله إنفاذ أخيهام معهم، وان بضاعتهم ردت اليهم، وانه ان انفذه معهم ازدادوا كيل بعير - اني لست " ارسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله " ومعناه حتى تحلفوا لي بالله لتجيؤني به. والايثاء الاعطاء آتاه يؤثيه ايتاء، والايثان به المجيء به، والموثق العقد المؤكد بالقسم، وانما قال موثقا من الله، وانما هو موثق من انفسهم، لان المعنى موثقا من جهة اشهاد الله او القسم بالله، فاما على انفسهم، فهو العقد عليها بما لا يجوز حله لها. وقوله " الا ان يحاط بكم " موضع (أن) نصب بأنه مفعول له، وتقديره إلا لاحاطة بكم، كما يقول القائل: ماتأثيني إلا، لاخذ الدراهم، وماتأثيني إلا ان تأخذ الدراهم - ذكره الزجاج - والاحاطة أصله ضرب السور حول الشيء. ومنه قيل يعلمه علم احاطة اي على التحديد. والمعنى ههنا إلا ان يحال بينكم وبينه.

وقوله " فلما آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل " معناه انهم لما أجابوه إلى اليمين، وحلفوا له واشهدوا على انفسهم بذلك قال يعقوب " الله على مانقول وكيل " اي حافظ وقيم به. والوكيل القيم بالتدبير والقائم بالقسط فهو العدل في حكمه.
قوله تعالى:

(وقال يا بني لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة وماأغني عنكم من الله من شيء
إن الحكم

(١٦٧)

إلا الله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) (٦٧)
آية بلاخلاف.

حكى الله تعالى عن يعقوب أنه قال لبنيه حين أنفذ اخاهم معهم " يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة " وقيل في سبب قوله ذلك قولان:

احدهما - قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي، والحسن: انه خاف عليهم العين، لانهم كانوا ذوي صور حسنة وجمال وهيبة.

وقال الجبائي: انه خاف عليهم حسد الناس لهم، وان يبلغ الملك قوتهم وشدة بطشهم فيقتلهم محوفا على ملكه، وانكر العين. وقال لم تثبت بحجة. وانما هو شيء يقول الجهال العامة.
والذي قاله غير صحيح في امر العين بل غير منكر ان يكون مال قال المفسرون.

صحيحا، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: (العين حق)، وانه عوذ الحسن والحسين (ع)، فقال في عوذته: (وأعيذكما من كل عين لامة) وقد رويت فيه أخبار كثيرة، وقد جرت العادة به. واختاره البلخي، والرماني واكثر المفسرين، وليس يمتنع ان يكون الله تعالى أجرى العادة لضرب من المصلحة أنه متى ما نظر انسان إلى غيره على وجه مخصوص اقتضت المصلحة اهلاكه أو إمرضه أو اتلاف ماله، فالمنع من ذلك لاوجه له.

وقوله " وماأغني عنكم من الله من شيء " اعتراف منه بأنه لايملك الامر، ولايغني عن يريده الله بسوء. والغنى ضد الحاجة.

وقوله " ان الحكم الا الله " اي ليس للفصل بين الامور على ماتقتضيه الحكمة الا الله.
وقوله " عليه توكلت " اي فوضت امري إلى الله يدبره كيف يشاء. والتوكل من صفات المؤمنين.

(١٦٨)

قوله تعالى:

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ماكان يغني عنهم من الله من شئ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٦٨) آية بلاخلاف. اخبر الله تعالى ان اخوة يوسف، لماوردوا عليه، ودخلوا عليه من ابواب متفرقة حسب ماامرهم به ابوهم ورجبهم فيه لم يكن يعقوب يغني عنهم من الله شيئاً الا حاجة في نفس يعقوب قضاها من خوف العين عليهم أو الحسد على اختلاف القولين، و (الا) بمعنى (لكن) لان مابعداها ليس من جنس ماقبلها. وقوله " وانه لذو علم لما علمنا " اخبا رمن الله تعالى ان يعقوب عالم بما علمه الله. وقيل في معناه قولان:

احدهما - ان ماذكره الله من وصفه بالعلم كان ترغيبا فيه. والآخر - انه ليس ممن يعمل على جهل، بل على علم، براءة له من الامر لولده بما لايجوز له، ولكن " اكثر الناس لايعلمون " ذلك من حاله، كما علمه الله. قوله تعالى:

(ولما دخلوا على يوسف اوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) (٦٩) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى عن اخوة يوسف أنهم لمادخلوا على يوسف آوى يوسف أخاه اليه، والايواء ضم المحبوب وتصويره إلى موضع الراحة. ومنه المأوى المنزل الذي يأوي اليه صاحبه للراحة فيه. وقال الحسن وقتادة: ضمه اليه وأنزله معه، وقد اجتمعت في (آوى) حروف العلة كلها الالف والواو والياء، والعلة في ذلك

(١٦٩)

أن الهمزة بمنزلة الحرف الصحيح، لانها ليست حرف مد ولين، فجاز ذلك على قلبه لهذه العلة. وقال له حين اواه إلى نفسه " إني انا أخوك " يوسف " فلا تبتئس بما كانوا يعملون " وإنما قال له ذلك، لانه وإن كان علم ان له أخا من أبيه وأمه إلا انه لايعلم انه هذا، والابتئاس والاكنتاب والاغتمام نظائر، ومعناه اختلاط البؤس بالحزن، وانما جاز ان يأخذه بالصواع مع تعريفه انه أخوه لامرين:

احدهما - انه كان بمواطأة منه له.

والثاني - قال وهب بن منيه: انه أراد أنا أخوك مكان أخيك الذي هلك.

والاول اصح.

قوله تعالى:

(فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون) (٧٠) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى ان يوسف لما جهز أخوته بجهازهم يعني الطعام الذي اشتروه ليحملوه إلى بلدهم. ومنه جهاز المرأة " جعل السقاية في رحل أخيه " والسقاية المراد بها ههنا صواع الملك الذي كان يشرب فيه. وقيل: كان من فضة. وقال ابن زيد كان كأسا من ذهب. وقيل انه صير مكيا للطعام. والسقاية في الاصل الاناء الذي يسقى فيه، والرحل آلة السفر من وعاء أو مركب، والمراد ههنا وعاء أخيه الذي يحمل فيه طعامه.

وقوله " ثم أذن مؤذن " اي نادى مناد. والايذان الاعلام بقول يسمع بالاذن.

ومثله الاذن، والاذن الاطلاق في الفعل بقول يسمع بالاذن، و (والعير) قافلة الحمير - في قول مجاهد. وقيل هي القافلة التي فيها الاجمال. والاصل الحمير إلا انه كثر حتى صارت تسمى كل قافلة محملة عيرا تشبيها. وقوله " انكم لسارقون " فالسرقة أخذ الشيء من حرز في خفى بغير حق، إلا ان الشرع قدر أنه لايتعلق بها القطع

(١٧٠)

إلا إذا سرق مقدارا معيناً على خلاف بين الفقهاء، فعندنا هو ما قدره ربع دينار، وعند قوم عشرة دراهم، وعند آخرين ثلاث دراهم.

وقيل في وجه ندائهم بالسرقة مع انهم لم يسرقوا شيئاً قولان:

احدهما - ان ذلك من قول اصحابه، ولم يأمرهم يوسف بذلك، ولاعلم.

وإنما كان أمر بجعل السقاية في رحل أخيه على ما أمره الله تعالى، فلما فقدها الموكلون بها اتهموهم بها. وهو اختيار الجبائي.

والثاني - انهم نادوهم على ظاهر الحال فيما يتغلب على ظنونهم ولم يكن يوسف أمر به، وإن علم انهم سيفعلونه. وقال قوم قولاً ثالثاً: ان معناه إنكم سرقتم يوسف من أبيه حين طرحتموه في الجب. وقال آخرون: ان ذلك خرج مخرج الاستفهام، وليس في جعل السقاية في رحل أخيه تعريضاً لأخيه بأنه سارق، لانه إذا كان ذلك يحتمل السرقة، ويحتمل الحيلة فيه حتى يمسكه عنده، فلا ينبغي ان يسبق احد إلى اعتقاد السرقة فيه، وليس في ذلك ادخال الغم على أخيه لانا بينا انه كان اعلمه إياه، وواطأه عليه، ليتمكن من امساكه عنده على ما أمره الله تعالى به، والنداء وان كان للعير فالمراد به اهل العير، كما قال " واسأل القرية " وإنما أراد اهلها.

قوله تعالى:

(قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون) (٧١) قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به

زعيم) (٧٢)

آيتان.

حكى الله تعالى عن اهل العير انهم حين سمعوا نداءهم بأنكم سارقون أقبلوا عليهم وقالوا اي شئ فقدتموه، فقال لهم اصحاب يوسف انا فقدنا صواع الملك، ومن جاء به ورده، فله حمل بعير من الطعام. والاقبال مجئ الشئ إلى جهة المقابلة

(١٧١)

بوجهه، وضده الادبار. ومثله التوجه، والتحاذي. والفقد غيبة الشئ عن الحس بحيث لايدرى اين هو، والفاقد من الوحش هي التي تغيب ولدها عنها قال الشاعر:

بكاء تكلى فقدت حميما * فهي ترثي بأبي وابني ما (١)

والصواع مكيال الطعام. وكان هذا الصواع كأسا للملك يشرب فيه وجمعه صيعان وأصواع. وقال ابن عباس: كان من فضة، و (الحمل) بالكسر على الظهر وبفتح الحاء في البطن، وجمعه احمال وحمول. والبعير الجمل وجمعه بعران وابعرة. وقوله " وانا به زعيم " اي كفيل به، وضمين له، وقائل، قال الشاعر:

فلست بآمن فيها بسلم * ولكني على نفسي زعيم (٢)

وإنماقال وانا به زعيم وقبله ذكر جمع، لان زعيم القوم متكلم عنهم فكأنه قدكلم بذلك جميعهم قالت ليلى الا خيلية:

حتى اذا برزوا اللواء رأيتهم * تحت اللواء على الخميس زعيما (٣)

وذلك انه زعيم القوم لرئاسته، زعم زعامة وزعاما إذا صار رئيسا، قال ابو علي: اصله القول.

قوله تعالى:

(قالوا تالله لقد علمتم ما جننا لفسد في الارض وما كنا سارقين) (٧٣) آية بلاخلاف.

هذا حكاية ما اجاب به اهل العير لما سمعوا النداء، ومايدل على رد الصواع

(١) قاتلة رؤبة اللسان (بني) ويروى (ترثي بأبا وابنا ما).

(٢) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣: ١٣ ومجاز القرآن ١: ٣١٥.

(٣) تفسير القرطبي ٩: ٢٣٢ وسمط اللالي: ٤٣ وتفسير الطبري ١٣: ١٣ وامالي السيد المرتضى ١: ٤٩٧ حاشية.

(١٧٢)

انهم اقساموا بالله انا لم نجئ للافساد في الارض وإنما لم نكن سارقين. والفساد اضطراب التدبير على وجه قبيح، ونقيضه الصلاح. ويقال فسد الشئ اذا تغير إلى حال تضر كفساد

الطعام، وغيره من الامور، وقوله " تالله " التاء بدل من بدل، لانها بدل من الواو والواو بدل من الباء، فضعفت عن التصرف، فاختصت بدخولها على اسم الله لاغير دون غيره من الاسماء، لانه لايقال (تالرحمن)

ودخلت التاء في تالله على وجه التعجب، لانها لما كانت نادرة في حروف القسم جعلت للنادر من المعاني يتعجب منه. وإنما قالوا " تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الارض " مع انهم لم يعلموا ذلك لامرين:

احدهما - لما رأوا من صحة معاملتهم وشدة توقيهم لما لايجوز لهم مما ينبئ عن مقاصدهم. الثاني - قيل لانهم ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ظنا منهم أن ذلك عن سهو، وهذا لا يليق بحال السراق من الناس. وضعف البلخي هذا الوجه، وقال كيف يكون ذلك وهم لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم اظهروا السرور به والفرح، وقالوا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت اليها فكيف يردونها مع ذلك !.

قوله تعالى:

(قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين (٧٤) قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين) (٧٥)

آيتان.

حكى الله تعالى عن اصحاب يوسف انهم قالوا لاهل العير لما سمعوا جحودهم الصواع، وانكروا ان يكونوا سارقين " ماجزاؤه ان كنتم كاذبين " في جحودكم وإنكاركم، وقامت البينة على انكم سرقتموه، وماالذي يستحق ان يفعل بمن

(١٧٣)

سرق؟ فأجابهم اهل العير، وقالوا من ادرك عنده الصواع، ووجد في رحله جزاؤه اخذ من وجد في رحله رقا، فهو جزاؤه عندنا كجزائه عندكم لانه كان من عادتهم ان يسترقوا السارق - في قول الحسن، ومعمر، والسدي، وابن اسحاق - وفيه تقدير ان في الاعراب: احدهما - جزاؤه استرقاق من وجد في رحله، فهذا الجزاء جزاؤه، كما تقول جزاء السارق القطع، فهو جزاؤه لتمكين البيان الاخير.

الثاني - جزاؤه من وجد في رحله، فالسارق جزاؤه، فيكون مبتدأ ثانيا، والفاء جواب الجزاء، والجملة خبر (من) و (من) ههنا يحتمل وجهين:

احدهما - ان يكون بمعنى الذي، وتقديره جزاؤه الذي وجد في رحله مسترقا.

والآخر - معنى الشرط، كأنه قال جزاء السراق إن وجد في رحل إنسان منا، فالموجود في رحله جزاؤه استترقا، وقوله " كذلك نجزي الظالمين " اخبار منهم بأن ذلك عادتهم في مجازاة كل ظالم.

وقد قيل في تأويل الآية وجهان:

احدهما - ان يكونوا في ذلك على شرع لنبي من انبياء الله.

والآخر - ان يكون ذلك على عادة الملوك في اهل الجنایات لمصالح العباد لا على حقيقة الجزاء الذي يعمل بأمر الله بدلالة قوله فيمابعد " ماكان ليأخذ أخاه في دين الملك " فاضاف الجزاء إلى دين الملك دون الله.

قوله تعالى:

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه في دين الملك.

(١٧٤)

إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) (٧٦) آية بلاخلاف.
قرأ يعقوب " يرفع درجات من يشاء " بالياء فيهما على وجه الكناية عن الله.
الباقون بالنون فيهما على وجه الاخبار منه تعالى عن نفسه. ونون التاء من (درجات) اهل
الكوفة. الباقرن على الاضافة.

اخبار الله تعالى ان يوسف أمر اصحابه بأن يفتشوا اوعيتهم ورحالاتهم، وان يبدؤوا بأوعية
الجماعة قبل وعاء أخيه ليكون ابعد من التهم، فلما لم يجدوا فيها شيئاً امر حينئذ باستخراجها
من وعاء أخيه. ثم اخبّر الله تعالى انه كاد ليوسف، والكيد التعريض للغيب، وكان التدبير على
أخوة يوسف حتى اخذ منهم أخوهم بما يوجبهم حكمهم، هو كالتعريض للغيب من جهة اغتمامهم
بمانزل من ذلك الامر بهم. والتقدير كدنا اخوته له بما دبرنا في امره.

وقيل الكيد التعريض للضرر بما خفي، وقد يعبر عن الجزاء على المعصية بالكيد، كقوله "
واملي لهم ان كيدي متين " اي عقوبتي.

وقوله " ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك " معناه إنه لم يكن يوسف ممن يأخذ اخاه على دين
الملك في جزاء من سرق ان يستعبد قال الشاعر:

تقول اذا درأت لها وضيئي * اهذا دينه ابدأ وديني (١)

اي هذا عادته ابدأ وعادتي. وقوله " الا ان يشاء الله " قال الحسن إنما قال ذلك لانه تعالى كان
امره بذلك بدلالة قوله " نرفع درجات من نشاء " اي بما نريه من وجوه الصواب في بلوغ
المراد.

وقوله " وفوق كل ذي علم عليم " قيل في معناه قولان:

(١) مر هذا الشعر في ١: ٣٦، ٢: ١٤٨، ٣: ٤٥.

(١٧٥)

احدهما - قال ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير: معناه " وفوق كل ذي علم " معلم " عليم
" وهو الله تعالى الغني بنفسه عن التعليم.

والثاني - ان معناه " وفوق كل ذي علم " ممن رفعه الله " عليم " قد رفعه بالعلم من وجه
آخر، فهو أعلم بذلك الامر الآخر.

وفي ذلك دلالة على أنه تعالى عالم لنفسه، لانه لو كان عالم بعلم، لكان فوقه عليم، وذلك باطل.
والضمير في قوله تعالى " استخرجها " عائدة إلى السقاية.

وقال الزجاج هي عائدة إلى الصواع وانه يذكر ويؤنث، ومن قرأ درجات من نشاء " على الاضافة، فالمعنى نرفع منازل من نشاء رفع منازلهم ومراتبه في الدنيا بالعلم على غيره، كما رفعنا مرتبة يوسف في ذلك على مراتب اخوته. ومن قرأ بتتوين " درجات " فالمعنى نرفع من نشاء درجات ومراتب كما رفعنا ليوسف، ف " من " منصوبة على هذه القراءة، وعلى القراءة الاولى مخفوضة.

قوله تعالى:

(قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) (٧٧) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى عن اخوة يوسف انه لما استخرج الصواع من رحل أخيه، قالوا إن كان هذا سرق، فقد سرق أخ له من قبل يعنون يوسف، واختلفوا فيما نسبوه اليه من السرقة من قبل، قال سعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج انه كان سرق صنما كان لجده أبي امه، فكسره والقاء على الطريق، فقال ابن اسحاق: إن جدته خبأته في ثيابه منطقة اسحاق لتملكه بالسرقة محبة لمقامه عندها. وقال قوم انه كان يسرق من طعام المائدة للمساكين. وقوله " فاسرها

(١٧٦)

يوسف في نفسه " يعني أخفى هذه الكلمة في نفسه، " لم يبدها لهم " أي لم يظهرها لهم. واختلفوا فيما اسر في نفسه، فقال ابن عباس والحسن وقتادة: اسر قوله " انتم شر مكانا " أي ممن قلتم له هذا " والله أعلم بما تصفون " انه كذب. وقال قوم: أسرها باضمار الكلمة للدلالة عليها قال حاتم طي:

اماوي ما يغني الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر (١)

وانما قال إن مكانكم شرا لما ظهر من الامر الذي يقتضي هذا الوصف. والصفة والوصف مصدران بمعنى واحد مثل وعد وعدة، ووجه وجهة. وقال الحسن لم يكن اخوة يوسف يومئذ انبياء، وإنما اعطوا النبوة فيما بعد، وعندنا إنهم لم يكونوا أنبياء في وقت، لا في الحال، ولا فيما بعد، لان مافعلوه بيوسف من الافعال القبيحة ينافي النبوة لان النبي لا يقع - عندنا - منه قبيح أصلا، لا صغير ولا كبير.

وقال البلخي: كذبوا في قولهم " سرق أخ له من قبل " والله اعلم بما يعنون في ذلك وانه كذب، وقال لم يصح عندنا ان اخوة يوسف كانوا انبياء وجوز ان يكون الاسباط غيرهم او كانوا من اولادهم.

قوله تعالى:

(قالوا ياأيها العزيز إن له أبا شيئا كبيرا فخذ أجدنا مكانه إنا نراك من المحسنين) (٧٨) آية
بلاخلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن أخوة يوسف انه لما أخذ يوسف أخاه منهم مظهرا لاسترقاقه
قالوا له، وهم لايعرفونه " ياايها العزيز " والعزيز الممتع

(١) مر هذا البيت في ٥ : ٦٣ .

(١٧٧)

بقدرته من ان يضام. والعز منع الضيم بسعة المقدور والسلطان " ان له أبا شيئا كبيرا " يعنون يعقوب أبا اخيهم اي انه كبير السن، ويجوز ان يريدوا: كبير القدر " فخذ احدنا مكانه " اي خذ واحدا منا عبدا بدله - في قول الحسن وغيره - " إنا نراك من المحسنين " الينا في الكيل ورد بضاعتنا. وقد أملنا ذلك منك.
قوله تعالى:

(قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون) (٧٩) آية بلاخلاف.
هذا حكاية ماأجاب به يوسف أخوته حين قالوا له خذ واحدا منا بدله، لانه قال لهم " معاذ الله " أي اعتصاما بالله أن يكون هذا. والاعتصام امتناع الهارب من الامر بغيره، ولذلك يقال اعتصم بالجبل من عدوه. واعتصم بالله من شرعدوه، فانا لانأخذه " إلا من وجدنا متاعنا " يعني الصواع " عنده. إنا اذا لظالمون " ومعناه إنالو أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لكننا ظالمين، واضعين للنشئ في غير موضعه. والعرب تقول معاذ الله، ومعاذه الله وعوده الله وعباد الله. وتقول: اللهم عائذا بك اي اني أعوذ عائذا بك، فكأنه قال استجير بالله من أن أخذ بريئا بسقيم.

قوله تعالى:

(فلما استئیسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي تفسير التبيان ج ٦ - م ١٢

(١٧٨)

وهو خير الحاكمين) (٨٠) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى عن أخوة يوسف حين آيسوا من تسليم أخيهم اليهم، فاليأس ضد الطمع، يقال: يئس يأسا واستيأس استيأسا، فهو يئس، ومستيئس، وآيس يأس مثله.

وقوله " خلصوا نجيا " أي انفردوا من غير أن يكون معهم غيرهم ممن ليس منهم، وهذا من عجيب فصاحة القرآن الخارقة للعادة لان بقوله " خلصوا " دل على ما قلناه من معنى الكلام الطويل.

واصل الخلوص حصول الشئ من غير شائب فيه من غيره، كخلوص الذهب من الشائب، وسمي الخلاص لذلك، وقوله " نجيا " مصدر يدل بلفظه على القليل والكثير، والواحد والجمع. والنجوى مثله، ولذلك قال تعالى في الواحد " وقربناه نجيا " (١) وفي الجمع " خلصوا نجيا " قال الشاعر:

إنني اذا ما القوم كانوا أنجيه * واضطرب القوم اضطراب الارشيه
هناك أوصيني ولا توصي بيه (٢).

والمناجاة رفع المعنى من كل واحد إلى صاحبه على وجه خفي. واصل النجو الارتفاع من الارض والمناجاة المسارة ونجي جمعه أنجية، وهم يتناجون.

و " قال كبيرهم " يعني اكبرهم، وقال قتادة وابن اسحاق: هو روبيل، فانه كان اكبرهم سنا. وقال مجاهد: هو شمعون، وكان اكبرهم عقلا وعلما دون السن. والاول أليق بالكلام والظاهر: " ألم تعلموا أن أباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله " يعني أما علمتم أن أباكم قد حلفكم واقسمتم له بالله في حفظ أخيكم، وقبل هذا ما فرطتم في يوسف أي قصرتم في حفظه. واصل التفريط التقديم من قوله صلى الله عليه وسلم (انا فرطكم على الحوض) أي متقدمكم. والموثق والابثاق: العهد الوثيق و (ما) في قوله

(١) سورة مريم آية ٥٢.

(٢) مر هذا الشعر في ١: ٢١٨ وهو في تفسير القرطبي ٩: ٢٤١

(١٧٩)

" ما فرطتم " يحتمل ثلاثة اوجه من الاعراب:

احدها - ان تكون منصوبة ب (تعلموا)، كأنه قال ألم تعلموا تفريطكم في يوسف.

الثاني - رفع بالابتداء والخبر (من قبل).

الثالث - ان تكون صلة لا موضع لها من الاعراب، لانها لم تقع موقع اسم معرب.

وقوله " فلن ابرح الارض حتى يأذن لي أبي " لست أقوم من موضعي الا أن " يأذن لي ابي او يحكم الله " اي إلى ان يحكم الله. وقيل معناه بمجازاة أو غيرهما مما أرد به أخي ابن يامين على ابيه، وكانوا تناجوا بمحاربتة بمحاربتة فلم يتفقوا على ذلك خوفا من غم أبيهم بأن يقتل

بعضهم في الحرب وقوله " وهوخير الحاكمين " اخبا رمن هذا القائل بأنه تعالى خير الحاكمين والفاصلين، واعتراف منه برد الامر إلى الله تعالى.
قوله تعالى:

(إرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين) (٨١) آية بلاخلاف.

وهذا اخبار من الله تعالى بماقال احدهم المتخلف عنهم بمصر، فانه قال لاختوته الباقيين ارجعوا إلى ابيكم. ويحتمل ان يكون حكاية عما قال اخوة يوسف بعضهم لبعض، فانهم قالوا ارجعوا إلى ابيكم.

وقوله " ياابانا ان ابنك سرق " يعنون ابن يامين، على ماظهر لنا من الامر ولانشهد الا بما علمنا من الظاهر، فأما الغيب والباطن فلا نعلمه ولانحفظه.
وقيل ماشهدنا إلا بما علمنا في قولنا لهم إن من يسرق يستعبد، لان ذلك متقرر عندنا في شرعنا - ذكره ابن زيد - والشهادة خبر عن مشاهدة أو اقرار او حال

(١٨٠)

ويجوز أن يشهد الانسان بماعلمه من جهة الدليل كشهادتنا بأن لإله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وقال الرماني: علم الغيب هو علم من لو شاهد الشيء لشاهده بنفسه لأبأمر يستفيده. والعالم بهذا المعنى هو الله وحده تعالى.

وقيل في معنى قوله " وما كنا للغيب حافظين " قولان:

احدهما - ما كنا نشعر ان ابنك سيسرق، في قول الحسن ومجاهد وقتادة:

والثاني - انا لاندرى باطن الامر في السرقة، وهو الاقوى. وروي عن ابن عباس وقراءة الكسائي في رواية قتيبة عنه " سرق " بتشديد الراء على مالم يسم فاعله، ومعناه انه قذف بالسرقة، واختار الجبائي هذه القراءة. قال لانها ابعد من ان يكونوا اخبروا بمالم يعلموا.
قوله تعالى:

(وسئل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون) (٨٢) آية بلاخلاف.

هذاحكاية ماقال اخوة يوسف ليعقوب ابيهم حين رجعوا اليه وحكوا له ماجرى، فقالوا له سل أهل القرية التي كنا فيها، واهل العير التي اقبلنا فيها عما أخبرناك به " وانا لصادقون " فيما أخبرناك به، وحذف المضاف الذي هو الاصل، واقام المضاف اليه - من القرية والعير - مقامه اختصارا لدلالة الكلام عليه.

والمراد بالقرية - ههنا - مصر، في قول ابن عباس والحسن وقتادة. وكل أرض جامعة لمساكن كثيرة بحدود فاصلة تسمى - في اللغة - قرية، وأصلها من قرية الماء أي جمعه، والقرية والبلدة والمدينة نظائر في اللغة. وإنما أرادوا بذلك أن من سألت من أهلها أخبروك بما ظهر في هذه القصة. وأنا ما كذبناك.

(١٨١)

قوله تعالى:

(قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم) (٨٣) آية بلاخلاف.

هذاحكاية ما قال يعقوب لبنيه حين قالوا له ماتقدم ذكره، فإنه قال " بل سولت لكم أنفسكم " وقال قتادة معناه بل زيننت. وقال غيره: معناه سهلت.

والتسويل حديث النفس بما تطمع فيه، ومنه السؤال، والمنى، ويقال اعطاك الله سؤالك، فكأنه قال هذا من تقدير النفس فيما تطمع ان يكون. ثم اخبر يعقوب، فقال " صبر جميل " اي شأني او أمري صبر جميل، فعلى هذا يكون واقع بأنه خبر الابتداء. ويجوز ان يكون ابتداء، وخبره محذوف، وتقديره فصبر جميل امثل من غيره، والصبر حبس النفس عما تتازع اليه مما لايجوز.

والصابر على هذا الوجه من صفات المدح، والجميل معناه - ههنا - ما يتقبله العقل، وقد يسمى ما يتقبله الطبع بأنه جميل.

وقوله " عسى الله ان يأتيني بهم جميعا " يعني روبيل وابن يامين ويوسف " انه هو العليم الحكيم " معناه - ههنا - انه عليم بحسرتي على فقد اولادي وصدق ما يقولونه من كذبه، انه الحكيم في تدبيره بخلقه، عسى ان يأتيني بهم اجمع.

قوله تعالى:

(وتولى عنهم وقال ياأسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) (٨٤) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى عن يعقوب أنه تولى عنهم بعد ان قال لهم ماتقدم ذكره بمعنى أعرض بوجهه عنهم، والتولي والاعراض بمعنى واحد " وقال ياأسفى على يوسف "

(١٨٢)

اي ياحسرتاه، في قول الحسن وقتادة والضحاك. وإنما نادى بالاسف على وجه البيان، لان الحال حال حزن كأنه قال: يااسف احضر، فانه من احيانك واوقاتك، ومثله (واحزنناه).

والاسف الحزن على مافات. وقيل: هو أشد الحزن يقال: أسف يأسف أسفا وتأسف تأسفا، وهو متأسف.

وقوله " ابيضت عيناه " فالابيضاض انقلاب الشئ إلى حال البياض. والمعنى انه عمي فلم يبصر شيئا. والعين حاسد الادراك للمرئيات. والحزن الغم الشديد، وهو من الحزن، وهي الارض الغليظة، والكظيم هو الممسك للحزن في قلبه لايبئه بما لايجوز إلى غيره، ومنه قوله " والكاظمين الغيظ " (١) اي لايتسرع بموجبه إلى غيره. وقيل كظيم على الحزن لم يقلل يا اسفاه - في قول مجاهد والضحاك، والحسن - وقيل كظيم بالغيظ على نفسه، لم ارسله مع إخوته - في قول السدي والجبائي.

قوله تعالى:

(قالوا تالله تفتو يوسف حتى تكون حرصا أو تكون من الهالكين) (٨٥) آية بلاخلاف. هذاحكاية ما قال بنو يعقوب لابيهم حين رأوه حزينا " تالله تفتو تذكر " معناه لاتزال تذكر، في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي، يقال فتئ يفتو فتئا وفتوءا، وقال اوس بن حجر:

فما فتئت خيل تثوب وتدعي * ويلحق منها لاحق وتقطع (٢)
اي فمازالت، وحذفت (لا) من تفتأ، لانه جواب القسم بمعنى نفي

(١) سورة آل عمران آية ١٣٤.

(٢) ديوانه ٥٨ ومجاز القرآن ١ / ٣١٦ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٥٠.

(١٨٣)

المستقبل، لانه لوكان اثباتا لم يكن بد من اللام والنون، فجاز لما فيه من الايجاز من غير التباس، كماقال امرؤ القيس:

فقلت يمين الله ابرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك واوصالي (١)

والحرص ذو المرض والبلى - في قول ابن عباس ومجاهد - وقال الحسن وقتادة: معناه حتى تكون ذا الهرم او تكون من الميتين. واصل الحرض فساد الفعل والجسم للحزن والحب، قال العرجي:

اني امرؤ لج بي حب فاحرضني * حتى بليت وحتى شفني السقم (٢)

ورجل محرض اذا كان مريضا قال امرؤ القيس:

ارى المرء ذا الانواد يصبح محرضا * كإحراض بكر في الديار مريض (٣)

ولا يثنى حرض ولا يجمع لأنه مصدر، يقال: حرضه على فلان أي أفسده عليه بما يغريه، وإنما قالوا هذا القول إشفافاً عليه وكفاً له عن البكاء أي لاتزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه، لأنه كان قد أشفى على ذهاب بصره وفساد جسمه، وتموت بالغم.

والهالك ذهاب الشيء بحيث لا يدري الطالب له أين هو، فالميت هالك لهذا المعنى. قوله تعالى:

(قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله واعلم من الله ما لا تعلمون) (٨٦) آية بلاخلاف.

(١) ديوانه ١٦١ وقدمر في ٢ / ٢٢٧، ٣ / ٢١٦.

(٢) مجاز القرآن ١ / ٣١٦ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٥١ وتفسير الطبري (الطبعة الأولى) ١٣ / ٢٥.

(٣) ديوانه ١٢٩ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٥١ والطبري ١٣ / ٢٥.

(١٨٤)

هذا حكاية مأجاب به يعقوب بنيه لما قالوا له ماتقدم ذكره، أي إنما أشكو، والشكوى صفة ما يجده من البلوى، وإنما وصف (ع) ذلك لله طلباً للفرج من جهته، والبث تفريق الهم باظهاره عن القلب، يقال: بثه مافي نفسه بثاً وأبثه إيثاثاً، وبث الخيل على العدو: إذا فرقها عليه. وقال ابن عباس معنى (بثي) همي.

وقوله " واعلم من الله ما لا تعلمون " قيل في معناه قولان:

احدهما - قال ابن عباس: اعلم ان رؤيا يوسف صادقة واني ساجد له.

والثاني - قال قتادة: أعلم من احسان الله (عزوجل) الي ما يوجب حسن ظني به، وإنما جاز على يعقوب وهونبي، ان يبكي حتى تبيض عيناه من الحزن، لان عظم المصيبة يهجم على النفس حتى لا يملك معه القرار بالصبر حتى يرتفع الحزن، مع انه على ولد لا كالأولاد، في جماله، وعقله، وعفافه، وعلمه، وأخلاقه، وبره، من غير تأس يوجب السلوة، ولارجاء يقرب الحال الجامعة، ومع هذا فلم يكن منه الا ما يوجب الاجر العظيم والثواب الجزيل الكريم، والبكاء ليس بممنوع منه في الشرع، وإنما الممنوع اللطم، والخدش، والجز، وتخريق الثياب، والقول الذي لا يسوغ، وكل ذلك لم يكن منه (ع) وإنما جاز أن يخفى خبر يوسف على يعقوب مع قرب المسافة بينهما، لان يوسف كان بمصر ويعقوب بأرض الجزيرة من أرض حران، ولم يعرف يوسف أباه مكانه ليزول همه، لأنه في تلك المدة كان بين شغل وحجر على ماتوجه سياسة الملك، وبين حبس في السجن، لأنه مكث فيه سبع سنين لما محن به من امرأة

العزیز، فلما تمكن من التدبیر تلتطف في ذلك لئلا يكون من أخوته حال تكره في ایصال خبره إلى أبيه لشدة ما ينالهم من التهجين في أمره إذا وقف على خبره. وانما جاز ان يستخرج الصواع من رحل أخيه مع ایجاب التهمة في ذلك عند الناس، وغم أبيه وأخيه خاصة وسائر اخوته عامة لوجوه: احدها - انه كان ذلك بمواطأة اخيه على ذلك بما ييسر في باطنه.

(١٨٥)

ومنها انه ليس لاحد اتهامه بالسرقة مع امكان جعله في رحله بما لاصنع له فيه. ومنها اغمام أبيه بالامر اليسير ليزيل عنه الغم العظيم، وتأتيه البشرى بسلامتهما على أجمل حال يتمنى لهما، وذلك يحسن ولا يقبح. قوله تعالى:

(يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تأيئسوا من روح الله إنه لا يائس من روح الله إلا القوم الكافرون)
(٨٧) آية بلاخلاف.

هذا إخبار عما قال يعقوب لبنيه بعد ان قال ماتقدم ذكره " يابني اذهبوا فتحسسوا " والتحسس طلب الشئ بالحاسة فاما طلبه بالدعاء إلى فعله، فلا يسمى تحسسا، والتحسس والتجسس بالحاء والجيم بمعنى واحد.

" ولا تئسوا من روح الله " اي لا تقطعوا رجاءكم منه. والروح والفرج نظائر، وهو رفع ترح بلذة، مأخوذ من الريح التي تأتي بما فيه اللذة.

وقوله " انه لا يئس من روح الله الا القوم الكافرون " اخبار منه بأن الذي يئس من رحمة الله الكافرون، وذلك يدل على ان الفاسق الملي لا يئس منه، بخلاف ما يقوله اهل الوعيد، وقد أجاب عن ذلك اهل الوعيد بجوابين:

احدهما - ان ذلك على وجه التغليب، فيدخل فيه الفاسق في الجملة. والثاني - أنه لا يئس في حال التكليف إلا الكافر الذي لا يعرف الله تعالى، فاما من يعرف الله فانه لا يئس منه، لانه يسوف التوبة. قوله تعالى:

(فلما دخلوا عليه قالوا ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر

(١٨٦)

وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين) (٨٨) آية
بلاخلاف.

اخبر الله تعالى ان اخوة يوسف لما قال لهم يعقوب " اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه "
رجعوا إلى يوسف ودخلوا عليه، وقالوا له " ياايها العزيز " لانهم كانوا يسمون الملك العزيز.
والعزيز في اللغة هو الواسع المقدر الذي لا يهتضم المنيع بسعة مقدره " مسنا وأهلنا الضر "
أي اصابنا الضر، والمس ملابس ما يحس، ولما كان الضر بمنزلة الملامس لهم، وهو مما
يحس، عبر عنه بأنه مسه.

والاهل: خاصة الشئ الذي ينسب اليه، ومنه قوله " ان ابني من أهلي " (١)

وتسمى زوجة الرجل بأنها أهله وكذلك اهل البلد واهل الدار، وهم خاصته الذين ينسبون اليه.

وقوله " وجئنا ببضاعة مزجاة " قيل في معنى المزجاة ثلاثة اقوال:

احدها - قال ابن عباس، وسعيد بن جبير: إنها ردية لاتؤخذ الا بوكس.

وقال الحسن ومجاهد وابراهيم وقتادة وابن زيد: إنها قليلة. وقال الضحاك: هي كاسدة غير
نافعة. وروي انه كان معهم متاع البادية من الصوف والشعر والسمن والحبال البالية وغير
ذلك. وأصلها القلة قال الاعشى:

الواهب المئة الهجان وعبدها * عوذا يزجي خلفها اطفالها (٢)

اي يسوقهم قليلا قليلا، وقال النابغة:

وهبت الريح من تلقاء ذي أرل * تزجي مع الليل من صرادها صرما (٣)

يعنى تسوق، وتدفع، وقال آخر:

(١) سورة هود آية ٤٥.

(٢) ديوانه ١٥٢ (دار بيروت) وتفسير الطبري ١٣: ٢٩ (٣) ديوانه ١٠٢ واللسان (صرم). ومجمع البيان ٣: ٢٥٩

(١٨٧)

وحاجة غير مزجاة من الحاج (١)

وقيل الاصل الدفع بالسوق فهي مدفعه لاتتفق.

وقوله " فاوف لنا الكيل " اي لاتنقصنا من كيلنا لنقصان بضاعتنا، وتصدق علينا. وقيل في
معناه قولان:

احدهما - قال سعيد بن جبير: سألوا التفضل بترك النقصان من السعر، لان الصدقة ماكانت
تحل لهم. وقال سفيان بن عيينة. إنهم سألوا الصدقة وهم أنبياء وكانت حلالا لهم، وكان مجاهد
يكره ان يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علي، لان الصدقة ممن يبتغي الثواب. والصدقة

العطية للفقراء ابتغاء الاجر، ولهذا يطلق، فيقال: " إن الله يجزي المتصدقين " و " لا يضيع أجر المحسنين " (٢) من العباد، والمعنى انه يثيبهم على ذلك. قوله تعالى:

(قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ انتم جاهلون) (٨٩) آية بلاخلاف.

هذاحكاية مأجاب به يوسف إخوته حين سألوه التصدق عليهم وايفاء كيلهم، فرق لهم، وقال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وإخيه؟! على وجه التوبيخ لهم والتذكير لهم بما فعلوه من إلقاءه في الجب بعد ان كانوا عزموا على قتله ثم بيعهم إياه عبدا للتاجر الذي حمله إلى مصر، وفعلوا بأخيه ما عرضوه به للغم بأن أفردوه عن أخيه لابيه وامه مع جفائهم له حتى كان لاذلالهم إياه لا يمكنه ان يكلم احدا منهم الا كلام الذليل للعزيز، فعاملوه هذه المعاملة، وسلكوا في امره هذه الطريقة. ومعنى قوله " اذ انتم جاهلون " انكم فعلتم ذلك في حال

(١) اللسان (زجا) ومجاز القرآن ١: ٣١٧.

(٢) سورة التوبة آية ١٢١ وسورة هود آية ١١٦ وسورة يوسف آية ٩٠

(١٨٨)

كنتم فيها جاهلين جهالة الصبي لاجهالة المعاصي، وذلك يقتضي انهم الآن على خلافه، ولولا ذلك لقال وأنتم جاهلون. وانما وبخو بحال قد أقلعوا عنها وتابوا منها على وجه التذكير وليتنبهوا على حال من يخاطبهم ويعرفوه بها، لا ان تلك الحال ذكرت بطريق التقبيح لها. وقال السدي وابن اسحاق إن يوسف لما قالوا له ما قالوا أدركته الرقة، فدمعت عينه وباح لهم بما كان يكتمه من شأنه وشأنهم.

قوله تعالى:

(قالوا أأنك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) (٩٠) آية بلاخلاف.

قرأين كثير وابوجعفر " انك " بهمزة واحدة على الخبر. الباقيون بهمزتين، وحققهما ابن عامر، وأهل الكوفة، وروح، إلا ان الحلواني عن هشام فصل بينهما بألف. الباقيون يخففون الاولى ويلينون الثانية. وفصل بينهما بألف نافع إلا ورشا وابوعمر. قال ابو علي: الاجود الاستفهام لقوله " قال انا يوسف " وهذا جواب الاستفهام، ومن قرأ على الخبر أراد الاستفهام، وحذف

حرف الاستفهام كما حكى ابو الحسن في قوله " وتلك نعمة تمنها علي " (١) ومعناه اي تلك نعمة، وحذف حرف الاستفهام.

هذا حكاية ماقال اخوة يوسف له حين قال لهم " هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه " فانهم قالوا حينئذ له " أنك لانت يوسف " على وجه الاستفهام له، فانهم تنبهوا واستيقظوا غير انهم لم يقطعوا به، فاستفهموه.

(١) سورة الشعراء آية ٢٢.

(١٨٩)

وقال الزجاج يجوز في " أنك " اربعة اوجه في العربية:
تحقيق الهمزتين، وهو مذهب اهل الكوفة واهل الشام.

الثاني - ادخال الالف بين الهمزتين (أنك) وهو مذهب هشام ابن عمار عن ابن عامر.

الثالث - تليين الثانية بان يجعل بين بين أينك، وهو مذهب أبي عمرو، وابن كثير ونافع.

الرابع - بهمزة واحدة على الخبر.

فقال يوسف مجيبا لهم " أنا يوسف وهذا أخي " يعني ابن يامين من أبي وأمي " قدمن الله علينا " أي انعم علينا بنعمة قطعتنا عن حال الشدة يقال: من الله عليه يمن منا، واصله القطع من قوله " لهم اجر غير ممنون " (١) أي غير مقطوع، ومنه من عليه في الصنعة اذا ذكرها بما يجري مجري التعبير بها، لانه قاطع عن شكرها. والمنون الموت، لانه يقطع عن تصرف الاحياء. ثم أخبر يوسف فقال إنه من يتق الله باجتناب معاصيه، وفعل طاعاته ويصبر على بليته ويتجرع مرارة المنع، لما يشتهي من الامر " فان الله لا يضيع اجر المحسنين " اي لا يذهب بثوابهم. والاضاعة هو الاهلاك وهو إذهاب الشئ بحيث لا يدري الطالب له اين هو. والاجر ما يستحق على العمل الصالح من الثواب، ومنه الاجارة. وتقول:

آجره الله يأجره أجرا، والاحسان فعل حسن يستحق به الحمد.

وحكى ابن كثير انه قرأ " من يتقى " بالياء في الوصل. والوجه فيه ان يجعل (من) بمعنى (الذي) فيكون (يتقى) في موضع رفع، ويكون قوله " ويصبر " حذف الحركة استخفافا، او

جملة على الموضع، كما قال " فاصدق واكن من " (٢)

ولا يجوز ان يكون مثل قول الشاعر:

(١) سورة حم السجدة آية ٨ وسورة الانشقاق آية ٢٥ وسورة التين آية ٦.

(١٩٠)

ألم يأتيك، والابناء تنمي (١)

لان ذلك يجوز في الشعر، والاجود قول من قرأ بحذف الياء.
قوله تعالى:

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) (٩١)

آية بلاخلاف.

هذاحكاية عماقال إخوة يوسف حين سمعوا اعتراف يوسف بأنه يوسف، وان أخاهم الذي احتبسه أخوه، وان الله من عليهم بذلك، فقالوا له عند ذلك " تالله " على وجه القسم " لقد آثرك الله علينا " اي فضلك الله علينا. والايثار إرادة التفضيل، لاحد الشيين على الآخر ومثله الاختيار، ويقال: آثرت له، وآثرت عليه ضده. وأصل الايثار الاثر الجميل، فيما يؤثر على غيره بمنزلة ماله أثر جميل والآثار الاخبار، لانها إخبار عن أثر ماتقدم في أمر الدين والدنيا.

وقوله " وان كنا لخاطئين " اعتراف منهم بأنهم كانوا خاطئين. وقال قوم: إنهم

كانوا صبيانا وقت مافعلوا بأخيهم مافعلوا وسموا أنفسهم " خاطئين " اي ابتداء فعلهم كان وهم صبيان. ثم بلغوا مقيمين على كتمان الامر عن ابيهم موهمين له ما كانوا اخبروه به من شأنهم فالايهام معصية لاتبلغ تلك المنزلة. والخطيئة ازالة الشئ عن جهته إلى مالا يصلح فيه، يقال خطئ يخطأ فهو خاطئ مثل أثم إنما فهو أثم. و (خطئ) اذا تعمد الخطأ و (أخطأ) إذا لم يتعمد الخطأ كمن رمى شيئا فأصاب غير ماأراد.

قوله تعالى:

(قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم

(١) قاتلة قيس بن زهير العبيسي. اللسان (اتي) وعجزه:

بمالات لبون بني زياد

(١٩١)

الرحمين) (٩٢) آية بلاخلاف.

هذا اخبار من الله تعالى عما قال يوسف لاختوته حين اعترفوا بأن الله فضله عليهم، وانهم خطئوا فيما فعلوه، بأن قال " لاتثريب عليكم اليوم " ومعناه لا بأس عليكم بما سلف له منكم،

والتشريب تعليق الضرر بصاحبه من اجل جرم كان منه. وقال سفيان: معنى لاتثريب لاتعبير.
وقيل: معناه لاتخليط بعائده مكروه. وقيل: معناه لاتثريب مكروه بتوبيخ، ولاغيره.
وقوله " يغفر الله لكم " معناه يستر الله عليكم خطيئاتكم ولايعاقبكم عليها، وهو ارحم الراحمين،
فالرحمة النعمة على المحتاج، ومن الرحمة ما هو واجب وفيها ماليس بواجب، فالواجبة
مالايجوز الاحلال بها، وان كان سببها تفضلا، كالثواب الذي سببه التكليف، وهو تفضل.
وقيل: في معنى قوله " يغفر الله لكم " قولان:
احدهما - انه دعاهم بالمغفرة، ويكون الوقف عند قوله " لاتثريب عليكم اليوم " ثم ابتداء، فقال " يغفر الله " وقد وقف بعضهم عند قوله " عليكم " والاول أجود.
الثاني - لما كان ظلمهم له معلقا باحلاله أباهم منه حسن هذا القول، لان الله هو الآخذ له بحقه
إلا ان يصفح.

قوله تعالى:

(إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين) (٩٣) آية
بلاخلاف.

هذا اخبار من الله تعالى بأن يوسف أعطى اخوته قميصه. وقال: احموه إلى أبي يعقوب
واطرحوه على وجهه، فانه يرجع بصيرا، ويزول عنه العمى

(١٩٢)

وذلك معجز دال على نبوته، لانه - على قول المفسرين كالحسن والسدي وغيرهما - كان قد
عمي، ولولا ان الله أعلمه انه يرجع اليه بصره لما أرسله اليه، وانما حمل اليه القميص، لان
الله تعالى كان جعله علامة له إذا شمه شم منه رائحة يوسف، وبشارة له قبل لقائه.
وقوله " وأتوني بأهلكم اجمعين "، معناه احموا أهاليكم أجمع إلى عندي وجيؤني بهم.
قوله تعالى:

(ولما فصلت العير قال أبوهم إنني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) (٩٤) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه حين انصرفت العير من عند يوسف. قال:
لهم أبوهم يعقوب اني لأجد ريح يوسف اي اني احس برائحته. وقال ابن عباس جاءت الريح
برائحة يوسف من ثمانى ليال. وقال الحسن من مسيرة شهر وقيل إنه كان بينهم ثمانين
فرسخا، لان يعقوب كان بوادي كنعان من ارض فلسطين.

وقيل إنه كان بأرض الجزيرة، ويوسف بمصر.

والفصل القطع بحاجز بين الشئين. ونقيضه الوصل، ومثله الفرق. والعير قافلة الحمير، وان
كان فيها الجمال، وكل جماعة خرجت من بلد إلى بلد، فهم قافلة.

وقوله " لولا ان تفقدون " قال ابن عباس: معناه لولا ان تسفهون. وقال الحسن ومجاهد: لولا ان تهرمون. وقال ابن اسحاق: معناه تضعفون. وقال الضحاك معناه تكذبون. واما قال يعقوب هذا القول لمن حضره من أهله وقرابته دون ولده، لانهم

(١٩٣)

كانوا غيبا عنه لم يصلوا إليه. والتفنيد في اللغة هو تضعيف الرأي يقال فنده تفنيذا إذا نسبه إلى ضعف الرأي، قال الشاعر:

ياصاحبي دعا لومي وتفنيدي * فليس مافات من امر بمردود (١)
وفنده الدهر اي أفسده، وقال ابن مقبل:

دع الدهر يفعل مايشاء فانه * اذاكف الانسان بالدهر افندا (٢)
وروي (إذا كلف الافناد بالناس فندا)

قوله تعالى:

(قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم) (٩٥) آية بلاخلاف.

هذا حكاية ما اجاب به من خاطبه يعقوب من اهله " اني لاجد ريح يوسف " فانهم قالوا له " تالله انك لفي ضلالك القديم " والضلال هو الذهاب عن جهة الصواب فيه، واما قالوا لنبي الله " انك لفي ضلالك القديم " لانهم قالوا كلمة غليظة لم يجز أن يقولوها لنبي الله، فحق الامر فيها أنهم قالوها اشفاقا عليه من شدد محبته ليوسف - في قول قتادة - وقال الحسن كان عندهم ان يوسف مات، فكان في لهوجه في تذكره ذاهبا عن الصواب في امره، والقديم في اللغة هو كل شئ متقدم الوجود، وفي عرف المتكلمين عبارة عن الموجود لم يزل، واما جعلوا الضلال قديما على وجه المبالغة في الصفة ومثله " كالعرجون القديم " (٣) ويقال بناء قديم، ولايجوز قياسا على ذلك ان يقال: هذا جسم قديم، لمافيه من الايهام.

قوله تعالى:

(فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم

(١) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣: ٣٤ ومجاز القرآن ١: ٣١٨ (٢) تفسير القرطبي ٩: ٢٦١ والطبري ١٣: ٣٤.

(٣) سورة يس آية ٣٩ تفسير التبيان ج ٦ - م ١٣

(١٩٤)

أقل لكم إنني أعلم من الله ما لا تعلمون) (٩٦) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى إنه لما جاء المبشر بيوسف إلى يعقوب ألقى القميص على وجهه فرجع بصيرا، والبشير الذي يأتي بالبخارة العظيمة. وجاء على لفظ (فعليل) لما فيه من المبالغة يقال بشره تبشيرا، ومعنى أبشرتة: قلت له: استبشر، كقوله " وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون " (١) وقال الحسن، ومجاهد، والضحاك:

كان البشير يهود بن يعقوب، واللقاء إيقاع الشئ على الشئ، ويكون بمعنى ايجاد الشئ. وقوله " فارتد بصيرا " فالارتداد انقلاب الشئ إلى حال، قد كان عليها، وهو الرجوع بمعنى واحد. والبصير من كان على صفة يجب لاجلها ان يبصر المبصرات إذا وجدت، و (ان) بعد قوله " فلما " زائدة للتوكيد، كما قال " ولما ان جاءت رسلنا " (٢) ولاموضع لها من الاعراب وهي تزداد مع (لما)

و (حتى) على وجه الصلة تأكيدا، تقول: قد كان ذلك حتى كان كذا وكذا، وحتى ان كان كذا. وقوله " اني اعلم من الله ما لاتعلمون ". قيل في معناه قولان: احدهما - اني اعلم من صحة رؤيا يوسف، وإن تأويلها سيكون على مارأى " ما لاتعلمون " من تأويل الرؤيا.

والثاني " اني اعلم " من بلوى الانبياء بالشدائد والمحن التي يصيرون منها إلى وقت الفرج " ما لاتعلمون "، ذكره الجبائي. قوله تعالى:

(قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) (٩٧) آية بلاخلاف.

(١) سورة حم السجدة آية ٣٠. (٢) سورة العنكبوت آية ٣٣.

(١٩٥)

في الكلام حذف، لان تقديره إن اخوة يوسف وصلوا إلى أبيهم بعد ان جاء البشير وألقوا قميصه على وجهه ورد الله بصره عليه، فلما رأوه قالوا " ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا " أي سل الله تعالى ان يستر علينا ذنوبنا، ولايعاقبنا عليها، فانا " كنا خاطئين " فيما فعلناه بيوسف. ومتى قيل: كيف سألوه الاستغفار من مع انهم كانوا تابوا والتوبة تسقط العقاب؟ قلنا أماعلى مذهبنا فلان التوبة لاتسقط العقاب وجوبا، وانما يسقطه الله تعالى عندها تفضلا وأما علي مذهب مخالفنا، فانهم سألوه ذلك، لاجل المظلمة المتعلقة بصفح المظلوم، وسؤال صاحبه ان لا يأخذ بظلمه، لا بد انه توبة خاصة منه ووجه آخر، وهوان يبلغه منزلة بدعائه بصير بمنزلة عالية لمكان سؤاله.

قوله تعالى:

(قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم) (٩٨)

آية بلاخلاف.

هذاحكاية مأجاب به يعقوب حين قالوا له " استغفر لنا ذنوبنا " فانه قال في جواب ذلك سوف استغفر لكم ربي، والمعنى إني أفعل ذلك في المستقبل، ولم يستغفر لهم في الحال.

وروي عن ابي جعفر (ع) انه قال: أخرهم إلى ليلة الجمعة.

وقال ابن مسعود و ابراهيم التيمي، وابن جريج وعمر بن قيس: انه اخرهم إلى السحر، لانه اقرب إلى اجابة الدعاء وقال الجبائي: وجه ذلك أنهم سألوه ان يستغفر لهم دائما في دعائه، فوعدهم بذلك في المستقبل.

وقوله " انه هو الغفور الرحيم " اخبار من يعقوب واعتراف منه بأن الله هو الذي يستتر على عباده معاصيهم، ويعفو لهم عن عقابها رحمة منه بعباده ورافة منه بخلقه.

(١٩٦)

قوله تعالى:

(فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) (٩٩) آية بلاخلاف.

في الكلام حذف، لان تقديره ان يعقوب وبنيه واهلهم رحلوا إلى يوسف، فلما وصلوا اليه ودخلوا عليه " آوى إليه أبويه " يعنى أباه يعقوب وأمه، فثني على لفظ الاب تغليبا للذكر على الانثى، ولم يثن على لفظ الام، كماغلب المفرد على المضاف في قولهم: سنة العمرين. ومثله قوله " وورثه ابواه " (١) يعنى أباه وامه.

قال الحسن وابن اسحاق والجبائي: كانت امه بحق، وقال السدي كانت امه ماتت وتزوج يعقوب اختها، وهي خالة يوسف، فاقامها مقام الام، والاول حقيقة والثاني مجاز. والايواء ضم القريب بالمحبة لصاحبه كضم المأوى بجمع شمله، وانما قال لهم " ادخلوا مصر " بعد دخولهم عليه، لاميرين:

احدهما - قال السدي وفرقد السحي: ان يوسف خرج يستقبل يعقوب وخرج معه أهل البلد، فلما رجع قال " ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين " وقال آخرون أراد " ادخلوا مصر " مقيمين " ان شاء الله آمنين " والمشية هي الارادة، والامن سكون النفس إلى الامر والخوف انزعاج النفس من الامر. والامن التام الامن من كل جهة، فاما الامن من جهة دون جهة، فهو أمن ناقص.

وفي الناس من قال: ان قوله " ان شاء الله " متعلق بقوله " سأستغفر لكم " ان شاء الله، لانه كان قاطعا على انهم يدخلون مصر آمين، وليس يحتاج إلى ذلك لانه مطابق لقوله " ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله " (٢)

(١) سورة النساء آية ١١.

(٢) سورة الكهف آية ٢٣

(١٩٧)

قوله تعالى:

(ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رعيابي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاءكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء الله إنه هو العليم الحكيم) (١٠٠) آية بلاخلاف. اخبر الله تعالى عن يوسف انه حين حضر عنده أبواه وأخوته، ورفع أبويه على العرش، والرفع النقل إلى جهة العلو. ومثله الاعلاء والاصعاد، وضده الوضع، والعرش السرير الرفيع وأصله الرفع من قوله " خاوية على عروشها " (١)

اي على ما ارتفع من أبنيتها، وعرش الكرم إذا رفعه، وعمل عريشا اذا عمل مجلسا رفيعا. وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتاده: العرش السرير.

وقوله " وخروا له سجدا " معناه انحطوا على وجوههم والخر الانحطاط على الوجه، ومنه " خر من السماء فتخطفه الطير " (٢) والسجود في الشرع خضوع بوضع الوجه على الارض وأصله الذل، كما قال الشاعر:

ترى الاكم فيها سجدا للحوافر (٣)

وقيل في وجه سجودهم قولان:

قال قوم: إن الهاء في قوله " له " راجعة إلى الله، فكأنه قال فخروا لله سجدا شكرا على ما أنعم به عليهم من الاجتماع.

(١) سورة البقرة آية ٢٥٩ والكهف ٤٣ والحج ٤٥ (٢) سورة الحج آية ٣١ (٣) مر هذا البيت في ١ : ٨ : ١،

١٦٣، ٣١١ و ٤ : ٢٣٣ . ٣٨٣

(١٩٨)

الثاني انهم سجدوا إلى جهة يوسف على وجه القربة إلى الله، كما يسجد إلى الكعبة على وجه القربة إلى الله.

وقيل انه كانت تحية الملوك السجود، قال اعشى بني ثعلبة:

فلما اتانا بعيد الكرى * سجدنا له ورفعنا العمارا (١)

وقوله " ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل " حكاية ماقال يوسف لابيه بأن هذا تفسير رؤياي من قبل وماتوول اليه، وهو ما ذكره في أول السورة " اني رأيت أحد عشر كوكبا " يعني أخوته " والشمس والقمر " يعني أبويه سجدوا له، كما رآه في المنام.

والرؤيا تصور مايتوهم انه يرى لغمور النوم، ومتى قيل إذا كانت رؤيا الانبياء لا تكون الاصادقة، فهلا تسلى يعقوب بأن تأويل الرؤيا سيكون؟ قلنا عنه جوابان:

احدهما - انه قيل: انه رآها وهو صبي فلذلك لم يثق بها.

والآخر - ان طول الغيبة مع شدة المحنة يوجب الحزن كما يوجب مع الثقة بالالتقاء في الآخرة.

" وقد احسن بي اذ أخرجني من السجن " بأن لطف وسهل الي الخروج منه " وجاءكم من البدو " اي اتي بكم من أرض فلسطين، لان مسكن يعقوب وولده فيما ذكر كان هناك. والبدو: البرية العظيمة مأخوذ من بدا يبدوا بدوا. ويقال: بدو، وحضر.

وقوله " من بعد ان نزع الشيطان بيني وبين اخوتي " والنزع التحريش بين الاثنين، وهو مس بسوء يغضب، ومنه قوله " واما ينزغك من الشيطان نزع فاستعد بالله " (٢)

وقوله " ان ربي لطيف لما يشاء " معنا لطيف التدبير، واللفظ ما يدعو إلي

(١) ديوانه ٨٣ (دار بيروت) وروايته (عمارا).

(٢) سورة الاعراف آية ١٩٩ وحم السجدة آية ٣٦

(١٩٩)

فعل الواجب ويصرف عن القبيح. وقال الحسن: كان بين الرؤيا وتأويلها ثمانين سنة. وقال سلمان، وعبدالله بن سداد: كانت أربعين سنة. وقال ابن اسحاق: ثمانين سنة.

وقوله " انه هو العليم الحكيم " معناه إنه تعالى عالم بأحوال الخلق، وما يصلحهم وما يفسدهم " حكيم " في افعاله لا يضيع الشئ الا في موضعه.

وقال بعضهم: غاب يوسف عن أبيه وله سبع عشرة سنة، وبقي بعد الاجتماع معهم في الملك ثلاثا وعشرين سنة، ومات، وله مئة وعشرون سنة.

قوله تعالى:

(رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفي مسلما وألحقني بالصالحين) (١٠١) آية بلاخلاف.

هذا حكاية ماقال يوسف حين اجتمع مع أبويه وأخوته وأهل بيته، وانه قال يا " رب آتيتني من الملك " وحذف حرف النداء للدلالة عليه. وعلى وجه الاعتراف بأنواع نعمة الله عليه، وان من جملتها أنه اعطاه الملك والسياسة والتدبير بين الخلق، وأنه مع ذلك علمه، وفهمه أنواع العلوم، ونصب له الدلالة على علوم كثيرة. وقد يقال: علمه تعليماً إذا بين له الدليل المفضي إلى العلم. والاعلام هو إيجاب العلم بايجاده والتعريض له. والمعنى فهمتني تأويل الاحاديث التي تؤدي إلى العلم بما احتاج إليه. والاحاديث الاخبار عن حوادث الزمان.

وقوله " فاطر السموات والارض " فالفطر الشق عن أمر باختراعه عند انشاقه، ففطر السموات والارض: اخترعهما بما هو كائن كالشق عما يظهر فيه. ومنه تقطر الشجر بالورق. ونصبه يحتمل أمرين:

(٢٠٠)

احدهما - أن يكون صفة لقوله " رب قد آتيتني من الملك "، لانه مضاف، كما يقال: يقول يازيد ذي الجمة.

والثاني - ان يكون على النداء بتقدير يافطر.

وقوله " أنت وليي " أي ناصري، والولي النصير بمايتولى من المعاونة، فاذا وصف تعالى بانه ولي المؤمن، فلانه ينصره بمايتولى من معونته وحياطته، واذا وصف المؤمن بأنه ولي الله، فلان الله ينصره بمعونته، فتجري الصفة على هذا المعنى.

وقوله " توفي مسلما " معناه اقبضني اليك إذا امتني وأنا مسلم اي الطف لي بمأموت معه على الاسلام " والحقني بالصالحين " من آبائي اسحاق وابراهيم اي اجعلني من جملتهم و (من) في قوله " من الملك " وقوله " من تأويل الاحاديث " دخلنا للتبعيض لانه لم يؤته الله جميع الملك، ولاعلمه جميع الاشياء، ويحتمل ان تكون دخلت لتبيين الصفة، كماقال " اجتنبوا الرجس من الاوثان " (١)

قوله تعالى:

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) (١٠٢) آية بلاخلاف.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم انه قال له " ذلك " يعنى الذي أخبرناك به من أخبار مايعظم شأنه، لان الانباء هي الاخبار بماله شأن. ومنه قولهم:

لهذا نبأ اي شأن عظيم. و (الغيب) ذهاب الشئ عن الحس، ومنه " عالم الغيب والشهادة " (٢)
اي عالم بما غاب عن الحواس، وبما حضرها " نوحيه اليك "

(١) سورة الحج آية ٣٠ (٢) سورة الانعام آية ٧٣، والتوبة آية ٩٤، ١٠٥ والرعد ١٠ والمؤمنون ٩٣ والم
السجدة ٦ والزمر ٤٦ والحشر ٢٢ التغابن ١٨

(٢٠١)

اي نلقيه. والايحاء إنهاء المعنى إلى النفس، فقد أفهم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم تلك
المعاني بانزال الملك بها عليه.

وقوله " وماكنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم " اي لم تحضرهم حين عزموا على أمرهم. وإجماع
الامر هو اجتماع الرأي على الامر بالعزم عليه والمكر: فتل الحيل عن الامر، واصل المكر
من قولهم: ساق ممكورة اي مفتولة ومثله الخديعة، وكان مكرهم بيوسف إلقاءهم إياه في
غيابت الجب - في قول ابن عباس والحسن وقتادة وقال الجبائي: كان مكرهم احتيالهم في امر
يوسف حين القوه في الجب. وانما قال ذلك لنبيه، لانه لم يكن ممن قرأ الكتب ولاخالط أهلها
وإنما اعلمه الله تعالى ذلك بوحي من جهته ليبدل بذلك على نبوته، وانه صادق على الله تعالى.
قوله تعالى:

(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (١٠٣) آية بلا خلاف.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم على وجه التسلية بقلة من آمن به بأن
الناس كثيرون، وان حرصت على ان يكونوا مؤمنين فانهم قليلون. والاكثر القسم الآخر من
الجملة، ونقيضه الاقل. والناس جماعة الانسان، وهو من ناس ينوس نوسا إذا تحرك يميناً
وشمالاً، من نفسه لابمحرك. والحرص طلب الشئ في اصابته، حرص عليه يحرص حرصاً،
فهو حريص على الدنيا إذا اشتد طبله لها والتقدير: وماكثر الناس بمؤمنين، ولوحرصت على
هدايتهم.

قوله تعالى:

(وماتسئلهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين) (١٠٤)

آية بلاخلاف.

(٢٠٢)

هذا اخبار من الله تعالى وخطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم انك يا محمد لست تسألهم يعني أمته
الذين بعث اليهم على مايعرفهم به من اخبار الماضين اجراء، ولاجزاء في مقابلته. وليس ذلك

إلا ذكر للعالمين. والسؤال قول القائل لمن هو فوقه (افعل) اذا كان سؤال طلب ودعاء، وان كان سؤال استخبار، فهو طلب الاخبار بادلته، والاجر جزاء العمل بالخير يقال: أجره الله يأجره أجرا إذا جازه بالخير، ويدعابه، يقال: آجرك الله. والذكر حضور المعنى للنفس، وهو ضد السهو. وقد يقال للقول الذي يحضر المعنى للنفس ذكر. و (العالم) جماعة الحيوان الكثيرة التي من شأنها ان تعلم، لانه مأخوذ من العلم، ومنه معنى التكثير، وفي عرف المتكلمين عبارة عن الفلك ومحواه عن طريق التبع للحيوان الذي ينتفع به، وهو مجعول لاجله. ومعنى الآية إنك لست تسألهم على ابلاغك إياهم ما أوحى الله به اليك، ولا على ماتدعوهم اليه من الايمان اجرا، فيكون تركهم لذلك إشفاقا من إعطاء الاجر، بل هم يزهدون في الحق مع أمنهم من اعطاء الاجر، وليس ماتؤديه اليهم من القرآن، وجميع ما ينزله الله من الاحكام " إلا ذكر للعالمين " اي طريق إلى العلم بما أوجب الله عليهم، فذكر الدليل طريق إلى العلم بالمدلول عليه. والفكر سبب مولد له، فالذكر سبب مؤد، والفكر سبب مولد ويحتمل ان يكون المراد ليس هذا القرآن الا شرفا للعالمين لو قبلوه وعملوا بما فيه. قوله تعالى:

(وكأين من آية في السموات والارض يمرّون عليها وهم عنها معرضون) (١٠٥) آية بلاخلاف.

معنى (كأين) كم والاصل فيها (أي) فدخلت عليها الكاف للتفخيم بالابها م، وتقديره كالعديد، فهو أبهم من نفس العدد، لمافيه من التكثير والتفخيم، وغلبت على (كأين) (من) دون (كم) لان (كأين) أشد إبهاما، فاحتاجت إلى (من) لتدل على ان ما يذكر بعدها تفسير لها.

(٢٠٣)

اخبر الله تعالى ان في خلق السموات والارض آيات، ودلالات كثيرة تدل على ان لها صانعا صنعها، ومدبرا دبرها، وعلى صفاته، وعلمه، وحكمته، وأنه لا يشبه شيئا، ولا يشبهه شيء، وهو ما فيها من تدبير الشمس والقمر والنجوم والجماد والحيوان، وما بينهما من الاشجار والنبات، وغير ذلك من الامور الظاهرة للحواس المدركة بالعيان. وقال الحسن: من الآيات اهلاك من اهلك من الامم الماضية، يعرضون عن الاستدلال بها عليه وعلى ما يدلهم عليه من توحيده وحكمته، مع مشاهدتهم لها ومرورهم عليها. قوله تعالى:

(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) (١٠٦) آية بلاخلاف.

قيل في معنى هذه الآية قولان:

احدهما - قال الحسن: الآية في اهل الكتاب، لان معهم إيماننا وشركا.

وقال ابن عباس، ومجاهد وقتادة: المعنى " وما يؤمن أكثرهم بالله " في اقراره بأن الله خلقه وخلق السموات والارض إلا وهو مشرك بعبادة الاوثان، وهذا هو الاولى، لان التقدير ما يصدقون بعبادة الله إلا وهم يشركون الاوثان معه في العبادة.

وقال الرماني: الآية دالة على ان اليهودي معه إيمان بموسى، وكفر بمحمد، لانها دلت على انه قد جمع الكفر والايمن، وانه لا ينافي ان يؤمنوا بالله من وجه ويكفروا به من وجه آخر، كما قال " افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى اشد العذاب " (١).

(١) سورة البقرة آية ٨٥.

(٢٠٤)

وعلى مذهب من قال بالموافاة من المرجئة لا يصح ذلك، لان الاحباط عنده باطل، فمن آمن بالله لا بد ان يوافي به.

والجواب على مذهبه ان يقال تأويل الآية انه لا يؤمن أكثرهم بالله ويصدق رسله في الظاهر الا وهو مشرك في باطنه، فتكون الآية في المنافقين خاصة - يعنى هذه الآية - وقد ذكره البلخي ايضا.

قوله تعالى:

(أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون) (١٠٧) آية بلاخلاف.

هذا خطاب لهؤلاء الكفار الذين ذكرهم بأنهم لا يؤمنون إلا وهم مشركون، وتوبيخ لهم وتعنيف، وان كان متوجها إلى غيرهم، فهم المعنون به، يقول:

أفأمن هؤلاء الكفار ان تجيأهم غاشية من عذاب، وهو ما يتغشاهم من عذابه.

والغاشية ما يتجلل الشئ بانبساطها عليه، يقال: غشيه يغشاه، فهو غاش، وهي غاشية أو: تجيأهم القيامة بغتة أي فجأة. والبغته والفجأة والغفلة نظائر، وهي مجئ الشئ من غير تقدمة. قال يزيد بن مقسم التقفي:

ولكنهم باتوا ولم ادر بغتة * واطع شئ حين يفجؤك البغت (١)

والساعة مقدار من الزمان معروف، وسمي به القيامة لتعجيل أمرها، كتعجيل الساعة.

وقوله " وهم لا يشعرون " معناه لا يعلمون بمجيئه، فلذلك كان بغتة. والشعور إدراك الشئ بما يلطف، كدقة الشعر يقال: شعر به يشعر شعورا واشعره بالامر اشعارا، ومنه اشتقاق الشاعر لدقة فكره.

(١) مر هذا البيت في ٤: ١٢٢، ٥٠٧.

(٢٠٥)

قوله تعالى:

(قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) (١٠٨) آية بلاخلاف.

هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أمره الله تعالى ان يقول لهؤلاء الكفار " هذه سبيلي " يعني دينه الذي دعا إليه من توحيد الله وعدله وتوجيه العبادة اليه والعمل بشرعه " ادعو " الناس " إلى " توحيد " الله " والى طاعته، واتباع سبيله على معرفة مني بذلك، وحجة معي اليه، ومن تابعني على ذلك، فهو يدعو الناس إلى مثل ما أدعو اليه من التوحيد وخلع الانداد والعمل بشرع الاسلام " وسبحانه الله " اي تنزيها لله من ان يعبد معه إله غيره، وان يضاف اليه ما لا يليق به ولست أنا من المشركين الذين يشركون مع الله في عبادته سواء والسبيل هو الطريق، وهو يذكر ويؤنث قال الشاعر:

ولاتبعد فكل فتى اناس * سيصبح سالكا تلك السبيلا (١)

والدعاء طلب الفعل من الغير، وسمي الاسلام سبيلا، لانه طريق إلى الثواب لمن عمل به. و (البصيرة) المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل في الدين والدنيا، يقال: فلان على بصيرة من أمره اي كأنه يبصره بعينه.

قوله تعالى:

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون) (١٠٩) آية واحدة بلاخلاف.

(١) مجمع البيان ٣: ٢٦٨، ومجاز القرآن ١: ٣١٩.

(٢٠٦)

قرأ ابوبكر " يوحى " بالياء وفتح الحاء. وقرأ حفص بالنون وكسر الحاء.

قال ابو علي الفارسي: وجه القراءة بالنون قوله " إنا اوحينا اليك كما اوحينا إلى نوح " (١) ومن قرأ بالياء، فلقوله " واوحى إلى نوح " (٢) وقوله " قل اوحى الي " (٣)

فأما في " حم عسق كذلك يوحي اليك " (٤)، فلان الفعل مسند إلى اسم الله تعالى، فارتفع الاسم بأنه فاعل يوحي، ولو قرئ يوحي اليك، والى الذين واسند الفعل إلى الجار والمجرور، لكان جائزا، وكان يكون قوله " الله العزيز الحكيم " مبتدأ وخبرا، والاول احسن، لان قوله " العزيز الحكيم " ان يكون صفة احسن من ان يكون خبر المبتدأ.

معنى الآية الاخبار من الله اني ما ارسلت قبلك من الانبياء والمرسلين إلى عبادي إلا رجالا يوحي اليهم بكتبي واحكامي، " من اهل القرى " أي لم أرسل عليهم ملكا ولاجنيا، بل رجالا أمثالك، لقول جهال قريش ان الله لو شاء ان يرسل الينا أحدا، لارسل إلينا ملكا، فبين ههنا انه لم يرسل فيما مضى الا رجالا، مثل محمد، من البشر، " أفلم يسيروا في الارض " معناه أفليس قد ساروا في الارض وسمعوا اخبار من ارسله الله من الانبياء المبعوثين إلى خلقه مثل ابراهيم وموسى وعيسى، فيعرفوا بذلك كيف كان عاقبة من كذب هؤلاء الرسل من قبلهم، ومانزل بهم من العذاب لكفرهم ثم أخبر ان دار الآخرة خير للذين اتقوا واجتنبوا معاصيه خيرلهم من الدنيا، أفلا يعقلون ان الامر على ما أخبرنا به، وان ذلك خير من دار الدنيا التي فيها تنغيص وتكدير، وفنون الآلام.

وقال قتادة معنى " من أهل القرى " يريد به الامصار دون البوادي، لانهم اعلم وأحكم. وقال الحسن مابعث الله نبيا من اهل البادية قط، ولامن الجن ولا من النساء. وقوله " ولدار الآخرة " على الاضافة وفي موضع آخر وللدار الآخرة على الصفة. فمن اضافه قال تقديره ولدار الحال الآخرة، لان للناس حالين حال

(١) سورة النساء آية ١٦٢. (٢) سورة هود آية ٣٦ (٣) سورة الجن آية ١. (٤) سورة الشورى آية ١.

(٢٠٧)

لدنيا وحال الآخرة. ومثله صلاة الاولى والصلاة الاولى، فمن اضافه قدر صلاة الفريضة الاولى، ومن لم يضيف جعله صفة، ومثله ساعة الاولى، والساعة لاولى، ذكره الزجاج. وقال الفراء قد يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظهما مثل " حق اليقين ". ومثل بارحة الاولى والبارحة الاولى ومسجد الجامع، والمسجد الجامع.

قوله تعالى:

(حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولايرد بأسنا عن

القوم المجرمين) (١١٠)

آية بلاخلاف.

قرأ " كذبوا " خفيفة بضم الكاف أهل الكوفة. الباقون مشددة بضم الكاف. وقرأ عاصم وابن عامر " فنجي من نشاء " بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء. الباقون بنونين على الاستقبال، وهي في المصحف بنون واحدة.

من قرأ " كذبوا " خفيفة، فالمعنى إن الأمم ظنت ان الرسل كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله اياهم واهلاك اعدائهم، ومثله قراءة من قرأ، وان كان شاذاً " كذبوا " يعنى ان قومهم ظنوا ان الرسل كذبت فيما أخبرت به، وهو قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد والضحاك. ومن قرأ بالتشديد حمل الظن على العلم، والمعنى أيقن الرسل ان الأمم كذبوهم تكذيباً عمهم حتى لايفلح احدمنهم، وهو قول الحسن وقتادة وعائشة قال الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج * سراتهم في الفارسي المسرد (١)

معناه ايقنوا، فان قيل على الوجه الاول كيف يجوز ان يحمل الضمير على انه للمرسل اليهم والذين تقدم ذكرهم الرسل دون المرسل اليهم، قيل ان ذلك

(١) مر هذا البيت في ١: ٢٠٥، ٢: ٢٩٦، ٤: ٣٧٣ وقد روي (المشدد) بدل (المسرد).

(٢٠٨)

لايتمتع لان ذكر الرسل يدل على المرسل اليهم وقد قال الشاعر:

امنك البرق ارقبه فهاجا * فبت أخاله دهما خلاجا (١)

اي بت اخال الرعد صوت دهم، فاضمر الرعد ولم يجرله ذكر لدلالة البرق عليه وان قلت قد جرى لهم ذكر في قوله " افلم يسيروا في الارض فينظروا " فيكون الضمير للذين من قبلهم من مكذبي الرسل كان جيداً، ذكره ابو علي.

ومن قرأ " فنجي " بنونين، فعلى انه حكاية حال، لان القصة كانت فيما مضى، فانما حكى فعل الحال على ماكانت، كماقال " وإن ربك ليحكم بينهم " (٢) حكاية الحال الكائنة، ومثله " وكلبهم باسط ذراعيه " (٣) فلو لم يكن على الحال لم يعمل اسم الفاعل، لانه إذا مضى اختص، وصار معهوداً، فخرج بذلك من شبه الفعل. واما النون الثانية من (ننجي) فهم مخفاة مع الجيم، وكذلك النون مع جميع حروف الفم، لاتكون الا مخفاة، قال ابو عثمان المازني وتبينها معها لحن. قال وللنون مع الحروف ثلاثة احوال: الادغام، والاختفاء، والبيان، فهي تدغم مع ما يقارنها كما تدغم سائر المتقارنة. والاختفاء فيها مع حروف الفم التي لاتقارنها والبيان منها مع حروف الحلق، وحذف النون الثانية من الخط يشبه ان يكون لكراهة اجتماع المثليين فيه. ومن ذهب إلى ان الثانية مدغمة في الجيم، فقد غلط، لانه ليست بمثل للجيم، ولامقارنة له. ووجه قراءة عاصم انه اتى به على لفظ الماضي، لان القصة ما ضية. وما

رواه هبيرة عن عاصم بنونين، وفتح الياء، فهو غلط من الراوي، كما قال ابن مجاهد، وروى نصر بن علي عن أبيه عن أبي عمرو " فنجي " بنون واحدة ساكنة الياء خفيفة الجيم، فهذا غلط، لانا قد بينا ان النون، لا تدغم في الجيم، لما بيناه.

(١) قاتله ابوذؤيب الهذلي، ديوان الهذليين ١: ١٦٤، واللسان (دهم) وامالي السيد المرتضى ١: ٦١٦.

(٢) سورة النحل آية ١٢٤ (٣) سورة الكهف آية ١٨

(٢٠٩)

اخبر الله تعالى ان الرسل لما يئسوا من فلاح القوم و علموا ان القوم لقوهم بالتكذيب ونسبوهم إلى الكذب، لان التكذيب نسبة القائل إلى الكذب، وضده التصديق والاستيناس واليأس انقطاع الطمع " جاءهم نصرنا " اي أتاهم نصر الله باهلاك من كذبهم ولايرد بأسنا فالبأس شدة الامر على النفس يقال له بأس في الحرب والبئيس الشجاع لشدة أمره. ومنه البؤس الفقر والبائس الفقير " عن القوم المجرمين " يعني المخطئين الذين اقترفوا السيئات. قوله تعالى:

لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (١١١) آية بلا خلاف. أخبر الله تعالى ان في قصص الامم الماضين التي ذكرها دلالة لذوي العقول على تصديق الرسل وان ما أخبرناك به لم يكن حديثا كذبا. والحديث الاخبار عن حوادث الزمان وتسميته بأنه حديث يدل على انه حادث، لان القديم لا يكون حديثا، والافتراء القطع بالمعنى على خلاف ما هو به وأصله القطع من قولهم قرئت الاديم فريا إذا قطعت، ووجه الاعتبار بتلك القصص ان الذي قدر على إعزاز يوسف بعد القائه في الجب واعلائه بعد حبسه في السجن وتمليكه مصر بعد ان كان كبعض أهلها في حكم العبيد وجمعه بينه وبين والديه وإخوته على ما أحبوا بعد مدة طويلة وشقة بعيدة لقادر ان يعز محمد صلى الله عليه وسلم، ويعلي كلمته وينصره على من عاداه.

وقوله " ولكن تصديق الذي بين يديه " معناه تصديق الكتب التي قبله من التوراة، والانجيل وغيرهما من كتب الله في قول الحسن وقتادة. وإنما قيل لما تفسير التبيان ج ٦ - م ١٤

(٢١٠)

قبله: بين يديه، لانه قد وجد فكأنه حاضر له، وقيل بين يديه، لانه قريب منه كقرب ما كان بين يدي الانسان. وإنما قال " وتفصيل كل شئ " على وجه المبالغة من حيث كان فيه تفصيل

كل شئ يحتاج اليه في أمور الدين من الحلال والحرام والحجاج والاعتبار والوعظ والازجار، أما جملة او تفصيلا. و " هدى ورحمة " فالهداية الدلالة " لقوم يؤمنون " اي يصدقون بها وينتفعون بالنظر فيها وخص المؤمنين بالهداية وإن كانت هداية لغيرهم من حيث انهم انتفعوا هم بها دون غيرهم، ونصب تصديق على تقدير، ولكن كان تصديق الذي باضمار كان على قول الزجاج.

(٢١١)

(١٣) سورة الرعد قال قتادة هي: مدنية إلا آية منها فانها مكية وهي قوله " لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ".
وقال مجاهد: هي مكية وليس فيها ناسخ ولا منسوخ.
وهي ثلاث وأربعون آية في الكوفي وأربع في المدنيين وخمس في البصري.
بسم الله الرحمن الرحيم.
(المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) (١) آية بلاخلاف.

لم يعد احد " المر " آية وعد الكوفيون " طه " و " حم " آية قالوا، لان (طه) مشكلة لرؤوس الآي التي بعدها بالالف مع انه لايشبه الاسم المفرد، كما أشبهه " صاد " وقاف " و " نون " لانها بمنزلة (باب) و " نوح "، وعد " كهيعص " لانه يشاكل رؤوس الآي بعده بالارداف. وقد بينا في أول سورة البقرة أقوال المفسرين في تأويل اوائل السور بالحروف (١). وان اقواها ان يقال أنها اسماء السور واجبنا عما اعترض عليه، فلوجه لاعادته.

(١) في ١: ٤٧ - ٥١.

(٢١٢)

وروي عن ابن عباس ان معنى قوله " المر " انا الله أرى. وقال غيره: معناه انا الله أعلم. وروي انها حروف تدل على اسم الرب. وقوله " تلك آيات الكتاب " ومعناه هذه تلك آيات الكتاب التي تقدمت صفتها. والبشارة بها بما فيها من الهداية، كما تقول تلك الدلالة اي التي وصفها بأنه لا غنا لاحد عنها، فيقول: هذا تنبيهها عليها، وتفخيما لشأنها.
وقال الحسن والجبائي: يعني بالكتاب القرآن. وقال مجاهد وقتادة: يعني به الانجيل. والاول اصح. وآيات الكتاب هي الكتاب، ولكن أضيف إلى نفسه، لما اختلف لفظه كما قال " حق اليقين " (١) وغير ذلك مما قد مضى ذكره، وكما يقال مسجد الجامع، والمسجد الجامع،

والآيات الدلالات المعجبة المؤدية إلى المعرفة بالله وانه لايشبه الاشياء، ولانتشبهه، والكتاب الصحيفة التي فيها الكتابة، وقد يكون مصدركتب، تقول: كتب كتابا وكتابة. " والذي أنزل اليك من ربك الحق " يحتمل وجهين من الاعراب: الرفع والجر، فالرفع على الابتداء وخبره الحق، والجر على انه عطف على الكتاب، وهو غيره - على قول مجاهد - ويجوز ان تكون صفة - في قول الحسن - كماقال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتبية في المزدمح (٢)

" ولكن اكثر الناس لا يؤمنون " اي لا يصدق اكثر الناس بأنه كذلك، ويكفرون به. والحق وضع الشئ في موضعه على ماتقتضيه الحكمة والانزال النقل من علو إلى سفلى أنزله إنزالا، ونزله تنزيلا، وضده الالصعاد.

قوله تعالى:

(الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى يدبر

(١) سورة الواقعة آية ٩٥ (٢) مر تخريجه في ٢: ٩٨.

(٢١٣)

الامر يفصل الايات لعلمكم بقاء ربكم توقنون) (٢) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية بمايدل على وحدانيته وكونه على صفات لا يشاركه فيها احد من المخلوقين من كونه قادرا لنفسه، لانه قال تعالى هو الذي رفع السموات بغير عمد ترونها. وقيل فيه قولان:

الاول - قال ابن عباس ومجاهد: يعنى ليس ترونها دعامة تدعمها، ولا فوقها علاقة تمسكها.

الثاني - قال قتادة وإياس بن معاوية: ان المعنى إنه رفع السموات بلا عمد ونحن نراها.

وقال الجبائي: تأويل ابن عباس ومجاهد خطأ لانه لو كان لها عمد، لكانت اجساما غلاظا ورؤيت، وكانت تحتاج إلى عمد آخر إلا هو تعالى.

وهذا هو الصحيح. والوجه في قوله " بغير عمد " انه لو كان لها عمد لرئيت.

ومثله قول الشاعر:

على لاحب لايهتدي لمناره (١)

والمعنى انه لامنارله، لانه لو كان له منار لاهتدي به، وقد بينا نظائر ذلك فيما مضى (٢). و

(عمد) جمع عمود يقال: عمد، كما يقال: اديم وادم. قال ابو عبيدة: وهذا الجمع قليل. وقد قرئ

في الشواذ (عمد) بضم العين والميم، وهو القياس. والعمود السارية، ومثله الدعائم والسند
واصله منع الميل، فمنه التعميد والاعتماد، قال النابغة:
وخيس الجن اني قد اذنت لهم * بينون تدمر بالصفائح والعمد (٣)

(١) مر هذا البيت في ١: ١٨٩، ٢٧٩، ٤٤٤، ٢: ٨٨، ٣٥٦، ٤٢٣، ٥٦٢، ٣: ٣٨٠.

(٢) راجع ماسبق ان اشرنا اليه في التعليقة قبل هذه رقم ١.

(٣) ديوانه (دار بيروت) ٣٣ ومعنى (خيس) ذلل. و (تدمر) بلد بالشام.

(٢١٤)

وقوله " ثم استوى على العرش " معناه استولى بالافتقار عليه ونفوذ السلطان واصله استواء
التدبير، كما ان اصل القيام الانتصاب ثم قال: قائم بالتدبير، فالمعنى مستو على العرش
بالتدبير المستقيم من جهته بجميع الامور. و (ثم)
دخلت على معنى " ثم استوى على العرش " بالتدبير للجسام التي قدكونها، فهي تدل على
حدوث التدبير.

وقال ابو علي: هي لتسخير الشمس والقمر لكنه قدم في صدر الكلام، كما قال " ولنبلونكم حتى
نعلم المجاهدين منكم والصابرين " (١) والمعنى حتى يجاهد من نعلم من المجاهدين.
وقوله " وسخر الشمس والقمر " فالتسخير والتذليل والتوطئة نظائر، والسخر هو المهيا، لانه
يجري بنفسه من غير معاناة صاحبه فيما يحتاج اليه كتسخير النار للاسخان والماء للجريان،
والفرس للركوب.

وقوله " كل يجري لاجل مسمى " اجراه على لفظ كل، ومثله كل منطلق اي اكلهم، ورفع كلا،
لانه مستأنف، وذهب بمعنى الاثنين في الشمس والقمر إلى الجمع، كما قال " فان كان له اخوة " (٢)
وإنما هما أخوان. و (الاجل) هو الوقت ضرور لحدوث أمر وانقطاعه، فاجل الدنيا الوقت
المضروب، لانقضائها واجل الآخرة، الوقت المضروب لحدوثها، واجل الدين وقت حدوث
أدائه، واجل العمر الوقت المضروب لانقضائه، والاجل المسمى - ههنا - قيل يوم القيامة.

وقوله " يدبر الامر فالتدبير تصريف الامور على مايقضيه مستقبل حاله في عاقبته، فتدبير
السموات والارض فيه دلالة على مدبر حكيم، قد جعل جميع ذلك لما يصلح في عاقبته،
وعاجلته. ودخلت. الالف واللام على (الشمس) وهي واحدة لاثاني لها، لان في اسمها معنى
الصفة، لانه لو وجد مثلها لكان شمسا، وكذلك (القمر) لو خلق الله مثله لكان قمرأ، وليس
كذلك زيدو عمرو.

(١) سورة محمد آية ٣١. (٢) سورة النساء آية ١١.

(٢١٥)

وقوله " يفصل الآيات " اي يميز الدلالات واختلاف مدلولاتها، من كونه قادرا عالما حكيما لايشبه شيئا، ولايشبهه شئ " لعلكم بلقاء ربكم توقنون " معنا لكي توقنوا لقاء ثواب طاعات الله ولقاء عقاب معاصيه، فسمى لقاء ثوابه وعقابه لقاءه مجازا.
قوله تعالى:

(وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لايات لقوم يتفكرون) (٣) آية بلاخلاف.
ذكر الله تعالى في الآية الاولى بالسماء والشمس والقمر، لان اكثر مافي العالم متعلق بذلك وجار مجراه كالنبات والحرث والنسل، ثم ذكر في هذه الآية الارض وتدييره لها على مافيه من المصلحة لينبه بذلك من ذهب عن الاستدلال به على حكمته تعالى، وتوحيده، فقال " وهو الذي مد الارض " يعني بسطها طولا وعرضا " وجعل فيها رواسي " يعني جبالا راسيات ثابتات، يقال: رسي هذا الوتد وأرسيته. وواحد (الرواسي) راسية " وانهارا " اي وخلق فيها أنهارا يجري المياه فيها " ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين " ثم ابتداء فقال: وجعل فيها من جميع الثمرات زوجين أي ضربين. قال الحسن يعني لونين من كل ماخلق من النباتات. والزوج يكون واحدا ويكون اثنين، وههنا واحد.
وقريش تقول: للاثني زوج وللذكر زوج قال الله تعالى " اسكن انت وزوجك الجنة " (١) لادم. ومعنى " يغشي الليل النهار " اي يجلل الليل النهار والنهار بالليل. والمعنى انه يذهب كل واحد منهما بصاحبه ومثله " يكور الليل على

(١) سورة البقرة آية ٣٥ وسورة الاعراف آية ١٩.

(٢١٦)

النهار ويكور النهار على الليل " (١) والمعنى ان أحدهما يذهب الآخر. ثم أخبر تعالى ان فيما ذكره من الدلالات لايات واضحات لمن فكر، واعتربها، لان من لم يفكر فيها ولم يعتبر، كأنه لاآية له.

وقوله " زوجين اثنين " انما اكد ب (اثنين) وان كان قوله " زوجين " افاد العدد لامرين: احدهما - على وجه التأكيد وهو مستعمل كثيرا.

الثاني - ان الزوجين قد يقع على الذكر والانثى. وعلى غيرهما، فاراد ان يبين ان المراد به ههنا لونين أو ضربين دون الذكورة والانوثة، وذلك فائدة لا يفيدها قوله " زوجين " فلا تكرر فيه بحال. وهو قول الحسن والجبائي وغيرهما.
قوله تعالى:

(وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (٤)
آية بلاخلاف.

قرأ ابن كثير وأهل البصرة وحفص " وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان " بالرفع فيهن. الباقر بالخفض. وروى ابو شعيب القواس عن حفص ضم الصاد من صنوان في الموضعين. الباقر بكسرها. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب " يسقى " بالياء. الباقر بالتاء. وقرأ اهل الكوفة الاعاصم يفضل بالياء.
الباقر بالنون.

(١) سورة الزمر آية ٥.

(٢١٧)

قال ابو علي النحوي: من قرأ " وزرع " مرفوعا جعله محمولا على قوله " في الارض " ويكون تقديره وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وفي الارض زرع ونخيل صنوان، فالجنة على هذا تقع على الارض التي فيها النخيل.
دون غيرها. ويقوي ذلك قول زهير:

كأن عيني غربي مقتلة * من النواضح تسقي جنة سحقا (١)

السحق جمع سحق يوصف بها النخيل اذا بسقت فكأنه سمي الارض ذات النخل جنة، ولم يذكر ان فيها غيرها، فكما ان الجنة تكون من النخيل من غير ان يكون منها شيء آخر، كذلك تكون من الكروم، وان لم يكن فيها غيرها.

فاما من قرأ بالخفض فانه حمل الزرع والنخيل على الاعناب، كأنه قال جنات من أعناب ومن زرع، ومن نخيل. وقد تسمى الارض إذا كان فيها النخل والكرم والزرع جنة، قال الله تعالى " جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً " (٢) ويقوي ذلك قول الشاعر:

أقبل سيل جاء من أمر الله * يجرد جرد الجنة المغلة (٣)

فقوله (المغلة) في وصف الجنة يدل على ان الجنة يكون فيها الزرع، لان الغلة لايقال إلا فيما يكال ويوزن، فلذلك قال الفقهاء: اذا قال: أوصيت له بغلة هذه القرية انه يكون على ما فيها، من الحال من الثمرة وغيرها وقت التلفظ بالوصية دون ما يحدث بعد.

و (الصنوان) فيماذهب اليه ابو عبيدة صفة النخل قال: والمعنى ان يكون الاصل واحدا ثم يتشعب من الرأس فيصير نخلا ويحملن وقال وقوله

(١) ديوانه: ١٤٠ (دار بيروت)

(٢) سورة الكهف آية ٣٢ (٣) مجمع البيان ٣: ٢٧٥.

(٢١٨)

" يسقى بماء واحد " لانها تشرب من اصل واحد " ونفضل بعضها على بعض في الاكل " وهو الثمرة، واجاز غيره ان يكون (الصنوان) من صفة الجنات: قال ابو علي فكأنه في المعنى يراد به مافي الجنات. وان جرى على لفظ الجنات.

وعلى هذا يجوز ان ترفع وان جررت النخل غير أنه لم يقرأ به. ومن ضم الصاد من صنوان جعله مثل ذئب وذؤبان، وربما يعاقب فعلان وفعالن على بناء واحد نحو خشن وخشان. واظن سيوييه حكي الضم في صنوان والكسر اكثر. ومن قرأ " تسقى " بالتاء اراد تسقى هذه الاشياء " بماء واحد " ويقوى ذلك قوله " ونفضل بعضها على بعض " فحمله على التأنيث. ومن قرأ بالياء فعلى تقدير ما ذكرناه. ومن قرأ " يفضل " بالياء. رده إلى الله، وتقديره ويفضل الله بعضها على بعض ومن قرأ بالنون، فعلى الاخبار عن الله عزوجل أنه قال " ونفضل " نحن " بعضها على بعض ".

اخبر الله تعالى على وجه التنبيه لعباده على الاستدلال بآياته بان قال في الارض التي خلقتها قطع متجاورات. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: معناه سبخة وغير سبخة. وقيل عامرة وغير عامرة. والمتجاورة المتقاربة بعضها من بعض.

وقوله " وجنات من اعناب " فالجنة البستان الذي يجنه الشجر وهي منفصلة من الروضة والزهرة " من أعناب " جمع عنب وهو ثمر الكرم يقع على انواع كثيرة، والزرع القاء الحب للنبات في الارض، والغرس جعل الاصل من الشجر الثابت.

في الارض، والصنوان المتلاصق وهي الفسيلة تكون في اصل النخلة. ويقال:

هو ابن أخيه صنو أبيه اي لصنو ابيه في ولادته، ويجوز في جمع صنو اصناء.

كعدل واعدال. ويقال: صنو بضم الصاد وإذا كثرت، فهو الصني والصني، وقال البراء بن عازب وابن عباس ومجاهد وقتادة: الصنوان النخلات التي اصلها واحد. وقال الحسن:

الصنوان النخلتان اصلهما واحد " يسقى بماء واحد " معناه ان ماذكرناه يسقى بماء واحد " ونفضل بعضها على بعض في الاكل " بان

(٢١٩)

يكون بعضه حلوا وبعضه حامضا وبعضه مرا في الاكل. والاكل الطعام الذي يصلح للاكل، فدل بذلك على بطلان قول من يقول بالطبع، لانه لو كان قولهم صحيحا لما اختلفت طعم هذه الاشياء مع ان التربة واحد والماء واحد، وجميع احوالها المعقولة متساوية، فلما تفاضلت مع ذلك دل على ان المدبر لها عالم حكيم ففعله بحسب المصلحة " ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون " اخبار منه تعالى ان فيما ذكرناه دلالات لقوم يعقلونها ويتدبرونها لان من لاعقل له لاينتفع بالاستدلال بها، وانما ينتفع بذلك ذوو الالباب والعقول. قوله تعالى:

(وان تعجب فعجب قولهم ا إذا كنا ترابا انا لفي خلق جديد ٥) أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال في اعناقهم وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون ٦) آية في الكوفي. وفي المدنيين والبصري آيتان تمام الاولى قوله " لفي خلق جديد ". قرأ ابن عامر وابوجعفر " اذا " بهمزة واحدة على الخبر. الباقرن بهمزتين على الاستفهام. وحقق الهمزتين اهل الكوفة وروح. وقرأ نافع وابن كثير وابوعمر ورويس بتخفيف الاولى وتليين الثانية. وفصل بينهما بالف نافع الا ورشا وابوعمر و. واما " انا " فقرأه بهمزة واحدة على الخبر نافع والكسائي ويعقوب. الباقرن بهمزتين على الاستفهام. وحقق الهمزتين ابن عامر وعاصم وحمزة وخلف الا ان هشاما يفصل بينهما بالف. وقرأ ابن كثير وابوعمر و، وابوجعفر بتحقيق الاولى وتليين الثانية إلا ان ابا عمرو واباجعفر يفصلان بينهما بالف، وابن كثير لايفصل. وكذلك اختلفهم في الموضعين في (سبحان) وسورة المؤمنين والسجدة ولقمان. والثاني من اللذين في الصافات. وماسوى ذلك من الاستفهامين

(٢٢٠)

يذكر في موضعه ان شاء الله قال ابوعلي الفارسي من قرأ (أذا، انا) بالاستفهام فيهما، فموضع (اذا) نصب بفعل مضمر يدل عليه قوله " انا لفي خلق جديد " لان هذا الكلام يدل على نبعث ونحشر، فكأنه قال أنبعث اذا كنا ترابا. ومن لم يدخل الاستفهام في الجملة الثانية كان موضع (اذا) نصبا بما دل عليه قوله " انا لفي خلق جديد " فكأنه قال انبعث اذا كنا ترابا، وما بعد (ان) لايعمل فيما قبله بمنزلة الاستفهام، فكما قدرت هذا الناصب في (اذا) مع الاستفهام،

لان الاستفهام لايعمل مابعدده فيما قبله كذلك نقدره في (إنا) لان مابعددها ايضا لا يعمل فيما قبلها. وقرآءة ابن عباس " اذا كنا ترابا " على الخبر (أنا) على الاستفهام ينبغي ان يكون على مضمر كما حمل ماتقدم على ذلك، لان بعد الاستفهام منقطع مما قبله فاما ابوعمر، فانه يفصل بين الهمزتين بألف، كما يفصل في " أنذرتهم " وكمايفصل بين النونات في (اخشيانان) ويأتي بعد ذلك بالهمزة بين بين، وليست (يا)

ياء محضة، كما ان الهمزة في السائل ليست ياء محضة، وانما هي همزة بين بين، وابن كثير ان اتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مد فليس ذلك على التخفيف القياسي، لانه لوكان كذلك، لوجب ان يجعل الهمزة بين بين، كما فعل في سم في المتصل وفي اذ قال ابراهيم - في المنفصل لذلك، ولكنه يبذل من الهمزة ابد الا محضا كما حكى سيبويه انه سمع من العرب من يقول (بئس) وقد جاء في الشعر يومئذ على القلب.

مدح الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم تعجبه من الكفار في عبادتهم ما لايمك لهم نفعا ولاضرا. ثم اخبر ان هذا موضع العجب، وذمهم بعجبهم من اعاتهم ثانية مع علمهم بالانشأة الاولى، وفيما بين الله تعالى من خلق السموات والارض، ومابينهما من عجائب افعاله التي تدل على انه قادر على الاعداء، كما دلت على الانشاء، لان هذامما ينبغي ان يتدبره العاقل، وقد قيل: (لاخير فيمن لايتعجب من العجب وأرذل منه المتعجب من غير عجب) والعجب والتعجب واحد. وهو تغير النفس بماخفي سببه عن الكافر وخرج عن العادة، فهؤلاء الجهال توهموا انهم اذا صاروا ترابا لايمكن ان يصيروا حيوانا. والذي انشأهم اول مرة قادر ان يعيدهم ثانية.

ثم اخبر تعالى عنهم، فقال: هؤلاء هم الذين جحدوا نعم الله، وكفروا بأياته

(٢٢١)

ودلالاته، وهم الذين يحشرهم الله يوم القيامة، والاعلال في اعناقهم. والغل طوق يقيد به اليد في العنق، وأصله الغل في الشئ إذا انتسب فيه. وغل:

اذا خان بانتسابه في مال الحرام والاعناق جمع عنق، وهو مغرز الرأس. وقيل ان المعنى في ذلك انهم يؤخذون بأعمالهم، وهي الاعلال، كما قال " اذ الاعلال في اعناقهم " (١) فكأنهم بمنزلة من الغل في عنقه لما لزمهم من الكفر به، فقال و " اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون " اخبار منه تعالى انهم بعد الغل في اعناقهم يجعلون في النار مؤبدين فيها معذبين بأنواع العذاب.

قوله تعالى:

(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلاث وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) (٧) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء الكفار يطلبون منك مايسوؤهم ان يعجل لهم، كما قالوا " امطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم " (٢) قبل ان يسألوا الاحسان بالانتظار لهم، وقد حكم الله تعالى ان يمهلهم التوبة. ثم يأخذ من أقام على القبح بالعقوبة. والاستعجال طلب التعجيل، والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته الذي يقدر له. والسيئة خصلة تسوء النفس، ساءه يسوءه سوءا، وهو ساء وهي سائئة وسئ وسيئة قال الشاعر:

ولاسئ يردي إذا ماتلبسوا * إلى حاجة يوما مخلصه بزلا

والحسنة خصلة تسر النفس وقد يعبر بهما عن الطاعة، والمعصية.

(١) سورة المؤمن (غافر) آية ٧١ (٢) سورة الانفال آية ٣٢.

(٢٢٢)

وقوله " خلت من قبلهم المثلاث " أي مضت بانقضائها كمضي اهل الدار عنها، يقال: خلت الديار بهلاك أهلها وخلوهم بخلو مكانهم منها، والمثلاث العقوبات التي تزجر عن مثل ماوقعت لاجله واحدها مثلة مثل سمرة وصدقة، وفي الجمع سمرات وصدقات، ويقال مثلت به أمثل مثلا بفتح الميم وسكون الناء، وأمثته من صاحبه إمثالا إذا قصصته منه وتميم تقول: مثلة على وزن غرفة، ثم قال " وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم " على وجه الاخبار عن نفسه بالرحمة بخلقه والتفضل عليهم بأنه يغفر للناس على كونهم ظالمين وذلك يدل على بطلان قول من قال إن اصحاب الكبائر لايجوز ان يعفو الله عنهم إلا بالتوبة، لانه تعالى لم يشترط في ذلك التوبة ومن شرط في الآية التوبة اوخصها بالصغائر كان تاركا للظاهر.

وقوله " وان ربك لشديد العقاب " اخبار منه تعالى بأنه كما يغفر تارة مع الظلم، كذلك قد يعاقب مع الاصرار عذابا شديدا فلا تغتروا بذلك ولاتعولوا على مجرد العفو لانه يجوز ان لايعفو.

قوله تعالى:

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) (٨) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى ان هؤلاء الكفار الذين تقدم ذكرهم يقولون هلا انزل على محمد آية يقتر حونها مثل ماحكى الله عنهم من نحو تفجير الانهار بحيث سألوا سقي البلاد ونقل جبال مكة عن امكانها لتتسع على أهلها وإنزال كتاب من السماء إلى الارض يقرؤون فيه الامور التي دعاهم

اليها، فقال الله تعالى له ليس أمر بالآيات اليك إنما أمرها إلى الله ينزلها على ما يعلمه من مصالح العباد " وانما انت منذر " اي معلم لهم على وجه التخويف لهم معاصي الله وعقابه، " ولكل قوم هاد " يهديهم إلى الحق. وللناس في معناه خمسة اقوال:

(٢٢٣)

احدها - روي عن ابن عباس بخلاف فيه ان الهادي هو الداعي إلى الحق.
والثاني - قال مجاهد وقتادة وابن زيد: انه نبي كل أمة.
الثالث - في رواية اخرى عن ابن عباس وسعيد بن جبير ورواية عن مجاهد والضحاك: ان الهادي هو الله.
الرابع - قال الحسن وقتادة في رواية وأبو الضحى وعكرمة: انه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو اختيار الجبائي.
والخامس - ماروي عن ابي جعفر، وأبي عبدالله (ع) إن الهادي هو امام كل عصر، معصوم يؤمن عليه الغلط وتعمد الباطل.
وروى الطبري باسناده عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت " إنما انت منذر ولكل قوم هاد " وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره، وقال انا المنذر ولكل قوم هاد " وأوماً بيده إلى منكب علي (ع)، فقال انت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي.
قوله تعالى:

(الله يعلم ماتحمل كل أنثى وماتغيض الارحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار (٩) عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) (١٠) آيتان بلاخلاف.
قرأ ابن كثير " المتعالي " بياء في الوصل والوقف الا المالكى والعطار عن الزبيبي ويعقوب، وروى المالكى والعطار عن الزبيبي بياء في الوقف دون الوصل.
الباقون بغيرياء في الحاليين. وروي عن ابي عمير - في رواية شاذة - مثل ابن كثير، قال أبو علي: اثبات الياء في الحاليين هو القياس، وليس مافيه الالف واللام من هذا الباب كما لا الف فيه ولام نحو قاض وغاز. قال سيبويه إذا لم يكن في موضع تنوين يعنى اسم الفاعل فان الاثبات اجود في الوقف نحو هذا

(٢٢٤)

القاضي، وهذا الغازي، لانها ثابتة في الوصل يريد ان الياء مع الالف واللام تثبت ولا تحذف كما تحذف من اسم الفاعل إذا لم يكن فيه الالف واللام، نحو هذا قاض، فاعلم، فالياء مع غير

الالف واللام تحذف في الوصل، فاذا حذفت في الوصل كان القياس ان تحذف في الوقف. وهي اللغة والاقيس. فأما إذا حذفت الالف واللام، ولايحذف اللام - في اللغة التي هي اكثر عند سيبويه، فأما من حذف في الوصل والوقف فلان سيبويه زعم ان من العرب من يحذف هذا في الوقف شبهه بماليس فيه الف ولام إذ كانت تذهب الياء في الوصل في التتوين لولم يكن الف ولام واما حذفهما لها في الوصل فلم يكن القياس، لانه لم يضطر إلى حذفه لشيء كما اضطر ما لا الف ولام فيه للتقاء الساكنين، فكر هوا حركة الياء بالضم والكسر لكن حذف، كما حذف في الفواصل وماشبهه الفواصل تشبيها.

بالقوافي.

اخبر الله تعالى انه عزوجل " يعلم ماتحمل كل انثى " من علقه او مضغة ومن ذكر او انثى ومن زائد اوناقص وعلى جميع احواله وصفاته، لانه عالم لنفسه. (والحمل) بفتح الحاء ماكان في البطن - وبكسرهما - ماكان على الظهر وقوله " وماتغيض الارحام " وماترداد، وقيل فيه ثلاثة اقوال: الاول ماينقص من ستة أشهر ومايزداد لان الولد يولد لسته اشهر فيعيش ويولد لسنتين فيعيش ذهب اليه الضحك.

الثاني - قال الحسن ماينقص بالسقط وما يزداد بالتمام.

الثالث قال ابن زيد ماينقص بغور النطفة وظهور دم الحيض فينقص تلك الايام، لانه لايعتد بها في الحمل وينقص حال الولد ومايزداد من الاشهر، وفي حال الولد. وقال الفراء الغيض النقصان، تقولون: غاضت المياه اي نقصت، وفي الحديث (اذا كان الشتاء غيضا والولد غيضا وغازت الكرم غيضا وفاضت اللثام فيضا) وقال الزجاج الغيض النقصان. وقوله " وكل شيء عنده بمقدار " قيل في معناه قولان:

(٢٢٥)

احدهما - ان جميع مايفعله الله على مقدار ماتدعو اليه الحكمة من غير نقصان ولازيادة، وقال قتادة: معناه كل شيء عنده بمقدار في الرزق والاجل. والمقدار مثال يقدر به غيره. ثم اخبر تعالى أنه عالم بما غاب عن الحواس وبما ظهر لها فالغيب كون الشيء بحيث يخفى عن الحس، يقال غاب يغيب، فهو غائب. والشهادة حصول الشيء بحيث يظهر للحس ومنه الشاهد خلاف الغائب.

ويقال شهد في المصر اذا حضر فيه. ومنه قوله " فمن شهدمنكم الشهر فليصمه " (١)

اي من حضر المصر فيه، وانما قال " عالم الغيب " مع ان الله تعالى لا يغيب عنه شيء، لانه اراد ماغاب عن احساس العباد. وقيل انه اراد انه يعلم المعدوم والموجود، فالغيب هو المعدوم. وقال الحسن: الغيب السر، والشهادة العلانية.

وقوله " الكبير المتعال " فالكبير هو السيد المقتدر. ومعناه الاكبر بسعة مقدوره. والمتعالى المقتدر بمايستحيل ان يكون أعلى منه في الاقتدار أو مساويا له، فهو أقدر من كل قادر، ولهذا استحالت مساواته في المقذور، لان من لا يساويه أحد في المقذور فهو أعلى في المقذور، كأنه قال: تعالى مقدوره إلى مايستحيل ان يكون اعلى منه. وقال الحسن: المتعالى عما يقول المشركون فيه.

قوله تعالى:

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) (١١) آية بلاخلاف.

معنى الآية ان الله تعالى الذي وصف نفسه بأنه الكبير المتعالى على غيره بسعة قدرته سواء عليه الاشياء في أنه يعلمها على اختلاف حالاتها، وانه يعلم الانسان

(١) سورة البقرة آية ١٨٥ تفسير التبيان ج ٦ - م ١٥

(٢٢٦)

على تصرف احواله مما يسر في نفسه اي يخفيه او يعلنه أو يستتر بالليل او يسرب بالنهار، كل ذلك سواء في ظهوره له، فيجب ان يحذر من هذه صفته، ويعلم انه يأتي بالآيات بحسب مايعلمه من مصلحة خلقه. وقال الزجاج: المعنى ان الظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات والجاهر بنطقه والمضمر في نفسه في معلوم الله " سواء " اي ليس ببعض ذلك اعلم من بعض. وقال الحسن: " سارب بالنهار " اي مستتر فيه. وقال قطرب: يجوز ان يكون معنى " مستخف بالليل " اي ظاهر بالليل " وسارب بالنهار " اي مستتر فيه. قال الزجاج: هذا جائز في اللغة، يقال منه انسرب الوحش اذا دخل في كناسه. وقال ابورجاء: السارب الذاهب على وجهه، يقال انسرب فلان انسرابا. وقال ابن عباس وقتادة:

السارب الظاهر من خفى كان فيه. ويقال: فلان سارب في مذهبه اي ظاهر يقال: خلا سربه اي طريقه، ويقال: فلان آمن في سر به بالفتح والخفض معا قال قيس بن الخطيم:

أنى سربت وكنت غير سرور * وتقرب الاحلام غير قريب (١)

وقال قوم: السارب الذي يسلك في سربه اي في مذهبه، يقال منه:

سرب يسرب سروباً. وقال بعضهم السارب الجاري في خروجه إلى الامر بسرعة * يقال انسرب الماء من خروز القربة، قال ذو الرمة:
مابال عينك منها الماء منسكب * كأنها من كلى مفرية سرب (٢)
فالاستخفاء طلب الاختفاء، خفي يخفى نقيض ظهره يظهر ظهوراً. واختفى اختفاء وأخفاه إخفاء، وتخفى تخفياً. والاسرار إخفاء المعنى في النفس، فأسر القول معناه أخفى في نفسه، والجهر رفع الصوت بالقول، يقال: لصوته جهازة اي قوة في رفعه اياه، وهو يجاهر بأمره اي يظهره ويعلنه. والسواء هو

(١) اللسان (سرب).

(٢) مجمع البيان ٣: ٢٧٩ واللسان (سرب) والطبري ١٣: ٦٦ وروايته. (تنسكب) بدر (منسكب).

(٢٢٧)

الاعتدال في الوزن. و (من) في موضع الذي، وهما مرتفعان و " سواء " رفع بالابتداء، وهو يطلب اثنين. تقول: سواء زيد وعمرو، اي هما مستويان.
قوله تعالى:

له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال (١٢) آية بلاخلاف.

اختلفوا في الهاء في قوله " له " إلى من ترجع، فقال ابن زيد: على اسم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " انما انت منذر " وقال غيره: على اسم الله في قوله " عالم الغيب والشهادة " وقال قوم: على (من) في قوله " من اسر القول ومن جهر " فكأنه قال للانسان معقبات وهو الاقوى. والمعقبات في هذا الموضع هم الملائكة، فقال الحسن وقتادة ومجاهد: ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار، وقال ابن عباس - في رواية - انهم الامراء والولاة لهم حرس واعوان يحفظونهم. وقال الحسن: هم اربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر، والمعقبات المتناويات التي يخلف كل واحد منها صاحبه، ويكون بدلاً منه. وأصل التعقيب كون شئ بعد آخر، فالمعقبات الكائنات على خلف بعضها لبعض بعد ذهابه، والمعقب الطالب دينه مرة بعد اخرى قال لبيد:

حتى تهجر في الرواح وهاجه * طلب المعقب حقه المظلوم (١)

ومنه العقاب لانه يستحق عقيب المعصية. والعقاب لانه يعقب بطلبه لصيد ه

(٢٢٨)

مرة بعد مرة، والعقب لانه يعقب به لشده على الشئ مرة بعد مرة، وهو جمع الجمع، لان واحده معقب مثل رجالة ورجالات. وفي قراءة أهل البيت " له معقبات من خلفه ورقيب بين يديه " قالوا لان المعقب لا يكون الامن خلفه.

وقوله " يحفظونه من امر الله " قيل في معناه اقول:

احدها - قال الحسن وقتادة: المعنى بأمر الله، كما تقول جئتك من دعائك اي بدعائك، وفي قراءة اهل البيت " بأمر الله " وقال مجاهد وابراهيم: يحفظونه من امر الله من الجن والهوام. والمعنى ذلك الحفظ من امر الله.

وقال قوم: معناه عن أمر الله، كما يقال أطعمه عن جوع ومن جوع.

وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير، كأنه قال له معقبات من بين يديه ومن خلفه من أمر الله يحفظونه، وانما قال يحفظونه على التذكير مع قوله " له معقبات " على التأنيث حملا على المعنى، وفي تفسير اهل البيت إن معناه يحفظونه بأمر الله.

وقوله " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " معناه ان الله لا يسلب قوما نعمة حتى يعملوا بمعاصيه التي يستوجبون بها العقاب فانه حينئذ يعاقبهم ويغير نعمه عليهم.

وفي ذلك دلالة على فساد قول المجبرة: إن الله يعذب الاطفال، لانهم لم يغيروا ما بأنفسهم بمعصية كانت منهم. والتغيير تصيير الشئ على خلاف ماكان مما لو شوهد شوهد على خلاف ماكان.

وقوله " واذا اراد الله بقوم سوءا " يعنى هلاكا " فلا مرد له ومالهم من دونه من وال " معناه لا يقدر أحد على دفعه ولانصرته عليه بل هو تعالى الغالب.

لكل شئ القاهر لمن يريد قهره، والوالي فاعل من ولي يلي فهو وال وولي مثل عالم وعليم، والله ولي المؤمن اي ناصره، والمعنى لا يتولاهم أحد الا الله.

(٢٢٩)

قوله تعالى:

(هو الذي يرجمكم البرق خوفا وطمعا ينشئ السحاب الثقال (١٣) ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال) (١٤) آيتان بلاخلاف.

اخبر الله تعالى انه هو الذي يرى الخلق البرق اي يجعلهم على صفة الرؤية بايجاد المرئي لهم وجعله ياهم على هذه الصفة التي يرون معها المرتبات من كونهم احياء ورفع الموانع والافات منهم يقال: أراه يريه إراءة إذا جعله رأيا مثل أقامه يقيمه إقامة، وهو مشتق من الرؤية. والبرق ماينقذح من السحاب من اللعان كعمود النار وجمعه بروق وفيه معنى السرعة، يقال: امض في حاجتك كالبرق، والخوف انزعاج النفس بتوهم وقوع الضرر، خاف من كذا يخاف خوفا فهو خائف. والشئ مخوف. والطمع تقدير النفس لوقوع مايتوهم من المحبوب. ومثله الرجاء والامل.

وقيل في معنى قوله " خوفا وطمعا " قولان:

احدهما - قال الحسن: خوفا من الصواعق التي تكون مع البرق وطمعا في الغيث الذي يزيل الجذب والقحط.

وقال قتادة: خوفا للمسافرين من اذاه وطمعا للمقيم في الرزق به، وهما منصوبان على أنه مفعول له.

وقوله " وينشئ السحاب الثقال " والانشاء فعل الشئ من غير سبب مولد، ولذلك قيل النشأة الاولى، والنشأة الثانية. ومثله الاختراع والابتداع.

والسحاب هو الغيم، وسمي به، لانه ينسحب في السماء. واذا قيل سحابة جمعت

(٢٣٠)

على سحائب كقولك غمامة وغمائم والسحاب جمع سحابة، والثقال جمع ثقيل مثل شريف وشراف وكريم وكرام. والنقل الاعتماد إلى جهة السفلى، والمعنى إن السحاب ثقال بالماء، وهو قول مجاهد.

وقوله " ويسبح الرعد بحمده " فالتسبيح تنزيه الله عزوجل عمالاجوز عليه، والتنزيه له من كل صفة نقص تضاف اليه، واصله البراءة من الشئ قال الشاعر:

اقول لما جاءني فخره * سبحان من علقمة الفاخر (١)

اي براءة منه. و (الرعد) اصطكاك اجرام السحاب بقدرة الله تعالى وفيه أعظم العبرة واوضح الدلالة، لانه مع ثقله وهوله، وغلظ جرمه حتى يسمع مثل الرعد في عظمه معلق بقدرته تعالى لايسقط إلى الارض منه شئ ثم ينقشع كأنه لم يكن، ولاشي منه، وقدذكرنا اختلاف المفسرين في الرعد في سورة البقرة (٢). والحمد الوصف بالجميل من الاحسان على وجه التعظيم.

وقيل في معنى قوله " ويسبح الرعد بحمده " ثلاثة اقوال:

احدها - يسبح بمافيه من الدلالة على تعظيم الله ووجوب حمده، فكأنه هو المسبح لله عزوجل.

الثاني - انه يسبح بما فيه من الآية التي تدعو إلى تسبيح الله تعالى.

الثالث ان الرعد ملك يزجر السحاب بالصوت الذي يسمع، وهو تسييح الله بما يذكره من تعظيم الله.

وقوله " والملائكة من خيفته، تقديره ويسبحه الملائكة من خيفته. والفرق بين الخيفة والخوف، ان الخيفة صفة للحال مثل قولك: هذه ركبة اي حال من

(١) مر هذا البيت في ١: ١٣٤، ٣: ٨١، ٥: ٢٤١، ٣٩٥ (٢) في ١: ٩٢.

(٢٣١)

الركوب الحسن، وكذلك هذه خفية شديدة. والخوف مصدره مطلق غير مضمن بالحال. وقوله " ويرسل الصواعق " وهي جمع صاعقة وهي نار لطيفة تسقط من السماء بحال هائلة من شدة الرعد وعظم الامر يقال: إنها قد تسقط على النخلة وكثير من الاشجار تحرقها، وعلى الحيوان فتقتله.

وقوله " فيصيب بها " يعني بالصاعقة من يشاء من عباده. وقوله " وهم يجادلون في الله " يعني هؤلاء الجهال مع مشاهدتهم لهذه الآيات يخاصمون اهل التوحيد، ويحاولون فتلهم عن مذهبهم بجدهم. والجدال قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج.

وقوله " وهوشديد المحال " فالشدة قوة العقدة وفي بدن فلان شدة اي قوة كقوة العقدة، وشدة العقاب قوته يغلظ على النفس، كقوة العقدة، والمحال الاخذ بالعقاب، يقال ما حلت فلانا اما حله مما حلة ومحالا، ومحلت به أمحل محلا إذا فتنته إلى هلكه. والميم أصلية في المحل يقال محلني يافلان اي قوني. وقال الجبائي: شديد الكيد للكفار، وسني المحل سني الهلاك بالقحط. واصله القتل إلى الهلاك قال الاعشي:

فرع نبع يهتز في غصن المج * - د غزير الندى شديد المحال (١)

وقيل فيمن نزلت هذه الآية قولان:

احدهما - قال أنس بن مالك وعبدالرحمن صحار العبدي، ومجاهد: انها نزلت في رجل من الطغاة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يجادله، فقال يامحمد مم ربك أمن لؤلؤ ام ياقوت أم من ذهب ام من فضة؟ فأرسل الله عليه صاعقة، فذهبت بقحفه.

(١) ديوانه (داربيروت) ١٦٦ وتفسير الطبري ١٣: ٧٥ المحال: العقوبة

(٢٣٢)

وقال ابن جريج: نزلت في أربد، لما أراد هو وعامر بن الطفيل قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجفت يده على قائم سيفه، فرجع خائباً، فارسل الله (عزوجل) عليه في طريقه صاعقة فأحرقته وابتلى عامراً بغدة كغدة البعير قتلتته حتى قال عند موته: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية. وفي ذلك يقول لبيد ابن ربيعة في أربد، وكان اخاه: أخشى على أربد الحتوف ولا * أرهب نوء السماك والاسد ففجعني البرق والصواعق باك * - فارس يوم الكريهة النجد (١) قوله تعالى:

(له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) (١٥) آية بلاخلاف. أخبر الله تعالى بأن له (عزوجل) دعوة الحق. وقيل في معناه ثلاثة أقوال: أحدها - قال ابن عباس وقتادة وابن زيد إنها شهادة ان لا إله على اخلاص التوحيد. الثاني - قال الحسن: الله هو الحق، فمن دعاه دعا الحق. وقال قوم: كل دعوة هي حق جاز ان تضاف إلى الله، قال ابو علي دعوة الحق هي الدعوة التي يدعى الله بها على اخلاص التوحيد، والدعوة طلب فعل الشئ، فالانسان يدعو ربه ان يدخله في رحمة وهو أهل المغفرة والرحمة، وكل ما لا يبسه الانسان، فقد دخل فيه. والمعنى لله من خلقه الدعوة الحق. وقوله " والذين يدعون من دونه " قيل في معناه قولان:

(١) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣: ٧١، ٧٤ ومجمع البيان ٣: ٢٨٣

(٢٣٣)

أحدهما - قال الحسن: والذين يدعون من الاوثان لحاجاتهم. الثاني - الذين يدعون أرباباً. وقيل ان المعنى الذين يدعون غيره مقصرين عن دعائهم له، كما قال الشاعر:

أتوعدني وراء بني رياح * كذبت لتقصرن يدك دوني (١)
اي عني، " لا يستجيبون لهم بشئ " فالاستجابة متابعة الداعي فيمادعا اليه بموافقة إرادته والاستجابة، والاجابة واحد إلا ان صيغة الاستجابة تفيد طلب الموافقة، قال الشاعر:
وداع دعا يامن يجيب إلى الندى * فلم يستجبه عند ذلك مجيب (٢)
وقوله " إلا كباسط كفيه إلى الماء " معناه قال مجاهد: كباسط كفه إلى الماء مشيراً اليه من غير تناول الاناء ليبلغ فاه ببسط كفه ودعائه له. وقال الحسن معناه كباسط كفيه إلى الماء،

فمات قبل ان يصل اليه، والعرب تضربه مثلا لمن سعى فيما لا يدركه كالقابض على الماء
قال الشاعر:

فأني وإياكم وشوقا اليكم * كقابض ماء لم تسقه انامله (٣)
وقال الآخر:

فاصبحت مماكن بيني وبينها * من الودم مثل القابض الماء باليد (٤)
" وما هو ببالغه " إخبار منه تعالى ان من كان كذلك لا يبلغ الماء فاه. ثم أخبر تعالى فقال "
ومادعاء الكافرين إلا في ضلال " أي ليس دعائهم الاوثان من دون الله إلا الاضلال عن
الحق وعدولا عن طريقه وأنه جاز مجرى ما ذكره من باسط كفيه

-
- (١) تفسير الطبري ٢: ٩٠، ١٣: ٧٦ (٢) قدمر هذا البيت في ١: ٣٦، ٨٦، ٢: ١٣١، ٣: ٨٨، ٤: ١٨٢، ٥:
١١٩ وهو في اللسان والتاج (جوب) وامالي القالي ٢: ١١٥ ومجاز القرآن ١: ٦٧، ٣٢٦.
(٣) فائنة ضابي بن الحارث البرجمي. تفسير الطبري ١٣: ٧٦ ومجمع البيان ٣: ٢٨٤.
(٤) مجاز القرآن ١: ٣٢٧ والطبري ١٣: ٧٦ والقرطبي ٩: ٣٠١ والشوكاني ٣: ٩٦ ومجمع البيان ٣: ٢٨٤.

(٢٣٤)

إلى الماء، وهو بعيد منه من غير أن يتناوله ويدعوه إلى فمه، فان ذلك لا يصل اليه أبدا.
قوله تعالى:

(و الله يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والاصال) (١٦) آية
بلاخلاف.

أخبر الله تعالى ان جميع من في السموات والارض يسجدون له إما طوعا منهم او كرها.
وقيل في معنى ذلك ثلاثة أقوال:

احدها - قال الحسن وقتادة وابن زيد: ان المؤمن يسجد طوعا، والكافر يسجد كرها بالسيف،
ويكون المعنى على هذا إن السجود واجب لله، فالمؤمن يفعله طوعا والكافر يؤخذ بالسجود
كرها اي هذا الحكم في وجوب السجود لله الثاني - ان المؤمن يسجد لله طوعا، والكافر في
حكم الساجد كرها بما فيه من الحاجة اليه، والذلة التي تدعو إلى الخضوع لله تعالى.

الثالث - قال ابو علي: سجود الكره بالتذليل للتصريف من عافية إلى مرض، وغنى إلى فقر
وحياة إلى موت كتذليل الاكم للحوافر في قول الشاعر:

ترى الاكم فيها سجدا للحوافر (١)

وقال الزجاج: يجوز ان يكون المعنى إن فيمن سجد لله من يسهل ذلك عليه وفيهم من يشق
عليه فيكرهه، كما قال " حملته أمه كرها وضعته كرها " (٢).

وقوله " وظلالهم بالغدو والاصال " أي وتسجد ظلّالهم. وقيل في معناه قولان:
أحدهما - ان سجود الظلال بمافيه من تغير الذلة التي تدعو إلي صانع غير

(١) قد مر هذا البيت في ١: ٢٦٣، ٤: ٢٣٣، ٦ / ١٩٧، ٢٣٥ (٢) سورة الاحقاق ٤٦ آية ١٥

(٢٣٥)

مصنوع له العزة والقدرة.

والثاني - قيل سجود الظل لانه يقصر بارتفاع الشمس ويطول بانحطاطها، وذلك من آيات الله الدالة عليه، والسجود هو وضع الوجه على الارض على وجه الخضوع مذلة لمن وضع له، وأصله التذليل من قول الشاعر:

بجمع تظل البلق في حجراته * ترى الاكم فيها سجدا للحوافر (١)

واصل السجود هو الميل والتطأطؤ يقال: سجد البعير وأسجده صاحبه إذا طأطأه ليركبه شبيه السجود في الصلاة بذلك وعلى هذا يحمل سجود الظلال وسجود الكفار، ويراد بذلك حركاتهم وتصاريفهم، فان ذلك أجمع يدل على أن الله الخالق لهم والمدبر لمعايشهم، والطوع الانقياد للامر الذي يدعا اليه من قبل النفس وهو نقيض الكره، والكره الجر إلى الامر على إباء النفس، وأصله الكراهة ضد الارادة، إلا انه جعل نقيض الطوع. والظلال جمع ظل وهو ستر الشخص ما بازائه. والظل الظليل هو ستر الشمس اللازم. واما الفئ فهو الذي يرجع بعد ذهاب ضوئه، ومنه الظلة، لانها ساترة. والظل والظلال مثل زق وزقاق. الأصال جمع أصل، والاصل جمع أصيل، وهو العشي، فكأنه قيل أصل الليل الذي ينشأ منه، لانه مأخوذ من الاصيل، وهو ما بين العصر إلى مغرب الشمس، قال ابو ذؤيب:

لعمري لانت البيت اكرم أهله * واقعد في افنائته بالاصائل (٢)

قوله تعالى:

(قل من رب السموات والارض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولاضرا قل هل يستوي

(١) قد مر في ١: ٢٦٣، ٤: ٢٣٣.

(٢) تفسير الطبري ١٣ / ٧٧ وروايته (وابعد) بدل (واقعد)

(٢٣٦)

الاعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور (١٧) أم جعلوا الله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار (١٨) آية في الكوفي وآيتان في البصري والمدنيين تمام الاولى " والنور " .

قرأ أهل الكوفة إلا " حفصا أم هل يستوي " بالياء. الباقر بالتاء، من قرأ بالتاء فلانه مسند إلى مؤنث لم يفصل بينه وبين فاعله بشئ كماقال " قالت الاعراب " (١)، و " قالت اليهود " (٢) و " اذ قالت أمة " (٣) وقد جاء في مثل ذلك التذكير، كقوله " وقال نسوة " (٤) ومن قرأ بالياء، فلانه تأنيث غير حقيقي والفعل مقدم.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، يأمره بأن يقول لهؤلاء الكفار " من رب السماوات والارض " أي من مدبر هما ومصرفهما على مافيهما من العجائب، فانهم لايمكنهم أن يدعوا أن مدبر السماوات والارض الاصنام التي يعبدونها، فاذا لم يمكنهم ذلك، فقل لهم رب السماوات والارض ومابينهما من انواع الحيوان والنبات والجماد " الله " تعالى، فاذا أقرأوا بذلك فقل لهم على وجه التبكيت لهم والتوبيخ لفعالهم:

أفاتخذتم من دون الله اولياء توجهون عبادتكم اليهم؟ ! فالصورة صورة الاستفهام والمراد به التقرير والتوبيخ. ثم بين ان هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من الاصنام والوثان لايملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا، ومن لايملك لنفسه ذلك فانه بأن لايملك لغيره، اولى وأحرى، ومن كان كذلك كيف يستحق العبادة ثم قال لهم " هل يستوي الاعمى والبصير " ام هل يتساوى الاعمى عن طريق الحق والعدل عنه إلى الضلال. والبصير الذي اهتدى إلى الحق، فإنهما لايتساويان ابداء، كمالا

(١) سورة الحجرات آية ١٤ (٢) سورة البقرة آية ١١٣ والتوبة آية ٣ والمائدة ١٩، ٦٥ (٣) سورة الاعراف آية ١٦٤ (٤) سورة يوسف ١٢ آية ٣٠،

(٢٣٧)

يتساوى الظلمات والنور. ثم قال هل جعلوا يعني هؤلاء الكفار الله شركاء في العبادة خلقوا أفعالا مثل خلق الله، من خلق الاجسام والالوان والطعوم والاراجيح، والموت والحياة، والشهوة والنفار، وغير ذلك من الافعال التي مختص تعالى بالقدرة عليها فاشتبه ذلك عليهم، فظنوا انها تستحق العبادة، لان افعالها مثل افعال الله، فاذا لم يكن ذلك شبيها بل كان معلوما لهم ان جميع ذلك ليست من جهة الاصنام، فقل لهم الله خالق كل شئ اي هوخالق جميع ذلك يعني ماتقدم من الافعال التي يستحق بها العبادة.

وقوله " وهو الواحد القهار " اي الخالق لذلك واحد لاثاني له وهو الذي يقهر كل قادر سواه لايقدر على امتناعه منه.

ومن تعلق من المجبرة بقوله " قل الله خالق كل شئ " على ان أفعال العباد مخلوقة لله، فقد أبعد، لان المراد ما قدمناه من أنه تعالى خالق كل شئ يستحق بخلقه العبادة دون مالا يستحق به ذلك. ولوكان المراد ماقلوه لكان فيه حجة للخلق على الله تعالى وبطل التوبيخ الذي تضمنته الآية إلى من وجه عبادته إلى الاصنام، لانه إذا كان الخالق لعبادتهم الاصنام هو الله على قول المجبرة فلالتوبيخ يتوجه على الكفار، ولالوم يلحقهم بل لهم ان يقولوا: إنك خلقت فينا ذلك فما ذنبنا فيه ولم توبخنا على فعل فعلته؟ فتبطل حينئذ فائدة الآية. على أنه تعالى إنما نفى ان يكون أحد يخلق مثل خلقه، ونحن لانقول إن احدا يخلق مثل خلق الله، لان خلق الله اختراع مبتدع، وافعال غيره مفعولة في محل القدرة عليه مباشرة او متولدا في غيره بسبب حال في محل القدرة ولايقدر أحدنا على اختراع الافعال في غيره على وجه من الوجوه، ولان احدنا يفعل ما يجربه نفعا او يدفع به ضررا، والله تعالى لايفعل لذلك فبان الفرق بين خلقنا وخلقته. ولان احدنا يفعل بقدرة محدثة. يفعلها الله فيه والله تعالى يفعل، لانه قادر لنفسه. وايضا فان ههنا اجناسا لانقدر عليها، وهو تعالى قادر على جميع الاجناس، ونحن لانقدر ان نفعل بقدرة واحدة في وقت واحد في محل واحد

(٢٣٨)

من جنس واحد اكثر من جزء واحد، والله تعالى يقدر ان يفعل ما لانهاية له فبان الفرق بيننا وبينه من هذه الوجوه.

قوله تعالى:

(أنزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال) (١٩) آية واحدة بلاخلاف.
قرأ اهل الكوفة إلا ابابكر " ومما يوقدون " بالياء الباقون بالتاء قال أبو علي: من قرأ بالتاء فلما قبله من الخطاب، وهو قوله " قل أفاتخذتم " ويجوز ان يكون خطابا عاما، يراد به الكافة، فكان المعنى " مما توقدون " عليه ايها الموقدون زبد مثل زبد الماء الذي عليه السيل " فاما الزبد فيذهب جفاء " لا ينتفع به كما ينتفع بما يخلص بعد الزبد من الماء والذهب والفضة والصفير. ومن قرأ بالياء، فلان الغيبة قد تقدم في قوله " ام جعلوا الله شركاء " ويجوز ان يراد به جميع الناس ويقوي ذلك قوله " واما ما ينفع الناس " فكما ان الناس يعم المؤمن والكافر كذلك الضمير في " يوقدون " وقال " ومما يوقدون عليه في النار " كقوله " فلو قد لي ياها مان على الطين " (١) فهذا إيقاد على ماليس في النار، وان كان يلحقه وهجها ولهبها وأما قوله " بورك من في النار " (٢) فالمعنى على من في قرب النار، وليس يراد به متوغلها " ومن حولها " (٣) ومن لم يقرب منها قرب الآخرين

(١) سورة القصص ٢٨ آية ٣٨ (٢، ٣) سورة النمل ٢٧ آية ٨

(٢٣٩)

ألا ترى ان قوله " وممن حولكم من الاعراب منافقون " (١) لم يقرب المنافقون الذين حولهم فيه قرب المخالطين لهم حيث يحضرونه ويشهدونه في مشاهدتهم.
قال الحسن يقول الذي " أنزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها " إلى قوله " ابتغاء حلية " الذهب والفضة والمتاع والصفير والحديد " كذلك يضرب الله الحق والباطل " كما أوقد على الذهب والفضة والصفير والحديد، فيخلص خالصه، " كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض " قال فكذلك الحق بقي لاهله فانتعفوا به.

وقرأ الحسن " بقدرها " بتخفيف الدال وهما لغتان يقال أعطى قدر شبر وفي المصدر بالتخفيف لا غير تقول: قدرت اقدر قدرا، وفي المثل التخفيف، والنتقيل تقول: هم يختصمون في القدر بالسكون والحركة قال الشاعر:

الا يالقوم للنوائب والقدر * وللامر يأتي المرء من حيث لا يدري (٢)

أخبر الله تعالى انه هو الذي ينزل من السماء ماء يعني الامطار والغيوث، فتسيل هذه المياه أودية بقدرها من القلة والكثرة. والسييل جري الماء من الوادي على وجه الكثرة. يقال جاء السييل يغرق الدنيا، وسال بهم السييل إذا جحفهم بكثرتهم. والوادي سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر، ومنه اشتقاق الدية، لانه جمع المال العظيم الذي يؤدي عن القتيل، والقدر إقران الشئ بغيره من غير زيادة ولانقصان. والوزن يزيد وينقص، فاذا كان مساويا، فهو القدر.

وقوله " فاحتمل السييل زبدا رابيا " فالاحتمال رفع الشئ على الظهر بقوة الحامل له، ويقال علا صوته على فلان فاحتمله، ولم يغضبه، فقوله هذا يحتمل وجهين: معناه له قوة يحمل بها الوجهين، والزبد وضر الغليان، وهو خبث الغليان ومنه زبد القدر، وزبد السييل، وزبد البعير. والجفاء ممدود مثل الغناء وأصله

(١) سورة التوبة ٩ آية ١٠١ (٢) مجمع البيان ٣: ٢٨٦

(٢٤٠)

الهمزة يقال جفا الوادي جفاء. قال الفراء: كل شئ ينضم بعضه إلى بعض فإنه يجيء على (فعال) مثل الحطام والقماش والغشاء والجفاء، فاذا أردت المصدر، فهو مقصور.

وقوله " رابيا " معناه زائدا، يقال ربا يربو ربا فهو راب. ومنه الربا المحرم.

وقوله " ومما توقدون عليه " اي ومن ذلك توقدون عليه زيد مثله، والايقاد القاء الحطب في النار أو قد ايقادا واستوقدت النار وانتقدت وتوقدت.

وقوله " ابتغاء حلية " معناه طلب حلية من الذهب والفضة أو متاع يعني الصفر والحديد، والمتاع ماتمتعت به قال الشاعر:

تمتع يامشعث إن شيئا * سبقت به الممات هو المتاع (١)

" زيد مثله " يعني من الذي يوقد عليه زيد مثل زبد السييل، ومثل الشئ ماسد مسده، وقام مقامه، فيما يرجع إلى ذاته.

وقوله " كذلك يضرب الله الحق والباطل " اي يضرب المثل للحق والباطل، وضرب المثل تسييره في البلاحتى يتمثل به الناس وقوله " قاما الزبد فيذهب جفاء " اخبار منه تعالى ان

الزبد الذي يعلو على الماء والنار يذهب باطلا وهالكا، قال أبو عبيدة قال أبو عمرو، وتقول العرب أجمأت القدر إذا غلت فانصب زبدها، وسكنت فلا يبقى منه شيء والجفاء ممدود مثل الغناء، واصله الهمز.

وقوله " واما ماينفع الناس " من الماء الصافي، والذهب، والفضة، والحديد، والصفير " فيمكث في الارض " اي يلبث ويثبت. والمكث الكون في المكان على مرور الزمان مكث يمكث مكثا وتمكث تمكثا والمكث طول المقام.

وقوله " كذلك يضرب الله الامثال " اي يضرب الله مثل الحق والباطل بالماء الذي ينزل من السماء، وجواهر الارض، فإن لهما جميعا زبدا، هذا عند سيله

(١) قائلة المشعث العامري. مجاز القرآن ١: ٣٢٨ واللسان والتاج (متع) ومعجم المرزباتي ٤٧٥ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣: ٨١.

(٢٤١)

وجريه، وهذا عند اذابته بالنار وهو وسخه وخبثه، فالحق ثابت كالماء الذي يبقي في الارض ينبت به الزرع والشجر وكالجواهر التي في ايدي الناس تصبر على النار، فلا تبطل فينتفعون بها. والباطل كزبد هذين يذهب، لامنفعة فيه بعد ان يرى له حركة واضطراب. وفي ذلك تنبيه لمن تقدم ذكره من المشركين الذين سألوا الآيات على سبيل التكذيب والعناد. قوله تعالى:

(للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافي الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد) (٢٠) آية بلا خلاف. أخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين يجيبون دعاء الله إلى طريق التوحيد والعمل بشريعته وتصديق نبيه ويطلبون مرضاته في فعل مادعاهم اليه، لهم الحسنى، وهي المنفعة العظمى في الحسن، وقال المفسرون: أراد بالحسنى الجنة والخلود في نعيمها. وان الذين لم يجيبوا دعاءه ولم يقرؤا بنبيه ولم يعملوا بما دعاهم اليه " لو ان لهم مافي الارض جميعا " ملكا لهم ويضيفوا اليه مثله في الكثرة لافتدوا بجميع ذلك أنفسهم من عذاب النار وطلبوا به الخلاص منه، لو قبل ذلك منهم.

والافتداء جعل أحد الشقيين بدلا من الآخر على وجه الانتقاء به، فهؤلاء لا يقيهم من عذاب الله شيء - نعوذ بالله منه - ثم أخبر تعالى ان لهؤلاء سوء الحساب. وقيل في معناه قولان:

قال ابراهيم النخعي: ان سوء الحساب هو مؤاخدة العبد بذنبه لا يغفر له شيء منه.

(٢٤٢)

وقال الجبائي: معناه واخذه به على وجه التوبيخ والتفريع. والحساب إحصاء ما على العبد وله، يقال: حاسبته حسابا ومحاسبة، وحسبه يحسبه حسبا وحسابا.
وقوله " ومأواهم جهنم وبئس المهاد " فالمهاد الفراش الذي يوطأ لصاحبه، وانما قيل لجهنم: مهاد أي هي موضع المهاد لهم.
قوله تعالى:

(أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الالباب) (٢١) آية
بلاخلاف.

أخبر الله تعالى ان من يؤمن بالله ويعلم ان ما أنزل إليك يا محمد من ربك الحق، لا يكون مثل من يشهد ذلك وعمي عنه، فاخرج الكلام مخرج الاستفهام والمراد به الانكار، أي لا يكون هذان مستويين، وبين ان الفرق بينهما بمنزلة الفرق بين الاعمى والبصير.
وقوله " انما يتذكر أولوا الالباب " معناه إنما يتذكر في ذلك ويفكر فيه ويستدل به ذور العقول والمعرفة. والالباب هي العقول، واحدها لب ولب الشيء أجل مافيه واخصه واجوده، قلب الانسان عقله لانه أجل مافيه، ولب النخلة قلبها، ولب الطلعة ثمرتها التي فيها، وانما شبه العلم بالبصر، والجهل بالعمى، لان العلم يهتدى به إلى طريق الرشد من الغي كما يهتدى بالبصر إلى طريق النجاة من طريق الهلاك، وعكس ذلك حال الجهل والغي. قال الرماني:
وجه الاحتجاج بالآية انه إذا كانت حال الجاهل كحال الاعمى، وحال العالم كحال البصير وأمكن هذا الاعمى ان يستفيد بصرا، فما الذي يبعده عن طلب العلم الذي يخرجه عن حال الاعمى بالجهل؟! وهذا إلزام طلب العلم، لانه خروج عن حال الاعمى بالجهل إلى البصير بالعلم.

(٢٤٣)

وقوله " انما يتذكر أولوا الالباب " معناه إنما ينتفع بالذكر من كان له لب، كقولك: إنما يترك السرف والبغي من له عقل وعلم بالعواقب، وان كان كثير ممن له عقل لا يترك ذلك ولا يفكر في العواقب.
قوله تعالى:

(الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) (٢٢) آية بلاخلاف.

موضع " الذين " رفع لانه صفة لاولى الالباب، فكأنه قال إنما يتذكر أولوا الالباب الذين صفتهم أنهم يوفون بعهد الله ولاينقضون موثيقه. والايفاء جعل الشئ على المقدار من غير زيادة ولانقصان، والعهد العقد المتقدم على الامر بما يفعل، والنهي عما يجتنب يقال: عهد الله عهدا، وعاهده معاهدة. وتعهدته تعهدا وتعاهده تعاهدا، والنقض حل العقد بفعل ماينافيه، والنقيض معنى تنافي صحته صحة غيره. والنقض في المعاني إيجاد ما لايمكن ان يصح مع غيره، كاعتقاد ان زيدا في الدار وليس هو فيها على وجه واحد. والميثاق العهد الواقع على إحكام. توثق توثقا واستوثق استيثاقا، ووثقه موثقة، ووثق به وثوقا وارثقه ايثاقا، ووثقه توثيقا.

والعهد الذي جعله في عقول العباد ماجعل فيهما من اقتضاء صحة أمور الدين وفساد أمور آخر، كإقتضاء الفعل الفاعل، وأنه لا يصح الفعل الا ان يكون فاعله قادرا، وان المحكم لا يصح الا من عالم، وان الصانع لا بد ان يرجع إلى صانع غير مصنوع، والا أدى إلى مالانهاية له، وان للعالم مدبر لا يشبهه، ولا يحتاج إلى مدبر الحاجته ومأثبه ذلك. وقد يكون ايضا على العهد الذي عاهد عليه النبي صلى الله عليه وسلم. وفي الآية دلالة على وجوب الوفاء بالعهد التي تتعقد بين الخلق سواء كان بين المسلمين او الكفار، من الهدنة وغيرها.

(٢٤٤)

قوله تعالى:

(والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) (٢٣) آية بلاخلاف.

هذه الآية عطف على الاولى، وهي من صفة الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون ميثاقه، وانهم مع ذلك " يصلون ما أمر الله به أن يوصل " والوصل ضد الفصل يقال وصله يصله وصلا، وأوصله إيصالا، واتصل اتصالا، وتواصلوا تواصلوا، وواصله مواصمة، ووصله توصيلا، والوصل ضم الثاني إلى الاول من غير فاصلة.

وقيل: المعنى يصلون الرحم. وقال الحسن: المعنى يصلون محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله " ويخشون ربهم " اي يخافون عقابه فيتركون معاصيه " ويخافون سوء الحساب " وقد فسرناه. والخوف والخشية والفرع نظائر، وهو انزعاج النفس مما لاتأمن معه من الضرر، وضد الامن الخوف. والسوء ورود مايشق على النفس، ساء يسوءه سوءا، وأساء اليه إساءة. والاساءة ضد الاحسان.

وقيل " سوء الحساب " مناقشة الحساب. والحساب احصاء ما على العامل وله، وهو - ههنا - إحصاء ما على المجازى وله.

قوله تعالى:

(والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلوة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويَدْرُونَ بالحسنة بالسيئة أولئك لهم عقبى الدار) (٢٤) آية بلاخلاف.

هذه الآية أيضا من تمام وصف الذين يوفون بعهد الله ولايتقضون ميثاقه ويصلون ما امر الله بوصله، ويصبرون على ترك معاصي الله، والقيام بما أوجبه عليهم، والصبر على بلاء الله وشدائده من الامراض والفقر وغير ذلك. والصبر

(٢٤٥)

حبس النفس عما تنازع اليه مما لايجوز من الفعل وهو تجرع مرارة تمنع النفس مما تحب من الامر.

ومعنى قوله " ابتغاء وجه ربهم " اي يفعلون ذلك طلب عظمة ربهم.

والعرب تقول ذلك في تعظيم الشئ يقولون: هذا وجه الرأي، وهذا نفس الرأي المعظم، فكذلك سبيل وجه ربهم اي نفسه المعظم بالاشئ اعظم منه، ولا شئ يساويه في العظم. والمعنى ابتغاء ثواب ربهم.

وقوله " وأقاموا الصلاة " يعني اقاموها بحدودها. وقيل: معناه داوموا على فعلها و " انفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية " اي ظاهرا وباطنا، مايجب عليهم من الزكاة، وما ندبوا اليه من الصدقات. والسر إخفاء المعنى في النفس، ومنه السرور، لانه لذة تحصل في النفس، ومنه السرير، لانه مجلس سرور.

وقوله " ويَدْرُونَ بالحسنة السيئة " معناه يدفعون بفعل الطاعة المعاصي، يقال: درأته ادروءه درءا إذا دفعة. وقال ابن زيد: الصبر على وجهين:

احدهما - الصبر لله على ما احب والآخر - الصبر على ماكره، كما قال " سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " وقيل يدرون سفة الجهال بما فيهم من العلوم.

وقيل: انهم يدفعون ظلم الغير عن نفوسهم بالرفق والمواعظ الحسنة. ثم قال تعالى مخبراً ان هؤلاء الذين وصفهم بهذه الصفات " لهم عقبى الدار " اي عاقبة الدار، وهي الجنة التي وعد الله الصابرين بها.

قوله تعالى: (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملئكة يدخلون عليهم من كل باب (٢٥) سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (٢٦) آيتان في الكوفي والبصري. وآية في الباقي تمام الاولى في الكوفي والبصري. " من كل باب "

(٢٤٦)

يقول الله تعالى إن من وصفه بالصفات المذكورة " لهم عقبي الدار " وهي " جنات عدن " قال الزجاج: (جنات) بدل على قوله " عقبي الدار " والجنات البساتين التي يحفها الشجر واحدها جنة وأصله الستر من قوله " جن عليه الليل " (١)

وجنه اذا ستره. و (العدن) الاقامة الطويلة، عدن بالمكان إذا اقام به يعدن عدنا، ومنه المعادن التي يخرج منها الذهب والفضة وغيرهما.

وقوله " ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم " اي ويدخل هذه الجنات الذين عملوا الصالحات من آباء المؤمنين، ومن أزواجهم وذرياتهم. والصلاح استقامة الحال إلى ما يدعو إليه العقل او الشرع. والمصلح من يفعل الصلاح، والصالح المستقيم الحال في نفسه.

وقوله " والملائكة يدخلون عليهم من كل باب " اي يدخلون من كل باب بالتحية والكرامة، وفي ذلك تعظيم الذكر للملائكة. وفي الآية دلالة على ان ثواب المطيع لله سروره بما يراه في غيره من أحبته، لانهم يسرون بدخول الجنة مع من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وهم أولادهم، وذلك يقتضي سرورهم بهذا الخبر. وقوله " سلام عليكم بما صبرتم " اي يقول هؤلاء الملائكة الداخلون عليهم " سلام عليكم. والسلام التحية بالكرامة على انتفاء كل امر يشوبه من مضرة.

والقول محذوف لدلالة الكلام عليه. والعقبي الانتهاء الذي يؤدي إليه الابتداء من خير او شر، فعقبي المؤمن الجنة فهي نعم الدار، وعقبي الكافر النار، وهي بئس الدار. و (الباء) في قوله " بما صبرتم " يتعلق بمعنى " سلام عليكم " لانه دل على السلامة لكم بما صبرتم، ويحتمل ان يتعلق بمحذوف، وتقديره هذه الكرامة لكم بما صبرتم.

وقيل في معنى " بما صبرتم " قولان:

احدهما - ان تكون (ما) بمعنى المصدر، فكأنه قال: بصبركم.

والثاني - ان تكون بمعنى (الذي) كأنه قال بالذي صبرتم على فعل طاعاته وتجنب معاصيه.

(١) سورة الانعام ٦ آية ٧٦

(٢٤٧)

قوله تعالى:

(والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) (٢٧) آية بلاخلاف.

لما ذكر الله تعالى الذين يوفون بعهده، ولاينقضون ميثاقه، ووصفهم بالصفات التي يستحقون بها الجنة، وهي عقبي الدار، اخبر بعد ذلك عن حال من ينقض عهده من بعد اعطائه

المواثيق، ويقطع ما امر الله به ان يوصل، وهو ما بيناه من صلة الرحم اوصله النبي صلى الله عليه وسلم ويفسد مع ذلك في الارض، ومعناه ان يعمل فيها بمعاصي الله والظلم لعباده، وخراب بلاده، فهؤلاء لهم اللعنة، وهي الابعاد من رحمة الله، والتباعد من جنته، " ولهم سوء الدار " يعني عذاب النار، والخلود فيها. وقد بينا معنى النقض، وأنه التفريق بين شيئين متآلفين، ومثله الهدم، ونقض العهد هو العمل بخلاف موجه، والعهد عقد يتقدم به في الامر وعهد الله عقده، وهو لزوم العمل بالحق في جميع ما اوجبه عليه، والميثاق احكام العقد بأبلغ مايكون مثله، وميثاق العهد توثيقه بأوكد مايكون من الامر. والقطع نقيض الوصل، وقطع ما امر الله به ان يوصل، في كل عمل يجب تتميته، من صلة رحم او غيره من الفروض اللازمة، والافساد نقيض الاصلاح.

قوله تعالى:

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)
(٢٨) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى انه " يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر " ومعناه يوسعه على من يشاء

(٢٤٨)

من عباده، بحسب مايعلم من مصلحته، ويضيقه على آخرين اذا علم ان مصلحتهم.
في ذلك.

وقوله " وفرحوا بالحياة الدنيا " معناه وسروا - هؤلاء الذين بسط لهم في الرزق - بالرزق في الحياه الدنيا فنسوا فناءه وبقاء امر الآخرة. ويحتمل ان يكون اراد به أنهم فرحوا فرح البطر، كقوله " ان الله لا يحب الفرحين " (١)

والفرح هو السرور، وهولذة في القلب بنيل المشتهى، ومنه قوله " فرحين بما آتاهم الله من فضله " (٢).

ثم قال تعالى " وماالحياة الدنيا في الآخرة الامتاع " ومعناه ليست هذه الحياة الدنيا بالاضافة إلى الحياة في الآخرة " إلا متاع " اي إلا قليل ذاهب في - قول مجاهد - وانما كان كذلك، لان هذه فانية وتلك دائمة باقية. والمتاع ما يقع من الانتفاع به في العاجلة، وأصله التمتع، وهو التلذذ بالامر العاجل، ولذلك وصفت الدنيا بأنها متاع. والقدر قطع الشئ على مساواة غيره من غير زيادة ولانقصان، والمقدار المثال الذي يعمل فيه غيره في مساواته، ومعنى ويقدر - ههنا - يضيق. وقال ابن عباس: ان الله تعالى خلق الخلق فجعل الغنا لبعضهم صلاحا، والفقر لبعضهم صلاحا، فذلك الخيار للفريقين.

قوله تعالى:

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب) (٢٩) آية بلاخلاف.

حكى الله تعالى في هذه الآية عن الكفار الذين وصفهم أنهم يقولون " لولا أنزل " على محمد " آية " يعني علامة ومعجزة. والمعنى هلا انزل عليه آية من ربه

(١) سورة القصص ٢٨ آية ٧٦ (٢) سورة آل عمران ٣ آية ١٧٠

(٢٤٩)

يقترحونها، ويعلمون انها انزلت من ربه، وذلك لمالم يستدلوا، فيعلموا مدلول الآيات التي اتى بها لم يعتدوا بتلك الآيات، فقالوا هذا القول جهلا منهم بها، فأمر الله نبيه ان يقول لهم " ان الله يضل من يشاء " بمعنى انه يحكم على من يشاء بالاضلال اذا ضل عن طريق الحق، ويجوز ان يكون المراد " يضل من يشاء " عن طريق الجنة بسوء أفعالهم وعظم معاصيهم، ولايجوز ان يريد بذلك الاضلال عن الحق، لان ذلك سفه لايفعله الله تعالى.

وقوله " ويهدي اليه من أناب " اي يحكم لمن رجع إلى طاعة الله والعمل بها بالجنة ويهديه اليها. والهداية الدلالة التي تؤدي إلى طريق الرشد بدلا من طريق الغي، والمراد بها - ههنا - الحكم له بسلك طريق الجنة رفعا لقدره، ومدحا لصاحبه. والاضلال العدول بالمار عن طريق النجاة إلى طريق الهلاك، والمراد - ههنا - الحكم له بالعدول عن طريق الجنة وسلك طريق النار، والانابة الرجوع إلى الحق بالتوبة، يقال: ناب ينوب نوبة اذا رجع مرة بعد مرة. قوله تعالى:

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (٣٠) آية بلاخلاف.

موضع " الذين " نصب، لانه من صفة من أناب، وتقديره ويهدي الله الذين أنابوا إلى الله " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله " والايامن - ههنا - هو الاعتراف بتوحيد الله على جميع صفاته، والاقرار بنبوة نبيه، وقبول ماجاء به من عندالله، والعمل بماأوجبه عليهم، وفي اللغة: الايمان هوالتصديق.

وقوله " وتطمئن قلوبهم بذكر الله " أي تسكن قلوبهم وتأنس إلى ذكر الله الذي معه ايمان به، لمافي ذلك من ذكر نعمه التي لاتحصى وآياديه التي لاتجازى، مع عظيم سلطانه وبسط إحسانه. والذكر حضور المعنى للنفس، وقد يسمى العلم ذكرا، والقول الذي فيه المعنى الحاضر للنفس يسمى ذكرا. ووصف الله

(٢٥٠)

تعالى - ههنا - المؤمن بأنه يطمئن قلبه إلى ذكر الله، ووصفه في موضع آخر بأنه إذا ذكر الله وجل قلبه (١)، لان المراد بالاول انه يذكر ثوابه وانعامه، فيسكن اليه، والثاني يذكر عقابه وانتقامه فيخافه ويجل قلبه.

وقوله " ألا بذكر الله تطمئن القلوب " إخبار منه تعالى ان بذكر الله تسكن القلوب وتستأنس وتطمئن إلى ما وعد الله به من الثواب والنعيم، ومن لم يكن مؤمنا عارفا لايسكن قلبه إلى ذلك. قوله تعالى:

الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)
(٣١) آية بلاخلاف.

يحتمل قوله " الذين آمنوا وعملوا الصالحات " ان يكون في موضع نصب بأن يكون من صفة " الذين " في الآية الاولى، ويحتمل ان يكون رفعا بالابتداء، فكأنه أخبر ان الذين يؤمنون بالله ويعترفون بوحدانيته ويصدقون نبيه، ويعملون بما أوجبه عليهم من الطاعات، ويجتنبون ما نهاهم عنه من المعاصي " طوبى لهم " وقيل في معناه عشرة أقوال:

احدها - لهم بطيب العيش.

وثانيها - قال ابن عباس: معناه فرح لهم تقربه أعينهم.

وثالثها - قال قتادة: معناه الحسنى لهم.

ورابعها - قال عكرمة: نعم مالهم.

وخامسها - قال الضحاك: غبطة لهم.

وسادسها - قال ابراهيم: كرامة لهم من الله.

وسابعها - قال مجاهد: الجنة لهم.

(١) في سورة الانفال ٨ آية ٢ " اما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون "

(٢٥١)

وثامنها - قال ابوهريرة: طوبى شجرة في الجنة.

وتاسعها - قال الجبائي: تأنيث الاطيب من صفة الجنة، والمعنى إنها أطيب الاشياء لهم.

وعاشرها - قال الزجاج: المعنى العيش الاطيب لهم.

وهذه الاقوال متقاربة المعنى.

وقوله " وحسن مآب " فالمآب المرجع يقال: آب يؤب أوبا ومآبا إذا رجع، وسمي المثوى في الآخرة مآبا، ومنقلبا، لان العباد يصيرون اليه، كما يصيرون إلى ماكانوا انصرفوا عنه،

والحسن النفع الذي يتقبله العقل، وقديجري على ماتقبله النفس، كما يجري القبح الذي هو نقيضه على ماينافره الطبع، والمعنى إن لهم طوبى ولهم حسن مآب، و " طوبى " في موضع رفع " وحسن مآب " عطف عليه ويجوز ان يكون موضعه النصب، وينصب " حسن مآب " على الاتباع كما يجوز الحمد لله، ولم يقرأ به.
قوله تعالى:

(كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لاإلا إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) (٣٢) آية بلاخلاف.
قيل في التشبيه في قوله " كذلك أرسلناك " وجهان:
احدهما - قال الحسن والجبائي: إن المعنى إنا أرسلناك كما أرسلنا الانبياء قبلك.
وقال قوم: ان المعنى إن النعمة على من أرسلناك اليه، كالنعمة على من تقدم ذكره بالثواب في " حسن مآب " والمعنى إنا أرسلناك يا محمد " في أمة " قد مضت " من قبلها أمم " وغرضي ان تتلوا أي تقرأ عليهم ما " اوحينا إليك " من الامر والنهي والوعد والوعيد.

(٢٥٢)

والارسال تحميل الرسول الرسالة، فرسول الله قد حملة الله رسالة إلى عباده، فيها أمره ونهيه وبيان مايريده ومايكرهه. والامة الجماعة الكثيرة من الحيوان التي ترجع إلى معنى خاص لها دون غيره، فمن ذلك أمة موسى، وأمة عيسى، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك كل جنس من أجناس الحيوان أمة، لاختصاصها بمعنى جنسها، فعلى هذا العرب أمة، والترك أمة، والزنج أمة، و (الخلو) مضي الشئ بنقيضه على مجرد ما كان عليه، كأنه ينفيه دون احواله التي كان عليها، فقد انفرد عنها. و (التلاوة) جعل الثاني يلي الاول بعده بلافصل، والتلاوة والقراءة واحد.

وقوله " وهم يكفرون بالرحمن " إناقال " بالرحمن " دون (الله) لان اهل الجاهلية من قريش، قالوا الله نعرفه، والرحمن لانعرفه. وكذلك قالوا " وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا " (١) وقال " قل أدعوا الله أو ادعوا الرحمن ايا ماتدعوا فله الاسماء الحسنى " (٢)، وهو قول الحسن، وقتادة.

ثم أمر الله تعالى نبيه ان يقول لهم " هو " يعني الرحمن " ربي " أي خالقي ومدبري " لا إله إلا هو " ليس لي إله ولامعبود سواه " عليه توكلت " أي وثقت به في تدبيره وحسن اختياره. والتوكل التوثيق في تدبير النفس برده إلى الله " وإليه " متاب " أي إلى الله الرحمن توبتي وهو الندم على ماسلف من الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة إلى مثله في القبح، والمتاب والتوبة مصدران، يقال: تاب يتوب توبة ومتابا.

قوله تعالى:

(ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم يأيئس الذين آمنوا أن

(١) سورة الفرقان ٢٥ آية ٦٠ (٢) سورة الاسرى ١٧ آية ١١٠

(٢٥٣)

لويشاء الله لهدى الناس جميعا ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد) (٣٣) آية بلاخلاف. هذه الآية تتضمن وصف القرآن بغاية مايمكن من علو المنزلة وبلوغه أعلى طبقات الجلال، لانه تعالى قال " لو أن قرآنا سيرت به الجبال " من مواضعها وقلعت من أماكنها لعظم محله وجلالة قدره. والتسيير تصيير الشئ بحيث يسير، تقول سار يسير سيرا، وسيره غيره تسييرا. " أو قطعت به الأرض " لمثل ذلك.

والتقطيع تكثير القطع، قطعه قطعة، وقطعه تقطيعا. والقطع فصل المتصل " او كلم به الموتى " لمثل ذلك حتى يعيشوا او يحيوا، تقول: كلمه كلاما، وتكلم تكلما، والكلام ما انتظم من حرفين فصاعدا من الحروف المعقولة إذا وقع ممن يصح منه او من قبيلة، لافادة. و (الموتى) جمع ميت مثل صريع وصرعي، وجريج وجرحى. ولم يجئ جواب (لو) لدلالة الكلام عليه، وتقديره: لكان هذا القرآن لعظم محله في نفسه وجلالة قدره. وكان سبب ذلك أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ان يسير عنهم جبال مكة لتنتسح عليهم المواضع، فأنزل الله تعالى الآية، وبين انه لو سيرت الجبال بكلام، ليسرت بهذا القرآن لعظم مرتبته وجلالة قدره. وقد يحذف جواب (لو) إذا كان في الكلام دلالة عليه، قال امرؤ القيس:

فلو انها نفس تموت سوية * ولكنها نفس تساقط أنفسا (١)

وهو آخر القصيدة، وقال الآخر:

فأقسم لو شئ اتانا رسوله * سواك ولكن لم نجد لك مدفعا (٢)

وقال الفراء: يجوز ان يكون جوابه لكفروا بالرحمن) لتقدم ما يقتضيه،

(١) ديوانه (الطبعة الرابعة): ١١٧ وروايته (جميعه) بدل (سوية) وبعده اربع أبيات من القصيدة، وقدم هذا البيت

في ٦: ١٢٢.

(٢) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢: ١٢، ١٣: ٩٠، وقد مر فيما سف في ٥: ٥٢٩

(٢٥٤)

وقال البلخي. يجوز ان يكون معطوفا على قوله " وهم يكفرون بالرحمن...
ولو ان قرأنا " ويستغنى بذلك عن الجواب، كما تقول: هو يشتمني ولو أحسنت اليه، وهو
يؤذيني ولو اكرمته.
وقوله " بل لله الامر جميعا " معناه ان جميع ما ذكر - من تسيير الجبال وتقطيع الارض
واحياء الموتى، وكل تدبير يجري هذا المجرى - لله، لانه لا يملكه ولا يقدر عليه سواه.
وقوله " أفلم ييأس الذين آمنوا " قيل في معناه قولان:
احدهما - قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وابو عبيدة: معناه أفلم يعلم،
قال سحيم:

اقول لهم بالشعب إذ يأسروني * ألم ييأسوا اني ابن فارس زهدم (١)
معناه ألم يعلموا.

الثاني - قال الفراء: معناه " افلم ييأس الذين آمنوا " ان ينقطع طمعهم من خلاف هذا، علما
بصحته، كما قال لبيد:

حتى اذا يئس الرماة فأرسلوا * عصفا دواجن قافلا اعصامها (٢)
معناه: حتى اذا يئسوا من كل شئ الا الذي ظهر اي يئسوا من خلاف ذلك لعلمهم بصحته،
والعلم بالشئ يوجب اليأس من خلافه.
وقوله " لو يشاء الله لهدى الناس جميعا " معناه الم يعلموا ان الله لو أراد ان يهدي خلقه كلهم
إلى جنته لهداهم، لكنه كلفهم لينالوا الثواب بطاعتهم على وجه الاستحقاق. ويحتمل ان يكون
المعنى لو اراد ان يلجئهم إلى الاهتداء لقدر على ذلك، لكنه ينافي التكليف ويبطل الغرض
منه.

(١) الشاعر هو سحيم بن وثيل الرياحي. والبيت في تفسير الطبري ١٣ : ٩٠ (٢) تفسير الطبري ١٣ : ٩١ والنسان
(دجن)، (عصم) وروايته (غضفا) بدل (عصفا)، يقصد ارسالوا الكلاب.

(٢٥٥)

وقوله " ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة " فالقارعة هي " الداهية المهلكة،
وهي النازلة التي تزعج بالنعمة، تقول: قرعتهم تفرعهم قرعا وهي قارعة، ومنه المقرعة.
وقوله " او تحل قريبا من دارهم " قيل في معناه قولان:
احدهما - قال ابن عباس: او تحل، اي تنزل - يامحمد - قريبا من دارهم.

والطول حصول الشيء في الشيء، وحملوا قوله " تصيبهم قارعة " على نزول السرايا بهم او يحل النبي صلى الله عليه وسلم قريبا منهم.

وقال الحسن: المعنى او تحل القارعة قريبا من دارهم.

وقوله " حتى يأتي وعد الله " قال قتادة معناه حتى يأتي وعده بفتح مكة.

وقال الحسن: معناه حتى يأتي يوم القيامة.

وقوله " ان الله لا يخلف الميعاد " اخبار منه تعالى انه لاخلف لوعده بل لا بد ان يفعل ما وعد به او توعد عليه. وامر الله ما يصح ان يأمر فيه وينهى عنه وهو عام. واصله الامر نقيض النهي، والاصابة لحوق ما طلب بالارادة، اصاب الغرض يصيبه إصابة وهو مصيب، ومنه الصواب إدراك البغية المطلوبة بداعي الحكمة.

وروي عن ابن عباس انه قرأ " أفلم يتبين الذين آمنوا " من التبيين. وروي مثله عن علي صلى الله عليه وسلم رواه الطبري. وقال الزجاج: معناه افلم يعلم الذين آمنوا ان هؤلاء لا يؤمنون مع قوله " لو شاء الله لهدى الناس جميعا ". قوله تعالى:

(ولقد استهزئ برسلك من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) (٣٤) آية بلاخلاف.

اللام في قوله " ولقد " لام القسم، ومعنى الكلام انه اقسم تعالى انه لقد

(٢٥٦)

استهزئ برسلك من قبلك يا محمد أرسلهم الله والاستهزاء طلب الهمزة وهو اظهار خلاف الاضمار للاستضعاف فيما يجري من عبث الخطاب. والرسل جمع رسول، وهو المحمل للرسالة. والرسالة كلام يؤخذ لتأديته إلى صاحبه.

وقوله " فأمليت للذين كفروا " اي اخرت عقابهم وإهلاكهم وأمهلتهم، يقال: أملى يملئ إملاء ومنه قوله: انما نملي لهم ليزدادوا اثما " (١) واصله طول المدة، ومنه قليل الليل والنهار: الملوان لطولهما، قال ابن مقبل:

الاياء ديار الحي بالسبعان * أمل عليها بالبلى الملوان (٢)

وقوله " ثم أخذتهم " يعنى الذين استهزؤا برسلك الله وكفروا بآيات الله، أهلكتهم وانزلت عليهم عذابي " فيكيف كان عقاب " وهو العذاب على وجه الجزاء.

ومعنى الآية تسليية النبي صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من سفهاء قومه من الكفر والاستهزاء عند دعائه إياهم إلى توحيده والايامن به، بأنه قد نال مثل هذا الانبياء قبلك فصبروا، فاصبر

أنت ايضا مثل ذلك، كما قال " فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل " (٣)

قوله تعالى:

أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الارض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل

(١) سورة آل عمران آية ١٧٨ (٢) الكتاب لسيبويه ١: ٣١٥ وتفسير الطبري ١٤: ١٣٢ وسمط اللالي ٥٣٣ واللسان (سبع) ومجاز القرآن ١: ١٠٩، ٣٣٣. وقد روى (الح) بدل (امل).
(٣) سورة ٤٦ الاحقاق آية ٣٥.

(٢٥٧)

ومن يضل الله فما له من هاد) (٣٥) آية بلاخلاف.
قرأ أهل الكوفة " وصدوا " بضم الصاد. الباوقن بفتحها، قال ابو علي:
قال ابو عمرو، عن ابي الحسن: صد وصددته مثل رجوع ورجعته، قال الشاعر:
صدت كما صد عما لا يحل له * ساقى نصارى قبيل الفصح صوام (١)
فهذا صدت في نفسها، وقال الآخر:
صددت الكأس عنا ام عمرو واما قوله " ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد
الحرام " (٢)
فالمعنى يصدون المسلمين عن المسجد الحرام، فكان المفعول محذوفا.
وقوله " رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا " (٣) يكون على يصدون عنك اي لا يبايعونك،
كما يبايعك المسلمون، ويجوز ان يكونوا يصدون غيرهم عن الايمان، كما صدوا هم عنه،
ويثبطون عنه. وحجة من اسند الفعل إلى الفاعل، قوله " الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله "
(٤) وقوله " هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام " (٥) فكما اسند الفعل إلى الفاعل
في جميع هذه الآي كذلك اسند في قوله " وصدوا عن السبيل " وقيل: إن قوما جلسوا على
الطريق، فصدوا الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ففيهم نزلت الآية.
ومن بنى الفعل للمفعول به جعل فاعل الصدغواتهم والعتاة منهم في كفرهم، وقد يكون على
نحو ما يقال: صد فلان عن الخير وصدعنه، يعنى انه لم يفعل خيرا، ولا يراد: ان مانعا منعه.
فأما قوله " وكذلك زين لفرعون سوء عمله

(١) مجمع البيان ٣: ٢٩٤ (٢) سورة الحج آية ٢٥ (٣) سورة النساء آية ٦١ (٤) سورة النساء آية
١٦٦ وسورة النحل ١٦ آية ٨٨ وسورة محمد ٤٧ آية ١، ٣٢، ٣٤ (٥) سورة الفتح آية ٢٥.

تفسير التبيان ج ٦ - م ١٧

(٢٥٨)

وصد عن السبيل " (١) فالفتح الوجه، لانه لم يصدده عن الايمان احد، ولم يمنعه منه، والذي زين ذلك له الشيطان، كما قال " وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل " (٢) معنى قوله " أؤمن هو قائم على كل نفس بماكسبت " من هو قائم بتدبيرها وجزائها على ماكسبت من خير او شر، كمن ليس بهذه الصفة، وحذف الخبر لدلالة الكلام عليه. وقوله " وجعلوا لله شركاء " في العبادة، فعبدوا الاصنام، والاوثان.

وقوله " قل سموهم " اي سموهم بما يستحقون من الاسماء التي هي صفات. ثم انظروا هل تدل صفاتهم على أنه يجوز أن يعبدوا ام لا؟ وقوله " ام تتبئونه بما لا يعلم في الارض ام بظهار من القول " معناه إلا ان يصفوهم بما لا يصح ان يعلم صحته، فيخرجوا بذلك إلى التجاهل او يقتصروا على ظاهر القول من غير رجوع إلى حقيقة، وهو قول مجاهد وقتادة. وقال ابو علي: معنى " بظهار من القول " الذي انزله الله على انبيائه.

وقوله " بل زين للذين كفروا مكرهم " اي زين ذلك لهم انفسهم وغواتهم من شياطين الانس والجن، ولا يجوز ان يكون المراد زين بالشهوة، لان المكر ليس مما يشتهي " وصدوا عن السبيل " اي منعوا عن طريق الحق بالاغواء والمنع. ويجوز ان يكون المراد واعرضوا عن طريق الجنة.

وقوله " ومن يضلل الله فماله من هاد " قيل في معناه قولان:

احدهما - من حكم الله عليه بأنه ضال على وجه الذم، فإنه لا ينفعه هداية احد. والآخر - ان من يضلله الله عن طريق الجنة إلى النار، فلاهاد يهديه إليها، ولايجوز ان يكون المراد من يضلله عن الايمان، لان ذلك سفه لايفعله الله تعالى.

(١) سورة المؤمن: (غافر) ٤٠ آية ٣٧ (٢) سورة النمل ٢٧ آية ٢٤

(٢٥٩)

قوله تعالى:

(لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق) (٣٦) آية بلاخلاف. في هذه الآية إخبار منه تعالى ان لهؤلاء الكفار الذين وصفهم " لهم عذاب في الحياة الدنيا " وهو مايفعل بهم من القتل والاسترقاق وسبي الذراري والاموال. ويجوز ان يريد مايفعله الله كثير منهم من الآلام العظيمة على وجه العقوبة. ثم قال " ولعذاب الآخرة اشق " اي اشد مشقة: غلظ الامر على النفس بما يكاد يصدع القلب.

وقوله " ومالهم من الله من واق " اى ليس لهم من عذاب الله من يمنعهم منه. والواقى المانع، وهو الفاعل للوقاية، والوقاية الحجر بما يدفع الاذية، وقاه يقيه وقاية، فهو واق، ووقاه توفية. قوله تعالى:

(مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الانهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار) (٣٧) آية بلاخلاف.

قيل في معني " مثل الجنة " اقوال:

قال سيبويه: فيما نقص عليكم مثل الجنة، فرفع (مثل) على الابتداء. وحذف الخبر. وقال بعضهم معناه شبه الجنة، والخبر محذوف، وتقديره مثل الجنة التي هي الانهار، كما قال الله تعالى " والله المثل الاعلى " (١) معناه الصفة الاعلى.

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٠.

(٢٦٠)

وقال قوم: معناه صفة " الجنة التي وعد المتقون " صفة جنة تجري من تحتها الانهار، والجنة البستان الذي يجنه الشجر، والمراد - ههنا - جنة الخلد التي اعدّها الله للمتقين جزاء لهم على طاعتهم وانتهائهم عن معاصيه، والمتقي هو الذي يتقي عقاب الله بفعل الواجبات وترك المقبحات.

وقوله " اكلها دائم " قيل في معناه قولان:

احدهما - ان ثمارها لا تنقطع، كما تنقطع ثمار الدنيا في غير ازمنتها - في قول الحسن: الثاني - النعيم به لا ينقطع بموت، ولا بغيره من الآفات.

وقوله " وظلها " اى وظل الجنة دائم ايضا ليس لها حر الشمس ثم اخبر ان ذلك عاقبة الذين اتقوا معاصي الله بفعل طاعته. وأخبر أن عاقبة الكافرين - الجاحدين لتوحيد الله المنكرين لنعمه - النار، والكون فيها على وجه الدوام نعوذ بالله منها - قوله تعالى:

(والذين اتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولأشرك به إليه أدعو وإليه مآب) (٣٨) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين آتيناهم الكتاب، ومعناه اعطاهم، " يفرحون بما انزل " على محمد صلى الله عليه وسلم وقال الحسن وقتادة ومجاهد: هم اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا به وصدقوه. والاحزاب هم اليهود والنصارى والمجوس.

وقال الجبائي: يجوز ان يعنى بالفرح به اليهود والنصارى، لان ماأتى به مصدق لماعمهم، وأمانكار بعضهم، فهو انكار بعض معانيه ومايدل على مصدقه أو يخالف أحكامهم. و (الاحزاب) جمع حزب، وهم الجماعة التي تقوم بالنائبة، يقال تحزب القوم تحزبا وحزبهم الامر يخرجهم إذا نالهم بمكروهه.

(٢٦١)

وقوله " قل أنما أمرت ان اعبدالله ولااشرك به " في عبادته احدا، أدعو إلى الله، والاقرار بتوحيده وصفاته وتوجيه العبادة اليه وحده، " واليه مآب " اي مرجعي ومصيري، من قولهم: أب يؤب أوبا ومآبا، والمعنى يرجع إلى حيث لايملك الضرر والنفع إلا الله تعالى. قوله تعالى:

(وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم مالك من الله من ولي ولاواق) (٣٩) آية قيل في وجه التشبيه في قوله " وكذلك " قولان: احدهما - انه شبه انزاله حكما عربيا بما أنزل إلى من تقدم من الانبياء.

الثاني - انه شبه انزاله حكما عربيا بإنزاله كتابا، تبيانا في انه منعم بجميع ذلك على العباد. و (الحكم) فصل الامر على الحق، واذا قيل: حكم بالباطل، فهو مثل قولهم: حجة داحضة. و (العربي) هو الجاري على مذاهب العرب في كلامها فالقرآن عربي (على هذا المعنى، لان المعاني فيه على ماتدعو اليه الحكمة) (١)

والالفاظ على مذاهب العرب في الكلام. (وقيل: انما سماه حكما عربيا لانه أتى به نبي عربي) (٢).

وقوله " ولئن اتبعت اهواءهم " خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. والمراد به الامة، يقول له لئن وافقت وطلبت اهواء الذين كفروا بعد ان جاء العلم، لان مااتيناك من الدلالات والمعجزات للعلم. والاتباع طلب اللحاق بالاول كيف تصرف. اتبعه اتباعا وتبعه يتبعه، فهو تابع وذلك متبوع. والهوى - مقصور - هوى النفس.

والهواء - ممدود - هواء الجوف، والهوى ميل الطباع إلى الشئ بالشهوة. و (العلم) ماقتضى سكون النفس.

(١) مايبين القوسين من المخطوطة وهو ساقط من المطبوعة.

(٢) مايبين القوسين ساقط من المطبوعة ايضا.

(٢٦٢)

وقوله " مالك من الله من ولي ولاواق " معناه متى ما ابتعت أهواء هؤلاء الكفار، لم يكن لك من الله ولي ولا ناصر يعينك عليه، ويمنعك من عذابه " ولا واق " ولا من يقيك منه، يقال: وقاه وقاية واتقاه، وتوقاه توقيا، والواقى الفاعل للحجر عن الاذى.
قوله تعالى:

(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وماكان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب) (٤٠) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى انه أرسل قبل إرسال نبيه محمد صلى الله عليه وسلم رسلا إلى خلقه، وجعل لهم أزواجا وذرية، يعني اولادا، لانهم كانوا انكروا تزويج النبي بالنساء، فبين الله تعالى ان الانبياء قبله كان لهم أزواج وذرية، وقد آمنوا بهم. ثم قال: وانه لم يكن لرسوله يرسله الله ان يجئ بآية ودلالة، إلا بعد ان يأذن الله في ذلك ويلطف له فيه.

وقوله " لكل أجل كتاب " معناه لكل أجل قدره، كتاب أثبت فيه، فلا تكون آية الا بأجل قد قضاه الله تعالى في كتاب على ما توجهه صحة تدبير العباد.

وقيل: فيه تقديم وتأخير وتقديره لكل كتاب أجل، كما قال " وجاءت سكرة الموت بالحق " (١)، والمعنى وجاءت سكرة الحق بالموت، وهي قراءة أهل البيت، وبه قرأ أبو بكر من الصحابة. والذرية الجماعة المفترقة في الولادة عن أب واحد في الجملة، ويحتمل ان يكون من الذر. وأن يكون من ذرأ الله الخلق اي أظهرهم.

(١) سورة ٥٠ (ق) آية ١٩.

(٢٦٣)

قوله تعالى:

(يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) (٤١)
آية بلاخلاف.

وجه اتصال هذه الآية بماتقدم هو أنه لما قال " لكل أجل كتاب " اقتضى ان يدخل فيه اعمال العباد، فبين ان الله يمحو مايشاء، ويثبت، لئلا يتوهم ان المعصية مثبتة بعد التوبة، كماهي قبل التوبة. وقيل: ان مما يمحو ويثبت الناسخ والمنسوخ. وقيل يمحو مايشاء، ويثبت، مما يثبتته الملكان، لانه لا يثبت الا الطاعات والمعاصي دون المباحات. وقيل معناه يمحو مايشاء من معاصي من يريد التفضل عليه باسقاط عقابه، ويثبت معاصي من يزيد عقابه. والحسنة يثبتها الله قبل فعلها، بمعنى أنهم سيعملونها، فاذا عملوها أثبتتها بأنهم عملوها، فلذلك أثبت في

الحالين، والوجه في اثباته ما يكون فيه من المصلحة والاعتبار لمن يفكر فيه بأن ما يحدث، على كثرته وعظمه، قد أحصاه الله وكتبه، وذلك لاسبيل اليه الامن جهة علام الغيوب الذى يعلم ما يكون قبل أن يكون، واعتبار المشاهدة له من الملائكة إذا قابل ما يكون بما هو مكتوب، مع أنه أهول في الصدور، وأعظم في النفوس مما يتصور معه، حتى كان المفكر فيه مشاهد له. و (المحو) إذهاب أثر الكتابة محاه يحويه محوا وإمحاء أيضا، وأما إمحاه وامتحاه امتحاء. والاثبات الاخبار بوجود الشئ، ونقيضه النفي، وهو الاخبار بعدم الشئ.

وقال ابن عباس ومجاهد: إنه تعالى لايمحو الشقاء والسعادة، وهذا مطابق لقول اصحاب الوعيد.

وقال عمر بن الخطاب، وابن مسعود: همايمحيان مثل سائر الاشياء، وهذا مطابق لقول المرجئة من وجه.

وقوله " وعنده أم الكتاب " معناه أصل الكتاب، لانه يكتب أولا:

(٢٦٤)

سيكون كذا وكذا، لكل مايكون، فاذا وقع كتب أنه قد كان ما قيل أنه سيكون. وقيل: أصل الكتاب، لان الكتب التي أنزلت على الانبياء منه نسخت وقرأ ابن كثير وأبو عمرو، وعاصم و " يثبت " خفيفة. الباقون مشددة.

قال أبو علي: المعنى يمحو الله ما يشاء ويثبت، فاستغني بتعدية الاول من الفعلين عن تعدية الثاني، كما قال " والحافظين فروجهم والحافظات (١) " وزعم سيبويه أن من العرب من يعمل الاول من الفعلين، ولا يعمل الثاني في شيء، كقولهم متى رأيت أوقلت زيدا منطلقا، قال الشاعر:

بأي كتاب ام بأية سنة * ترى حبهام عارا علي وتحسب (٢)

فلم يعمل الثاني. وقالوا " أم الكتاب " هو الذكر المذكور في قوله " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر (٣) " قال فحجة من شدد قوله " واشد تثبيتا (٤) " وقرأ " ويثبت "، لان تثبيت مطاوع ثبت وحجة من قال بالتخفيف ماروي عن عائشة: أنه كان إذا صلى صلاة أثبتها، قال: وثابت مطاوع ثبت، كما أن يثبت مطاوع ثبت. قوله تعالى:

(وإن مانرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (٤٢) آية بلاخلاف.

هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى له إنا ان اريناك بعض الذي نعد الكفار من العقوبة على كفرهم، ونصر المؤمنين حتى يظفروا بهم، فيقتلوهم ويستذلوا باقيهم إن لم يؤمنوا، فنبتيك إلى أن ترى ذلك، أو نميتك قبل أن ترى ذلك. وقيل: ان نفعله بهم، لانه ليس ذلك مما لا بد ان تراه لامحالة، فلا تنتظر كونه على ذلك بأن يكون في ايامك. وانما عليك أن تبلغهم ما أرسلناك به اليهم، وتقوم

(١) سورة الاحزاب آية ٣٥ (٢) مر هذا البيت في ٣ / ٧٥ (٣) سورة ٢١ الانبياء آية ١٠٥ (٤) سورة النساء آية ٦٦

(٢٦٥)

في ذلك بما أمرك الله به، وعلينا نحن حسابهم، ومجازاتهم والانتقام منهم، إما عاجلا أو آجلا، وذلك كائن لامحالة على ما قلناه. وكسرت الالف من قوله " وإما نرينك " لانه من التخيير، والتقدير، وإما نرينك نعمتتا وأنت حي، وإما نتوفينك.

قوله تعالى:

(أولم يروا أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) (٤٣) آية بلاخلاف.

يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار على وجه التنبيه لهم على الاعتبار بأفعال الله، أو ما يرون أنا ننقص الارض من أطرافها؟ وقيل في معناه أربعة أقوال:

قال ابن عباس والحسن والضحاك: ما فتح على المسلمين من أرض المشركين.

وقال مجاهد، وقتادة: وننقصها بموت أهلها. وفي رواية أخرى عن ابن عباس.

ومجاهد: بموت العلماء. وفي رواية أخرى عنهما: بخرابها. ثم أخبر أن الله تعالى يحكم ويفصل الامر ولا احد يعقب حكمه، ولا يقدر على ذلك، وأنه سريع المجازاة على افعال العباد، على الطاعات بالثواب، وعلى المعاصي بالعقاب.

والنقص أخذ الشئ من الجملة، وفي فلان نقص أي نقص منزلة عن منزلة عظيمة في المقذور أو المعلوم، والثاني للامور. والطرف منتهى الشئ، وهو موضع من الشئ ليس وراءه ما هو منه. وأطراف الارض نواحيها. والتعقيب رد الشئ بعد فصله، ومنه عقب العقاب على صيده إذ أرد الكرور عليه بعد فصله عنه قال لبيد:

حتى تهجر في الرواح وهاجه * طلب المعقب حقه المظلوم (١)

(١) اللسان (عقب) ومجمع البيان ٣ / ٢٧٩، وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ / ٧٢

(٢٦٦)

والسرعة عمل الشئ في قلة المدة، على ما تقتضيه الحكمة، وضده الابطاء، والسرعة محمودة والعجلة مذمومة.

قوله تعالى:

(وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعا يعلم ماتكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى

الدار) (٤٤)

آية بلاخلاف.

قرأ ابن كثير وابوعمر و نافع " الكافر " على لفظ الواحد. الباقر " الكفار " على لفظ الجمع. قال ابو علي الفارسي في قوله " وسيعلم الكفار " هو المتعدي إلى مفعولين، بدلالة تعليق وقوع الاستفهام بعده، تقول: علمت لمن الغلام، فتعلقه مع الجار كما تعلقه مع غير الجار في قوله "

فسوف يعلمون من تكون له عاقبة الدار " (١)

وموضع الجار مع المجرور نصب من حيث سد الكلام - الذي هو الاستفهام - مسد
المفعولين، لأن من حيث حكمت في نحو مررت بزيد، فإن موضعه نصب، ولكن الباء الجارة
كانت متعلقة في الاصل بفعل فصار مثل علمت بمن ترفي أن الجارة تتعلق بالمرور،
والجملة التي هي، منها في موضع نصب، وقد علق الفعل عنها.
ومن قرأ على لفظ الفاعل، وأنه جعل الكافر اسماً شائعاً كإنسان في قوله " ان الانسان لفي
خسر " (٢) وزعموا أنه لا ألف فيه وهذا الحذف إنما يقع في (فاعل) نحو خالد، وصالح
ولا يكاد يحذف في (فعال) فهذا حجتهم.
وزعموا أن في بعض الحروف " وسيعلم الذين كفروا "، وقرأ ابن مسعود " وسيعلم الكافرون "
فهذا يقوي الجمع.

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٣٦ (٢) سورة ١٠٣ العنكبوت آية ٢

(٢٦٧)

ومن قرأ على لفظ الجمع، فلان التهديد متوجه إلى جميع الكفار، ولا إشكال فيه.
اخبر الله تعالى أن الكفار الذين كانوا قبل هؤلاء الكفار، مكروا بالمؤمنين واحتالوا في كفرهم.
والمكروهو الفتل عن البغية بطريق الحيلة، تقول مكر يمكر فهو مكر، وقال أبو علي:
المكر ضرر ينزل بصاحبه من حيث لا يشعر به.
ثم اخبر تعالى ان له المكر جميعاً، ومعناه الله جزاء مكرهم، لانهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله
أن وبال مكرهم عليهم بمجازاة الله لهم.
وقوله تعالى: " يعلم ماتكسب كل نفس " معناه أنه لا يخفى عليه ما يكسبه الانسان من خير وشر
وغير ذلك، لانه عالم بجميع المعلومات " وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار " تهديد للكفار بأنهم
سوف يعلمون لمن تكون عاقبة الجنة للمطيعين أو الصالحين، فإن الله تعالى وعد بذلك
المؤمنين دون الكفار والظالمين.
قوله تعالى:

(ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفي بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) (٤٥)
آية بلاخلاف.

حكى الله تعالى عن الكفار انهم يقولون لك يا محمد انك لست مرسلًا عن جهته تعالى، فقل لهم
انت حسبي الله " شهيدا بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب ". وقيل في معناه ثلاثة اقوال:
احدها - روي عن ابن عباس انه قال: هم اهل الكتاب الذين آمنوا من اليهود والنصارى.
وقال قتادة ومجاهد: منهم عبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري.

وقال الحسن: الذي عنده علم الكتاب هو الله تعالى، وبه قال الزجاج.

(٢٦٨)

وقال ابو جعفر و ابو عبدالله (ع): هم ائمة آل محمد صلى الله عليه وسلم، لانهم الذين عندهم علم الكتاب بجملته لا يشذ عنهم شئ من ذلك دون من ذكروه. والكفاية وجود الشئ على قدر الحاجة، فكأنه قيل: قد وجد من الشهادة مقدار ما بنا عليه الحاجة في فصل ما بيننا وبين هؤلاء الكفار. والباء في قوله " بالله " زائدة والتقدير كفى الله. وقال الرماني: دخلت لتحقيق الاضافة من وجهين: جهة الفاعل، وجهة حرف الاضافة، لان الفعل لماجاز ان يضاف إلى غير فاعله، بمعنى انه أمر به ازيل هذا الاحتمال بهذا التأكيد، ومثله قوله " لما خلقت بيدي " (١).

والشهادة البينة على صحة المعنى من طرق المشاهدة. والشهيد والشاهد واحد، إلا ان في شهيد مبالغة. ووجه الاحتجاج ب " كفى بالله شهيدا " لان المعنى كفى الله شهيدا بما ظهر من الآية، وأبان من الدلالة، لانه تعالى لا يشهد بصحة النبوة إلا على هذه الصفة إذ قد لزمهم ان يعترفوا لها بالصحة.

وروي عن ابن عباس ومجاهد انهما قراءا " ومن عنده علم " بكسر الميم، وعلم الكتاب على ما لم يسم فاعله، وبه قرأ سعيد بن جبير، ولما قيل له: هو عبد الله بن سلامه، قال: كيف يجوز ذلك والسورة مكية وهو اسلم بعد الهجرة بمدة.

(١) سورة ٣٨ ص آية ٧٥

(٢٦٩)

(١٤) سورة ابراهيم قال قتادة: هي مكية إلا آيتين: قوله " ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله " إلى قوله " وبئس القرار ". وقال مجاهد هي مكية وليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وهي اثنان وخمسون آية في الكوفي، وأربع في المدنيين، وآية في البصري. بسم الله الرحمن الرحيم.

(الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور * بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد (١) الله الذي له ما في السموات وما في الارض وويل للكافرين من عذاب الشديد) (٢) ثلاث آيات في المدنيين آخر الاولى. قوله " إلى النور " وآيتان عند الباقيين. قرأ ابن عامر و نافع " الله الذي " بالرفع. الباقيون بالخفض. قال ابو علي:

من قرأ بالجر جعله بدلا من الحميد، ولم يكن صفة، لان الاسم وان كان في الاصل مصدرا،
والمصادر يوصف بها كما يوصف بأسماء الفاعلين، وكذلك كان هذا

(٢٧٠)

الاسم في الاصل (الالاه) ومعناه ذو العبادة اي تجب العبادة اي تجب العبادة له، قال ابوزيد:
يقال تأله الرجل إذا نسك وأنشد لرؤبة:
سبحن واسترجعن من تألهي (١).

فهذا في أنه في الاصل مصدر قدوصف به مثل السلام والعدل، الا ان هذا الاسم غلب حتى
صار في الغلبة وكثرة الاستعمال كالعلم، وقد يغلب مافي اصله الصفة فيصير بمنزلة العلم (٢)
مثل قول الشاعر:

والتيتم ألام من يمشي وألامهم * ذهل بن تيم بنو السود المدانيس (٣)

يجوز أن يكون جعل التيم جمع تيمي كيهودي ويهود وعلى هذا قال تعالى وقالت اليهود،
ألا ترى أن (يهود) قد جرى في كلامهم إسما للقبيلة، كما أن (مجوس) كذلك، فلولاً أن المراد
بهما الجمع، لم يدخلهما الالف واللام، كما لا يدخل المعارف في نحو زيد وعمرو، إلا انه جمع
بحذف اليائين اللتين للنسب، كما جمع شعير وشعيرة بحذف التاء، ومثله (رومي) وروم و
(زنجي) وزنج.

ومن رفع قطع عن الاول، ورفع بالابتداء، وجعل (الذي) الخبر، او جعله صفة وأضمر
الخبر. وقد بينا معاني الحروف المقطعة في أوائل السور في أول

(١) مر هذا الرجز في ١: ٢٨ (٢) كان في المطبوعة على الهامش هذه الحاشية (تابغة الجعدي في الرمل بيته عليه
صفيح من تراب وجندل والاصل النابغة ولما غلب نزع منه الالف واللام كما ينزع من اسماء الاعلام نحو زيد وعمرو
وربما استعمل في هذا النحو الوجهان واما قول الشاعر) انتهى.

وهو كما ترى بعيد عن المتن من حيث اللهجة والتركيب وظاهر انه ليس من كلام الشيخ الطوسي - رحمه الله - ولكن
آخره يشبه المتصل بالمتن لذلك نقلناه فلعل المطبع عليه يستفيد منه.

(٣) قائله جرير. ديوانه (دار بيروت) ٢٥٢ واللسان (تيم) ورواية الديوان:

والتيتم ألام من يمشي وألامهم * اولاد ذهل بنو السود المدانيس
ورواية اللسان:

والتيتم ألام من يمشي وألامه * تيم بن ذهل بنو السود المدانيس

(٢٧١)

البقرة (١)، وذكرنا اختلاف المفسرين فيه، فلافائدة في اعادته.

وقوله " كتاب أنزلناه إليك " رفع على انه خبر الابتداء، ومعناه هذا كتاب يعني القرآن أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم " ليخرج الناس من الظلمات إلى النور " أي ليخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الايمان والهداية.

والظلمة في الاصل سواد الجو المانع من الرؤية تقول أظلم إظلاما وظلاما، وظلمة. الظلمة اذهاب الضياء بمايستره، والنور بياض شعاعي تصح معه الرؤية، ويمنع معه الظلام ومنه النار لمافيهما من النور. والنور والضياء واحد.

وقال قتادة " من الظلمات إلى النور " من الضلالة إلى الهدى " بإذن ربهم " اي باطلاق الله ذلك، وأمره به نبيه صلى الله عليه وسلم " إلى صراط العزيز الحميد " أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى طريق الله المؤدي إلى معرفة الله " العزيز " يعني القادر على الاشياء الممتنع بقدرته من أن يضام، المحمود في أفعاله التي أنعم بها على عباده، الذي له التصرف في جميع مافي السموات والارض، على وجه ليس لاحد الاعتراض عليه.

ثم اخبر تعالى أن الويل للكافرين الذين يجحدون نعم الله ولايعترفون بوحدانيته. والاقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم " من عذاب شديد " وهو ما تتضاعف " آلامه، والشدة تجمع يصعب معه التفكك، شده يشده شدا وشدة.

وفي الآية دلالة على ان الله يريد الايمان من جميع المكلفين، لانه ذكر أنه أنزل كتابه ليخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الايمان، لان اللام لام الغرض، ولايجوز أن يكون لام العاقبة، لانها لوكانت كذلك، لكان الناس كلهم مؤمنين والمعلوم خلافه.

(١) في ١: ٤٧ - ٥١

(٢٧٢)

قوله تعالى:

(الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد) (٣) آية بلاخلاف.

" الذين " في موضع جر، لانه نعت للكافرين، وتقديره وويل للكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة. والاستحباب طلب محبة الشيء بالتعرض لها، والمحبة إرادة منافع المحبوب. وقد تكون المحبة ميل الطباع. والحياة الدنيا هو المقام في هذه الدنيا العاجلة على الكون في الآخرة. ذمهم الله بذلك، لان الدنيا دار انتقال، والآخرة دار مقام.

" ويصدون عن سبيل الله " اي يعرضون بنفوسهم عن اتباع الطريق المؤدي إلى معرفة الله، ويجوز ان يريد انهم يمنعون غيرهم من اتباع سبيل الله تعالى، يقال: صد عنه يصد صدا،

غير متعد، وصدده يصدده صدا متعد. والسبيل الطريق وكلاهما يؤنث ويذكر، وهو على السبيل اغلب و " يبغونها عوجا " أي ويطلبون الطريق عوجا اي عدولا عن استقامته. و (العوج) خلاف الميل إلى الاستقامة، والعوج بكسر العين - في الدين، وفتح العين - في العود والبغية طلب المقاصد لموضع الحاجة، يقال: بغاه يبغيه بغية، وابتغى ابتغاء، ودخلت (على) في قوله " يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة " لان المعنى يؤثرونها عليها. ولوقيل من الآخرة، لجاز ان يكون بمعنى يستبدلونها من الآخرة.

وقيل: إنه يجري مجرى قولهم: نزلت على بني فلان، ونزلت في بني فلان، وبني فلان، كله بمعنى واحد.

وقوله " اولئك في ضلال بعيد " إخبار منه تعالى ان هؤلاء الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل الله، في عدول عن الحق، بعيدون عن الاستقامة.

(٢٧٣)

قوله تعالى:

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) (٤)
آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى انه لم يرسل فيما مضى من الازمان رسولا إلى قوم إلا بلغة قومه حتى اذا بين لهم، فهموا عنه، ولا يحتاجون إلى من يترجم عنه.
وقوله " فيضل الله من يشاء " يحتمل امرين:

احدهما - انه يحكم بضلال من يشاء اذا ضلوا هم عن طريق الحق.

الثاني - يضلهم عن طريق الجنة إذا كانوا مستحقين للعقاب و " يهدي من يشاء " إلى طريق الجنة " وهو العزيز " يعني القادر الذي لا يقدر أحد على منعه " الحكيم " في جميع افعاله، ليس فيها ما له صفة السفه. ويحتمل ان يريد انه محكم لافعاله التي تدل على علمه.

ورفع قوله " فيضل الله " لان التقدير على الاستئناف، لا العطف على ما مضى، ومثله قوله " لنبين لكم ونقر في الارحام " (١) ومثله " قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم " (٢) ثم قال بعد ذلك " ويتوب الله على من يشاء " (٣) لانه إذا لم يجز ان يكون عطا على ماضى فينتصب لفساد المعنى فلا بد من استئنافه ورفع.

وقال الحسن: امتن الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم انه لم يبعث رسولا إلا إلى قومه، وبعثه خاصة إلى جميع الخلق. وقال مجاهد: بعث الله نبيه إلى الاسود والاحمر ولم يبعث نبيا قبله إلا إلى قومه واهل لغته.

(٢٧٤)

قوله تعالى:

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور * وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) (٥) آية في الكوفي والبصري. وآيتان في المدنيين. آخر الاولى " إلى النور " .

أخبر الله تعالى انه ارسل موسى نبيه (ع) إلى خلقه بآياته ودلالاته " أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور " اي ارسلناه بأن أخرج قومك من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الايمان والهداية بالدعاء لهم إلى فعل الايمان، والنهي عن الكفر والتبويه على ادلته. " وذكرهم بأيام الله " قيل في معناه قولان:

احدهما - قال الحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير: ذكرهم بنعم الله الثاني - ذكرهم بنعم الله لعاد وثمود وغيرهم من الامم الضالة، قال عمر بن كلثوم:

وايام لنا غر طوال * عصينا الملك فيها ان نديننا (١)

وقيل: النعم والنقم من اعدائنا. وقال قوم: اراد خوفهم بهذا، كما يقال:

خذه بالشدة واللين. ثم أخبر ان في ذلك دلالات لكل من صبر على بلاء الله وشكره على نعمه. والتذكير التعريض للذكر الذي هو خلاف السهو، يقال:

ذكره تذكيرا، وذكره يذكره ذكرا، وتذكر تذكر، وذاكره مذاكرة.

والصبار الكثير الصبر، والصبر حبس النفس عما تنازع اليه مما لا ينبغي.

(١) هذا البيت من معلقته الشهيرة. المعلقات السبع (دار بيروت) ١٢٣ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣: ١٠٧ ومجمع البيان ٣: ٣٠٤ وقد مر في ١: ٣٦ من هذا الكتاب.

(٢٧٥)

والشكور الكثير الشكر. والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، وضده الكفر. (وان) في قوله " أن اخراج " يحتمل ان تكون بمعنى

(أي) على وجه التفسير، ويجوز ان تكون التي تتعلق بالافعال والمعنى قلنا له:

اخرج قومك. وقال سيبويه يقول العرب: كتبت اليه أن قم، وأمرته أن قم، وان شئت كانت (أن) التي وصلت بالامر. والتأويل على الخبر. والمعنى كتبت اليه ان يقوم وأمرته أن يقوم إلا

انها وصلت بلفظ الامر المخاطب، والمعنى معنى الخير، كما تقول أنت الذي فعلت. والمعنى انت الذي فعل.

قوله تعالى:

(وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) (٦) آية بلاخلاف.

التقدير واذكر يا محمد " إذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم " في الوقت الذي انجاكم " من آل فرعون. يسومونكم سوء العذاب " جملة في موضع الحال. و " يذبحون ابناكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم " وقد فسرناه أجمع في سورة البقرة (١) فلانطول بإعادته. ودخلت الواو - ههنا - في قوله " ويذبحون ابناكم " وفي البقرة بلاواو. وقال الفراء: معنى الواو أنه كان يمسه من العذاب غير التذبيح، كأنه قال يعذبونكم بغير الذبح. والذبح إذا أطلق كان تفسيراً لصفات العذاب.

(١) انظر ١: ٢١٧ - ٢٢٤ في تفسير آية ٤٩ من سورة البقرة.

(٢٧٦)

وقوله " وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم " اي في ذلكم نعم من ربكم عظيمة إذ أنجكم منهم. والبلاء قد يكون نعماً، وعذاباً، يقال: فلان حسن البلاء عندك اي حسن الانعام عليك ويحتمل ان يكون بمعنى العذاب، وفي الصبر على ذلك العذاب امتحان من ربكم عظيم. قوله تعالى:

(وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم من لئن كفرتم إن عذابي لشديد) (٧) وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الارض جميعاً فإن الله لغني حميد) (٨) آيتان بلاخلاف وهذه الآية عطف على الاولى، والتقدير واذكروا " إذ تأذن ربكم " اي أعلمكم وقد يستعمل (تفعل) بمعنى (أفعل) كقولهم اوعدته وتوعدته، وهو قول الحسن والفراء، قال الحرث بن حلزة:

أذنتنا ببينها أسماء * رب تاو يمل منه الثواء (١)

والمعنى أعلم ربكم. وقوله " لئن شكرتم لازيدنكم " التقدير أعلمكم أنكم متى شكرتموني على نعمي، واعترفتم بها زدتمكم نعمة إلى نعمة " ولئن كفرتم " أي جحدتم نعمتي وكفرتموها " ان عذابي لشديد " لمن كفر نعمتي.

ثم أخبر ان موسى قال لقومه " ان تكفروا " نعم الله وتجحدونها " أنتم " وجميع " من في الارض " من الخلق فإنه لا يضر الله. وإنما يضركم ذلك، بأن تستحقوا منه العذاب والعقاب " فان الله لغني حميد " اي غني عن شكركم حميد في أفعاله.
والغني هو الحي الذي ليس بمحتاج، والحميد الكبير لاستحقاق الحمد بعظم

(١) من معلقته الشهيرة. المعلقات السبع (دار بيروت) ١٥٥ وقد مر في ١: ٣٨٠ من هذا الكتاب.

(٢٧٧)

إنعامه، وهي صفة مبالغة في الحمد، وقد يكون كفر النعمة بأن يشبه الله بخلقه أو يجور في حكمه، أو يرد على نبي من انبيائه، أو كان بمنزلة واحد منها في عظم الفاحشة، لان الله تعالى منع بجميع ذلك من حيث أقام الأدلة الواضحة على صحة جميع ذلك وغرضه بالنظر في جميعها الثواب الجزيل، فلذلك كان منعها بها إن شاء.
قوله تعالى:

(ألم يأتكم نبو الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود * والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب (٩) قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين) (١٠) آيتان في الكوفي وثلاثا آيات في المدنيين والبصري تمام الاولي قوله " وثمود " .

قيل فيمن يتوجه الخطاب اليه في قوله " ألم يأتكم نبو " قولان:

احدهما - قال الجبائي: إنه متوجه إلى امة النبي صلى الله على وسلم ذكروا بأخبار من تقدم وما جرى من قصصهم.

والثاني - قال قوم: إنه من قول موسى (ع) لانه متصل به في الآية المتقدمة يقول الله لهم " ألم يأتكم " اي اما جاءكم اخبار من تقدمكم. والنبأ الخبر عما يعظم

(٢٧٨)

شأنه يقال: لهذا الامر نبو اي عظم شأن يقال انبا ينبو، ونبأت أنبي، ونبأ الله محمدا اي جعله نبيا، وتنبأ مسيلمة اي ادعى النبوة، وليس هو كذلك. و " قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم " كل ذلك مجرور بأنه بدل من الكاف والميم في قوله " قلبكم " وهو مجرور بالاضافة.

وقوله " لا يعلمهم إلا الله " اي لا يعلم تفاصيل أحوالهم وما فعلوه، وفعل بهم من العقوبات، ولا عددهم " إلا الله " ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (كذب النسابون)
وقوله " جاءتهم رسلهم بالبينات " اي اتتهم رسلهم بالدلالات الواضحات " فردوا أيديهم في أفواههم " وقيل في معناه خمسة اقوال:
احدها - قال عبدالله بن مسعود، وابن زيد: انهم عضوا على اناملهم تغيظا عليهم في دعائهم إلى الله، كما قال " عضو عليكم الانامل من الغيظ " (١)
وثانيها - قال الحسن: جعلوا أيديهم في افواه الانبياء تكذيبا لهم وردا لما جاؤوا به.
الثالث - قال مجاهد ردوا نعمتهم بأفواههم.
الرابع - قال قوم: يحتمل ان يكونوا ردوا أيدي أنفسهم في أفواه نفوسهم موثن لهم اي اسكتوا عما تدعوننا إليه، كما يفعل الواحد منا مع غيره إذا أراد تسكيتة. روي ذلك عن ابن عباس ذكره والفراء.
 وخامسها - قال قوم: ردوا مالو قبلوه، لكانت نعمة عليهم في افواههم اي بأفواههم والسننهم، كما يقولون ادخلك الله بالجنة يريدون في الجنة وهي لغة طي، قال الفراء: انشدني بعضهم:
وارغب فيها عن لقيط ورهطه * ولكنني عن سننيس لست ارغب (٢)

(١) سورة آل عمران آية ١١٩ (٢) مجمع البيان ٣: ٣٠٦ وامالي الشريف المرتضى ١: ٣٦٦ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣: ١١١ ولم يعرف قائله.

(٢٧٩)

فقال (ارغب فيها) يريد بها يعنى بنتاله، يريد: ارغب بها عن لقيط، ولا ارغب بها عن قبيلته، وقوله " انا كفرنا بما ارسلتم به " حكاية ايضا عما قالوا للرسول فانهم قالوا: انا قد كفرنا بما ارسلتم به من الدعاء إلى الله وحده وتوجيه العبادة إليه، والعمل بشرائعه " وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب " والريب اخبث الشك المتهم، وهو الذي يأتي بما فيه التهمة، ولذلك وصفوا به الشك اي انه يوجب تهمة ما تيتم به يقال: اراب يريب إرابة إذا أتى بما يوجب الريبة، فقالت لهم حينئذ رسلهم " أفي الله شك " مع قيام الادلة على وحدانيته وصفاته، لانه الذي خلق السموات والارض يدعوكم إلى عبادته ليغفر لكم من ذنوبكم اذا أطعتموه.
ودخلت (من) ههنا - في قول أبي عبيدة - زائدة، وأنكر سيبويه زيادتها في الواجب، وقال أبو علي: دخلت للتبعيض ووضع البعض موضع الجميع توسعا.
وقال قوم: دخلت (من) لتكون المغفرة بدلا من الذنوب، فدخلت (من) لتضمن المغفرة معنى البديل من السيئة " ويؤخركم إلى اجل مسمى " يعنى لا يؤاخذكم بعاجل العذاب، بل يؤخر إلى

الوقت الذي ضربه الله لكم ان يمسمكم فيه، فقال لهم قومهم " ان أنتم الابشر مثلنا " اي ليس انتم الا خلق مثلنا تريدون ان تمنعونا عما كان يعبد اباؤنا من الاصنام والاوثنان، فاتونا بحجة واضحة على ماتدعوناه وبطلان مانحن عليه.

وفي الآية دلالة واضحة على انه تعالى اراد بخلقه الخير والايامن، لا الشر والكفر، وأنه إنما بعث الرسل إلى الكفار رحمة وتفضلا، ليؤمنوا، لا ليكفروا، لان الرسل قالت: ندعوكم إلى الله ليغفر لكم، فمن قال إن الله أرسل الرسل إلى الكفار ليكفروا بهم ويكونوا سوءا عليهم ووبالا، وانما دعوهم ليزدادوا كفرا فقد رد ظاهر القرآن.

قوله تعالى:

(قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن

(٢٨٠)

على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتىكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١١) ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) (١٢) آيتان بلا خلاف.

حكى الله تعالى في هذه الآية ما أجابت به الرسل الكفار، فإنهم قالوا لهم ما " نحن إلا بشر مثلكم " ولسنا ملائكة، كما زعمتم " ولكن الله " من علينا فاصطفانا وبعثنا أنبياء وهو " يمن على من يشاء من عباده " ولم يكن لنا ان نجئكم " بسلطان " اي بحجة على صحة دعوانا إلا بأمر الله واطلاقه لنا في ذلك " وعلى الله " يجب ان يتوكل " المتوكلون " المؤمنون المصدقون به وبأنبيائه.

ثم اخبر انهم قالوا ايضا " ومالنا ان لانتوكل على الله " اي ولم لانتوكل على الله " وقد هدانا " إلى سبل الايمان ودلنا على معرفته ووفقنا لتوجيه العبادة اليه، ولانشرک به شيئا، وضمن لنا على ذلك جزيل الثواب، " ولنصبرن على ما آذيتونا " من تكذيبنا وشتما في جنب طاعته وابتغاء مرضاته وطلب ثوابه " وعلى الله " يجب ان يتوكل المتوكلون الواقفون بالله دون من كان كفرا، فان وليه الشيطان.

و " المن " اصله القطع يقال: حبل منين اي منقطع عن بلوغ المنية، والمنية لانها تقطع عن امر الدنيا. " ولهم اجر غير ممنوع " (١) اي غير مقطوع، والاذى ضرر يجده صاحبه في حاله يقال: آذاه يؤذيه اذى وتأذى به تأذيا، واكثر ما يقال في الضرر القليل، ويقال ايضا آذاه اذى عظيما، والمثل ماسدمسد صاحبه فيما يرجع إلى ذاته. والهدى الدلالة على طريق الحق من الباطل، والرشد من الغي،

(١) سورة ٤١ حم السجد (فصلت) آية ٨ وسورة ٨٤ الانشقاق آية ٢٥ وسورة ٩٥ التين آية ٦

(٢٨١)

هداه يهديه إلى الدين هدى. والسلطان الحجة التي يتسلط بها على الطالب مذهب المخالف للحق. وقيل في قوله " وما كان لنا ان ان نأتىكم بسلطان الا باذن الله، قولان: احدهما - قال ابو علي الجبائي: انهم سألوا آية مخصوصة غير ما انتهم به الرسل، كما سأله قريش، فقالوا " لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا.. " (١) والثاني - ان ما اتيناكم به باذن الله، لانه مما لا يقدر عليه البشر، ونحن بشر. قوله تعالى:

(وقال الذين كفروا لرسلم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين (١٣) ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) (١٤) آيتان بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن الكفار انهم قالوا لرسلم " انا لنخرجنكم من ارضنا " وبلادنا إلا ان تدخلوا في أدياننا، ومذاهبنا، فحينئذ اوحى الله تعالى إلى رسله إنا نهلك هؤلاء الظالمين الكافرين، ونسكنكم الارض بعدهم ذلك جزاء " لمن خاف مقامي " اي حيث يقيمه الله بين يديه، وأضافه إلى نفسه، كما قال " وتجعلون رزقكم انكم تكذبون " (٢) اي رزقي اياكم قال الفراء: والعرب تضيف افعالها إلى انفسها والى ما وقعت عليه، يقولون سررت برؤيتك، وسررت برؤيتي اياك،

(١) سورة الاسرى ٧١ آية ٩٠ (٢) سورة ٥٦ الواقعة آية ٨٢

(٢٨٢)

وندمت على ضربك وضربي اياك، وخاف وعيدي وعقابي، وانما قالوا " او لتعودن في ملتنا " وهم لم يكونوا على ملتهم قط لامرين:

احدهما - انهم توهموا - ذلك على غير حقيقة - انهم كانوا على ملتهم.

الثاني - انهم ظنوا بالنشوء انهم كانوا عليها دون الحقيقة.

واللام في قوله " ولنخرجنكم " لام القسم والتي في قوله " اولتعودن ايضا مثل ذلك إلا ان فيه معنى الجزاء، لان التقدير لنخرجنكم من ارضنا إلا ان تعودوا أو حتى ان تعودوا، وهو مثل قول القائل: والله لا أكلمك او تدعوني.

والمعنى إلا أن، او حتى تدعوني.

قوله تعالى:

(واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد (١٥) من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) (١٦) آيتان بلا خلاف.

قوله " واستفتحوا " معناه استتصروا وهو طلب الفتح بالنصر، ومنه قوله " وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا " (١) اي يستتصرون وقال ابن عباس: هو استفتاح الرسل بالنصر على قومهم، وبه قال مجاهد وقتادة. وقال الجبائي: هو سؤالهم ان يحكم الله بينهم وبين امهم، لان الفتح الحكم، ومنه قولهم: الفتح الحاكم. وقال ابن زيد: هو استفتاح الكفار بالبلاء والخيبة خلاف ماقدروه من المنفعة، يقال: خاب يخيب خيبة وخيب تخيبا، وضده النجاح، وهو ادراك الطلبة. والجبرية طلب علو المنزلة بما ليس وراءه غاية في الوصف، فاذا وصف العبد بأنه جبار كان ذما، واذا وصف الله به كان مدحا، لان له علو المنزلة بما ليس وراءه غاية في الصفة. والعنيد: هو المعاند إلا ان فيه مبالغة، والعناد الامتناع من الحق مع العلم به، كبرا وبغيا، يقال: عند يعند

(١) سورة البقرة آية ٨٩

(٢٨٣)

عنودا، وعانده معاندة وعنادا قال الشاعر:

اذا نزلت فاجعلاني وسطا * اني كبير لا أطيق العندا (١)

والوراء والخلف واحد، وهو جهة مقابلة لجهة القدام، وقد يكون وراء بمعنى أمام، وقيل: إنه يحتمل ذلك - ههنا - وذكروا أنه يجوز في الزمان على تقدير انه كان خلفهم، لانه يأتي فيلحقهم قال الشاعر:

اتوعدني وراء بني رياح * كذبت لتقصرن يداك دوني (٢)

وقال آخر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب (٣)

وقوله " ويسقى من ماء صديد " يعني يسقى الجبار العنيد صديدا، وهو قيح يسيل من الجرح اخذ من انه يصد عنه تكرها له. والقيح دم مختلط بمدة.

وقوله " صديد " بيان للماء الذي يسقونه، فلذلك اعرب بإعرابه، قال الزجاج: والوراء متوارى عنك، وليس من الاضداد، قال الشاعر:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب (٤)

أي ليس بعدمذهب الله للمرء مذهب.

قوله تعالى:

(يتجرعه ولايكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان

(١) قدم تخريجه في ٦: ١٤ من هذا الكتاب.

(٢) قائله جرير، ديوانه (دار بيروت) ٤٧٥، و (نشر الصاوي) ٥٧٧ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣: ٧٦، ١١٤ ومجاز القرآن ١: ٣٢٦، ٣٣٧ وقدم في ٦: ٢٣٣.

(٣) لم اجده.

(٤) قائله النابغة، ديوانه (دار بيروت) ١٧ من قصيدة يعتذر بها إلى النعمان بن المنذر ويمدحه. وهو في امالي الشريف المرتضى ٢: ١٧

(٢٨٤)

وماهو بميت ومن ورائه عذاب غليظ (١٧) مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد) (١٨) آيتان بلاخلاف.

قوله " يتجرعه " معناه يشرب ذلك الصديد جرعة جرعة، يقال: تجرع تجرعا، وجرعه يجرعه جرعا، والتجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار. وقوله " ولايكاد يسيغه " أي لايقاربه، وانما يضطر اليه. قال الفراء:

(لايكاد) يستعمل فيمايقع وفيما لايقع، فيما يقع هو هذا، ومالم يقع مثل قوله " لم يكد يراها " (١) لان المعنى لم يرها. والاساغة إجراء الشراب في الحلق على تقبل النفس، وهذا يضطر اليه، فلذلك قال " ولايكاد يسيغه " والمعنى فلايقارب ان يشربه تكرها، وهو يشربه، تقول: ساغ يسوغ الشئ وأسغته أنا. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: (مايتجرعه يقرب اليه فينكرهه، فاذا أدني منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع امعاءه حتى يخرج من دبره) كماقال " وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم " (٢) وقال " وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب " (٣)

وقوله " ويأتيه الموت من كل مكان " قيل في معناه قولان:

احدهما - قال ابن عباس والجبائي: من كل جهة، من عن يمينه وشماله ومن فوقه وتحتة ومن قدماه وخلفه. وقال ابراهيم التيمي وابن جريج: معناه " من كل مكان " من جسده حتى من أطراف شعره " وماهو بميت " اي انه مع

(٢٨٥)

إتيان اسباب الموت والشدائد التي يكون معها الموت " من كل جهة " من شدة الاهوال، وأنواع العذاب، وليس هو بميت " ومن ورائه عذاب غليظ " وقيل في معناه قولان: احدهما - من أمامه.

والثاني - ومن بعد عذابه هذا " عذاب غليظ " .

وقوله " مثل الذين كفروا بربهم " اي فيما يتلى عليكم " مثل الذين كفروا بربهم " ، فيكون رفعا بالابتداء ويجوز ان يكون (مثل) مقحما ويبتدئ الذين كفروا.

وقوله " اعمالهم " رفع على البدل وهو بدل الاشتمال عليه في المعنى، لان المثل للاعمال، وقد أضيف إلى الذين كفروا، ومثله " ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة " (١) والمعنى ترى وجوههم مسودة. قال الفراء: لانهم يجدون المعنى في آخر الكلمة، فلا يبالون ما وقع على الاسم المبتدأ، ومثله قوله " لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم " (٢) فاعيدت اللام في البيوت، لانها التي يراد بالسقف. وقال المبرد: (اعمالهم) رفع بالابتداء وخبره (كرماد)، والرماد الجسم المنسحق بالاحراق سحق الغبار. ويمكن ان يجعل (مثل) صفة بغير نار في مقدور الله.

وقوله " اشتدت به الريح في يوم عاصف " فالاشتداد الاسراع بالحركة على عظم القوة، يقال: اشتد به الوجع من هذا، لانه أسرع اليه على قوة ألم والعصف شدة الريح، " يوم عاصف " أي شديد الريح، وجعل العصف صفة اليوم، لانه يقع فيه، كما يقال: ليل نائم، ويوم ماطر، أي يقع فيه النوم والمطر، ويجوز ان يكون لمراد عاصف ريحه، وحذف الريح للدلالة عليه، ومثله حجر ضب خرب اي خرب حجره، ويقال: عصفت الرياح إذا اشتدت وعصفت تعصف عصفوا.

شبه الله تعالى أعمال الكفار في انه لامحصول لها، ولانقاع بها يوم القيامة، بالرماد الذي يشتد فيه الريح العاصف، فإنه لابقاء لذلك الرماد، ولا لبيت

(١) سورة الزمر: (٣٩) آية ٦٠ (٢) سورة الزخرف: ٤٣ آية ٣٣

(٢٨٦)

فكذلك أعمال الكافر لايقدر منها على شئ، كما قال في موضع آخر " وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا " (١) وقوله " ذلك هو الضلال البعيد " اي من وصفناه فهو الذي ضل عن الحق والخير ضلالا بعيدا.

قوله تعالى:

(ألم تر أن الله خلق السموات والارض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٩) وماذلك على الله بعزيز) (٢٠)

آيتان في الكوفي والمدني تمام الاولى " خلق جديد " وآية عند الباقيين.
قرأ حمزة والكسائي " خالق السماوات " على اسم الفاعل. الباقيون " خلق " على (فعل) ماض.
قال ابوعلي: من قرأ " خلق " فلان ذلك ماض فأخبر عنه بلفظ الماضي، من قرأ " خالق " جعله مثل " فاطر السموات والارض " (٢) بمعنى خالق.

ومثله قوله " فالق الاصباح وجعل الليل سكنا " (٣) لانهما فعلا.
يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ويعني به الامة بدلالة قوله " ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد " ألم تعلم، لان الرؤية تكون بمعنى العلم، كما تكون بمعنى الادراك بالبصر وههنا لايمكن ان تكون بمعنى الرؤية بالبصر، لان ذلك لايتعلق بأن الله خلق السموات والارض، وإنما يعلم ذلك بدليل وقوله " بالحق " والحق هو وضع الشئ في موضعه على ماقتضيه الحكمة واذجرى المعنى على ما هو له من الاشياء فهو حق، واذا اجري على ما ليس هو له من الشئ فذلك باطل. والخلق فعل الشئ على تقديره وترتيب، والخالق الفاعل على مقدار ما تدعو الحكم اليه لايجوز عليه غير ذلك.

(١) سورة الفرقان: ٢٥ آية ٢٣ (٢) سورة فاطر: ٣٥ آية ١ (٣) سورة الانعام: ٦ آية ٩٦

(٢٨٧)

وقوله " ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد " خطاب للخلق واعلام لهم أنه قادر ان شاء ان يميم الخلق ويهلكهم ويجئ بدلهم خلقا آخر جديدا. والاذهاب ابعاد الشئ عن الجهة التي كان عليها، ولهذا قيل للاهلاك اذهاب، لانه ابعاد له عن حال اليجاد. والجديد المقطوع عنه العمل في ابتداء أمره قبل حال خلو فيه، واصله القطع يقال: جده يجده جدا إذا قطعه، والجد أب الاب، لانقطاعه عن الولادة بالاب، والجد ضد الهزل، والجد الحظ.

" وماذلك على الله بعزيز " اخبار منه تعالى ان اذهابكم وإهلاككم والاتيان بخلق جديد ليس بممتنع على الله على وجه من الوجوه. والممتنع بقدرته: عزيز، والممتنع بسعة مقدوره عزيز، والممتنع بكبر نفسه عزيز.

وفي الآية دلالة على ان من قدر على الانشاء قدر على الافناء إذ كان مما لايتغير حكم القادر، ولاشئ مما يحتاج اليه في الفعل، لان من قدر على البناء، فهو على الهدم أقدر، فمن كان قادرا على اختراع السماء والارض وما بينهما فهو قادر على اذهاب الخلق وإهلاكهم.

قوله تعالى:

(وبرزوا لله جميعا فقال الضعفو للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) (٢١) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى ان الخلق يبرزون يوم القيامة لله اي يظهرون من قبورهم والبروز خروج الشيء عما كان ملتبساً به إلى حيث يقع عليه الحشر في نفسه، يقال: برز للقتال إذا ظهر له. وبقول الضعفاء " اي يقول الناقص القوة، لان الضعفاء جمع ضعيف،

(٢٨٨)

والضعف نقصان القوة، يقال: ضعف يضعف ضعفاً، واضعفه الله إضعافاً، والضعف ذهاب مضاعفة القوة " للذين استكبروا " اي للذين طلبوا التكبر.

والاستكبار والتكبر والتجبر واحد، وهو رفع النفس فوق مقدارها في الوصف.

والمعنى يقول التابعون للمتبعين من ساداتهم وكبرائهم " انا كنا لكم تبعاً " اي طلبنا اللحاق بكم، واعتمدنا عليكم، وهو جمع تابع، كقولهم: غائب وغيب.

قال الزجاج: ويجوز ان يكون مصدراً وصف به " فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء " اي هل تقدرون على ان تدفعوا عنا ما لا نقدر على دفعه عن أنفسنا، يقال: أغنى عني إذا دفع عني، وأغناني بمعنى نفى الحاجة عني بما فيه كفاية. فأجابهم المستكبرون بأنه " لو هدانا الله " إلى طريق الخلاص من العقاب والوصول إلى النعيم والجنة " لهديناكم " إليه " سواء علينا أجزعنا أم صبرنا " أي الجزع والصبر سياتان مثلاً، ليس لنا من محيص أي مهرب من عذاب الله تعالى يقال: حاص يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاناً، وحاد يحيد حيداً ومحيداً، والحيد الزوال عن المكروه. والجزع انزعاج النفس بورود ما يغم، ونقيضه البر قال الشاعر:

فان تصبراً فالصبر خير مغبة * وان تجزعا فالامر ماتريان (١)

قوله تعالى:

(وقال الشيطان لما قضي الامر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) (٢٢) آية بلاخلاف.

(١) مر هذا البيت في ١: ٢٠٢، ٤، ٤٦ هـ

(٢٨٩)

قرأ حمزة وحده " بمصرخي " بكسر الياء. الباقون بفتحها.

قال ابو علي: قال الفراء - في كتابه في التصريف: قرأ به الاعمش، ويحيى ابن وثاب، قال وزعم القاسم بن معن أنه صواب، وكان ثقة بصيرا، وزعم قطرب أنه لغة في بني يربوع، يزيدون على ياء الاضافة ياء وانشد:

ماض اذا ما هم بالمضي * قال لها هل لك يمامي

وانشد ذلك الفراء، وقال الزجاج: هذا الشعر لايلتفت اليه، ولا هو مما

يعرف قائله، قال الرماني: الكسر لايجوز عند اكثر النحويين، واجازه الفراء على ضعف، قال ابو علي: وجه جوازه من القياس أن الياء ليست تخلو: أن تكون في موضع نصب او جر، فالياء في النصب والجر كالهاء في (هما) وكالكاف في اكرمك وهذا لك، فكما ان (الهاء) قد لحقتها الزيادة في هداكه وضربه، ولحق الكاف الزيادة في قولهم اعطيتكه او اعطيتكاه فيما حكاه سيبويه، وهما اختا الياء كذلك ألحقوا الياء الزيادة، فقالوا: في، ثم حذفت الياء الزيادة على الياء، كما حذفت الياء من (الهاء) في قول من قال: له أرقان. قال ابو الحسن هي لغة، فكما حذفت الزيادة من الكاف، فقال في (اعطيتكه، اعطيتكه)

كذلك حذفت الياء اللاحقة الياء، كما حذفت من اختيها، وأقرت لكسرة التي كانت تلي الياء المحذوفة فبقيت الياء على ماكانت عليه من الكسرة، وكما لحقت الكاف والهاء الزيادة، كذلك لحقت الياء الزيادة، فلحاق الياء الزيادة نحو ما أنشد من قول الشاعر:

رميته فأصميت ومأخطأت الرمية فاذا كانت هذه الكسرة في الياء على هذه اللغة. وإن كان غيرها أفشى منها.

وعضده من القياس ما ذكرنا لم يجز لقائل ان يقول: إن قراءة القراء بذلك لحن يجوز، لاستقامة ذلك سماعا وقياسا.

اخبار الله تعالى في هذه الآية ان الشيطان يوم القيامة يقول لاوليائه الذين اتبعوه:

تفسير التبيان ج ٦ - م ١٩

(٢٩٠)

" ان الله وعدكم وعد الحق " من الثواب والعقاب " ووعدتكم " انا بالخلاص من العقاب بارتكاب المعاصي، وقد خالفت وعدي " وماكان لي عليكم من سلطان " اي لم يكن لي عليكم حجة، ولابرهان اكثر من ان دعوتكم إلى الضلال وأغويتكم، فأجبتوني واتبعتوني " فلا تلوموني " في ذلك " ولوموا انفسكم " بارتكاب المعاصي وخلافكم الله وترككم ما امركم به " ماانا بمصرخكم وماانتم بمصرخي " يقال: استصرخني فأصرخته، اي استغاثني فأغثته، فالاصراخ الاغاثة. والمعنى ماانا بمغيثكم وماانتم بمغيثي " اني كفرت بما اشركتموني من قبل " حكاية عن قول الشيطان لاوليائه انه يقول لهم " اني كفرت " بشركم بالله ومتابعتم لي قبل

هذا اليوم. ثم اخبر تعالى " إن الظالمين " الكافرين " لهم عذاب اليم " مؤلم شديد الالم، ويصح ان يلوم الانسان نفسه على الاساءة، كما يصح حمدها على الاحسان قال الشاعر:

صحبتك إذ عيني عليها غشارة * فلما انجلت قطعت نفسي ألومها (١)

قال الجبائي: وفي الآية دلالة على ان الشيطان لايقدر على الاضرار بالانسان اكثر من إغوائه ودعائه إلى المعاصي، فأما بغير ذلك فلايقدر عليه، لانه اخبر بذلك، ويجب ان يكون صادقا، لان الآخرة لايقع فيها من احد قبيح لكونهم ملجئين إلى تركه.

قوله تعالى:

(وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام (٢٣) ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) توتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال

(١) قائله الحارث بن خالد المخزومي. اللسان (غشا)

(٢٩١)

للناس لعلهم يتذكرون) (٢٥) ثلاث آيات في الكوفي والبصري تمام الثانية " في السماء " وآيتان في الباقي اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين يؤمنون به، ويصدقون بوحدانيته، ويعترفون بنبوته انبيائه ويعملون بما دعاهم اليه من الطاعات والاعمال الصالحات يدخلهم الله يوم القيامة جنات من صفتها انها تجري من تحتها الانهار، لان الجنة البستان الذي يجنه الشجر، فالانهار تجري من تحت الاشجار، وقيل انها الجنة في اخايد في الارض " خالدين فيها " اي مؤبدين فيها دائمين " ونصبه على الحال من حيث انها تدوم لهم " باذن ربهم " اي بأمر ربهم واطلاقه، يخلدون فيها ويكون تحية بعضهم لبعض في الجنة " سلام ". والتحية التلقي بالكرامة في المخاطبة، كقولك احياك الله حياة طيبة، سلام عليك، وماشبه ذلك تبشيرا لهم بدوام السلامة.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ألم تعلم كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء " انما ضرب المثل بالكلمة الطيبة للدعاء اليها في كل باب يحتاج إلى العمل عليه، وفي كل باب من ابواب العلم. ومعنى " فرعها في السماء " مبالغة له في الرفعة، فالاصل سافل، والفرع عال، إلا أنه من الاصل يوصل إلى الفرع. والاصل في باب العلم مشبه بأصل الشجرة التي تؤدي إلى الثمرة التي هي فرع ذلك الاصل، ويشبه بأصل الدرجة التي يترقى منها إلى اعلى مرتبة.

وروي انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الشجرة الطيبة هي النخلة.

وقال ابن عباس: هي شجرة في الجنة.
وقوله " توتي أكلها " اي تخرج هذه الشجرة الطيبة - وهي النخلة - مايؤكل منها في كل حين. وقال ابن عباس - في رواية - يعني ستة اشهر إلى صرام النخل، وهو المروي عن ابي جعفر و ابي عبدالله (ع)، وبه قال سعيد بن جبیر، والحسن.
وقال مجاهد وابن زيد: كل سنة. وقال سعيد بن المسيب: الحين شهران. وفي رواية اخرى عن ابن عباس: غدوة وعشية، وقال قوم: من اكل النخلة: الطلع

(٢٩٢)

والرطب والبسر والتمر، فهو دائم لا ينقطع على هذه الصفة، وأهل اللغة يذهبون إلى ان الحين هو الوقت، قال النابغة:

بيادرها الراقون من سوء سمها * تطلقه حيناً وحيناً تراجع (١)

كذا رواه الاصمعي و (مثلاً) منصوب ب (ضرب) والتقدير ضرب الله كلمة طيبة مثلاً " بإذن ربها " اي يخرج هذا الاكل في كل حين بأمر الله وخلقها اياه " ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون " اخبار منه تعالى انه يضرب المثل للكلمة.

الطيبة بالشجرة الطيبة في البادية والعاقبة، لكي يتذكروا ويتفكروا فيه ويعتبروا به، فيؤديهم ذلك إلى دخول الجنة وحصول الثواب.

وفائدة الآية ان الله ضرب للايمان مثلاً وللکفر مثلاً، فجعل مثل المؤمن الشجرة الطيبة التي لاينقطع نفعها وثمرها، وهي النخلة ينتفع بها في كل وقت، لاينقطع نفعها البتة، لانه ينتفع بطلعها، وبسرها، ورطبها، وتمرها، وسعفها، وليفها، وخصها، وجذعها. ومثل الكافر بالشجرة الخبيثة وهي الحنظلة.

وقيل الاكشوث لاينتفاع به، ولاقرار له ولا أصل، فكذاك الكفر لانفع فيه ولاثبات.

قوله تعالى:

(ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار (٢٦) يثبت الله الذين

آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء (٢٧)

آيتان بلاخلاف.

لماضرب الله المثل للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة التي ذكرها وأكلها، ضرب.

(١) ديوانه (دار بيروت) ٨٠ وروايته:

تناذرها الراقون من سوء سمها * تطلقه طورا وطورا تراجع

(٢٩٣)

المثل للكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي تجتث اي تقلع، يقال: اجتثه اجتثاثا وجثه جثا، ومنه الجثة، والاجتثاث الاستئصال للشئ واقتلعه من أصله، وقال انس بن مالك ومجاهد: الشجرة المثل بها هي شجرة الحنظل، قال أنس:

وهي السرمان. وقال ابن عباس: هي شجرة لم تخلق بعد. والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالاول، والتشبيه في الامثال، لما يحتاج اليه من البيان وهو على وجهين: احدهما - ما يظهر فيه اداة التشبيه. والآخر - ما لا يظهر فيه.

الكلمة الواحدة من الكلام، ولذلك يقال للقسيمة كلمة، لانها قسيمة واحدة من الكلام. والكلمة إنما تكون خبيثة اذا خبت معناها. وهي كلمة الكفر، والطيبة كلمة الايمان، والخبث فساد يؤدي إلى فساد.

وقوله " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا " يعنى كلمة الايمان " وفي الاخرة " قال ابن عباس والبراء بن عازب: هي المسألة في القبر اذا أتاة الملك، فقال له من ربك ومادينك ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الاسلام ونبي محمد صلى الله عليه وسلم. وقال قوم: معنى " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا " يعنى الايمان يثبتهم الله بثوابه في الجنة ويمدحهم فيها.

وقوله " ويضل الله الظالمين " يحتمل امرين:

احدهما - يحكم بضلال الظالمين.

الثاني - يضلهم عن طريق الجنة إلى طريق النار " ويفعل الله مايشاء " من ذلك لا اعتراض عليه في ذلك ولا في غيره مما يريد فعله.
قوله تعالى:

(ألم تر إلي الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار (٢٨) جهنم يصلونها وبئس القرار (٢٩) وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) (٣٠) ثلاث آيات بلاخلاف.

(٢٩٤)

قيل في من منزل فيه قوله " الذين بدلوا نعمة الله كفرا " قولان:

احدهما - قال امير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وابن عباس، وسعيد ابن جبير، ومجاهد، والضحاك: انهم كفار قريش، فقال (ع): (أما بنو المغيرة فأبأدهم الله يوم بدر، وأما بنو أمية فقد أمهلوا إلى يوم ما) وقال قتادة: هم القادة من كفار قريش. وروي عن عمر أنه قال: هما الافجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية. فأما بنو أمية فمتعوا إلى حين، وأما بنو

المغيرة فقتلوه يوم بدر أنعم الله تعالى عليهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، فكفروا به ودعوا قومهم إلى الكفر به، فقال الله تعالى لنبيه: أما تنتظر إلى هؤلاء الذين كفروا بنعم الله وبدلوا مكان الشكر عليها كفرا " وأحلوا قومهم دار البوار " أي أنزلوا قومهم دار الهلاك بدعائهم إياهم إلى الكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم وإغوائهم إياهم وصددهم عن الإيمان به. والتبديل جعل الشيء مكان غيره، فهؤلاء القوم لما جعلوا الكفر بالنعمة مكان شكرها، كانوا قد بدلوا أقبح تبديل. والاحلال وضع الشيء في محل، اما مجاوره إن كان من قبيل الاجسام، او مداخله إن كان من قبيل الاعراض.

والبوار الهلاك، بار الشيء يبور بورا إذا هلك وبطل. قال ابن الزبيري.

يا رسول الملوك ان لساني * راتق ما فتقت إذ أنا بور (١)

وقوله " جهنم يصلونها " في موضع نصب بدلا من قوله " دار البوار " لانه تفسير لهذه الدار " يصلونها " اي يصلون فيها ويشتون فيها. ثم أخبر انها بنس القرار اي بنس المستقر والمأوى. ثم قال: ان هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفرا واحلوا قومهم دار البوار " جعلوا الله اندادا " زيادة على كفرهم وحجدهم نعم الله. والانداد جمع ند. وهم الامثال المناؤون، قال الشاعر:

(١) قائله عبدالله بن الزبيري السهمي. تفسير الطبري ١٣: ١٣٠، ومجاز القرآن ١: ٣٤٠ واللسان (بور)، وروايته (يارسول الاله)

(٢٩٥)

نهدي رؤس المترفين الانداد * إلى امير المؤمنين الممتاد (١)

" ليضلوا عن سبيله " اي لتكون عاقبة أمرهم إلى الضلال الذي هو الهلاك، واللام لام العاقبة، وليست بلام الغرض، لانهم ماعبدوا الاوثان من دون الله، وغرضهم ان يهلكوا، بل لما كان لاجل عبادتهم لها استحقوا الهلاك والعذاب عبر عن ذلك بهذه اللام، كما قال " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وخرنا " (٢) وإنما التقطوه ليكون لهم قررة عين، ولكن لما كان عاقبة ذلك انه كان عدوهم فعبر عنه بهذه اللام.

وقرأ بضم الياء وكسر الضاد، والمعنى انهم فعلوا ذلك ليضلوا غيرهم عن سبيل الحق الذي هو الطريق إلى ثواب الله والنعيم في جنته، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء الكفار الذين وصفناهم " تمتعوا " وانتفعوا بما تهوون من عاجل هذه الدنيا، فصورتها

صورة الامر والمراد به التهديد بدلالة قوله " فإن مصيركم إلى النار " والمعنى مرجعكم ومآلكم إلى النار والكون فيها عما قليل.
قوله تعالى:

(قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال (٣١) آية بلاخلاف.
أمر الله تعالى نبيه ان يقول لعباده المؤمنين المعترفين بتوحيد الله وعدله يداومون على فعل الصلاة وقيمونها بشرائطها وينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية أي ظاهرا وباطنا، وموضع " يقيموا " جزم من ثلاثة اوجه:

(١) قائله العجاج ديوانه ٤٠ ومجاز القرآن ١: ٣٠٠ وتفسير الطبري ١٢: ٧٩ ومجمع البيان ٣: ٢٠٠ وقد مر في ٤: ٦٣، ٦: ٨٢ (٢) سورة القصص آية ٨.

(٢٩٦)

أحدها - انه جواب الامر وهو " قل " الثاني - هو جواب أمر محذوف، وتقديره قل لهم أقيموا يقيموا.

الثالث - بحذف لام الامر لان في " قل " دلالة عليه، والمعنى ليقيموا، وعلى هذا يجوز ان نقول: قل له يضرب، ولايجوز يضرب زيدا، لانه عوض من المحذوف ذكره الزجاج.
" من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولاخلال " المعنى بادروا بافعال الخير من اقامة الصلاة وابتاء الزكاة وأفعال الخير " قبل ان " يأتيكم يوم القيامة الذي لابيع فيه ولاشراء، والمراد - ههنا - ولافداء تفدون بها نفوسكم من عذاب الله " ولاخلال " اي ولا مخاللة، تقول: خاللت فلانا مخاللة وخلالا، قال امرؤ القيس:

صرفت الهوى عنهن من خيفة الردى * ولست بمقلي الخلال ولاقالي (١)
والمخاللة اصفاء المودة، وقد يكون الخلال جمع خلة مثل قلة، وقلال.
وظلة وظلال.
قوله تعالى:

(الله الذي خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار (٣٢) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار (٣٣) وآتكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا

تحصوها إن الانسان لظلم كفار) (٣٤) ثلاث آيات في الكوفي والمدنيين وآيتان فيما عداها،
آخر الاولى " الانهار ".
أخبر الله تعالى انه (عزوجل) اخترع السموات والارض وانشأهما بلامعين.

(١) ديوانه: ١١٣ وتفسير الطبري ١٣: ١٣٣

(٢٩٧)

ولامشير " وأنزل من السماء ماء " يعني غيثا ومطرا فأخرج بذلك الماء الثمرات رزقا لعباده،
وسخر لهم المراكب في البحر لتجري بأمر الله، لأنها تسير بالرياح والله تعالى المنشئ للرياح
" وسخر لكم الانهار " التي تجري بالمياه التي ينزلها من السماء، ويجريها في الاودية،
وينصب منها في الانهار " وسخر لكم الشمس والقمر دائبين " معناه ذلل لكم الشمس والقمر
ومهدهما لمنافعكم، وتدبير الله لما سخره للعباد ظاهر لكل عاقل متأمل لا يمكنه الانصراف عنه
الإعلى وجه المعاندة والمكابرة، ولدؤوب مرور الشئ في العمل على عادة جارية فيه دأب
يدأب دأبا ودؤوبا فهو دائب، والمعنى دائبين، لايفتران، في صلاح الخلق والنبات، ومنافعهم "
وسخر لكم الليل والنهار " أي ذللها لكم، ومهدهما لمنافعكم، لتسكنوا في الليل، وتبتغوا في
النهار من فضله " وأتاكم من كل ما سألتموه " معناه ان الانسان قد يسأل الله العافية فيعطى،
ويسأله النجاة فيعطى، ويسأله الغنى فيعطى، ويسأله الملك فيعطى، ويسأله الولد فيعطى،
ويسأله العز وتيسير الامور وشرح الصدر فيعطى، فهذا في الجملة حاصل في الدعاء لله تعالى
مالم يكن فيه مفسدة في الدين عليه وعلى غيره، فأين يذهب به مع هذه النعم التي لاتحصى
كثرة، عن الله الذي هو في كل حال يحتاج اليه، وهو مظاهر بالنعم عليه.
ودخلت (من) للتبعيض، لانه لو كان وآتاكم كل ما سألتموه لاقتضى ان جميع مايسأله العبد
يعطيه الله، والامر بخلافه، لان (من) تنبئ عنه.

وقال قوم: ليس من شئ الا وقد سأله بعض الناس، والتقدير كل ما سألتموه قد أتى بعضكم.
وقوله " وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها " معناه وان تروموا عداها بقصدكم اليه لاتحصونها
لكثرتها، ويروى عن طلق بن حبيب، أنه قال: ان حق الله اثقل من ان تقوم به العباد، وان نعم
الله اكثر من ان تحصيها العباد، ولكن، اصبحوا تائبين، وامسوا تائبين.
وقوله " ان الانسان لظلم كفار " اخبار منه تعالى أن الانسان يعني من تقدم.
وصفه بالكفر كثير الظلم لنفسه ولغيره، وكفور لنعم الله غير مؤد لشكرها.

(٢٩٨)

وقرئ " من كل ماسألتموه " بالتثوين، قال الفراء: كأنهم ذهبوا إلى أنالم نسأله تعالى شمسا ولاقمرا ولاكثيرا من نعمه فكأنه قال: وآتاكم من كل مالم سألتموه، والاول أعجب الي، لان المعنى آتاكم من كل ماسألتموه لو سألتموه، كأنه قال وآتاكم من كل سؤلکم، كما تقول: والله لاعطينك سؤلک مابلغته مسألتك وان لم تسأل. قال المبرد: يريد مايخطر ببالك، ومن أضاف جعل (ما) في موضع نصب، وهي بمعنى الذي. ومن نون جعلها نافية. قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد امانا واجنبي وبني أن نعبد الاصنام (٣٥) رب إنهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) (٣٦) آيتان بلاخلاف.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اذكر " اذ قال ابراهيم " يا " رب اجعل هذا البلد " يعني مكة ومحولها من الحرم " آما " يعني يأمن الناس فيه على نفوسهم واموالهم. (والامن) سكون النفس إلى زوال الضرر، وهو نقيض الخوف، ومثله الطمأنينة إلى الامر. وقوله " واجنبي " اي اصرفني عنه، جنبته اوجنبه، جنبا وجنبته الشر تجنيبا، واجنبته اجتنابا، قال الشاعر:

وتنقض عهده شققا عليه * وتجنبه فلا يصنا الصعابا (١)

" واجنبي " اي واصرفني " وبني ان نعبد الاصنام " اي جنبنا عبادة الاصنام بلطف من الطافك الذي نختار عنده الامتناع من عبادتها. ودعاء الانبياء

(١) تفسير الطبري ١٣: ١١٣ ومجاز القرآن ١: ٣٤٢

(٢٩٩)

لايكون الا مستجابا، فعلى هذا يكون سؤاله ان يجنب نبيه عبادة الاصنام مخصوصا بمن علم الله من حاله ان يكون مؤمنا، لايعبد الا الله، ويكون الله تعالى اذن له في الدعاء لهم، فيجيب الله تعالى ذلك لهم.

وقوله " رب انهن اضللن كثيرا من الناس " اخبار من ابراهيم ان هذه الاصنام ضل كثير من الناس بها حتى عبدوها فكأنها اضلتهم، كمايقول القائل:

فتنتني فلانة اي فتنت بها، قال الشاعر:

هبوني أمراء منكم أضل بغيره يعني ضل بغيره عنه، لان احدا لايضل بغيره قاصدا إلى اضلاله.

وقوله " فمن تبعني " حكاية ما قال ابراهيم من ان من يتبعه في عبادة الله وحده وترك عبادة الاصنام، فانه منه وعلى دينه. " ومن عصاني " في ذلك وعبد مع الله غيره، وعصاه في اوامره " فانك " يا الله " غفور رحيم " اي ستار على عبادك معاصيهم رحيم بهم اي منعم عليهم في جميع الاحوال. وقيل المعنى " انك غفور رحيم " بهم ان تابوا واقلعوا عما هم عليه من الكفر.

قوله تعالى:

(ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (٣٧) ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء) (٣٨) آيتان بلاخلاف. هذا حكاية مادعا به ابراهيم (ع)، فإنه قال يارب " اني اسكنت من ذريتي " اي جعلت مأواهم ومقرهم الذي يقرون فيه ويسكنون اليه. والسكنى اتخاذ

(٣٠٠)

مأوى لصاحبه يسكن اليه في ليله، ومتى يشاء من اوقاته، اسكن البلدة والدار اذا جعله مأوى له، (والذرية) جماعة الولد على تنسئته من حين يظهر إلى ان يكبر، والمراد بالذرية ههنا: اسماعيل وامه هاجر حين اسكنه وادي مكة، وهو الابطح، ولم يذكر مفعول اسكنت، لان (من) تفيد بعض القوم، كما يقال: قتلنا من بني فلان، اكلنا من الطعام، وشربنا من الماء، قال تعالى " افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله " (١) فموضع (من) نصب والوادي سفح الجبل العظيم ومن ذلك قيل للانهار العظام اودية، لان حافاتهما كالجبال لها، ومنه الدية، لانها مال عظيم يتحمل في امر عظيم من قتل النفس المحرمة.

" غير ذي زرع " أي لا زرع في هذا الوادي أي لانبات فيه، والزرع كل نبات ينغرس من غير ساق، وجمعه زروع " عند بيتك المحرم " معناه حرم فيه مأحل في غيره من البيوت، من الجماع، والملابسة بشئ من الدم، والنجاسة، وانما أضاف البيت إلى الله، لانه مالكة من غير ان يملكه احد سواه، لان ما عداه قد ملك غيره من العباد. وسماه بيتا قبل ان يبنيه ابراهيم لامرئين:

احدهما - انه لما كان المعلوم انه يبنيه فسماه ما يكون بيتا.

والثاني - قيل أنه كان البيت قبل ذلك، وانما خربته طسم واندوس. وقيل انه رفع عند الطوفان إلى السماء.

وقوله " ربنا ليقيموا الصلاة " اي اسكنتهم هذا الوادي ليدوموا على الصلاة ويطهروها بشرائطها.

" فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم " سؤال من ابراهيم (ع) ان يجعل الله تعالى قلوب الخلق تحن إلى ذلك الموضع، ليكون في ذلك انس ذريته بمن يرد من الوفود ويدر ارزاقهم على مرور الاوقات. " وارزقهم من الثمرات " مسألة منه ان يرزق ذريته من انواع الثمار لكي يشكروه على نعمه وفنون احسانه.

(١) سورة الاعراف - ٧ - آية ٥٠.

(٣٠١)

" ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن " اعتراف من ابراهيم لله تعالى بانه " عزوجل " يعلم ماخفي الخلق وما يظهره، وانه لا يخفي عليه شئ من ذلك مما يكون في الارض، ومما يكون في السماء مع عظمها وبعد ما بينهما، لانه عالم لنفسه بجميع المعلومات. وقال قوم: ان قوله " وما يخفي على الله من شئ في الارض ولا في السماء " اخبار منه تعالى بذلك دون الحكاية. قوله تعالى:

(الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق ان ربي لسميع الدعاء (٣٩) رب اجعلني مقيم الصلوة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء (٤٠) ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) (٤١) ثلاث آيات بلاخلاف.

هذا حكاية من الله تعالى باعتراف ابراهيم (ع) بنعم الله تعالى، وحمده اياه على احسانه بما وهب له على كبر سنه ولدين: اسماعيل واسحق. وانه اخبر بأن ربه الذي خلقه يجيب الدعاء لمن يدعوه وذلك يدل على انه كان تقدم منه مسألة الله تعالى أن يهب له ولدا، فلذلك كان مجيبا له. والحمد هو الوصف الجميل على وجه التعظيم لصاحبه والاجلال له وفرق الرماني بين الحمد والمدح بان المدح: هو الوصف للشئ بالخير من جهته على وجه التعظيم له، فعله او لم يفعله، ولكن كان سببا يؤدي اليه، وليس كذلك الحمد. والذم: نقيض لهما، لانه الوصف بالقبيح على جهة التحقير. والهبة عطية التملك من غير عقد ماثمة يقال: وهب له كذا يهبه هبة، فهو واهب. والدعاء طلب الفعل بدلالة القول ومادعا الله (عزوجل) اليه فقد أمر به ورغب فيه، ومادعا العبد به ربه فالعبد راغب فيه، ولذلك لا يجوز ان يدعو الانسان بلعنه ولاعقابه، ويحوز ان يدعو على غيره به. والتقبل أخذ العمل على طريقة ايجاب الحق به مقابلة عليه.

وقال سعيد بن جبير: بشر ابراهيم بالولد بعد مئة وسبعة عشرة سنة.

(٣٠٢)

وقوله " رب اجعلني مقيم الصلاة " سؤال من ابراهيم (ع) الله تعالى ان يجعله ممن يقيم شرائط الصلاة ويدوم عليها بلطف يفعله به يختار ذلك عنده، وسأله ان يفعل مثل ذلك بذريته، وأن يجعل منهم جماعة يقيمون الصلاة، وهم الذين اعلمه الله ان يقوموا بها دون الكفار الذين لا يقيمون الصلاة " ربنا وتقبل دعاء " رغبة منه اليه تعالى ان يجيب دعاءه فيما سأله وقوله " ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب " نداء من ابراهيم الله تعالى ان يغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين، وهو ان يستر عليهم ما وقع منهم من المعاصي عند من أجاز الصغائر عليهم، ومن لم يجز ذلك حمل ذلك على أنه انقطاع منه اليه تعالى فيما يتعلق به، وسؤال على الحقيقة في غيره. وقد بينا ان أبوي ابراهيم لم يكونا كافرين (١) وفي الآية دلالة على ذلك، لانه سأل المغفرة لهما يوم القيامة، فلو كانا كافرين لما قال ذلك، لانه قال تعالى " فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه " (٢) فدل ذلك على ان أباه الذي كان كافرا جده لأمه او عمه على الخلاف. قال البلخي: ان أمه كانت مؤمنة، لانه سأل ان يغفر لابيه وحكى أنه " كان من الضالين " (٣) وقال " إلا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك " (٤) ولم يقل لابويه " ويوم يقوم الحساب " أي يقوم فيه الحساب. والعامل في يوم قوله (اغفر). قوله تعالى:

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار (٤٢) مهطعين مقنعي رؤسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) (٤٣) آيتان بلاخلاف.

(١) انظر ٤: ١٨٩ من هذا الكتاب (٢) سورة التوبة آية ١١٥ (٣) سورة الشعراء آية ٨٦ (٤) سورة الممتحنة آية ٤

(٣٠٣)

قرأ الجماعة " انما يؤخرهم " بالياء. وروي عن أبي عمرو بالنون قال أبو علي: وجه القراءة بالياء ان الغيبة للمفرد قد تقدم، فتكون بالياء على " فلاتحسبن الله مخلف وعده.. إنما يؤخرهم " ووجه القراءة بالنون أنه مثل الياء في المعنى، وقد تقدم مثله كثيرا. هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم نهاه الله تعالى، والمراد به، الامة ان يظن ان الله غافل عن أعمال الظالمين، ومهمل لامورهم. والغفلة والسهو واحد. ثم بين الله تعالى أنه إنما يعاجلهم بالعقوبة ويؤخر عقابهم ليعذبهم في اليوم الذي تشخص فيه الابصار، وهو يوم القيامة. وشخص البصر ان تبقى العين مفتوحة لانتطبق لعظم ذلك اليوم " مهطعين " قال سعيد بن جبير والحسن وقتادة: مسرعين، يقال: أهطع أهطاعا اذا أسرع قال الشاعر:

بمھطع سرح كان زمامه * في رأس جذع من أراك مشذب (١)
وقال الآخر:

بمستھطع رسل كان جديله * بقيدوم رعن من صوام ممنع (٢)
وقال ابن عباس: المھطع الدائم النظر لاتطرف عينه، وقال ابن دريد: المھطع:
المطرق الذي لايرفع رأسه.. وقوله " مقنعي رؤسهم " قال ابن عباس ومجاهد والضحاك
وقتادة وابن زيد: معناه رافعي رؤسهم واقناع الرأس رفعه، قال الشماخ:
يباكرن العضاه بمقنعات * نواجذهن كالحدا الرقيع (٣)
يعنى يباكرن العضاه بمقنعات اي برؤس مرفوعات اليها ليتناول منها، يصف

(١) مجاز القرآن ١: ٣٤٢ وتفسير الطبري ١٣: ١٤١ (٢) اللسان، والتاج (قدم) والاساس (مطع) ومجاز القرآن ١:
٣٤٣ وتفسير الطبري ١٣: ١٤٢، (٣) ديوانه ٥٦ ومجاز القرآن ١: ٣٤٣ والطبري ١٣: ١٤٢ واللسان والتاج
(حدا)
ومجمع البيان ٣: ٣٢.

(٣٠٤)

ابلاله له ترعي الشجر، وأن أسنانها مرتفعة كالفؤس، وقال الراجز:
انقض نحوي رأسه واقنعا * كأنما أبصر شيئاً اطمعا (١)
وقوله " لايرتد اليهم طرفهم " اي لا ترجع اليهم اعينهم ولا يطبقونها.
وقوله " وأفتدنتهم هواء " معناه منخرقة لاتعي شيئاً للخوف والفرع الذي دخلها، فهي كهواء
الجو، في الانخراق وبطلان الامساک.
وقوله " يوم يأتيهم " نصب على انه مفعول به والعامل فيه انذرهم، كأنه قال خوفهم عقاب الله،
ولايكون على الظرف، لانه لم يؤمر بالانذار في ذلك اليوم. وقيل في قوله " وأفتدنتهم هواء "
ثلاثة اقوال.
اولها - قال ابن عباس ومرة والحسن: منخرقة لاتعي شيئاً، وفارغة من كل شئ إلا من ذكر
إجابة الداعي.

الثاني - قال سعيد بن جبیر: يردد في أجوافهم لايستقر في مكان.
الثالث - قال قتادة: خرجت إلى الحناجر لاتتفضل، ولاتعود، وكل ذلك تشبيه بهواء الجو،
والاول اعرف في كلام العرب. وقال حسان بن ثابت:
ألا أبلغ أبا سفيان عنى * فانت مجوف نخب هواء (٢)
وقال زهير:

كأن الرجل منها فوق صعل * من الظلمان جوؤه هواء (٣)
وقيل ان الظليم لافؤاد له وقال آخر:
ولأنك من اخدان كل يراعة * هواء كسقب البان خوفا يكاسره (٤)

(١) تفسير الشوكاني ٣: ١١٠ وتفسير الطبري ١٣: ١٤٢ ومجاز القرآن ١: ٣٤٤ (٢) ديوانه ٨، واللسان والتساج (هوء، جوف) والطبري ١٣: ١٤٤ ومجمع البيان ٣: ٣٢٠ وقد مر في ١: ٤١ من هذا الكتاب.
(٣) ديوانه (دار بيروت) ٩، ومجمع البيان ٣: ٣٢٠ (٤) هذا البيت منسوب إلى صخر الغي. ونسب أيضا إلى كعب.
التاج (هوا) والطبري ١٣: ١٤٤ ومجاز القرآن ١: ٣٤٤

(٣٠٥)

قوله تعالى:

(وأندر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) (٤٤) آية بلاخلاف.
امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ان يقول للناس على وجه التخويف لهم من عقابه، ويحذرهم يوم يجيئهم العذاب من الله على معاصيهم في دار الدنيا، وهو يوم القيامة، ويقول " الذين ظلموا " نفوسهم بارتكاب المعاصي وترك الواجبات يا " ربنا أخرنا إلى أجل قريب " أي ردنا إلى الدنيا واجعل ذلك مدة قريبة نجب دعوتك فيها ونتبع رسلك فيما يدعوننا اليه، فيقول الله تعالى " أولم تكونوا أقسمتم " وحلفتم في دار الدنيا " مالكم من زوال ". قال مجاهد: معناه إنهم اقسما في الدنيا أنه ليس لهم انتقال من الدنيا إلى الآخرة. وقال الحسن: معناه " من زوال " إلى العذاب.

والاجل الوقت المضروب لانقضاء الامد، والامد مدة من المدد، فانما طلبوا أجلا يستدركون فيه مافات من الفساد بالصلاح، وفي المعلوم أنهم يبعدون من الفلاح.
وفي الآية دلالة على ان أهل الآخرة غير مكلفين بخلاف مايقول النجار وجماعة من المجبرة، لانهم لوكانوا مكلفين لماكان لقله " أخرنا إلى اجل قريب " معنى، لانهم مكلفون، وكانوا يؤمنون ويتخلصون من العقاب.

وقوله " فيقول " رفع عطا على قوله " يوم يأتيهم العذاب " وليس بجواب الامر لانه لوكان جوابا له لجاز فيه النصب والرفع، فالنصب مثل قول الشاعر:

تفسير التبيان ج ٦ - م ٢٠

(٣٠٦)

ياناق سيرى عنقا فسيحا * إلى سليمان فنستريحا (١)

والرفع على الاستئناف وذكر الفراء ان العلاء بن سبابة كان لاينصب في جواب الامر بالفاء
قال: والعلاء هو الذي علم معاذاً ولهوا وأصحابه.
قوله تعالى:

(وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال (٤٥)
وقد مكروا مكروهم وعندالله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال) (٤٦) آيتان بلاخلاف.
قرأ الكسائي وحده " لتزول " بفتح اللام الاولى، وضم الثانية. وروي ذلك عن علي (ع).
الباقون بكسر اللام الاولى وفتح الثانية.

قال أبوعلي: من كسر اللام الاولى وفتح الثانية جعل (إن) بمعنى (ما)
والتقدير وماكان مكروهم لتزول، ومثل ذلك قوله " إن الكافرون إلا في غرور (٢) ". ومعناه ما
الكافرون، ومعنى الآية " وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم " اي جزاء مكروهم، فحذف
المضاف كماحذف من قوله " ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا، وهو واقع بهم (٣) " اي
جزاؤه، والمعنى قدعرف الله مكروهم، فهو يجازيهم عليه وماكان مكروهم لتزول منه الجبال. و
(الجبال)

كأنه اراد بها القرآن وأمر النبي صلى الله عليه وسلم وأعلامه ودلالاته أي ماكان ليزول منه
ماهو مثل الجبال في امتناعه ممن أراد إزالته.

(١) تفسير الطبري ١٣: ١٤٤ ومجمع البيان ٣: ٣٢٠ واكثر كتب النحو يشهدون به على اضمار (أن) بعد الفاء
المسوقة بطلب.

(٢) سورة الملك (تبارك) ٦٧ آية ٢٠ (٣) سورة الشورى ٤٢ آية ٢٢

(٣٠٧)

ومن قرأ بفتح اللام الاولى وضم الثانية جعل (ان) هي المخففة من الثقيلة على تعظيم أمر
مكروهم، وهو في تعظيم مكروهم، كماقال في موضع آخر " ومكروا مكرا كبارا (١) " أي
قدكان مكروهم من الكبر والعظم بحيث يكاد يزيل ماهو مثل الجبال في الامتناع، على من أراد
إزالته ومثله في تعظيم الامر قول الشاعر:

ألم تر صدعا في السماء مبينا * على ابن لبينى الحارث بن هشام (٢)
وقال آخر:

بكى حارث الجولان من موت ربه * وهوران منه خاشع متضائل (٣)
وقال أوس:

ألم تكسف الشمس شمس النهار * مع النجم والقمر الواجب (٤)
فهذا كله على تعظيم الامر وتفخيمه ويدل على ان الجبال يعني بها أمر النبي صلى الله عليه
وسلم قوله بعد ذلك " فلاتحسبن الله مخلف وعده رسله " اي بعد وعدك الظهور عليهم والغلبة
لهم في قوله " ليظهره على الدين كله " (٥) وفي قوله " قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون "
(٦) وقد استعمل لفظ الجبال في غير هذا في تعظيم الشئ وتفخيمه قال ابن مقبل:
إذا مت عن ذكر القوافي فلن ترى * لها شاعرا مثلي اطب واشعرا
واكثر بيتا شاعرا ضربت به * بطون جبال الشعر حتى تيسرا (٦)

-
- (١) سورة نوح ٧١ آية ٢٢ (٢) مجمع البيان ٣: ٣٢٢ (٣) قائله النابغة الذبياني. ديوانه (دار بيروت) ٩١ واللسان
(حرث) وروايته الديوان (موحش) بدل (خاشع) وروايتهما معا (فقد) بدل (موت).
(٤) ديوانه (دار بيروت) ١٠ وروايته:
ألم تكسف الشمس والبدر وال * كواكب للجبل الواجب
(٥) سورة التوبة آية ٣٤ وسورة الفتح آية ٢٨ وسورة الصف آية ٩ (٦) سورة آل عمران آية ١٢ (٧) مجمع
البيان ٣: ٣٢٢

(٣٠٨)

يقول الله تعالى للكفار " اولم تكونوا اقستمت من قبل مالكم زوال " مما انتم عليه من النعيم وأنتم " سكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم " بارتكاب المعاصي وكفران نعم الله، فأهلكم الله " وضربنا لكم الامثال " والمعنى ان مثلكم كمثلم في الاهلاك اذا اقمتم على ما اقاموا عليه، من الفساد والتتابع في المعاصي " ومكروا مكروهم " يعني الكفار الذين ظلموا انفسهم مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم واحتالوا له، ومكروا بالمؤمنين وخدعوه " وعند الله " جزاء مكروهم، ولم يكن مكروهم ليبطل حجج القرآن ومامعك من دلائل النبوة، فلا يبطل شئ منه، لانه ثابت بالدليل والبرهان.

وعلى القراءة الاولى ولو كان مكروهم يزيل الجبال من عظمه وشدته، لما أزال أمر النبي صلى الله عليه وسلم لانه أثبت من الجبال. وروي عن علي (ع) وجماعة انهم قرؤوا " وان كاد مكروهم " من المقاربة. قال سعيد بن جبير وغيره: ان قوله " ومكروا مكروهم " نزلت في صاحب النسرين الذي أراد صعود السماء. وقال قوم: مكروهم كفرهم بالله وشركهم في عبادته. قوله تعالى:

(فلاتحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام (٤٧) يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) (٤٨) آيتان بلاخلاف. قرئ في الشواذ " مخلف وعده رسله " وهي شاذة رديئة، لانه لا يجوز ان يفصل بين المضاف والمضاف إليه، وانشد الفراء: فرجبتها بمزجة زج القلوص ابي مزاده (١)

(١) انظر ٤: ٣٠٩ من هذا الكتاب.

(٣٠٩)

والمعنى زج ابي مزادة القلوص، والصحيح ما عليه القراء، وتقديره مخلف وعده رسله، كما تقول هذا معطي زيد درهما، والمعنى مخلف رسله وعده يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم " لاتحسبن الله " اي لاتظنه مخلف ما وعدك به من الظفر بهم والظهور عليهم، فانه لا يخلف ما وعد رسله به. ثم أخبر ان الله تعالى قادر لا يغالب ينتقم ممن يكفر بنعمه ويكذب انبيائه. والانتقام هو العقاب.

" يوم تبدل الارض غير الارض " العامل في " يوم " الانتقام، وتقديره ذو انتقام يوم تبدل. والتبديل التغيير برفع الشئ إلى بدل. وقيل ان تبديل الارض بغيرها برفع الصورة التي كانت

عليها إلى صورة غيرها. وقال ابن عباس ومجاهد وأنس بن مالك وابن مسعود: يبذل الله هذه الارض بأرض بيضاء كالفضة، لم يعمل عليها خطيئة. والاول قول الحسن. وقوله " والسماوات " تقديره تبدل السماوات غير السماوات وحذف لدلالة الكلام عليه. وقيل تبديل الارض بتسيير الجبال وتفجير بحارها وكونها مستوية " لاترى فيها عوجا ولامنا " (١) وتبديل السماوات انتشار كواكبها، وانفطارها، وتكوير شمسها وخسوف قمرها. وقوله " وبرزوا لله الواحد القهار " معناه يظهرون من قبورهم. والبروز الظهور وبرز يبرز بروزا، فهو بارز، وبارز قرنه مبارزة " لله الواحد القهار " والمعنى الواحد لاشبه له ولانظير. والقهار المالك الذي لايضام. قوله تعالى:

(وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الاصفاد (٤٩) سراويلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) (٥٠) آيتان بلاخلاف.

(١) سورة طه آية ١٠٧

(٣١٠)

يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم انك يا محمد ترى الذين اجرموا وفعلوا المعاصي، من الكفر وجدد النعم، يوم القيامة " مقرنين في الاصفاد " اي قرنت أيديهم بالغل إلى اعناقهم. وقال الجبائي: قرن بعضهم إلى بعض، والصفد الغل الذي يقرن به اليد إلى العنق، ويجوز ان يكون السلسلة التي يقع بها التقرين، وأصل الصفد القيد، وهو الصغاد، وجمعه صفد، قال عمرو بن كلثوم:

فأبوا بالنهاج وبالسبايا * وابناء الملوك مصفدينا (١)

اي مقيدين، ومنه اصفدته اصفادا، اذا أعطيته مالا، قال الاعشى:

تضيفته يوما فاكرم مجلسي * واصفدني عند الزمانة قائنا (٢)

وقال الذبياني:

هذا الثناء فان تسمع لقائله * فما عرضت أبيت اللعن بالصفد (٣)

اي ماتعطيته: وانما قيل لها: صفد، لانها تقيد المودة وترتبطها. وقال قتادة: الاصفاد القيود والاعلال، والسراويل القميص - في قول ابن زيد - واحدها سربال، قال امرؤ القيس:

لعوب تنسيني اذا قمت سربالي (٤)

و (القطران) هو الذي تهنأ به الابل - في قول الحسن - وفيه لغات، قطران بفتح القاف وكسر الطاء، وبتسكين الطاء وكسر القاف. ويجوز فتحها، قال ابوالنجم:

-
- (١) تفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣: ١١٣ ومجمع البيان ٣: ٢٢٣ (٢) ديوانه (دار بيروت) ٤٤ وروايته (قرب مقدي) بدل (فأكرم مجلسي). وهو في مجمع البيان ٣: ٣٢٣ ومجاز القرآن ١: ٣٤٥ وتفسير الطبري ١٣: ١٥٢ (٣) ديوانه (دار بيروت) ٣٧ وروايته:
هذا الثناء فان تسمع به حسنا * فلم أعرض ابيت اللعن بالصفد
(٤) ديوانه (الطبعة الرابعة سنة ١٩٥٩) ١٦٠ وصدرة: ومثلك بيضاء العوارض طفلة

(٣١١)

جون كأن العرق المنتوحا * ألبسه القطران والمسوحا (١)
فكسر القاف وقال ايضا:

كان قطرانا اذا تلاها * ترمي به الريح إلى مجراها (٢)
وإنما جعلت سرايلهم من قطران، لان النار تسرع اليها، وقرئ "قطران" وروي ذلك عن ابن عباس، والقطر النحاس ومنه قوله "اتوني افرغ عليه قطرا" (٣) والمعنى من قطر بالغ حره، انتهى. والقراء على انه اسم واحد على وزن الظربان، والظربان دابة منتنة فساءة، وهي من السباع "وتغشى وجوههم" معناه تجللها.
قوله تعالى:

(ليجزى الله كل نفس ماكسبت إن الله سريع الحساب (٥١) هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الالباب) (٥٢) آيتان بلا خلاف.
أخبر الله تعالى بأنه إنما فعل ما تقدم ذكره "ليجزى الله كل نفس" الذي كسبت إن كسبت خيرا أتاه الله بالنعيم الابدي في الجنة، وإن كفرت وحجبت وكسبت شرا عاقبها بنار جهنم مخلدة فيها "إن الله سريع الحساب" اي سريع المجازاة.
وقيل معنى "سريع الحساب" لايشغله محاسبة بعضهم عن محاسبة آخرين.
والكسب فعل مايجلب به النفع للنفس او يدفع به الضرر عنها. والكسب ليس بجنس الفعل، والله تعالى يقدر على مثله في الجنس.
وقوله "هذا بلاغ" قال ابن زيد وغيره من المفسرين: هو إشارة إلى القرآن،

(١، ٢) مجمع البيان ٣: ٣٢٣ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣: ١٥٣ (٣) سورة الكهف اية ٩٧

(٣١٢)

ففيه بلاغ للناس، لان فيه البيان عن الانذار والتخويف، وفيه البيان عما يوجب الاخلاص
بماذكر من الانعام الذي لايقدر عليه الا الله.
وفي الآية حجة على ثلاث فرق:

على المجبرة في الارادة، لانها تدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين ان يعلموا " إنما هو
إله واحد " وهم يزعمون أن أراد من النصارى ان يثلاثوا، ومن الزنادقة ان يقولوا بالثنائية.
الثاني - حجة عليهم في ان المعصية لم يرددها، لانه اذا أراد منهم ان يعلموا أنه إله واحد، لم
يرد خلافه من التثليث والثنائية الذي هو الكفر.

الثالث - حجة على اصحاب المعارف، لانه بين أنه أراد من الخلق ان يتذكروا ويفكروا في
دلائل القرآن التي تدلهم على أنه إله واحد. ثم أخبر تعالى انه انما يتذكر " أولو الالباب " اي
ذوو العقول، لان من لاعقل له لا يمكنه الذكر والاعتبار.

(٣١٣)

(١٥) سورة الحجر مكية في قول قتادة ومجاهد. وهي تسع وتسعون آية بلاخلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم.

(الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (١) ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) (٢) آيتان
بلاخلاف.

قرأ أهل المدينة وعاصم " ربما " بالتخفيف. الباقر بالتشديد. وروي عن أبي عمرو:
الوجهان. قال أبو علي أنشد أبو زيد:

ماوي ياربتما غارة * شعواء كاللذعة بالميسم (١)

قال الازهري: الماوي الرحمة، وأنشد ايضا ابو زيد:

ياصاحباً ربه إنسان حسن * يسأل عنك اليوم ارتسأل عن (٢)

(١) مجمع البيان ٣: ٣٢٦ واللسان (ربب)، (ما).

(٢) مجمع البيان ٣: ٢٢٧

(٣١٤)

وقال قطرب، والسكري: ربما، وربما، وربتما، ورب، رب: ست لغات، قال سيبويه (رب)
حرف وتلحقها (ما) على وجهين:

احدهما - ان تكون نكرة بمعنى شئ كقوله:

ربما تجزع النفوس من الام * - ر له فرجة كحل العقال (١)

ف (ما) في هذا البيت إسم، لما يقدر من عود الذكر اليه من الصفة. والمعنى:
 رب شئ، تكرهه النفوس، واذا عاد اليه الهاء كان إسمًا، ولم يجز أن يكون حرفًا. والضرب
 الاخر ان تدخل (ما) كافة نحو الآية، ونحو قول الشاعر:
 ربما أوفيت في علم * يرفعن ثوبي شمالات (٢)
 والنحويون يسمون (ما) هذه كافة يريدون: أنها بدخولها كفت الحرف عن العمل الذي كان
 هيأها لدخولها على مالم تكن تدخل عليه، ألا ترى ان (رب)
 انما تدخل على الاسم المفرد، نحو رب رجل يقول ذلك، ورب رجل يقول، ولا تدخل على
 الفعل، فلما دخلت (ما) عليها هيأتها للدخول على الفعل، كما قال "ربما يود الذين كفروا" فوقع
 الفعل بعدها - في الآية - وهو على لفظ المضارع، ووقع في قوله (ربما أوفيت في علم) على
 لفظ الماضي، وهكذا ينبغي في القياس لانها تدل على أمر قد وقع ومضى، وإنما وقع - في الآية
 - على لفظ المضارع، لانه حكاية لحال آتية كما ان قوله " وإن ربك ليحكم بينهم " (٣) حكاية
 الحال آتية ايضا، ومن حكاية الحال قول القائل:
 جارية في رمضان الماضي * تقطع الحديث بالايماض (٤)
 ومن زعم ان الآية على اضمار (كان) وتقديره ربما كان يود، فقد خرج عن قول سيبويه، لانهم
 لا يضمرون على مذهبه (كان) في قول القائل: عبدالله المقتول اي كن عبدالله المقتول. واما
 اضمار (كان) بعد إن خيرا فخيرًا، فإنما جاز ذلك،

-
- (١) قائله أمية بن ابي الصلت. اللسان " فرج " وروايته " تكره " بدل " تجزع ".
 (٢) قائله جذيمة الابرش. اللسان " شمل ". وشمالات: جمع شمال، ويقصد هنا ربح الشمال (٣) سورة النحل ١٦ اية
 ١٢٤ (٤) اللسان " رمض " " خصص " ومجمع البيان ٣: ٣٢٧

(٣١٥)

لاقتضاء الحرف له، فصار اقتضاء الحرف له كذكره، فاما ما أنشده ابن حبيب، فيهان ابن
 مسكين:

لقد رزيت كعب بن عوف وربما * فتى لم يكن يرضى بشئ يضيما (١)
 فان قوله (فتى) يحتمل ضروبا:

احدها - ان يكون لما جرى ذكر (رزيت) استغنى بجري ذكره عن اعادته، فكانه قال: ربما
 رزيت فتى، فأنتصب فتى برزيت المضمرة، كقوله " آلا ن وقد عصيت " (٢) فاستغنى بذكر
 آمنت المعلوم عن اظهاره بعد، ويجوز ان يكون

انتصب ب (رزيت) هذه المذكورة، كأنه قال: لقد رزيت كعب بن عوف فتى وربما لم يكن يرضي اي رزيت فتى لم يكن يضام، ويكون هذا الفصل وهو اجنبي بمنزله قوله: ابوأمه حي أبوه يقاربه (٣)

ويجوز ان يكون رفعا بفعل مضممر كأنه قال ربما لم يرضى فتى كقوله: وقلما وصال على طول الصدود يدوم (٤)

ويجوز ان تكون (ما) نكرة بمنزلة شي ء ويكون فتى وصفا لها، كأنه قال: رب شئ فتى لم يكن كذا، فهذه الالوجه فيها ممكنة، ويجوز في الآية ان تكون (ما) بمنزلة شئ و (ود) صفة له، لان (ما) لعمومها تقع على كل شئ فيجوز ان يعنى بها الود كأنه رب ود يوده الذين كفروا، ويكون يود في هذا الوجه حكاية حال لانه لم يكن كقوله " ارجعنا نعمل صالحا " (٥) وقوله " ياليتنا نرد ولانكذب " (٦)

" ١ " مجمع البيان ٣: ٣٢٧ " ٢ " سورة يونس اية ٩١ " ٣ " البيت مشهو يستشهدون به على التعقيد المعنوى في كتب المعاني والبيان وتمامه:

وماملته في الناس إلا مملكا * ابوأمه حي أبوه يقاربه

" ٤ " اللسان " طول " وتمام البيت:

صددت فأطولت الصدود وقلما * وصال على طول الصدود يدوم

(٥) الم السجدة ٣٢ اية ١٢ (٦) سورة الانعام ٦ آية ٢٧

(٣١٦)

واما من خفف، فلانه حرف مضاعف والحروف المضاعفة قد تحذف، وان لم يحذف غير المضاعف، فمن المضاعف الذي حذف (ان، وان، ولكن) قدحذف كل واحد من الحروف، وليس كل المضاعف يحذف، لاني لا أعلم الحذف في (ثم)، قال الهذلي:

ازهير إن يشب القذال فانني * رب هيضل لجب لففت بهيضل (١)

واما دخول التاء في (ربتما) فان من الحروف مايدخل عليه حرف التأنيث نحو (ثم، وثمت، ولا، ولات) قال الشاعر:

ثمت لايحزونني غير ذالكم * ولكن سيحزنني المليك فيعقبا (٢)

فلذلك الحق التاء في قوله " ربتما " وقال المبرد: قال الكسائي: العرب لاتكاد توقع (رب) على أمر مستقبل، وهذا قليل في كلامهم، وإنما المعنى عندهم ان يوقعوها على الماضي، كقولهم: ربما فعلت ذلك، وربما جاءني فلان.

وإنما جاء هذا في القرآن، على ما جاء في التفسير، ان ذلك يكون يوم القيامة.

وإنما جاز هذا، لأن كل شيء من أمر الله خاصة فانه وإن لم يكن وقع بعد، فهو كالماضي الذي قد كان، لأن وعده آتٍ لامحالة، وعلى هذا عامة القرآن، نحو قوله " ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض " (٣) وقوله " وسيق الذين اتقوا " (٤) " وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد " (٥) ومع هذا يحسن أن يقال - في الكلام - إذا رأيت الرجل يفعل ما يشاء، تخاف عليه، ربما يندم، وربما يتمنى أن لا تكون فعلت، قال: وهذا كلام عربي حسن، ومثله قال الفراء والمبرد وغيرهم.

فإن قيل لم قال " ربما يود الذين كفروا " ورب للتقليل؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - أنه شغلهم العذاب عن تمنى ذلك إلا في القليل

(١) مجمع البيان ٣: ٣٢٨ واللسان (هضل) نسبه إلى أبي كبير.

(٢) مجمع البيان ٣: ٣٢٨ (٣) سورة الزمر - ٣٩ - آية ٦٨ (٤) سورة الزمر آية ٧٣ (٥) سورة ق ٥٠ آية ٢١

(٣١٧)

والثاني - أنه أبلغ في التهديد كما تقول: ربما ندمت على هذا، وأنت تعلم أنه يندم ندما طويلا، أي يكفئك قليل الندم، فكيف كثيره.

فإن قيل: لم قال " تلك آيات الكتاب وقرآن " والكتاب هو القرآن؟ ولم أضاف الآيات إلى الكتاب، وهي القرآن؟ وهل هذا إلا إضافة الشيء إلى نفسه؟! قلنا: إنما وصفه بالكتاب والقرآن، لاختلاف اللفظين، وما فيهما من الفائدتين وإن كانا لموصوف واحد، لأن وصفه بالكتاب يفيد أنه مما يكتب ويدون، والقرآن يفيد أنه مما يؤلف ويجمع بعض حروفه إلى بعض قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتبية في المزرحم (١)

وقال مجاهد وقتادة: المراد بالكتاب: ما كان قبل القرآن من التوراة والانجيل، فعلى هذا سقط السؤال: فأما إضافة الشيء إلى نفسه، فقد بينا الوجه فيما مضى فيه، وأنه يجري مجرى قولهم مسجد الجامع وصلاة الظهر ويوم الجمعة. وقوله تعالى " لحق اليقين " (٢) وهو مستعمل مشهور وبيننا الوجه فيه، ووصف القرآن بأنه مبين لأنه يظهر المعنى للنفس، والبيان ظهور المعنى للنفس بما يميزه من غيره، لأن معنى إبانته منه فصل منه، فإذا ظهر النقيضان في معنى الصفة فقد بانته وفهمت.

و (الود) التمنى يقال: وددته إذا تمنيته، ووددته إذا أحببته أود فهما جميعا ودا. وقال الحسن: إذا رأى المشركون المؤمنين دخلوا الجنة تمنوا أنهم كانوا مسلمين، وقال مجاهد: إذا رأى المشركون المسلمين يغفر لهم ويخرجون من النار يودون لو كانوا مسلمين.

(١) مر هذا البيت في ٢: ٩٨ (٢) سورة الحاقة ٦٩ آية ٥١.

(٣١٨)

قوله تعالى:

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الا مل فسوف يعلمون (٣))

وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم (٤) ماتسبِق من أمة أجلها وما يستأخرون (٥) وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون (٦) لوما تأتينا بالملئكة إن كنت من الصادقين (٧) ما ننزل الملئكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين (٨) إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٩) سبع آيات.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم على وجه التهديد للكفار: اترك هؤلاء يأكلوا ما يشتهون، ويستمتعوا في هذه الدنيا بما يريدون ويشغلهم الا مل " فسوف يعلمون " وبال ذلك فيما بعد يعني يوم القيامة ووقت الجزاء على الاعمال.

ثم اخبر تعالى انه لم يهلك أهل قرية فيما مضى على وجه العقوبة الا وكان لها كتاب معلوم يعني أجل مكتوب قد علمه الله تعالى لا بد ان يبلغونه لما سبق في علمه، ويجوز إلا ولها بالواو وبغير الواو، لانه جاء بعد التمام، ولو جاء بعد النقصان لم يجز، نحو رجلا هو قائم، ولا يجوز وهو قائم، وكذلك في الظرف في خبر كان، وقال لم تكن أمة فيما مضى تسبق أجلها فتهلك قبل ذلك ولا تتأخر عن أجلها الذي قدر لها بل اذا استوفت أجلها اهلكها الله.

ثم قال له: ان هؤلاء الكفار يقولون لك " يا أيها الذي نزل عليه الذكر " يعنون القرآن نزل عليك على قولك، لانهم لم يكونوا من المعترفين بذلك " انك لمجنون " في ادعائك أنه أنزل عليك الذكر بوحي الله اليك، ولم تكن ممن يقرأ.

(٣١٩)

وقوله " لو ماتأتينا بالملائكة " معناه هلا تأتينا، وهو دعاء إلى الفعل وتحضيض عليه، ومثله قوله " لولا انزل عليه ملك " قال الشاعر:

تعدون عقر النبي أفضل مجدكم * بني ضو طرى لولا الكمي المقنعا (١)

وقد جاء (لوما) في معنى (لولا) التي لها جواب قال ابن مقيل:

لوما الحياء ولوما الدين عبتكما * ببعض ما فيكما اذعبتما عوري (٢)

اي لولا الحياء. والمعنى في الآية هلا تأتينا بالملائكة إن كنت صادقا في انك نبي، وقال ابو عبيد عن ابن جريج: فيه تقديم وتأخير يعني قوله " ولو فتحنا " هو جواب " لو ماتأتينا "

والمعنى: فلو فعلنا ذلك بهم ايضا لما آمنوا، وما بينهما كلام مقدم والمراد به التأخير، قال المبرد: هذا الذي ذكره جازئ لكن فيه بعد لانه يلبس بأن يكون فتح عليهم من انفسهم فعرج بهم. والله اعلم. وكلا الامرين غير ممتنع الا ان العرب تمنع مما فيه لبس. وقوله "مانزل الملائكة الا بالحق" قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالنون ونصب الملائكة. الباقون بالتاء ورفع الملائكة إلا أبا بكر عن عاصم فانه ضم التاء على مالم يسم فاعله. فحجة من قرأ بالنون قوله "ولو اننا نزلنا إليهم الملائكة" (٣) وحجة من قرأ "تنزل الملائكة" بفتح التاء قوله "تنزل الملائكة والروح فيها" (٤). وحجة من قرأ على مالم يسم فاعله قوله "مانزل الملائكة الا بالحق" وقوله تعالى "ونزل الملائكة تنزيلا" (٥). ومعنى قوله "مانزل الملائكة الا بالحق" يعنى بالحق الذي لا يلبس معه الباطل طرفه عين. وقال الحسن ومجاهد: معناه إلا بعذاب الاستئصال اي لم

(١) مر تخريجه في ١: ٣٠٩، ٤٣٥.

(٢) شواهد الكشف ١٢٦ ومجاز القرآن ١: ٣٤٦ وتفسير القرطبي ١٠: ٤ ومجمع البيان ٣: ٣٣٠ (٣) سورة الانعام اية ١١١ (٤) سورة القدر اية ٤ (٥) سورة الفرقان اية ٢٥

(٣٢٠)

يؤمنوا بالآيات، كما كانت حال من قبلهم حين جاءتهم الآيات التي طلبوا، فلم يؤمنوا. ومعنى "وما كانوا اذا منظرين" أنه إن نزل عليهم الملائكة ولم يؤمنوا لم ينظرهم الله، بل كان يعاجلهم العقوبة. وقوله "انانحن نزلنا الذكر" يعنى القرآن في - قول الحسن والضحاك، وغيرهم - "واناله لحافظون" قال قتادة:

لحافظون من الزيادة والنقصان. ومثله قوله "لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه" (١) وقال الحسن: لحافظون حتى نجزي به يوم القيامة اي لقيام الحجة به على الجماعة من كل من لزمته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال الفراء: الهاء في قوله "واناله لحافظون" يجوز ان تكون كناية عن النبي، فكأنه قال: انا نحن نزلنا القرآن وانا لمحمد لحافظون، وقال الجبائي:

معناه وانا له لحافظون من ان تتاله أيدي المشركين، فيسرعون إلى ابطاله، ومنع المؤمنين من الصلاة به.

وفي هذه الآية دلالة على حدوث القرآن، لان مايكون منزلا ومحفوظا لا يكون الامحدثا، لان القديم لايجوز عليه ذلك ولايحتاج إلى حفظه قوله تعالى:

(ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الاولين (١٠) وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن (١١)
كذلك نسلكه في قلوب المجرمين (١٢) لايؤمنون به وقد خلت سنة الاولين)
(١٣) أربع آيات بلاخلاف.

يقول الله (عزوجل) لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم تسليية له عن كفر قومه " لقد ارسلنا من
قبلك في شيع الاولين " قال ابن عباس وقتادة: شيع الامم واحدهم شيعة لمتابعة بعضهم بعضا
في الاحوال التي يجتمعون عليها في الزمن الواحد من مملكة

(١) سورة حم السجد ٤١ (فصلت) آية ٤٢

(٣٢١)

أو عمارة أو بادية أو نحو ذلك من الامور الجارية في العادة، والمرسل محذوف لدلالة
(أرسلنا) عليه.

وقوله " ومايأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن " اخبار منه تعالى أنه لم يبعث رسولا فيما
مضى الا وكانت امهم تستهزئ بهم، واستهزؤهم بهم حملهم عليهم واستبعادهم مادعوا اليه
واستيحاشهم منه، واستكبارهم له، حتى توهموا أنه مما لا يكون، ولا يصح مع مخالفته لما
وجدوا عليه آباؤهم وأجدادهم واسلافهم، فكان عندهم كأنه دعا إلى خلاف المشاهدة والى مافيه
جدد الضرورة والمكابرة.

والهزؤ إظهار مايقصد به العيب على ايهام المدح، وهو بمعنى اللعب والسخرية.
وقوله " كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لايؤمنون به وقد خلت سنة الاولين " قيل في معناه
قولان:

احدهما - كذلك نسلك القرآن الذي هو الذكر باخطاره على البال ليؤمنوا به، فهم لايؤمنون به،
ماضين على سنة من تقدمهم، من تكذيب الرسل، كما سلطنا دعوة الرسل في قلوب من سلف
من الامم. ذهب اليه البلخي والجبائي.

وقال الحسن وقتادة: يسلك الاستهزاء بإخطاره على البال ليجتنبوه، ولو كان المراد أنه يسلك
الشرك في قلوبهم، لكان يقول: انهم لايؤمنون بالشرك ولو كانوا كذلك، كانوا محمودين غير
مذمومين، يقال: سلكه فيه يسلكه سلكا وسلوكا، واسلكه اسلاكا، قال عدي بن زيد:

وكننت لزاز خصمك لم اعد * وقد سلوكك في يوم عصيب (١)

وقال الآخر:

(٣٢٢)

حتى اذا سلكوهم في قتائده * شلاكما تطرد الجمالة الشرذا (١)
ومعنى قوله: " وقدخلت سنة الاولين " اي في اهلاك من اقام على الكفر بالمعجزات بعد مجئ
ماطلب من الآيات، ويحتمل ان يكون المراد وقد خلت سنة الاولين في تكذيب رسلهم والكفر
بما جاؤوا به.
قوله تعالى:

(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون (١٤) لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن
قوم مسحورون (١٥) آيتان.

قرأ ابن كثير وحده " سكرت " بالتخفيف. الباقر بالتشديد. قال أبو عبيدة: (سكرت) معناه
غشيت. والمعنى في الآية سكرت الابصار، فلا ينفذ نورها، ولاتترك الاشياء على حقيقتها،
وكأن المعنى انقطاع الشئ عن سننه الجاري، فمن ذلك (سكره سكرًا) إنما هورده عن سننه،
وقال: السكر في الرأي قبل ان يعزم على شئ، فاذا عزم على امر ذهب السكر وهو ان
ينقطع عما عليه من المضاء في حال الصحو، فلا ينفذ رأيه على حد نفاذه في صحوه، ووجه
التثقيب ان الفعل مسندالى جماعة مثل قوله " مفتحة لهم الابواب " (٢) ووجه التخفيف ان هذا
النحو من الفعل المسند إلى الجماعة قد يخفف، قال الشاعر:
مازلت اغلق ابوابا وأفتحها (٣)

(١) قائله عبد مناف بن ربع الهذلي ديوانه ٢ / ٤٢ / ٢ وتفسير الطبري ١٤ / ٧ / ١٨ وتفسير القرطبي ١٢ / ١١٩
ومجاز القرآن ١ / ٣٧ / ٣٣١ ومجمع البيان ٣ / ٣٣٠ ومعجم البلدان (قتادة)
واللسان والتاج (قتد) وقد مر في ١ / ١٢٨، ١٤٩ من هذا الكتاب.
(٢) سورة ص ٣٨ اية ٥٠ (٣) اللسان (غلق) نسبه إلى الفرزدق ولم اجده في ديوانه وروايته مازلت افتح ابوابا
واغلقها * حتى اتيت ابا عمرو بن عمار

(٣٢٣)

اخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ان هؤلاء الكفار لشدة عنادهم وغلظة كفرهم
وتمردهم وعتوهم " لو فتحنا عليهم بابامن السماء " فصاروا " فيه يعرجون " والعروج الصعود
في الهواء تعلقا به نحو السماء، عرج الملك يعرج عروجا، فلو عرج هؤلاء عروج الملك،
لقالوا هذا القول. والتسكير إدخال اللطيف في المسام، ومنه السكر بالشراب، والسكر السد
بالتراب " لقالوا انما سكرت أبصارنا " بما ادخل فيها من اللطيف في مسامها، حتى منعنا من

رؤية الاشياء على حقيقتها. وأصل السكر السد بما ادخل في المسام. وقال مجاهد والضحاك وابن كثير: معنى "سكرت" "سدت" قال المثنى بن جندل الطهوري:
جاء الشتاء واجتأل القنبر * واستخفت الافعى وكانت تظهر
وظلعت شمس عليها مغفر * وجعلت عين الحرور تسكر (١)
اي تسد بشدة البرد، وقنبر وقنبر - بضم الباء وفتحها - لغتان، مثل جندب وجندب قال رؤبة:
قبل انصداع الفجر والتهجر * وخوضهن الليل حتى تسكر (٢)
اي يسد بظلمته، وحكى الفراء: ان من العرب من يقول: سكرت الريح إذا سكنت.
وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: المعنى "لو فتحنا عليهم بابا من السماء" فظلت الملائكة
تعرج إلى السماء، وهم يرونها على ما اقترحوه، "لقالوا: إنما سكرت أبصارنا" وقال الحسن:
يظل هؤلاء المشركون يعرجون فيه.

(١) مجاز القرآن ١ / ٣٤٨ وتفسير الطبري ١٤ / ٩ واللسان والتاج (سكر، قبر) وتفسير الطبري ١٤ / ٨ ومجمع
البيان ٣ / ٣٣٠ والشوكاني (الفتح القدير) ٣ / ٨، ١١ (اجتأل)
اجتمع، وتقبض، وانقبض. و (القنبر) و (القنبر) جمعه قنابر، وتقول: العامة:
قنبرة. وهم جماعة يجتمعون لجر مافي الشباك من الصيد، وهي لغة عمانية. ومعنى (استخفت الافعى) اي تخبأت
الحية الكبيرة. بعد ان كانت تظهر. وظلعت الشمس عليها غيوم. و (الحرور) الريح الحارة.
(٢) تفسير الطبري ١٤ / ٩

(٣٢٤)

"بل نحن قوم مسحورون" أي يقولون: سحرنا، فنحن مسحورون والسحر حيلة خفية، توهم
معنى المعجزة من غير حقيقة، ولهذا من عمل بالسحر كان كافرا، لانه يدعي المعجزة
للكذابين، فلا يعرف نبوة الصادقين.
وقال أبو عبيدة: سكرت أبصار القوم إذا ادير بهم، وغشيهم كالساتر فلم يبصروا.
وروي ابن خالوية عن الزهري أنه قرأ "سكرت" بفتح السين وكسر الكاف، والتخفيف أي
اختلطت وتغيرت عقولهم.
قوله تعالى:

(ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين (١٦)

وحفظناها من كل شيطان رجيم (١٧) إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) (١٨) ثلاث
آيات بلاخلاف.

أخبر الله تعالى أنه جعل في السماء بروجا. والجعل قد يكون تصيير الشيء عن صفة لم يكن
عليها. وقد يكون بالايجاد له. والله تعالى قادر ان يجعل في السماء بروجا من الوجهين،

والبرج: ظهور منزل ممتع بارتفاعه، فمن ذلك برج الحصن، وبرج من بروج السماء الاثني عشر، وهي منازل الشمس والقمر.

وأصله الظهور، يقال: تبرجت المرأة إذا أظهرت زينتها. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: المراد بالبروج النجوم. وقوله " وحفظناها من كل شيطان رجيم " يحتمل ان تكون الكناية راجعة إلى السماء، وإلى البروج. وحفظ الشيء جعله على ماينفي عنه الضياع، فمن ذلك حفظ القرآن بدرسه ومراعاته، حتى لاينسى، ومنه حفظ المال بإحرازه بحيث لا يضيع بتخطف الايدي له، وحفظ السماء من كل شيطان بالمنع بما أعد له من الشهاب. والرجم بمعنى المرجوم، والرجم الرمي بالشيء بالاعتماد من غير آلة مهيأة للاصابة، فان النفوس يرمى عنها ولاترجم.

(٣٢٥)

وقوله " الامن استرق السمع " معنى (الا) (لكن) فكأنه قال: لكن من استرق السمع من الشيطان يتبعه شهاب مبين قال الفراء: أي لا يخطئ، وقال المفسرون: قوله " إلا من استرق السمع " مثل قوله " إلا من خطف الخطفة " (١) ومعناه معناه، والاستراق أخذ الشيء خفياً، وليس طلبهم استراق السمع مع علمهم بالشهب خروج عن العادة في صفة العقلاء، لانهم قد يطمعون في السلامة من بعض الجهات، والشهاب عمود من نور يمد لشدة ضيائه كالنار وجمعه شهب. وقال ابن عباس: بالشهاب يخبل ويحرق، ولا يقتل. وقال الحسن: يقتل قال ذو الرمة:

كأنه كوكب في إثر عفرية * مسوم في سواد الليل منقضب (٢)

والاتباع إحاق الثاني بالاول، أتبعه اتباعاً، وتبعه يتبعه إذا طلب للحاق به، وكذلك اتبعه اتباعاً بالتشديد " مبين " أي ظاهر مبين.

وقال الفراء: قوله " إلا من استرق السمع " استثناء صحيح، لان الله تعالى لم يحفظ السماء ممن يصعد إليها ليسترق السمع، ولكن اذا سمعه والقاء إلى الكهنة اتبعه شهاب مبين، فأما استراقهم السمع، فقال المفسرون: إن فيهم من كان يصعد السماء فيسمع الوحي من الملائكة، فاذا نزل إلى الارض اغوى به شياطينه او ألقاه إلى الكهان، فيغويون به الخلق، فلما بعث الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم منعهم من ذلك، وكان قبل البعثة لم يمنعهم من ذلك تغليظاً في التكليف. قال الزجاج:

والدليل على انه لم يكن ذلك قبل النبي ان أحداً من الشعراء لم يذكره قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم مع كثرة ذكرهم الشهب بعد ذلك.

قوله تعالى:

(والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٠ (٢) مجمع البيان ٣ / ٣٣٠ واللسان قضب)

(٣٢٦)

كل شيء موزون (١٩) وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين (٢٠) وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم (٢١) ثلاث آيات بلاخلاف.
قوله " والارض مددناها " عطا على قوله " ولقد جعلنا في السماء بروجا..
والارض " ويجوز ان يكون ومددنا الارض مددناها، كماقال " والقمر قدرناه " (١) ومعنى " مددناها " بسطناها، وجعلنا لها طولاً وعرضاً " والقينا فيها " يعني طرحنا فيها " رواسي " يعني جبالاتاً ثابتة. واصله الثبوت، ويقال: رست السفينة اذا ثبتت، والمراسي ماثبتت به. وقيل جعلت الجبال أوتادا للارض وقيل جعلت أعلاما يهتدي بها أهل الارض.
وقوله " انبتنا فيها " يعني أخرجنا النبات في الارض، والنبات ظهور النامي عن غيره، حالاً بعد حال والاغلب عليه ظهوره من الارض، وقد يكون من غيره، كنبات الشعر على البدن والرأس.

" من كل شيء موزون " قيل في معناه قولان:

احدهما - قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والجبائي: من كل شيء مقدر معلوم.
والثاني - قال الحسن وابن زيد: من الاشياء التي توزن من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغير ذلك. والوزن وضع احد الشئيين بازاء الآخر على ما يظهر به مساواته في المقدار وزيادته، يقال وزنه يزنه وزنا فهو موزون، " وجعلنا لكم فيها معاش " جمع معيشة، وهي طلب اسباب الرزق مدة الحياة، فقد يطلبها الانسان لنفسه بالتصرف والتكسب، وقد يطالب له فإن أتاها اسباب الرزق من غير طلب فذلك العيش الهني.

وقوله " ومن لستم له برازقين " (من) في موضع نصب عطا على (معاش)،

(١) سورة يس آية ٣٩

(٣٢٧)

وقال مجاهد: المراد به العبيد والاماء والدواب، والانعام، قال الفراء: العرب لا تكاد تجعل (من) الا في الناس خاصة، قال، فان كان من الدواب والمماليك حسن حينئذ، قال وقد يجوز ان يجعل (من) في موضع خفض نسقا على الكاف والميم في (لكم) قال المبرد: الظاهر

المخفوض لايعطف على المضمرة المخفوض نحو مررت بك وزيد إلا ان يضطر شاعر، على مامضى ذكره في سورة النساء، وانشد الفراء في ذلك:

نعلق في مثل السواري سيوفنا * ومابينها والكعب غوط نfanف (١)
فرد الكعب على (بينها) وقال آخر:

هلا سألت بذي الجمجم عنهم * وأبا نعيم ذي اللواء المحرق (٢)
فرد أبا نعيم على الهاء في عنهم. قال ويجوز ان يكون في موضع رفع، لان الكلام قدتم، ويكون التقدير على قوله " لكم فيها " .. " ومن لستم له برازقين ".
وقوله " وان من شئ الاعندا خزائنه " فخرائن الله مقدراته، لانه تعالى يقدر ان يوجد ماشاء من جميع الاجناس، فكأنه قال: وليس من شئ إلا والله تعالى قادر على ماكان من جنسه إلى مالانهاية له.

وقوله " وماننزله الايقدر معلوم " اي لست انزل من ذلك الشئ " إلا يقدر معلوم " اي مايصلحهم وينفعهم دون مايفسدهم ويضرهم، حسب ماسبق في علمي.
قوله تعالى:

(وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وماأنتم له بخازنين (٢٢) وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن

(١) مر هذا البيت في ٣: ٩٨ (٢) تفسير الطبري ١٤: ١٢ (الطبعة الاولى) ومجمع البيان ٣: ٣٣٣

(٣٢٨)

الوارثون (٢٣) ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين (٢٤) وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم (٢٥) أربع آيات.

قرأ حمزة وحده " الريح لواقح " الباوقن " الرياح " على الجمع، قال ابو عبيدة لاعرف لذلك وجهها، إلا ان يريد أن الريح تأتي مختلفة من كل وجه، فكانت بمنزلة رياح وحكى الكسائي أرض اغفال، وأرض سباسب. قال المبرد: يجوز ذلك على بعد، ان يجعل الريح جنسا، وليس بجيد، لان الرياح ينفصل بعضها عن بعض، بمعرفة كل واحدة، وليست كذلك الارض، لانها بساط واحد.

وقال الفراء: هو مثل ثوب اخلاق وانشد:

جاء الشتاء وقميصي أخلاق * شرادم يضحك منه التواق (١)
ومن قراء " الرياح لواقح " احتمل ذلك شيئين.

احدهما - ان يجعل الريح هي التي تلتح بمرورها على التراب والماء، فيكون فيها اللقاح، فيقال فيها ريح لاقح، كما يقال: ناقة لاقح.

والثاني - ان بصفها باللقح وان كانت تلتح، كما قيل ليل نائم وسركاتم.

يقول الله تعالى انه بعث " الرياح الواقع " للسحاب والاشجار تعدادا لنعمه على عباده وامتنا عليهم، واحدها ريح، وتجمع ايضا ارواحا، لانها من الواو، قال الشاعر:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت * أعاليها مر الرياح النواسم (٢)

فاللواقح التي تلتح السحاب، حتى يحمل الماء أي تلقي اليه ما يحمل به الماء يقال: لقت الناقة اذا حملت، وألقحها الفحل إذا ألقى اليها الماء فحملته، فكذلك الرياح هي كالفحل للسحاب، (ولو لاقح) في موضع ملاقح. وقيل في

(١) تفسير الطبري ١٤: ١٣ واللسان " خلق "، " توق ".

(٢) مر هذا البيت في ٢: ٣٧٢ من هذا الكتاب.

(٣٢٩)

علة ذلك قولان: احدهما، لانه في معنى ذات لقاح كقولهم: هم ناصب أي ذو نصب قال النابغة:

كليني لهم ياميمة ناصب * وليل أفاقيه بطئ الكواكب (١)

اي منصب، وقال نهشل بن حري النهشلي:

ليبك يزيد ضارع لخصومه * ومختبط مما تطيح الطوائح (٢)

اي المطاوح، وقال قتادة و ابراهيم والضحاك: معنى هذا القول: ان الرياح تلتح السحاب الماء. وقال ابن مسعود: إنها لاقحة يحملها الماء، ملقحة بإلقائها إياه إلى السحاب.

وقوله " فانزلنا من السماء ماء " يعني غيثا ومطرا " فاسقيناكموه " اي جعلته سقيا، لارضكم تشربه، يقال: سقيته، فيما يشربه، تسقيه واسقيته فيما تشربه ارضه، وقد تجئ أسقيته بمعنى سقيته، كقوله تعالى " نسقيكم مما في بطونه من بين فرت ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين " (٣)، وقال ذو الرمة:

وقفت على ربع لمية ناقتي * فمازلت أبكى عنده وأخاطبه

واسقيه حتى كاد مما أبثه * تكلمني احجاره وملاعبه (٤)

اي ادعو له بالسقيا. " وما انتم له برازقين " اي لستم تقدرون ان ترزقوا احدا ذلك الماء، لولا تفضل الله عليكم. ثم اخبر تعالى انه هو الذي يحيي الخلق اذا شاء وكان ذلك صلاحا لهم،

ويميتهم اذا اراد وكان صلاحهم، وانه هو الذي يرث الخلق، لانه اذا افنى الخلق ولم يبق احدكانت الاشياء كلها راجعة اليه ينفرد بالتصرف فيها وكان هو الوارث لجميع الاملاك.

(١) ديوانه " دار بيروت " ٩ وقد مر في ٥ : ٣٦٨ ، ٦ : ٩٥ .

(٢) مر هذا البيت في ٤ : ٣١٠ .

(٣) سورة النحل آية ٦٦ (٤) ديوانه ٢١٣ وتفسير الشوكاني " الفتح القدير " ٣ : ٤٨ وتفسير الطبري ١٤ : ١٤

والمحاسن والاضداد للجاحظ ٣٣٥ ومجمع البيان ٣ : ٣٣٣ ، ٣٥٩ واللسان والتاج (سقى) وقدم الثاني في ٤ : ١٢٩

(٣٣٠)

وقوله " ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين " قيل في معناه ثلاثة اقوال:

احدهما - قال مجاهد وقتادة من مضى ومن بقي .

وثانيها - قال الشعبي: اول الخلق وآخره .

وثالثها - قال الحسن: المتقدمين في الخير والمبطلين .

وقال الفراء: لما قال النبي صلى الله عليه وسلم إن اله يصلي على الصف الاول، أراد بعض المسلمين ان يبيع داره النائبة ليدنو إلى المسجد، فيدرك الصف الاول. فأنزل الله الآية، وأنه يجازي فقراء الناس على نياتهم .

ثم اخبر تعالى ان الذي خلقك يا محمد هو الذي يحشرهم بعد امانتهم، وبيعهم يوم القيامة، لانه حكيم في افعاله عالم بما يستحقونه من الثواب والعقاب .

(والحشر) جمع الحيوان إلى مكان، يقال: هؤلاء الحشار، لانهم يجمعون الناس إلى ديوان الخراج. و (الحكيم) العالم بما لايجوز فعله، لقبه، او سقوط الحمد عليه، مع انه لايفعله، فعلى هذا يوصف تعالى فيما لم يزل بانه حكيم .

والحكيم المحكم لافعاله بمنع الخلل ان يدخل في شئ منها، فعلى هذا لا يوصف تعالى فيمالم يزل بانه حكيم .

قوله تعالى:

(ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حما مسنون (٢٦)

والجان خلقناه من قبل من نار السموم) (٢٧) آيتان بلاخلاف .

اخبر الله تعالى أنه خلق الانسان، والمراد به آدم بلاخلاف .

وقيل في معنى الصلصال قولان:

احدهما - إنه الطين اليابس الذي يسمع له عند النقر صلصلة. ذهب اليه ابن عباس والحسن وقتادة .

والثاني - قال مجاهد: هو مثل الخزف الذي يصلصل. وقال مجاهد:

(٣٣١)

الصلصال المنتن - في رواية عنه - مشتق من صل اللحم وأصل إذا انتن، والاول اقوى، لقوله تعالى " خلق الانسان من صلصال كالفخار (١) " ومايبس كالفخار فليس بمنتن، وقال الفراء: الصلصال طين الحرار إذا خلط بالرمل اذا جف كان صلصالا، واذا طبخ كان فخارا، والصلصلة القعقة، وهي صوت شديد متردد في الهواء كصوت الرعد، يقال لصوت الرعد صلصلة، وللثوب الجديد قعقة، واصل الصلصلة الصوت يقال: صل يصل وهو صلليل اذا صوت، قال الشاعر:

رجعت إلى صدر كجرة حنتم * إذا فرغت صفرا من الماء صلت (٢)

وقيل: خلق آدم على صورة الانسان من طين، ثم ترك حتى جف، فكانت الريح اذا مرت به سمع له صلصلة.

وقوله " من حمأ مسنون " فالحماً جمع حمأة، وهو الطين المتغير إلى السواد، يقال: حمئت البئر وأحمأتها أنا اذا بلغت الحمأة. وقيل في معنى (المسنون) قولان:

احدهما - المصبوب من قولهم: سننت الماء على الوجه وغيره اذا صببته، وعن ابن عباس: انه الرطب، فعلى هذا يكون رطبا مصبوبا ثم يبس فيصير كالفخار.

الثاني - انه المتغير، من قولهم: سننت الحديد على المسن اذا غيرتها بالتحديد، والاصل الاستمرار في جهة، من قولهم هو على سنن واحد.

ومعنى قوله " والجان خلقناه من قبل " المراد به ابليس، خلقه الله قبل آدم - في قول الحسن وقتادة - " من نار السموم " اي من النار الحارة. وقال عبدالله:

هذه السموم جزء من سبعين جزء من السموم التي خرج منها الجان، وهو مأخوذ من دخولها بلطفها في مسام البدن ومنه السم القاتل، يقال: سم يومنا يسم سموما اذا هبت له ريح السموم.

(١) سورة الرحمن آية ١٤ - ١٥ (٢) قائله عمرو بن شأس. اللسان " حنتم " ومجمع البيان ٣: ٣٣٥

(٣٣٢)

قوله تعالى:

(وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون (٢٨) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٢٩) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٣٠) إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين (٣١) أربع آيات بلاخلاف.

لفظة (إذ) تدل على ماضى من الزمان، ولا بد لها من فعل متعلق به، والتقدير واذكر يا محمد " إذقال ربك للملائكة إني خالق بشرا " اي اخلقه فيما بعد، قبل ان يخلقه، والمراد بالبشر آدم، وسمي بشرا لانه ظاهر الجلد، لا يرى فيه شعر، ولاصوف كسائر الحيوان. ثم قال " من صلصال من حمأ مسنون " وقد فسرناه.

وقوله " فإذا سويته " معناه سويت صورته الانسانية، والتسوية جعل واحد من الشئيين على مقدار الآخر وقد يسوى بين الشئيين في الحكم.

وقوله: " ونفخت فيه من روحي " فالنفخ الاجراء لريح في الشئ باعتماد، نفخ ينفخ إذا جرى الريح باعتماد، فلما أجرى الله الروح على هذه الصفة في البدن، كان قد نفخ الروح فيه، وأضاف روح آدم إلى نفسه تكرامة له، وهي اضافة الملك، لما شرفه وكرمه، والروح جسم رقيق روحاني فيها الحياة التي بها يجئ الحي، فاذا خرجت الروح من البدن، كان ميتا في الحكم، فاذا انتفت الحياة من الروح، فهو ميت في الحقيقة.

وقوله " فقعوا له ساجدين " أمر من الله تعالى، إلى الملائكة ان يسجدوا لآدم. وقيل في وجه سجودهم له قولان:

احدهما - انه سجود تحية وتكرمة لآدم، عبادة لله تعالى. وقيل: أنه على معنى السجود إلى القبلة. والاول عليه اكثر المفسرين. ثم استثنى من جملتهم

(٣٣٣)

ابليس انه لم يسجد، " وأبى ان يكون مع الساجدين " لآدم. وابليس مشتق من الابلاس، وهو اليأس من روح الله إلا انه شبه بالاعجمي من جهة انه لم يستعمل إلا على جهة العلم، فلم يصرف. وقال قوم: إنه ليس بمشتق، لانه أعجمي بدلالة انه لا ينصرف. والاباء: الامتناع، والسجود خفض الجبهة بالوضع على بسط من الارض او غيره، واصله الانخفاض قال الشاعر:

ترى الاكم فيها سجد للحوافر (١)

واختلفوا في هذا الاستثناء، فقال قوم: ان ابليس كان من الملائكة، فلذلك استثناءه، وقال آخرون: إنما كان من جملة المأمورين بالسجود لآدم، فلذلك استثناءه من جملتهم، وقال آخرون: هو

استثناء منقطع ومعناه (لكن) وقد بينا الصحيح من ذلك في سورة البقرة (٢)

ومن قال: لم يكن من الملائكة قال: الملائكة خلقوا من نور، وإبليس خلق من نار، والملائكة لا يعصون، وإبليس عصى بكفره بالله. والملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تتكح، وإبليس بخلاف ذلك، قال الحسن: إبليس أب الجن، كما أن آدم أب الانس قوله تعالى: (قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين (٣٢) قال لم أكن لاسجد لبشر خلقتة من صلصال من حما مسنون (٣٣) آيتان بلاخلاف.

هذا خطاب من الله تعالى لابليس يقول له: لم لا تكون مع الساجدين، تسجد كما سجدوا. واختلفوا في كيفية هذا الخطاب، فقال الجبائي: قال الله له

(١) مر هذا الشعر في: ١٤٨، ٢٦٣، ٣١١، ٤: ٢٣٣، ٣٨٣، ٦: ..

(٢) انظر ١: ١٤٧ في تفسير آية ٣٤ من سورة البقرة.

(٣٣٤)

ذلك على لسان بعض رسله وهو أليق، لانه لا يصح ان يكلمه الله بلا واسطة في زمان التكليف. وقال آخرون: كلمه، بالانكار عليه والاهانة له، كما قال " اخسؤوا فيها ولا تكلمون " (١). هذا ينبغي ان يكون حكاية عما يقوله له في الآخرة، فقال إبليس مجيبا لهذا الكلام: ما كنت بالذي اسجد لبشر " خلقتة من صلصال من حما مسنون " وقد فسرناه. ولم يعلم وجه الحكمة في ذلك، لان في ذلك قلبا للشئ عن الحالة الحقيقية في الضعة إلى هذه الحالة الجليلة، وأي ذلك كان، فانه لا يقدر عليه غير الله، وانه لا ينتفع للعظم في الصفة مع إمكان قلبه إلى النقص في الصفة، وكذلك لا يضر النقص في الصفة، مع إمكان قلبه إلى الاعظم، فلو نظر في ذلك لزالته شبهته في خلقه من نار وخلق آدم من طين، قال المبرد: قوله " مالك ألا تكون " (لا) زائدة مؤكدة، والتقدير مامنعك ان تسجد، ف (أن) في قول الخليل وأصحابه في موضع نصب، لانه إذا حذف حرف الجر ونصب مابعد، وقال غيره: في موضع خفض، لان المعنى مامنعك من ان تكون، فحذف (من) قوله تعالى:

(قال فاخرج منها فإنك رجيم (٣٤) وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين (٣٥) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٣٦) قال فإنك من المنظرين (٣٧) إلى يوم الوقت المعلوم (٣٨) خمس آيات بلاخلاف.

هذا خطاب من الله تعالى لابليس لما احتج لامتناعه من السجود لادم بماليس بحجة، بل هو حجة عليه، فاخرج منها.

قال الجبائي: أمره بالخروج من الجنة. وقال غيره أمره بالخروج من السماء.

(١) سورة المؤمنون آية ١٠٩

(٣٣٥)

" فانك رحيم " أي مرجوم بالذم والشتم (فعليل) بمعنى مفعول. وقد يكون (فعليل) بمعنى فاعل مثل رحيم بمعنى راحم.

" وان عليك اللعنة " اي عليك مع ذلك اللعنة، وهي الابعاد من رحمة الله، ولذلك لايجوز ان تلعن بهيمة، فأمالعن إبليس إلى يوم الدين، فإن الله قدلعه، والمؤمنون لعنوه لعنة لازمة إلى يوم الدين، وهو يوم القيامة. ثم يحصل بعد ذلك على الجزاء بعذاب النار. وقيل الدين - ههنا - الجزاء، ومثله " مالك يوم الدين " اي يوم الجزاء. ويقال لفلان دين اي طاعة يستحق بها الجزاء، وفلان يدين للملوك أي يدخل في عادتهم في الجزاء، فقال حينئذ ابليس: يارب " انظرني إلى يوم يبعثون " اي آخر في وقتي إلى يوم يحشرون، يعني القيامة، يحشرهم الله للجزاء. والانظار والامهال واحد، فقال الله تعالى له: اني انظرتك وأخرتك وجعلتك من جملة " المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم " فقال قوم: هو يوم القيامة، أنظره الله في رفع العذاب عنه إلى يوم القيامة، وفي التبقية إلى آخر أحوال التكليف " ويوم يبعثون " يوم القيامة. وقد قيل: إن يوم الوقت المعلوم هو آخر أيام التكليف، وأنه سأل الانظار إلى يوم القيامة، لان لايموت، اذ يوم القيامة لايموت فيه احد، فلم يجبه الله إلى ذلك. وقيل له " إلى يوم الوقت المعلوم " الذي هو آخر ايام التكليف. وقال البلخي: اراد بذلك إلى يوم الوقت المعلوم، الذي قدر الله أجله فيه، وهو معلوم، لانه لايجوز ان يقول تعالى لمكف اني ابقيك إلى يوم معين لان في ذلك اغراء له بالقبيح.

واختلفوا في تجويز، إجابة دعاء الكافر، فقال الجبائي: لايجوز، لان اجابة الدعاء ثواب، لمافيه من اجلال الداعي باجابته إلى ماسأل وقال ابن الاخشاد:

يجوز ذلك، لان الاجابة كالنعمة في احتمالها ان تكون ثوابا وغير ثواب، لانه قد

يحسن منا ان نجيب الكافر إلى ماسأل استصلاحا له ولغيره، فأما قولهم:

فلان مجاب الدعوة، فهذه صفة مبالغة لاتصح لمن كانت إجابته نادرة من الكفار.

(٣٣٦)

قوله تعالى:

قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين (٣٩) إلا عبادك منهم المخلصين) (٤٠) آيتان بلاخلاف.

لمأجاب الله تعالى إبليس إلى الانظار إلى يوم الوقت المعلوم، قال عند ذلك يارب " بما أغويتني " اي فيما خيبتني من رحمتك، لان الغي الخيبة قال الشاعر.

فمن يلق خيرا يحمد الناس امره * ومن يغو لايعدم على الغي لائما (١)

وقال قوم: معناه بما نسبتني إلى الغي ذما لي، وحكمت علي بالغى. وقال البلخي: معناه فيما

كلفتني السجود لآدم الذي غويت عنده، فسمي ذلك غواية، كماقال " فزادتهم رجسا إلى رجسهم " (٢) لما ازدادوا عندها، على ان هذا حكاية قول إبليس، ويجوز ان يكون اعتقد ان الله خلق

فيه الغواية، فكفر بذلك، كما كفر بالامتناع من السجود.

والباء في قوله " فيما أغويتني " قيل في معناها قولان:

احدهما - ان معناها القسم، كقولك بالله لافعلن.

والآخر - بخيبتني " لاغوينهم " كأنها سبب لاغوائهم، كقولك بمعصيته ليدخلن النار، وبطاعته ليدخلن الجنة.

والاغواء الدعاء إلى الغي، والاغواء خلاف الارشاد، فهذا أصله، وقد يكون الاغواء بمعنى

الحكم بالغى، على وجه الذم والتزيين جعل الشئ منقبلا في النفس من جهة الطبع والعقل، بحق

ام بباطل. واغواء الشيطان تزيينه الباطل حتى يدخل صاحبه فيه، ويرى ان الحظ بالدخول

فيه. و " لاغوينهم " اي أدعوهم إلى ضد الرشاد، ثم أستثنى من جملتهم عباد الله المخلصين

الذين أخلصوا عبادتهم لله وامتنعوا من اجابة الشيطان، في ارتكاب المعاصي، لانه ليس

للشيطان عليهم

(١) مرهذا البيت في ٢: ٣١٢، ٤: ٣٩١، ٥: ٥٤٨ (٢) سورة التوبة آية ١٢٦

(٣٣٧)

سبيل، كماقال تعالى " ان عبادي ليس لك عليهم سلطان " يعنى عباد الله الذين فعلوا ما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه.

ومن كسر اللام فلقوله " وأخلصوا دينهم لله " (١)

ومن فتحها أراد ان الله أخلصهم بأن وفقهم لذلك، ولطف لهم فيه.

قوله تعالى:

(قال هذا صراط علي مستقيم (٤١) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين (٤٢) وإن جهنم لموعدهم أجمعين (٤٣) لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) (٤٤) أربع آيات بلاخلاف.

قرأ يعقوب " صراط علي " بتتوين علي، ورفع على أنه صفة ل (صراط) بمعنى رفيع، وبه قرأ ابن سير بن وقتادة. الباقر بفتح الياء على الاضافة إلى الياء. وقيل في معناه قولان.

احدهما - إن ذلك على وجه التهديد، كقولك لمن تتهدده وتتوعده: على طريقك، والى مصيرك، كما قال " إن ربك لبالمرصاد " (٢) وهو قول مجاهد وقتادة.

الثاني - إنه يراد به الدين المستقيم، وأن الله يبينه وينفي الشبهة عنه بهداية المستدل على طريق الدليل.

وقوله " ان عبادي ليس لك عليهم سلطان " اخبار منه تعالى ان عباده الذين

(١) سورة النساء آية ١٤٦ (٢) سورة الفجر آية ١٤ تفسير التبيان ج ٦ - م ٢٢

(٣٣٨)

يطيعونه وينتهون إلى أمره ويجتنبون معاصيه ليس للشيطان عليهم سلطان ولا قدرة أكثر من ان يغويهم، فإذا لم يقبلوا منه ولا يتبعونه، فلا يقدر لهم على ضرر ولا نفع. وقال الجبائي: ذلك يدل على ان الجن لا يقدر على الاضرار ببني آدم، لانه على عمومته. وقال غيره: الآية تدل على نفي السلطان بالاغواء، لانهم اذا لم يقبلوا منه ولا يتبعونه، فكأنه لاسلطان له عليهم، ولا يمتنع ان يقدر على غير ذلك من الاضرار.

ثم استثنى تعالى من جملة العباد من يتبع ابليس على إغوائه وينقاد له ويقبل منه، لانه اذا قبل منه، صار له عليه سلطان، بعدوله عن الهدى إلى ما يدعوه اليه من اتباع الهوى، فيظفر به إبليس.

ثم اخبر تعالى ان جهنم موعد جميع العصاة والخارجين عن طاعته، ومن يتبع ابليس على إغوائه. و (جهنم) لا تنصرف لانها معرفة مؤنثة، وقد يقال للنار اذا عظمت واشتدت: هذه جهنم، تشبيها بجهنم المعروفة، وهذا لم ينكر، ثم اخبر عن صفة جهنم بأن " لها سبعة ابواب " وقال علي (ع) والحسن وقتادة وابن جريج: ابوابها أطباق بعضها فوق بعض " لكل باب جزء " من المستحقين للعقوبة على قدر استحقاقهم من العقاب، في القلة والكثرة بحسب كثرة معاصيهم وقتلتها.

قوله تعالى:

(إن المتقين في جنات وعيون (٤٥) أدخلوها بسلام آمنين (٤٦) ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين (٤٧) لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) (٤٨) أربع آيات بلاخلاف.

لما أخبر الله تعالى عن الكفار ان مستقرهم جهنم، ووصف جهنم، أخبر - ههنا -

(٣٣٩)

ماللمتقين، فقال " ان للمتقين " الذين يتقون عقاب الله باجتتاب معاصيه وفعل طاعته " جنات " وهي البساتين التي تتبع فيها المياه، كمانفور من الفوارة، ثم يجري في مجاريه، وانما يشوقهم إلى الثواب بالجنان، لانها من اسباب لذات الدنيا المؤدية اليها، كما ان النار من اسباب الآلام لمن حصل فيها.

والفرق بين الجنة والروضة: ان الجنة لا بد ان يكون فيها شجر، لان اصلها من ان الشجر يجنها، والروضة قد تكون بغير شجر، يقال: روضة خضرة ورباض مونقات.

وقوله " ادخلوها " اي يقال للمتقين " ادخلوها بسلام آمنين " بسلامة وهي البراءة من كل آفة ومضرة، كما قال " واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " (١)

اي براءة منكم، ومعنى " آمنين " اي ساكني النفس إلى انتفاء الضرر. والامانة الثقة بالسلامة من الخيانة.

وقوله " ونزعنا ما في صدورهم من غل " فالغل الحقد الذي ينعقد في القلب، ومنه الغل الذي يجعل في العنق، والغلول الخيانة التي تطوق عارها صاحبها، فبين تعالى ان الاحقاد التي في صدور اهل الدنيا تزول بين اهل الجنة ويصبحون " اخوانا " متحابين " على سرر " وهي جمع سرير، وهو المجلس الرفيع موطأ للسرور، ويقال في جمعه: اسرة ايضا، وهو مأخوذ من السرور، لانه مجلس سرور " متقابلين " اي كل واحد منهم مقابل لصاحبه ومحاذ لآخيه، فانه بذلك يعظم سرورهم. والتقابل وضع كل واحد بازاء الآخر على التشاكل وقال قوم:

ان نزع الغل يكون قبل دخول الجنة. وقال آخرون: يكون ذلك بعد دخولهم فيها.

وقوله " لايمسهم فيها نصب " اخبار منه تعالى: ان هؤلاء المؤمنين الذين حصلوا في الجنة " اخوانا على سرر متقابلين " لايمسهم في الجنة نصب وهو التعب والوهن الذي من العمل، للوهن الذي يلحق. ثم أخبر انهم مع ذلك

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٣

(٣٤٠)

لايخرجون من الجنة بل يبقون فيها مؤبدين. و (اخوانا) نصب على الحال. وقال قوم هو نصب على التمييز.

قوله تعالى:

(نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم (٤٩) وأن عذابي هو العذاب الاليم) (٥٠) آيتان بلاخلاف. أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ان يخبر عبادالله الذين خلقهم لعبادته على وجه الترغيب لهم في طاعته والتخويف عن معصيته، باني انا الذي أعفو واستر على عبادي معاصيهم، ولا افضحهم بها يوم القيامة اذا تابوا منها، لرحمتي وانعامي عليهم، وان مع ذلك عذابي وعقوبتي " هوالعذاب الاليم " المؤلم الموجه، فلا تعولوا على محض غفراني، وخافوا عقابي، وكونوا على حذر باجتتاب معاصي والعمل بطاعتي.

قوله تعالى:

(ونبئهم عن ضيف إبرهيم (٥١) إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون (٥٢) قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم (٥٣) قال أبشر تموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون) (٥٤) أربع آيات بلاخلاف.

قرأنافع " تبشرون " بكسر النون مع التخفيف بمعنى تبشرونني وحذف النون استنقالا، لاجتماع المثليين، وبقيت الكسرة الدالة على الياء المفعولة، والنون الثانية محذوفة، لان التكرير بها وقع، ولم تحذف الاولى لانها علامة الرفع ومثله قول الشاعر:

(٣٤١)

تراه كالثغام يعل مسكا * بسوء الغاليات اذا قليني (١)

أراد قليني، فحذف إحدى النونين. وقال اهل الكوفة: ادغم ثم حذف، وحجتهم " وكادوا يقتلونني " (٢) وقوله " اتعدانني " (٣) فأظهر النونات، وأما حرف المشدد نحو " تأمروني " (٤) و " أتأجوني " (٥) وما أشبه ذلك. وشدد النون وكسرها ابن كثير. الباقر بفتح النون. قال أبوعلي: من شدد النون أدغم النون الاولى التي هي علامة الرفع في الثانية المتصلة بالياء التي للمضمر المنصوب للمتكلم، وفتحها، لانه لم يعد الفعل إلى مفعول به، كما عداه غيره. وحذف المفعول كثير. ولولم يدغم، وبين، كان حسنا في القياس مثل (يقتلونني) في جواز البيان والادغام. ومن فتح النون جعلها علامة الرفع، ولم يعد الفعل فيجتمع نونان.

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ان يخبر من تقدم ذكره " عن ضيف ابراهيم " والضيف هو المنضوي إلى غيره لطلب القرى، وجمعه ضيوف وأضياف وضيغان " إذ دخلوا عليه " يتعلق ب (ضيف) وضيف يقع على الواحد والاثنين والجمع، فلذلك قال " إذ دخلوا عليه " فكنى بكناية الجمع. وسماهم ضيفا، وهم ملائكة، لانهم دخلوا بصورة البشر " فقالوا سلاما "

نصبه على المصدر، والمعنى سلمت سلاما على وجه الدعاء، والنحية. ومثله قوله " وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " (٦) والمعنى سلمنا منكم سلاما، والسلامة نقيض البلاء والافاة المخوفة، والنجاة نقيض الهلاك.

وقوله " قال إنا منكم وجلون " اخبار عما أجاب به ابراهيم ضيفانه بأنه خائف منهم، والوجل الخوف، فأجابه الضيفان، وقالوا " لاتوجل " أي لا تخف انا

(١) قائله عمرين معد يكره. الكتاب لسبويه ٢: ٦٧ وشرح المفضليات ٧٨ والانصاف ٣٧٧ ومجاز القرآن ١: ٣٥٢ ومجمع البيان ٣: ٣٣٩ (٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٤٩ (٣) سورة ٤٦ الاحقاف اية ١٧ (٤) سورة ٣٩ الزمر اية ٦٤ (٥) سورة الانعام اية ٨٠، (٦) سورة الفرقان اية ٦٣

(٣٤٢)

جئناك " نبشرك بسلام عليم ". والتبشير الاخبار بمايسر، بمايظهر في بشرة الوجه سرورا به يقال: بشرته أبشره بشارة وأبشر ابشارا بمعنى استبشر، وبشرته تبشيرا، وانما وصفه بأنه " عليم " قبل كونه، لدلالة البشارة به على انه سيكون بهذه الصفة، لانه إنمايشر بولد يرزقه الله اياه ويكون عليما، فقال لهم ابراهيم " أبشروني على ان مسني الكبر " اي كيف يكون لي ولد وقد صرت كبيرا، لان معنى " مسني الكبر " أي غيرني الكبر عن حال الشباب التي يطمع معها في الولد، إلى حال الهرم. وقيل في معناه قولان:

احدهما - انه عجب من ذلك لكبره، فقاله على هذا الوجه.

والآخر - انه استفهم فقال: أمر الله ان تبشروني، في قول الجبائي.

ومعنى (على ان مسني) أي بأن مسني، كما قال " حقيق على ان لأقول " (١) بمعنى بأن لا أقول.

قوله تعالى:

(قالوا بشرناك بالحق فلانك من القانطين (٥٥) قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) (٥٦) آيتان بلاخلاف.

قرأ أبو عمرو والكسائي " يقنط " بكسر النون، حيث وقع، الباقون بفتحها، وكلهم قرأ " من بعد ماقنطوا " (٢) بفتح النون، قال ابو علي: قنط يقنط ويقنظ لغتان بدلالة إجماعهم على قوله " من بعد ماقنطوا " بفتح النون وقدحكي: يقنط بضم النون، وهي شاذة، وهذا يدل على ان ماضيه على (فعل)

لانه ليس في الكلام (فعل يفعل). وقدحكي عن الاعمش أنه قرأ " من بعدما قنطوا " بكسر النون، وهي شاذة لايقراً بها.

وفي هذه الآية حكاية ما قالت الملائكة لابراهيم، حين عجب ان يكون له

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٠٤ (٢) سورة ٤٢ الشورى آية ٢٨

(٣٤٣)

ولد لكبر سنه وعلو عمره، إنا بشرناك بذلك على وجه الحق والصحيح، وأخبرناك به على وجه الصدق، فلانك بعد ذلك من جملة القانطين، يعني الآيسين فأجابهم ابراهيم عند ذلك بأن قال: و " من " الذي " يقنط " أي ييأس " من رحمة " الله وحسن إنعامه، إلا من كان عادلا عن الحق ضالا عن سبيل الهدى، وهذا يقوي قول من قال: إنه راجعهم في ذلك على وجه الاستفهام دون الشك في اقوالهم.
قوله تعالى:

(قال فما فخطبكم أيها المرسلون (٥٧) قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (٥٨) إلا آل لوط إنا لمنجورهم أجمعين (٥٩) إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) (٦٠) أربع آيات بلاخلاف.
فقال ابراهيم (ع) بعد ذلك للملائكة " ماخطبكم " اي ما الامر الجليل الذي بعثتم له، والخطب الامر الجليل، ومثله ماشأنك، ومأمرك، ومنه الخطبة، لانها في الامر الجليل، فأجابته الملائكة بأننا " أرسلنا إلى قوم مجرمين " وقوم الرجل: هم الذين يقيمون بنصرته، والنفر الذين ينفرون في مهام الامور. وقوم لوط هم الذين كان يجب عليهم القيام بنصرته ومعونته على أمره. وقال قوم:

إنه يقع على الرجال دون النساء. والمجرم المنقطع عن الحق إلى الباطل، وهو القاطع لنفسه عن المحاسن إلى المقابح، والمعنى " انا أرسلنا إلى " من وصفنا لنهلكهم، وننزل بهم العقوبة. ثم استثنى من ذلك (آل لوط) وأخبر انهم ينجونهم كلهم، يقال: نجيت فلانا وانجيته، فمن قرأ بالتشديد أراد الكثير.

ثم استثنى من جملة آل لوط امرأته، وبين انها هالكة مع الهالكين، (وقدرنا) اي كتبنا " انها لمن الغابرين " والغابر الباقي في من يهلك. والغابر الباقي في مثل الغيرة، مما يوجب الهلكة.
قال الشاعر:

(٣٤٤)

فما ونى محمد مذ أن غفر * له الاله مامضى وماغبر (١)
وآل الرجل أهله الذين يرجعون إلى ولايته، ولهذا يقال أهل البلد، ولا يقال آل البلد، ولكن آل الرجل اتباعه الذين يرجع أمرهم اليه بولايته ونصرته وقيل: إن امرأة لوط كانت في جملة

الباقين. ثم اهلكت فيما بعد " وقدرنا " بالتخفيف مثل (قدرنا) بالتشديد، وكلهم قرأ - هاهنا - مشددا إلا أبابكر عن عاصم، فانه خففها، ويكون ذلك من التقدير، كما قال " ومن قدر عليه رزقه " (٢). وقال ابو عبيدة:

في الآية معنى فقر، وكان ابويوسف يتأوله فيها، لان الله تعالى استثنى آل لوط من المجرمين، ثم استثنا استثناء رده على استثناء كان قبله، وكذلك كل استثناء في الكلام إذ جاء بعد آخر عاد المعنى إلى أول الكلام، كقول الرجل: لفلان علي عشرة إلا أربعة إادرهم، فإنه يكون اقرار بسبعة، وكذلك لوقال: علي خمسة إادرهما إلا ثلثا، كان إقرار بأربعة وثلث، وكذلك لو قال لامرأته أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين إلا واحدة كانت طالقا إثنتين، قال: واكثر ما يستثنى ما هو أقل من النصف، ولم يسمع اكثر من النصف الابيت أنشده الكسائي:

ادوا التي نقصت سبعين من مئة * ثم ابعثوا حكما بالعدل حكاما
فجعلها مئة إلا سبعين، وهو يريد ثلاثين، وضعف المبرد الاحتجاج بهذا البيت، ولم يجز إسنثناء الاكثر من الجملة ولانصفها، وإنما جاز استثناء مادون النصف من الجملة حتى قال: لايجوز ان يقال: له عندي عشرة إلا نصف ولا عشرة إلا واحد، قال: لان تسعة ونصف أولى بذلك، وكذلك لايجوز: له الف إلا مئة، لان تسعة مئة أولى بذلك، وإنما يجوز الف إلا خمسين وإلا سبعين والا تسعين، قال: وعلى هذا النحو بني هذا الباب. والصحيح الاول، عند اكثر العلماء من المتكلمين والفقهاء واكثر النحويين.

(١) قائله العجاج ديوانه ١٥ واللسان (ثبت)، وقد مر قسم من هذا الرجز في ٤ : ٥٨٨ :

٥٨٩ تعليقة ٤ (٢) سورة الطلاق آية ٧

(٣٤٥)

قوله تعالى:

(فلما جاء آل لوط المرسلون (٦١) قال إنكم قوم منكرون (٦٢) قالوا بل جنناك بماكانوا فيه يمترون (٦٣) وأتيناك بالحق وإنا لصادقون) (٦٤) أربع آيات بلاخلاف.

أخبر الله تعالى ان الملائكة الذين بعثهم الله لاهلاك قوم لوط، لما جاؤوا لوطاً وقومه، وكانوا في صورة لايعرفهم بها لوط، انكرهم، وقال لهم " انكم هم منكرون " اي لاتعرفون مع الاستيحاش منكم، لانه لم يثبتهم في ابتداء مجيئهم فلما اخبروه بأنهم رسل الله جاؤوا بعذاب قومه وسؤاله الامر، عرفهم حينئذ، وقالوا " بل جنناك بماكانوا فيه يمترون " اي بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه ويكذبون به، وقد يوصف الجاهل بالشك من جهة مايعرض له فيه من حيث

لا يرجع إلى ثقة فيما هو عليه. وقالوا له ايضا انا جئناك بالحق فيما أخبرناك به من عذاب قومك، ونحن صادقون فيه.

قوله تعالى:

(فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون (٦٥) وفضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين (٦٦) آياتان بلاخلاف.

هذا حكاية ما قالت الملائكة للوط وأمرهم إياه بأن يسري بأهله. والاسراء سير الليل: سرى يسري سرى واسرى إسراء لغتان قال الشاعر:

سريت بهم حتى تكل مطيهم * وحتى الجياد مايقدن بارسان (١)

(١) مر هذا البيت في ٦: ٤٣ من هذا الكتاب

(٣٤٦)

وقوله " بقطع من الليل " معناه بقطعة تمضي منه، كأنه جمع قطعة. مثل ثمرة وتمر وبسرة وبسر، وقيل: بقطع من الليل ببعض الليل. وقيل: بقية من الليل. وقيل: إذا بقي من الليل قطعة ومضى أكثره.

وقوله " واتبع ادبارهم " اي اقتف آثارهم يعني آثار الاهل. والاتباع اقتفاء الاثر. والاتباع في المذهب، والافتداء مثله، وخلافه الابتداع. والادبار جمع دبر، وهو جهة الخلف. والقبل جهة القدام، ويكنى بهما عن الفرج. وجمع القبل أقبال ومعنى قوله " ولا يلتفت منكم احد " اي لا يلتفت إلى ما خلف، كما يقول القائل: امض لشأنك، ولا تعرج على شيء. وقيل: لنلا يرى هو ما ينزل بهم مما لا تطيقه نفسه " وامضوا حيث تؤمرون " اي حيث تؤمرون بالمصير اليه.

وقوله " وقضينا اليه " اي أخبرناه واعلمناه " ذلك الأمر " اي ما ينزل بهم من العذاب.

وقوله " ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين " والدابر الاصل وقيل دابرهم آخرهم، وعقب الرجل دابره " مصبحين " نصب على الحال اي في حال مادخلوا في وقت الصبح، ومثله قوله " فأخذتهم الصيحة مشرقين " (١) نصب على الحال.

قوله تعالى:

(وجاء أهل المدينة يستبشرون (٦٧) قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون (٦٨) واتقوا الله ولا تخزون (٦٩) قالوا أولم ننهك عن العالمين (٧٠) قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين) (٧١) خمس آيات بلاخلاف.

هذا إخبار من الله تعالى أنه حين بلغ أهل المدينة نزول من هو في صورة

(٣٤٧)

الاضيف بلوط، جاؤوا إليه مستبشرين فرحين، يقال استبشر استبشرا وأبشر إيشارا، بمعنى واحد وضده اكتأب اكتأباً. وانما فرحوا طمعا في ان ينالوا الفجور منهم، فقال لهم لوط " إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون " فيهم، والفضيحة ظهور السيئة التي يلزم العار بها عند من عملها، يقال: فضحه يفضحه فضيحة، وأفتضح افتضاحا وتفاضحوا تفاضحا. ثم قال لهم " اتقوا الله " باجتتاب معاصيه، وفعل طاعته، " ولا تحزون " والخري الانقماح بالعيب الذي يستحيا يقال منه: خزي خزيا، واخزاه الله إخزاء. والاخزاء والاذلال والاهانة نظائر. وللضيف نمام كانت العرب تراعيه، وتحافظ عليه، وتعيب من عنده ضيف ولم يقم بحقه، فلذلك قال لهم " ان هؤلاء ضيفي "، فقالوا له في الجواب عن ذلك أو ليس نهيناك أن تستضيف أحدا من جملة الخلائق أو تنزله عندك، فقال لهم عند ذلك " هؤلاء " وأشار إلى بناته. وقيل أنهن كن بناته لصلبه، وقيل انهن كن بنات قومه عرضهن عليهم بالترويج والاستغناء بهن عن الذكران. وقال الحسن، وقتادة: أراد " هؤلاء بناتي " فتزوجوهن " إن كنتم فاعلين " كناية عن طلب الجماع. وقال الجبائي: ذلك للرؤساء الذين يكفون الاتباع، وقد كان يجوز في تلك الشريعة تزويج المؤمنة بالكافر، وقد كان في صدر شريعتنا جائزا أيضا، ثم حرم. وهو قول الحسن. وقال الزجاج: أراد نساء أمته، فهم بناته في الحكم، قال الجبائي:

وهذا القول كان من لوط لقومه قبل ان يعلم أنهم ملائكة لا يحتاج إلى هذا القول لقومه.
قوله تعالى:

(لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون (٧٢) فأخذتهم الصيحة مشرقين (٧٣) فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل (٧٤) إن في ذلك لآيات للمتوسمين (٧٥) وإنها لبسبيل مقيم (٧٦) إن في ذلك لآية للمؤمنين (٧٧) وإن كان أصحاب

(٣٤٨)

الايكة لظالمين) (٧٨) سبع آيات بلاخلاف.

قال ابن عباس معنى (لعمرك) وحياتك. وقال غيره: هو مدة حياته وبقائه حيا بمعنى لعمرك ومدة بقاءك حيا. والعمر والعمر واحد، غير أنه لا يجوز في القسم إلا بالفتح، قال ابو عبيدة: ارتفع لعمرك وهي يمين، والايمان تكون خفضا إذا كانت الواو في أوائلها، ولو كانت و عمرك لكانت خفضا، ولذلك قولهم: لحق لقد فعلت ذلك، وإنما صارت هذه الايمان رفعا بدخول اللام في اولها، لأنها أشبهت لام التأكيد، فأما قولهم: عمرك الله أفعل كذا، فإنهم ينصبون (عمرك)

وكذلك ينصبون (الله لافعلن). قال المبرد: لا أفتحها يمينا، بل هي دعاء ومعناه اسأل الله لعمرك. قال المبرد: والتقدير: لعمرك ما أقسم به، ومثله: علي عهد الله لافعلن، فعهد الله رفع بالابتداء، وفيه معنى القسم، وكذلك (لاها الله ذا). قال الخليل: (ذا) معناه ما أقسم عليه. وحكي عن الاخفش أنه قال: (ذا) ما أقسم به، لانه قد ذكر الله، وكلاهما حسن جميل.

وقوله " انهم لفي سكرتهم يعمهون " فالسكرة غمور السهو للنفس وهؤلاء في سكرة الجهل " يعمهون " اي يتحIRON، ولا يبصرون طريق الرشد.

وقوله " فأخذتهم الصيحة مشرقين " فالأخذ فعل يصير به الشئ في جهة الفاعل، فالصيحة كأنها أخذتهم بما صاروا في قبضتها حتى هلكوا عن آخرهم.

والصيحة صوت يخرج من الفم بشدة ويقال: إن الملك صاح بهم صيحة أهلكتهم.

ويجوز ان يكون جاء صوت عظيم من فعل الله كالصيحة. والاشراق ضياء الشمس بالنهار شرقت الشمس تشرق شروقا اذا طلعت، وأشرقت إشراقا اذا أضاءت وصفت. ومعنى (مشرقين) داخلين في الاشراق.

وقوله " فجعلنا عاليها سافلها " والجعل حصول الشئ على وجه لم يكن بقادر عليه لولا الجعل، ومثله التصيير، والمعنى: انه قلب القرية فجعل أسفلها اعلاها

(٣٤٩)

واعلاها أسفلها " وأمطرنا عليهم حجارة " اي أرسلنا الحجارة، كما يرسل المطر " من سجيل " وقيل في معناه قولان:

احدهما - انها من طين وهو معرب. وقيل هو من السجل، لانه كان عليها أمثال الخواتيم بدلالة قوله " حجارة من طين مسومة عند ربك " (١)

والثاني - انها حجارة معدة عند الله تعالى للمجرمين، وأصله (سجين) فابدلت النون لاما.

فان قيل مامعنى امطار الحجارة عليهم مع انقلاب مدينتهم؟ قلنا فيه قولان:

احدهما - أنه أمطرت الحجارة أولا ثم انقلبت بهم المدينة.

الثاني - ان الحجارة أخذت قوما منهم خرجوا من المدينة بحوائجهم قبل الفجر - في قول الحسن - ثم اخبر تعالى ان فيما حكاه آيات ودلالات للمتوسمين.

قال مجاهد يعنى المتفرسين. وقال قتادة: يعنى المعتبرين. وقال ابن زيد:

المتفكرين. وقال الضحاك: الناظرين. وقال ابو عبيدة: المتبصرين. والمتوسم الناظر في السمة الدالة.

وقوله " انها لبسبيل مقيم " معناه إن الاعتبار بها ممكن لان الآيات التي يستدل بها مقيدة ثابتة بها وهي مدينة سدوم، والهاء كناية عن المدينة التي أهلكتها الله، وهي مؤنثة. ثم قال ان فيما قص من حكاية هذا المدينة " لآية للمؤمنين " ودلالة لهم. وقيل في وجه إضافة الآية إلى المؤمنين قولان:

أحدهما - انه يصلح ان يستدل بها.

والآخر - انه يفعل الاستدلال بها. وتضاف الآية إلى الكافر بشرط واحد، وهو أنه يمكنه الاستدلال بها.

وقوله " وإن كان اصحاب الايكة لظالمين " فالايكة الشجرة في قول الحسن والجمع الايكة كشجرة وشجر. وقيل: الايكة الشجر الملتف قال امية:

(١) سورة الذاريات آية ٣٣ - ٣٤

(٣٥٠)

كبياء الحمام على فروع الاي * ك في الطير الجرائح

وقيل الايكة الغيضة واصحاب الايكة هم أهل الشجر الذين أرسل اليهم شعيب (ع) وأرسل إلى أهل مدين، فأهلكوا بالصيحة، واصحاب الايكة فأهلكوا بالظلة التي احترقوا بنارها. وفي قول قتادة، فأخبر الله تعالى انه اهلك اصحاب الايكة بظلمهم وعتوهم وكفرهم بآيات الله وحجدهم نبوة نبيه وقال ابن خالويه: الايكة أسم القرية، والايكة أسم البلد، كما ان مكة اسم البلد، ومكة اسم البيت. ولم يصرفوا الايكة للتعريف والتأنيث، ويجوز ان يكونوا تركوا صرفه، لانه معدول عن الالف واللام، كما ان شجر معدول عن الشجر، فلذلك لم يصرفوه.

قوله تعالى:

(فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين (٧٩) ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين (٨٠) وأتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين (٨١) وكانوا ينتحون من الجبال بيوتا آمنين (٨٢)

فأخذتهم الصيحة مصبحين (٨٣) فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون (٨٤) ست آيات بلاخلاف. لما اخبر الله تعالى عن اصحاب الايكة أنهم كذبوا رسل الله، اخبر بأنه انتقم منهم بأن اهلكهم ودمر عليهم. وفرق الرماني بين الانتقام والعقاب، فقال:

الانتقام نقيض الانعام، والعقاب نقيض الثواب، فالعقاب مضمن بأنه على المعصية، والانتقام مطلق، وهو - ههنا - على المعاصي، لان الاطلاق يصلح فيه التقييد: بحذف الاضافة.

وقوله " وإنهما " يعني قريتي قوم لوط، واصحاب الايكة، لبطريق يؤم ويتبع ويهتدى به - في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن - وقال أبو علي

(٣٥١)

الجبائي " لبإمام " وهو الكتاب السابق الذي هو اللوح المحفوظ، ثابت ذلك فيه ظاهر. والامام - في اللغة - هو المقدم الذي يتبعه من بعده وإنما كانا بإمام مبين، لأنهما على معنى يجب ان يتبع، فيما يقتضيه ويدل عليه، والمبين الظاهر.

وقوله " ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين " اخبار منه تعالى ان اصحاب الحجر، وهي مدينة - في قول ابن شهاب، وسموا أصحاب الحجر، لأنهم كانوا سكانه، كما تقول: اصحاب الصحراء. " كذبوا " ايضا الرسل الذين بعثهم الله اليهم، وحججوا نبوتهم: وقال قتادة: هم اصحاب الوادي، وهو من الحجر الذي هو الحظر.

واخبر تعالى انه اتاهم الله الدلالات والمعجزات الدالة على توحيده وصدق انبيائه، فكانوا يعرضون عنها ولا يستدلون بها، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا ينقرون نقرا يأمنون فيها من الخراب. وقيل آمنين من سقوطها عليهم. وقيل كانوا آمنين من عذاب الله وقيل: من الموت. ونصبه على الحال.

فأخبر تعالى ان هؤلاء " اخذتهم الصيحة مصبحين " اي جاءتهم الصيحة وقت دخولهم في الصباح، ولم يغنهم " ما كانوا يكسبون " من الملاذ القبيحة. والغنى وجود ما ينتفي به الضرر عنهم قوله تعالى:

(وما خلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فأفصح الصفح الجميل (٨٥) إن ربك هو الخلاق العليم) (٨٦) آيتان بلاخلاف.

وجه اتصال هذه بما تقدم ذكره هو ان الامم لما خالفوا الحق أهلكوا، لان الله ما خلق " السموات والارض إلا بالحق " وعلى " ان الساعة آتية " للجزاء

(٣٥٢)

وأن جمع ما خلق يرجع إلى عالم به وبندبيره. وقيل: ما أهلكتناهم إلا بالحق كما خلقنا السموات والارض بالحق، فأخبر تعالى انه لم يخلق السموات والارض إلا بالحق، ولو جه من وجوه الحكمة، وان الساعة، وهي يوم القيامة لآتية جائية بلاشك، ثم امر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يصفح بمعنى يعفو عنهم عفوا جميلا. واختلفوا في كونه منسوخا:

فقال قتادة، ومجاهد، والضحاك: إنه منسوخ بوجوب الجهاد والقتال، وكان الصفح قبل ذلك.

وقال الحسن: هذا فيما بينه وبينهم، لافي ما امر به من جهة جهادهم.

وقال الجبائي: أمره بأن يحلم عنهم فيما كانوا يسفهون عليه من شتمه، وسفاهتهم عليه، فلا يقابلهم بمثله.

ثم اخبر تعالى انه الخلاق لما ذكر من السموات والارض، عليهم بما فيه من المصلحة لعباده ووجه الحكمة فيه.

قوله تعالى:

(ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم (٨٧) لا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين (٨٨) وقل إني أنا النذير المبين (٨٩) كما أنزلنا على المقتسمين (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) خمس آيات.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه آتاه أي أعطاه سبعا من المثاني، فقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبیر ومجاهد: هي السبع الطوال سبع سور من أول القرآن. قال قوم: المثاني التي بعد المئتين قبل المفصل.

(٣٥٣)

وفي رواية أخرى عن ابن عباس وابن مسعود: أنها فاتحة الكتاب، وهو قول الحسن وعطاء. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (السبع المثاني أم القرآن) وهي سبع آيات بلاخلاف في جملتها، وإنما سميت مثاني، في قول الحسن، لأنها تنثني في كل صلاة وقراءة. وقيل: المثاني السبع الطوال لما ينثني فيها من الحكم المصرفة قال الراجز:

نشدتكم بمنزل الفرقان * أم الكتاب السبع من مثاني

ثنتين من أي من القرآن * والسبع سبع الطول الدواني (١)

وقد وصف الله تعالى القرآن. كله بذلك في قوله "الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني" (٢) فعلى هذا تكون (من) للتبعيض. ومن قال: انها الحمد قال:

(من) بمعنى تبين الصفة، كقوله "اجتنبوا الرجس من الاوثان" (٣)

وقوله "والقرآن العظيم" تقديره وآتيناك القرآن العظيم سوى الحمد.

وقوله "لا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم" خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به الامة، نهاهم الله تعالى ان يمدوا أعينهم إلى ما متع هؤلاء الكفار به من نعيم الدنيا. ومعنى أزواجا منهم أمثالا من النعم "ولا تحزن عليهم" قال الجبائي:

معناه لا تحزن لما أنعمت عليهم دونك. وقال الحسن "لا تحزن عليهم" على ما يصيرون اليه من النار بكفرهم.

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يخفض جناحه للمؤمنين وهو ان يلين لهم جانبه ويتواضع لهم ويحسن خلقه معهم، وأن يقول لهم "إني أنا النذير المبين" يعني المخوف من عقاب الله من ارتكب ما يستحق به العقوبة، ومبين لهم ما يجب عليهم العمل به.

(١) مجاز القرآن ٧ : ١ وتفسير القرطبي ١٠ : ٥٤ وتفسير الطبري ١ : ٣٦ ومجمع البيان ٣ : ٣٤٥ (٢) سورة الزمر آية ٢٣ (٣) سورة الحج آية ٣٠ تفسير التبيان ج ٦ - م ٢٣

(٣٥٤)

وقوله " كما انزلنا على المقتسمين " قال ابن عباس وسعيد بن جبير، والحسن: هؤلاء هم أهل الكتاب اقتسموا القرآن، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، وقال قتادة: هم قوم من قريش عضوا كتاب الله. وقال ابن زيد: هم قوم صالح " تقاسموا لنبيته واهله " وقال الحسن: أنزلنا عليك الكتاب، كما انزلنا على المقتسمين من قبل، قوم اقتسموا طرق مكة ينفرون عن النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون:

إنه ساحر، وبعضهم يقول هو كاهن، وبعضهم يقول انه مجنون، فأنزل الله بهم عذابا اهلكهم به، وتقديره أنذركم بما أنزل بالمقتسمين. ذكره الفراء وقوله " الذين جعلوا القرآن عضين " أي جعلوه متفرقا بالايمان ببعضه والكفر ببعض، فعضوه على هذا السبيل الذي ذمهم الله بها. وقيل جعلوه عضين، بأن قالوا سحر وكهانة - في قول قتادة - واصل عضين عضه منقوصة الواو، مثل عزة وعزين، قال الشاعر:

ذاك ديار يأزم المأزما * وعضوات تقطع اللهازما (١)
وقال آخر:

للماء من عضاتهن زمزمه وقال رؤبة:

وليس دين الله بالمعضي (٢)

فالمعنى انهم عضوه أي فرقوه، كمتاعضا الشاة والجزور، واصل عضه عضوه فنقصت الواو، ولذلك جمعت عضين بلاواو كما قالوا عزين جمع عزة والاصل عزوة ومثله ثبه وثبون، واصله ثبوة والعضيئة الكذب، فلما نسبوا القرآن إلى الكذب وانه ليس من قبل الله فقد عضهوا بذلك.

قوله تعالى:

(فوربك لنسئلنهم أجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون (٩٣))

(١) مجمع البيان ٣ : ٣٤٤ واللسان " عضه " وروايته:

هذا طريق يأزم المأزما * وعضوات تقطع اللهازما

(٢) اللسان " عضا "

(٣٥٥)

فأصدع بماتؤمر وأعرض عن المشركين (٩٤) إنا كفييناك المستهزئين (٩٥) الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون (٩٦) ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون (٩٧) فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين (٩٨) واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (٩٩) ثمان آيات بلاخلاف. أقسم الله تعالى بقوله " فوربك " يامحمد، وفي ذلك تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم وتنبئيه على عظم منزلته عند الله " لنسألنهم " يعني هؤلاء الكفار " أجمعين " وانما يسألهم سؤال توبيخ وتقريع، فيقول لهم لم عصيتم القرآن، وماحجتكم فيه ومادليلكم عليه، فيظهر عند ذلك خزيهم وفضيحتهم عندتعدز جواب بصح منهم.

وقوله " فاصدع بماتؤمر " أمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ان يفرق بمأمر به، والمعنى افرق بين الحق والباطل بما تؤمر به، قال أبوذؤيب:

وكأنهن ربابة وكأنه * يسر يفيض على القداح ويصدع (١)

وقال مجاهد: معناه فاجهر بماتؤمر، وانما قال بماتؤمر، ولم يقل بماتؤمر به، لامرين: احدهما - انه حذف (به) كمايقال أمرك وأمربك، وأكفرك وأكفر بك قال الشاعر:

إذا قالت حذام فصدقوها * فإن القول ماقلت حذام (٢)

وكماقال الآخر:

أمرتك حازما فعصيتي * وأصبحت مسلوب الامارة نادما

(١) ديوانه ٨١ ومجاز القرآن ١: ٣٥٥ وتفسير الطبري ١٤: ٤١ واللسان " صدع " ومجمع البيان ٣: ٣٤٦ (٢) قطر الندى (باب المعرب والمبنى) واللسان (حذم)

(٣٥٦)

وقوله " أعرض عن المشركين " أمر بأن يعرض عن المشركين، ولايخاصمهم إلى ان يأمره بقتالهم.

وقوله " انا كفييناك المستهزئين " المعنى كفييناك شرهم واستهزاءهم بأن أهلكناهم وكانوا خمسة نفر من قريش: الوليدبن المغيرة، والعاص بن وائل، وابوزمعة والاسود بن عبد يغوث، والحرث بن عيطلة - في قول سعيدبن جبر - وقيل الاسودبن المطلب، أهلكهم الله.

وقوله " الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر " الذين في موضع جر، لانه بدل من المستهزئين، وصفهم بأنهم اتخذوا مع الله إلهًا آخر عبدوه، ثم قال " فسوف يعلمون " وبال ذلك يوم القيامة، وهذا غاية التهديد، ثم قال " ولقد نعلم أنك " يامحمد " يضيق صدرك " ويشق عليك مايقولون

من التكذيب والاستهزاء. ثم أمره ان يحمد ربه على نعمه وان يكون من الساجدين الذين يسجدون لله.

ويوجهون عبادتهم اليه، وان يعبد ربه إلى الوقت الذي يأتيه اليقين، ومعناه حتى يأتيه الموت في قول الحسن ومجاهد وقتادة - وسمي يقينا، لأنه موقن به توسعا وتجوزا، لأنه مما يوقن به جميع العقلاء. ويحتمل أن يكون أراد. حتى يأتيه العلم الضروري بالموت والخروج من الدنيا الذي يزول معه التكليف

(٣٥٧)

(١٦) سورة النحل هي مكية إلا آية هي قوله " والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا " الآية. وقال الشعبي: نزلت النحل كلها بمكة إلا قوله " وان عاقبتهم " إلى آخرها. وقال قتادة: من أول السورة إلى قوله " كن فيكون " مكى، والباقي مدني. وقال مجاهد: أولها مكى وآخرها مدني، وهي مئة وثمان وعشرون آية ليس فيها خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم.

(أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون)

(١) آية بلاخلاف.

قرأنافع وعاصم وابوعمر و " يشركون " بالياء. وقرأ ابن عامر وابن كثير مثل ذلك. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء.

من قرأ بالتاء، فللقوله " فلا تستعجلوه " فرد الخطاب الثاني إلى الاول ومن قرأ بالياء قال لان الله أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فقال محمد تنزيها لله " سبحانه وتعالى عما يشركون "

(٣٥٨)

وقرأسعيد بن جبير " أتى أمر الله، فلاتستعجله " وروي عن عباس انه قال:

المشركون قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين، فقال الله تعالى " أتى امر الله فلا تستعجلوه " وانما قال " أتى امر الله " ولم يقل يأتي، لان الله تعالى قرب الساعة، فجعلها كلمح البصر، فقال " وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب " (١) وقال " اقتربت الساعة " (٢) وكل ما هو آت قريب، فعبر بلفظ الماضي ليكون أبلغ في الموعظة، وإن كان قوله " فلا تستعجلوه " يدل على أنه في معني يأتي، وأمر الله يراد به العذاب - في قول الحسن وابن جريح وغيرهما - وقال الضحاك: معناه فرائضه واحكامه. وقال الجبائي: امره القيامة والاول أصح، لانهم استعجلوا عذابه دون غيره.

والتسييح في اللغة ينقسم أربعة أقسام:

أحدها - التنزيه مثل قوله " سبحان الذي أسرى بعبده ليلا " (٣) وقال الشاعر:

أقول لما جاعني فخره * سبحان من علقمة الفاخر (٤)

والثاني - معنى الاستثناء كقوله " لولا تسبحون " (٥) أي هلا تستثنون.

والثالث - الصلاة كقوله " فلو لا انه كان من المسبحين " (٦).

والرابع - النور، جاء في الحديث (فلولا سبحان وجهه) أي نوره ومعنى " تعالى ": تعاضم

بأعلى صفات المدح عن ان يكون له شريك في العبادة، وجميع صفات النقص منتفية عنه.

قوله تعالى:

(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده.

(١) سورة النحل آية ٧٧ (٢) سورة القمر آية ١.

(٣) سورة الاسرى آية ١ (٤) مر هذا الشعر في ١: ١٣٤، ٣: ٨١، ٥: ٢٤١، ٣٩٥ (٥) سورة القلم اية ٢٨ (٦)

سورة الصافات آية ١٤٣

(٣٥٩)

أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) (٢) آية بلاخلاف.

قرأ روح والكسائي عن ابي بكر " تنزل الملائكة " بالتاء وفتحها، وفتح النون والزاي ورفع

الملائكة. الباقون بالياء وضمها وفتح النون وتشديد الزاي وكسرها، ونصب الملائكة، إلا أن

ابن كثير وابعمر، وورش يسكنون النون ويخففون الزاي.

من قرأ بالياء ففاعل (ينزل) هو الضمير العائد إلى اسم الله في قوله " اتى امر الله " وإسكان

النون وتخفيف الزاي وتشديدها، فكلاهما جائز، قال تعالى:

" إنا نحن نزلنا الذكر " (١) وقال " وأنزلنا اليك الذكر " (٢) فأماما روي عن عاصم من

القراءة بالتاء، فلانه انث الفعل باسناده إلى الملائكة كقوله " إذ قالت الملائكة " (٣) وبنى الفعل

للمفعول به واسنده اليهم والاول ابيبن.

اخبر الله تعالى أنه ينزل الملائكة بالروح من امره، واختلفوا في معنى الروح - ههنا - فقال

ابن عباس: اراد به الوحي، وقال الربيع بن انس: اراد به كلام الله، وقال قوم: اراد حياة

النفوس، والارشاد لهم إلى الدين، وقد فسر ذلك بقوله " ان أنذروا " وهو بدل من الروح،

وموضعه الجر وتقديره ب (أن أنذروا) لان الموعدة والانذار للكافر حياة، لانه تعالى شبه

الكافر بالميت، فقال " او من كان ميتا فأحييناه " (٤) بالاسلام. والروح تنقسم عشرة اقسام:

فالروح الارشاد والحياة، والروح الرحمة قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم " فروح وريحان

" (٥) والروح النبوة لقوله " يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده " (٦) والروح

عيسى روح الله أي خلق من غير بشر، وقال آخرون: من غير فحل. وقيل انه سمي بذلك لكونه رحمة على عباد الله بمايدعوهم إلى الله، والروح جبرائيل. والروح النفخ، يقال: أحييت النار بروحي أي بنفخي، قال ذو الرمة يصف الموقد والزندة:

(١) سورة الحجر آية ٩ (٢) سورة النحل آية ٤٤ (٣) سورة ال عمران اية ٤٢، ٤٥ (٤) سورة الانعام اية ١٢٢
(٥) سورة الواقعة اية ٨٩ (٦) سورة المؤمن (غافر) اية ١٥

(٣٦٠)

فلما بدت كفنتها وهي طفلة * بطلساء لم تكمل ذراعا ولاشبرا
فقلت له ارفعها اليك وأحيها * بروحك واقتته لها قبينة قدرا (١)
والروح الوحي قال الله تعالى " وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا " (٢)
قيل انه جبرائيل، وقيل الوحي. والروح ملك في السماء من أعظم خلقه، فاذا كان يوم القيامة
وقف صفا، والملك كلهم صفا، والروح روح الانسان. وقال ابن عباس في الانسان روح
ونفس، فالنفس هي التي تكون فيها التمييز والكلام، والروح هو الذي يكون به الغطيظ والنفس،
فاذا نام العبد خرجت نفسه وبقيت روحه، واذا مات خرجت نفسه وروحه معا. وقوله " على
من يشاء من عباده " يعني الانبياء يأمرهم أن يخبروا عباده أنه لا إله يستحق العبادة غير الله
تعالى، ويأمرهم بأن يتقوا معاصيه ويفعلوا طاعاته.
قوله تعالى:

(خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون (٣))

خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين (٤) آيتان بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي " تشركون " بالناء في الموضعين لقوله " فلا تستعجلوه " فرد الخطاب إلى
الاول. ومن قرأ بالياء فلما تقدم ذكره. احتج الله تعالى بالآية وما قبلها وما بعدها على خلقه
وأعلمهم عظيم نعمه، دلهم على قدرته، إذ " خلق السموات والارض " بمافيهما من العجائب
والمنافع، و " الخلق الانسان من نطفة " مهينة ضعيفة سيالة فرباها ودبرها حتى صار إنسانا
يخاصم ويبين. ولو وضعنا

(١) اللسان (حيا) ذكر البيت الثاني فقط (طلس) ذكر الشطر الثاني من البيت الاول.

(٢) سورة الشورى آية ٥٢

(٣٦١)

النفطة بين أيدي الخلائق فاجتهدوا، وفكروا ماقدروا على قلبها، ولا عرفوا كيف يتمكن ويتأتى أن تقلب حالا بعد حال حتى تصير فيها روح، وعقل، وسمع، وبصر، وحتى تنطق وتعرب عن نفسها، وتحتج فتدفع عنها وقيل في معنى " خصيم مبین " قولان: أحدهما - انه أخرج من النفطة ماهذه صفتها، ففي ذلك أعظم العبرة. والثاني - لماخلقه ومكنه خاصم عن نفسه خصومة أبان فيها عن نفسه. وقيل انه يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها - تعريف قدرة الله في اخراجه من النفطة ماهذه سبيله.
الثاني - تعريف نعم الله في تبليغ هذه المنزلة من خلق من نفطة.
الثالث - تعريف فاحش ما ارتكب الانسان من تضييع حق الله بالخصومة.
قوله تعالى:

(والانعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون (٥))

ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس إن ربكم لرؤوف رحيم) (٧) ثلاث آيات بلاخلاف.

الانعام جمع نعم، وهي الابل، والبقر، والغنم، سميت بذلك لنعومة مشيها بخلاف ذات الحافر الذي يصلب مشيها. ونصب بفعل مقدر يفسره ما بعده، والتقدير وخلق الانعام خلقها، وإنما نصب لمكان الواو، العاطفة على منصوب قبله. وقوله " خلقها لكم " تمام، لان المعنى خلق الانعام لكم أي لمنافعكم. ثم أخبر، فقال " فيها دفاء " والدفاء ما استندفت به. وقال الحسن يريد ما استندفت به من أوبارها، وأصوافها، وأشعارها. وقال ابن عباس: هو اللباس

(٣٦٢)

من الاكيسة وغيرها، كأنه سمي بالمصدر ومنه دفوء يومنا دفأ، ونظيره (الكن) قال الفراء: كتبت (دفاء) بغير همز، لان الهمزة إذا سكن ما قبلها حذفت من الكتاب، ولو كتبت في الرفع بالواو، وفي النصب بالالف وفي الخفض بالياء كان صوابا. وقال قتادة " فيها دفاء ومنافع " معناه منفعة هي بلغة، من الالبان وركوب ظهرها " ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون " وذلك أعجب ما يكون إذا راحت عظاما ضروعها طوالا أسمنتها " وحين تسرحون " إذا سرحت لرعيها. فالسروح خروج الماشية إلى المرعى بالغداة. والاراحة رجوعها من المرعى عشيا: سرحت الماشية سرحا وسروحا وسرحها أهلها قال الشاعر:

كأن بقايا الاثر فوق متونه * مدب الدبا فوق النقا وهو سارح (١)

وقوله " وتحمل أثقالكم " يعني هذه الانعام تحمل أثقالكم، وهو جمع ثقل، وهو المتاع الذي يتقل حمله، وجمعه أثقال " لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس " والبلوغ المصير إلى حد من الحدود،

بلغ يبلغ بلوغا وأبلغه إبلاغا، وبلغه تبلغا وتبلغا وتبالغ تبالغا، والشق المشقة، وفيه لغتان، فتح الشين وكسرهما، فالكسر عليه القراء السبعة. وبالفتح قرأ أبو جعفر المدني. والشق أيضا أحد قسمي الشئ الذي في إحدى جهتيه،، وقال قتادة: معناه بجهد الانفس، وكسرت الشين من شق الانفس مع أن المصدر بفتح الشين لامرين: احدهما - قال قوم: هما لغتان في المصدر، قال الشاعر:
وذي إبل يسعى ويحسبها له * أخي نصب من شقها ودؤوب (٢)
بالكسر والفتح، وقال العجاج:
اصبح مسحول يوازي شقا (٣)
لكسر والفتح بمعنى يقاسي مشقة، وقال قوم: ان المعنى إلا بذهاب شق قوى النفس

(١) تفسير الطبري ٤ / ١ / ؟ (الطبعة الاولى) وروايته:

كأن بقايا الاتن فوق متونه * مدب الذي فوق النقا وهو سارح

(٢) قاتله النمرين تولب. اللسان (شقق) (٣) اللسان (شقق)

(٣٦٣)

ذكره الفراء والزجاج، واختاره الطبري. وقوله " ان ربكم لرؤوف رحيم " أي رؤوف بكم رحيم، ومن رحمته أنه خلق لكم الانعام لتنتفعوا بها، على ما ذكره قوله تعالى:
(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨) وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهدكم أجمعين (٩) آيتان بلاخلاف.
هذه الآية عطف على التي قبلها، فلذلك نصب " والخيل " وتقديرها، وخلق الخيل، وهي الدواب التي تتركب " والبغال " واحدها بغل " والحمير " واحدها حمار " لتركبوها " وتترينوا بها، ونصب (وزينة) بتقدير، وجعلها زينة " ويخلق ما لا تعلمون " من أنواع الحيوان والجماد والنبات لمنافعكم، ويخلق من أنواع الثواب للمطيعين، وأنواع العقاب للعصاة ما لا تعلمون.
وحكي عن ابن عباس: أن الآية دالة على تحريم لحم الخيل، لانها للركوب والزينة والانعام لما ذكر قبل، وهو قول الحكم والاسود. وقالوا: لانه تعالى ذكر في آية الانعام " ومنها تأكلون " (١) ولم يذكر ذلك في آية الخيل بل ذكرها للركوب والزينة. وابراهيم لم يربه بأسا، وهو قول جميع الفقهاء. وقال جابر: كنا نأكل لحم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وقوله " وعلى الله قصد السبيل " قال ابن عباس: معناه بيان قصد السبيل أي بيان الهدى من الضلال " ومنها جائر " أي عادل عن الحق فمن الطريق ما يهدي إلى الحق، ومنها ما يضل عن الحق، ثم قال " ولو شاء لهداكم أجمعين " وقيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الحسن والبلخي: لو شاء لهداكم بالالغاء، لانه قادر على ذلك.
الثاني - قال الجبائي: لو شاء لهداكم إلى الجنة.

(١) سورة المؤمن (غافر) آية ٧٩

(٣٦٤)

قوله تعالى:

(هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (١٠) ينبت لكم به
الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)
(١١) آيتان بلاخلاف.

قرأ أبوبكر عن عاصم إلا الاعشى والبرجمي " نبت " بالنون. الباقرن بالياء من قرأ بالياء فلما
تقدم من قوله " هو الذي أنزل من السماء ماء.. ينبت لكم " وهو أشكل بماتقدم، والنون لايمتنع
ايضا، يقال نبت البقل وانبت الله، وقدروي انبت البقل، وأنكر ذلك الاصمعي، وقال قصيدة
زهير التي فيها (حتى إذا أنبت البقل) مبهمة قال أبو علي فأما قوله " تنبت بالدهن " (١) فيجوز
أن تكون الباء زائدة، كقوله " ولاتلقوا بأيديكم " (٢) قال " وألقى في الارض رواسي أن تميد "
(٣) فعدى (ألقى) مرة بالياء وأخرى بغير باء، وإذا ثبت أن (انبت) في معنى (نبت) جاز ان
تكون الباء للتعدي، كمالو كانت مع (نبت) كان كذلك، ويجوز ان تكون الهمزة في (انبت)
للتعدي، والمفعول محذوف، والباء للحال، كأنه قال تنبت ثمرة بالدهن، فحذف المفعول و
(بالدهن) في موضع حال، كأنه قال تنبت، وفيه دهن، ويجوز في (تنبت بالدهن) ان تنبت
مافيه دهن.

اخبر الله تعالى انه الذي ينزل من السماء ماء يعني غيثا ومطرا لمنافع خلقه، من ذلك الماء
شراب تشربونه، ومن ذلك نبات الشجر، والشجر ماينبت من الارض وقام على ساق وله ورق
وجمعه أشجار، ومنه المشاجرة لتداخل بعض الكلام في بعض كتداخل ورق الشجر وقال
الازهري: ما نبت من الارض شجر،

(١) سورة المؤمنون آية ٢٠ (٢) سورة البقرة آية ١٩٥ (٣) سورة النحل آية ١٥ وسورة لقمان آية ١٠.

(٣٦٥)

قام على ساق أو لم يقم ترعاه الابل والانعام كلها.

وقوله " فيه تسيمون " اي ترعون، يقال: اسمت الأبل اذا رعيته، وقد سامت تسوم، فهي سائمة اذارعت. واصل السوم الابعاد في المرعي، والسوم في البيع الارتفاع في الثمن، والانبات اخراج الزرع، والانسان يزرع، والله تعالى ينبت.

وقوله " ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات " اي ينبت بذلك المطر هذه الاشياء التي عددها لينتفعوا بها. ثم اخبر ان في ذلك لدلالة وحجة واضحة لمن يفكر فيه، فيعرف الله به، وإنما أضاف الدلالة اليهم، لانهم الذين انتفعوا بها، ولان من لم يفكر فيها فكأنها لم تنصب له.

قوله تعالى:

(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١٢) وما ذرأكم في الارض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) (١٣) آيتان بلاخلاف.

قرأ ابن عامر " والشمس والقمر والنجوم مسخرات " بالرفع فيهن كلهن، وافقه حفص في رفع " والنجوم مسخرات " الباقون بالنصب فيهن كلهن، اما ابن عامر فانما رفع ذلك، لانه جعل الواو، واو حال، وابتداءً، (والشمس)

رفع بالابتداء و (النجوم) نسق عليها، (والقمر) نسق عليها (والمسخرات)

رفع خبرها، ومن نصبها كلها جعلها منسوقة على قوله " وسخر لكم الليل والنهار " واما حفص فانما رفع (النجوم مسخرات) فقطعها مما قبلها، فعلى هذا حجة من نصب ان يقدر فعلا آخر ينصبه به، وتقديره وجعل النجوم مسخرات.

(٣٦٦)

ووجه تسخير الشمس والقمر والليل والنهار، ان الليل والنهار إنما يكون بطلوع الشمس وغروبها، فما بين غروب الشم إلى طلوع الفجر، وهو غياب ضوء الشمس، فهو ليل. وما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فهو نهار، فانه تعالى سخر الشمس على هذا التقدير لاختلاف، لمنافع خلقه ومصالحهم وليستدلوا بذلك على ان المسخر لذلك والمقدر له حكيم ثم بين ان في ذلك التسخير لدلالات لقوم يعقلون عن الله ويتبينون مواضع الاستدلال بادلته.

وقوله " وما ذرأكم في الارض مختلفا ألوانه " معنى (ما) الذي وموضعه النصب والتقدير وخلق لكم (ما).

أخبر الله تعالى ان الذي خلقه وأظهره من الاجسام المختلفة الالوان ان في ذلك دلالة لقوم يذكرون وأصله يتذكرون، فادغت التاء في الذال. والذراء إظهار الشئ بإيجاده ذرأه يذرؤه ذرأا. وذرأه، وفطره، وانشاءه نظائر. وملح ذرأني ظاهر البياض والاختلاف هو الامتناع من

ان يسد احد الشيبين مسد الآخر ونقيضه الاتفاق. قال قتادة: قوله " وماذراً لكم في الارض " معناه خلق لكم " مختلفاً ألوانه " من الدواب والشجر والثمار، نعماً ظاهرة فاشكروها لله، قال المؤرج: ذراً بمعنى خلق بلغة قريش.
قوله تعالى:

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٤) وألقى في الارض رواسي أن تُميدبكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون (١٥) وعلامات وبالنجم هم يهتدون) (١٦) ثلاث آيات بلاخلاف.

وهذا تعداد لنوع آخر من نعمه، فقال " وهو الذي سخر البحر " أي ذلله لكم

(٣٦٧)

وسهل لكم الطريق إلى ركوبه واستخراج مافيه من انواع المنافع فتصطادون منه أنواع السمك، فتأكلون لحمه طرياً، ولايجوز ان تهمز طرياً، لانه من الطراوة لا من الطراءة، و " تستخرجوا " من البحر حلية يعني اللؤلؤ والمرجان الذي يخرج من البحار " تلبسونها " وتنزبنون بها " وترى الفلك " يعني السفن " مواخر فيه " قال الحسن معناه مقبلة ومدبرة بريح واحدة، وقال قوم: معناه منقلة، والمواخر جمع ماخرة، والمخرشق الماء من عن يمين وشمال، يقال: مخرت السفينة الماء تمخره مخرأ، فهي ماخرة، والمخر ايضاً صوت هبوب الريح إذا اشتد هبوبها.

وقوله " ولتبتغوا من فضله " اي ولتكتسبوا من فضل الله ونعمه بركوب البحر، ولكي تشكروه على أياديه، والواو دخلت ليعلم ان الله خلق ذلك. وأراد جميع ذلك وقصده. ثم أخبر انه القى في الارض رواسي، وهو جمع راسية وهي الجبل العالي الثابت " ان تُميدبكم " اي لئلا تُميد بكم الارض. وقال الزجاج:

معناه كراهة ان تمتد، ولم يجز حذف (لا) والميد الميل يمينا وشمالا، وهو الاضطراب: ماد يميد ميذاً، وهو مائد.

وقوله " وانهاراً وسبلاً " تقديره وجعل لكم انهاراً، لدلالة (القي) عليه، لانه لايجوز ان يكون عطفاً على (القي) ومثله قول الشاعر:

تسمع في اجوافهن صرداً * وفي اليدين جساءً وبدداً (١)

اي وترى في اليدين يبسا وتفرقا، ومثله قولهم: (علفتها تبناً وماء بارداً) والمعنى وسقيتها ماء، ومثله كثير، و (سبلاً) عطف على (انهاراً) لكي تهتدوا بها في سلوككم، وانتقالكم في أغراضكم.

وقوله " وعلامات وبالنجم هم يهتدون " اي جعل لكم علامات. وقيل انها الجبال ونحوها. قال ابن عباس: يعني الجبال يهتدى بها نهارا، والنجم يهتدى به ليلا، وهو اختيار الطبري. و (العلامة) صورة يعلم بها المعنى، من خط او لفظ او إشارة او هيئة، وقد تكون وضعية، وقد تكون برهانية.

(١) مر هذا الشعر في ٥ / ١٠٧، وروايته هناك (لغطا) بدل (صردا).

(٣٦٨)

وقوله و " بالنجم هم يهتدون " فالنجم هو الكوكب، ويقال: نجم النبات إذا طلع تشبيها بطلع النجم، وانما قال - ههنا - و " بالنجم " فوحد، وقال فيما تقدم " والنجوم مسخرات " لان النجوم على ثلاثة أضرب: ضرب يهتدى بها مثل الفرقدين، والجدي، لانها لاتزول، وضرب هي الشهب، وضرب هي زينة السماء، كما قال " زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب " (١) فقوله " وبالنجم " يجوز ان يريد به النجوم، فأخبر بالواحد عن الجميع، كما قال " او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء " (٢) والنجم في قوله " النجم الثاقب " (٣) يريد الثريا فقط " والنجم اذا هوى " (٤) يعني نزول القرآن إذا نزل به جبرائيل (ع) وقوله " والنجم والشجر يسجدان " (٥) يريد كلما نجم من الارض اي نبت، مما لا يقوم على ساق كالبطيخ والقرع والضغا بيس وهو الفتاء الصغار، ويشبه الخسيس بالضغبوس أنشد ابن عرفة:

قد جربت عركي في كل معترك * غلب الاسود فمابال الضغابيس (٦)
قوله تعالى:

(أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون (١٧) وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم) (١٨) آيتان بلاخلاف.

في هذه الآية رد على عباد الاصنام والوثان بأن يقال: أفمن يخلق ماتقدم ذكره من السموات والارض والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من أنواع

(١) سورة الصفات آية ٦ (٢) سورة النور آية ٣١ (٣) سورة الطارق آية ٣ (٤) سورة النجم ٥٣ آية ١ (٥) سورة الرحمن آية ٦ (٦) البيت لجرير ديوانه (دار بيروت) ٢٥١ واللسان (ضغبس) وقدروي (الرجال) بدل (الاسود).

(٣٦٩)

العجائب، كمن لا يخلق ذلك من الصنام التي هي جمادات، فكيف توجه العبادة اليها، ويسوى بينها، وبين خالق جميع ذلك، " أفلا يتفكرون " في ذلك ويعتبرون به، فان ذلك من الخطأ الفاحش. وجعل (من) فيمالاي عقل، لما اتصلت بذكر الخالق.

ويتعلق بهذه الآية المجبرة، فقالوا: أعلمنا الله تعالى ان احدا لا يخلق، لانه خلاف الخالق، وانه لو كان خالق غيره لوجب ان يكون مثله، ونظيره.

وهذا باطل، لان الخلق في حقيقة اللغة هو التقدير والاتقان في الصنعة وفعل الشئ لاعلى وجه السهو والمجازفة بدلالة قوله " وتخلقون إفاكا " (١) وقوله " واذ تخلق من الطين كهيئة الطير " (٢) وقوله " احسن الخالقين " (٣) كما لا يجوز أنه اعظم الآلهة لمالم يستحق الآلهية غيره، وقال زهير:

ولانت تفري ما خلقت وبع * - ض القوم يخلق ثم لا يفري (٤)

وقال الججاج: لأعد إلا وفيت ولا أخلق إلا فريت (٥)

وقال الشاعر:

ولا ينط بأيدي الخالقين ولا * أيدي الخوالق الا جبد الادم

فعلنا بذلك جواز تسمية غيره بأنه خالق إلا انا لانطلق هذه الصفة إلا الله تعالى، لان ذلك توهم، فاذا ثبت ذلك فالوجه في الآية ما قدمنا ذكره من الرد على عباد الاصنام والجمادات التي لاتقدر على ضرر ولا نفع ولا خلق شئ ولا

-
- (١) سورة العنكبوت اية ١٧ (٢) سورة المائدة اية ١١٣ (٣) سورة المؤمنون آية ١٤ وسورة الصافات آية ١٢٥ (٤) ديوانه ٢٩ (دار بيروت) واللسان (فرا)، (خلق). (٥) وقد رواها ابن منظور في لسان العرب (خلق) قال: قال الججاج: (ما خلقت إلا فريت ولا وعدت إلا وفيت). تفسير التبيان ج ٦ م ٢٤

(٣٧٠)

استطاعة لها على فعل، وان من سوى بينها وبين من خلق ما تقدم ذكره من أنواع النعم وأشرك بينهما في العبادة، كان جاهلا بعيدا عن الصواب عادلا عن طريق الهدى. ويقوي ذلك انه قال عقيب هذه الآية، " والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون اموات غير احياء " فعلنا انه أراد بذلك ما مقدمنا من اسقاط رأيهم وتسويتهم بين الجماد والحي والفاعل ومن ليس بفاعل، وهذا واضح.

وقوله " وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها " قال الحسن: لاتحصوها بأداء حقها وتعظيمها. وقال الجبائي: لاتحصوها مفصلة لكثرتها وإن صح منكم احصاؤها على وجه الجملة.

قوله تعالى:

(والله يعلم ماتسرون وماتعلنون (١٩) والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون (٢٠) أموات غير أحياء ومايشعرون أيان يبعثون) (٢١) ثلاث آيات بلاخلاف.

قرأيعقوب وحفص ويحيى والعلمي " والذين يدعون " بالياء. الباقون بالتاء، قال أبوعلي: هذا كله على الخطاب، لان مابعد خطابه كقوله بعد " أفلا تذكرون " وقوله " وألقى في الارض رواسي ان تميدبكم "، " وإلهكم إله واحد " فكل هذا خطاب.

فان قلت: ان فيه " والذين يدعون من دون الله " فانه لا يكون خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم ولا للمسلمين، قيل: التقدير في ذلك قل لهم: والذين تدعون من دون الله، فلايمتنع الخطاب على هذا الوجه، ولهذا قرأ عاصم بالياء لماكان عنده ذلك اخباراً عن المشركين، ولم يجز ان يكون في الظاهر خطاباً للمسلمين.

يقول الله لعباده ان الله الذي يستحق العبادة هو الذي يعلم ما يظهرونه وما

(٣٧١)

يستسرون به ويخفونه، وان الذين يدعون من دون الله من الاصنام لا يخلقون شيئاً، فضلا عن ان يخلقوا ما يستحق به العبادة، وهم مع ذلك مخلوقون مربوبون، وهم مع ذلك أموات غير احياء، وانما قال أموات غير احياء، لانها في حكم الاموات في انها لاتعقل شيئاً. وقيل غير احياء على وجه التأكيد بما صارت به، كالاموات، لانه قد يقال للحي هو كالميت إذا كان بعيداً من ان يعلم. و (اموات)

رفع بأنه خبر ابتداء، والتقدير هن أموات غير احياء، ويجوز ان يكون خبراً عن (الذين) والتقدير والذين يدعون أموات.

وقوله " ومايشعرون أيان يبعثون " اي هم لا يعلمون اي وقت يحشرهم الله للجزاء والحساب، بل ذلك لا يعلمه الا الله تعالى، ومعنى (أيان) متى و (متى)

اوضح، لانه اغلب في الاستعمال فلذلك فسر به (أيان) وهو سؤال عن الزمان كما ان (ايين) سؤال عن المكان وقال الفراء: معناه هي أموات فكيف يشعرون متى تبعث يعني الاصنام. قال ويقال للكفار أيضا ومايشعرون أيان يبعثون، و (أيان) بكسر الهمزة لغة سليم قرأها أبو عبدالرحمن السلمي.

قوله: تعالى (إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون (٢٢) لاجرم أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين) (٢٣) آيتان بلاخلاف.

يقول الله تعالى لعباده ان " إلهكم " الذي يستحق العبادة " إله واحد " لانه لا يقدر على ما يستحق به العبادة من أصول النعم سواء ثم قال ان الذين لا يصدقون بالآخرة وبالبعث والنشور والثواب

والعقاب، تجدد قلوبهم وتنكر ما ذكرناه وهم مع ذلك " يستكبرون " اي يمتنعون من قبول الحق ألفة من أهله.

و (الاستكبار) طلب الترفع بترك الاذعان للحق ثم قال تعالى " لاجرم " اي

(٣٧٢)

حق ووجب انه يعلم ما يبطنونه ويخفونه في نفوسهم، وما يظهره، لا يخفى عليه منه شيء، و " انه لا يحب المستكبرين " يعني لا يريد ثوابهم ولا منافعهم، ولا يفعل ذلك بهم لكونهم مستحقين للعقاب.

قوله تعالى:

(وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين (٢٤)

ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم الاساء مايزرون) (٢٥) آيتان بلاخلاف.

يقول الله تعالى إذا قيل لهؤلاء الكفار على وجه الاستفهام: ما الذي أنزل ربكم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم؟ أجابوا بأن " قالوا: أساطير الاولين " يعني أحاديث الاولين الكاذبة، في قول ابن عباس وغيره، وأحدها أسطورة سمي ذلك، لانهم كانوا يسطرونها في الكتب. وقوله " ليحملوا أوزارهم " أي أثقالهم من المعاصي، والوزر الاثم، والوزر الثقل، ومنه الوزير، لانه يحمل الانتقال عن الملك، يقال وازره على امره أي عاونه بحمل الثقل معه، واللام لام العاقبة، لانهم لم يقصدوا بما فعلوه ليتحملوا أوزارهم.

وقوله " كاملة " معناه حمل المعاصي تامة على أقبح وجوهها من غير اخلال بشيء منها " ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم " معناه إنهم يتحملون مع أوزارهم من أوزار من أضلوه عن دين الله وأغوه عن اتباع الحق، بغير علم منهم بذلك بل كانوا جاهلين. والمعنى إن هؤلاء كانوا يصدون من أراد الايمان بالنبي (صلى الله عليه وسلم)

فعليلهم آثامهم وآثام أبنائهم لاقتنائهم بهم.

وعلى هذا ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: (ايما داع دعا إلى الهدى فاتبع،

(٣٧٣)

فله مثل اجورهم من غير ان ينقص من اجورهم شيء، وايما داع دعا إلى الضلالة فان عليه مثل اوزار من اتبعه من غير ان ينقص من اوزارهم شيء).

والوجه في تحملهم أوزار غيرهم أحد شيئين:

احدهما - انه اراد بذلك إغواء هم واضلالهم، وهي اوزارهم فأضاف الوزر إلى المفعول به، كما قال " اني اريد أن تبوء باثمي واثمك " (١) والثاني - ان يكون أراد اقتداء غيرهم بهم فيستحقون على معصيتهم زيادة عقاب، فجاز لذلك أن يضاف اليهم. ثم أخبر تعالى فقال " ألا ساء مايزرون " أي بئس الشيء الذي يتحملونه، لانهم يحملون ما يؤدي إلى العقاب، ومعنى يزررون يحملون ثقل الآثام. قوله تعالى:

(قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون (٢٦) ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين) (٢٧) آيتان بلاخلاف. قرأ نافع وحده " تشاقون " بكسر النون اراد تشاقونني، فحذف النون تخفيفا وحذف الياء اجتزاء بالكسرة، وقد ذكر فيما مضى علة ذلك في قوله " فبم تبشرون " (٢) وقرأ الباقون بفتح النون، لا يجعلونه مضافا إلى الياء. والنون في هذه القراءة علامة الرفع، والنون مع الياء المحذوفة في موضع النصب.

(١) سورة المائدة آية ٣٠ (٢) سورة الحجر آية ٤٤ هـ

(٣٧٤)

ومعنى " تشاقون " أي يعادون الله فيهم فيجعلونها شركاء له، والشقاق الخلاف في المعنى، ومعنى " تشاقون " تكونون في جانب، والمسلمون في جانب، لا يكونون معهم يدا واحدة، ومن ثم قيل لمن خرج عن طاعة الامام وعن جماعة المسلمين: شق العصا أي صار في جانب عنهم، فلم يكن مجتمعا في كلمتهم.

يقول الله ان الذين من قبل هؤلاء الكفار " قد مكروا " واحتالوا على رسلهم والمكر القتل والحيلة إلى جهة منكرة، يقال مكر به يمكر مكرا، فهو مكر ومكار، ثم قال: فان الله تعالى أتى أمره وعقابه " بنيانهم " التي بنوها فهدهما " فخر عليهم السقف من فوقهم " وقيل في معنى " من فوقهم " قولان:

احدهما - انه قال ذلك تأكيدا، كقولك قلت انت.

الثاني - انهم كانوا تحته، وقد يقول القائل: تهدمت علي المنازل، وان لم يكن تحتها، وأيضا فليعلم انهم لم يكونوا فوق السقوف.

وقال ابن عباس وزيد بن اسلم: الذين خر عليهم السقف من فوقهم نمرود ابن كنعان. وقال غيرهم: بخت نصر، وقال الزجاج وأبو بكر بن الانباري: المعنى فأتى الله مكرهم من اصله اي

عاد ضرر المكر عليهم وبهم. وذكر الاسا مثلا كما ذكر السقف، مع انه لاسقف ثم ولا أساس، وهذا الذي ذكره يليق بكلام العرب ويشبهه، والمعنى إن الله أتى بنيانهم من القواعد اي قلعه من اصله كقولهم:

أتى فلان من مأمنه اي أتاه الهلاك من جهة مأمنه وأتاهم العذاب من جهة الله " وهم لايشعرون " أي لايعلمون انه من جهة الله نزل بهم العذاب. ثم قال انه تعالى مع ذلك يخزيهم يوم القيامة أي يذلهم بأنواع العذاب ويقول لهم أين شركائي الذين اتخذتموهم آلهة، فعبدتموهم يعني الذين كنتم تشاقون فيهم الله تعالى وتخرجون عن طاعة الله.

ثم أخبر ان الذين أعطوا العلم والمعرفة بالله تعالى وأوتوه يقولون لهم: ان الخزي يعني الذل والهوان " اليوم " والسوء الذي هو العذاب، " على الكافرين " الجاحدين لنعمه المنكرين لتوحيده وصدق انبيائه.

(٣٧٥)

قوله تعالى:

(الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون (٢٨)

فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين (٢٩)
وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولددار الآخرة خير ولنعم دار المتقين (٣٠)
ثلاث آيات بلاخلاف.

قرأ حمزة " الذين يتوفاهم " بالياء. الباقيون بالتاء، من قرأ بالتاء فلتأنيث لفظة الملائكة، ومن قرأ بالياء، فلان التأنيث غير حقيقي وقد مضى نظيره كثيرا.

يقول الله تعالى ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين، الذين يتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم و " الذين " في موضع الجر بأنه بدل من الكافرين وانما قال ذلك ليعلم به ان الوعيد يتناول من كان مات على كفره، لانه ان تاب لم يتوجه الوعيد اليه، ومعنى " تتوفاهم الملائكة " أي تقبض ارواحهم بالموت، ظالمي انفسهم بما فعلوه من ارتكاب المعاصي التي استحقوا بها العقاب. والظالم من فعل الظلم، ويصح ان يظلم الانسان نفسه كما يظلم غيره.

وقوله " فألقوا السلم " اي استسلموا للحق حين لاينفعهم السلم، يعني الانقياد والاذعان.
وقوله " ما كنا نعمل من سوء " اي قالوا ما عملنا من سوء، فكذبهم الله، وقال " بلى " قد فعلتم والله عالم بما كنتم تعملون في الدنيا من المعاصي وغيرها.
وقيل في معنى ذلك قولان:

احدهما - ما كنا نعمل من سوء عند انفسنا، لانهم في الآخرة ملجؤون إلى ترك القبيح والكذب، ذكره الجبائي. وقال الحسن وابن الاخشاذ: في الآخرة مواطن يلجؤون في بعضها دون بعض، ثم بين انه تعالى يقول لهم " ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها " اي مؤبدين فيها " فلبئس مثوى المتكبرين " قسم من الله تعالى انها بئس المأوى لمن تكبر على الله، ولم يعمل بطاعته، " وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم " اي اي شئ " انزل ربكم قالوا خيرا " على معنى ماذا، والمعنى انزل الله خيرا، وانما نصب (خيرا) ههنا بعد قوله " قالوا " ورفع " اساطير " فيما تقدم لامرين.

احدهما - انهم جحدوا التنزيل، فقالوا إنما هي اساطير الاولين وأقر المؤمنون بالتنزيل، فقالوا أنزل ربنا خيرا.

والثاني - قال سبويه ان يكون الرفع على تقدير ما الذي انزل ربكم فيكون ذا بمعنى الذي، وفي النصب يكون (ذا، وما) بمنزلة اسم واحد وقوله " الذين احسنوا الحسنى " يحتمل ان يكون من كلام من قال خيرا، ويحتمل ان يكون اخبارا من الله تعالى، وهو الاقوى، لانه ابلغ في باب الدعاء إلى الاحسان، فأجاز الحسن والزجاج كلا الوجهين، والمعنى ان للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة مكافأة لهم في الدنيا قبل الآخرة خيرا " ولنعم دار المتقين " يعني الجنة التي يدخلها الذين اتقوا معاصي الله وفعلوا طاعاته قوله تعالى:

(جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الانهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين

(٣١) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) (٣٢)

آيتان بلاخلاف.

(٣٧٧)

يحتمل رفع جنات وجهين:

احدهما - ان تكون خبر ابتداء محذوف وتقديره هي جنات يدخلونها، كأن قائلًا لما قال الله " ولنعم دار المتقين " قال: ما هذه الدار؟ فقيل: هي جنات عدن.
والثاني - ان يكون رفعا بالابتداء وخبره " نعم دار المتقين " وقد قدم الخبر والتقدير جنات عدن " نعم دار المتقين ". ثم وصف هذه الجنات بما فيها، فقال " تجرى من تحتها الانهار " لان الجنة هي البستان الذي فيه الاشجار، والانهار تجري تحت الاشجار، وقيل لان انهار الجنة في اخاديد. ثم اخبر ان لهؤلاء الذين دخلوا الجنة لهم فيها ما يشاؤون ويشتهونه. ثم قال مثل ذلك يجازي الله تعالى الذين يتقون معاصيه، ويعملون بطاعته. ثم قال " الذين تتوفاهم الملائكة طيبين أي صالحين بأعمالهم الجميلة خلاف من تتوفاهم خبيثين بأعمالهم القبيحة. وأصل الطيبة حال المستلذ من الاطعمة، يقول الملائكة لهم سلا عليكم ادخلوا الجنة جزاء على أعمالكم في الدنيا من الطاعات.
قوله تعالى:

(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٣٣) فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤن) (٣٤) آيتان بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلا عاصما " إلا أن يأتيهم " بالياء. الباقر بالتاء وقد بينا وجهه، ومعنى قوله " هل ينظرون " ينتظرون، يعني هؤلاء الكفار إلا أن تأتيهم الملائكة، يعني بالموت أو الهلاك، أو يأتي أمر ربك يعني يوم القيامة، ذكره مجاهد وقتادة.
ثم أخبر تعالى ان الذين مضوا - فيما سلف من الكفار - فعلوا مثل فعل هؤلاء من

(٣٧٨)

تكذيب الرسل، وجدد توحيدده، وانكار رسله، فأهلكهم الله فما الذي يؤمن هؤلاء أن يهلكهم.
ثم اخبر تعالى انه باهلاكه اياهم لم يظلمهم، ولكن هم الذين ظلموا انفسهم فيما مضى بالمعاصي التي استحقوا بها الهلاك.
ثم اخبر تعالى انه اصابهم يعني الكفار جزاء سيئات اعمالهم، وهي القبائح، " وحق بهم " اي حل بهم وبال " ماكانوا به يستهزؤن " أي يسخرون برسول الله وبأنبيائه.
قوله تعالى:

(وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمانا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) (٣٥) آية بلاخلاف.

حكى الله تعالى عن المشركين مع الله إليها آخر ومعبودا سواه أنهم قالوا " لو شاء الله " اي لو أراد الله لم نكن نعبد شيئاً من دونه، من الاصنام والوثان، لا " نحن ولأبائنا ولاحرمانا " من قبل نفوسنا شيئاً، بل اراد الله ذلك منا، فلذلك فعلنا، كما يقول المجبرة الضلال، فكذبهم الله وانكر عليهم، وقال مثل ذلك فعل الذين من قبلهم، من الكفار الضلال كذبو رسل الله، وجدوا انبياءه ثم عذر انبيائه، فقال " هل على الرسل إلا البلاغ " الظاهر اي ليس عليهم إلا ذلك. وفي ذلك ابطال مذهب المجبرة، لان الله انكر عليهم قولهم إنه " لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ " ومثل هذه الآية التي في الانعام (١) وقد بينها مستوفاة.

(١) اية ١٤٨ من سورة الانعام في ٤: ٣٣٣ - ٣٣٥

(٣٧٩)

قوله تعالى:

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فأنظروا كيف كان عاقبة المكذبين) (٣٦) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه قد ارسل في كل امة من الامم السالفة رسولا بأن " اعبدوا الله " اي امرهم أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وان يجتنبوا عبادة الطاغوت، وهوكل مايعبد من دون الله. وقيل: الطاغوت اسم الشيطان ويكون المعنى " اجتنبوا " اغواء الشيطان، وكل داع يدعو إلى الفساد. ثم اخبر عن المبعوث اليهم بأن منهم من لطف الله لهم بما علم انه يؤمن عنده، فأمن عنده، فسمى ذلك اللطف هداية، ولم يرد نصب الادلة على الحق لانه تعالى سوى في ذلك بين المؤمن والكافر، كماقال " فاما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى " (١) ويحتمل أن يكون المراد فمنهم من هداه الله إلى الجنة بايمانه.

وقوله " ومنهم من حقت عليه الضلالة " قيل فيه قولان:

احدهما - لانهم ضلوا عن طريق الحق وكفروا بالله، وهو قول الحسن.

الثاني - حقت عليهم الضلالة عن طريق الجنة بما ارتكبه من الكفر. والضلالة - ههنا - المراد به العدول عن الجنة، وقد سمي الله العقاب ضلالا، فقال " ان المجرمين في ضلال (٣) " اي عذاب. ثم قال قل لهم " سيروا في الارض " وتعرفوا اخبار من مضى وتبينوا كيف كان عاقبة الذين كذبوا بآيات الله، ولم يصدقوا

(٣٨٠)

رسله، فان الله اهلكهم ودمر عليهم، كقوم هود، ولوط، وشمود، وغيرهم، فان ديارهم عليها آثار الهلاك والدمار ظاهرة.
قوله تعالى:

(إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين) (٣٧) آية بلاخلاف.
قرأ أهل الكوفة " يهدي " بفتح الياء وكسر الدال. الباكون بضم الياء وفتح الدال، ولم يختلفوا في ضم ياء يضل وكسر الضاد.

فمن فتح الياء وكسر الدال احتمل ذلك امرين:

احدهما - انه اراد ان الله لا يهدي من يضله.

والثاني - أن من اضله الله لا يهتدي.

ومن ضم الياء أراد من أضله الله لا يقدر أحد ان يهديه، وقوا ذلك بقراءة أبي " لاهادي لمن اضل الله " واسم الله تعالى اسم (إن) و (يضل) الخبر.

ومعنى اضلال الله - ههنا - يحتمل امرين:

احدهما - ان من حكم الله بضلاله وسماه ضالاً، لا يقدر أحد ان يجعله هادياً ويحكم بذلك.

والثاني - إن من أضله الله (عزوجل) عن طريق الجنة لا احد يقدر على هدايته اليها، ولا يقدر هو ايضاً على أن يهتدي اليها.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم " ان تحرص " يامحمد على ان يؤمنوا ويهتدوا إلى الجنة، فهم بسوء اختيارهم لا يرجعون عن كفرهم، والله تعالى قد حكم بكفرهم وضلالهم واستحقاقهم للعقاب، فلا أحد يقدر على خلاف ذلك.

و (من) في الوجهين في موضع رفع، فمن ضم الياء رفعها لانها لم يسم فاعلها،

(٣٨١)

من فتح الياء، فلانها الفاعل. والمراد بالآية التسليية للنبي صلى الله عليه وسلم في دعائه لمن لا يفلح بالاجابة، لانهما كه في الكفر، وان ذلك ليس تقصيرا من جهتك بل انه ليس إلى فلاح مثل هذا سبيل.

وقوله " ومالهم من ناصرين " معناه ليس لهم ناصر ينصرهم ويخلصهم من العقاب، وذلك يبين انه ليس المراد بالآية الضلال عن الدين، وانما المراد ماقلناه من عدولهم عن الثواب إلى العقاب.

والحرص طلب الشئ بجد واجتهاد، تقول: حرص يحرص حرصا، وحرص يحرص بكسر
الراء في الماضي، وفتحها في المستقبل، والاول لغة أهل الحجاز.
قوله تعالى:

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس
لايعلمون (٣٨) ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين)
(٣٩) آيتان بلاخلاف.

يقول الله تعالى ثم ان هؤلاء الكفار حلفوا بالله على قدر طاقتهم وجهدهم انه لا يحشر الله أحدا
يوم القيامة، ولا يحييه بعد موته. ثم كذبهم تعالى في ذلك، فقال:
" بلى " يحشرهم الله ويبعثهم " وعدا " وعدهم به، ولا يخلف وعده.
ونصب " وعدا " على المصدر والتقدير وعد وعدا. وقال الفراء: تقديره بلى ليبعثهم وعدا حقا،
ولو رفع على معنى ان ذلك وعد عليه حق كان صوابا والمعنى وعدوعدا عليه حقا ذلك الوعد
ليس له خلف " ولكن اكثر الناس لا يعلمون " صحة ذلك لكفرهم بالله وجحدهم انبياءه.
وقوله " ليبين لهم الذي يختلفون فيه " في دار الدنيا، لانه يخلق فيهم العلم

(٣٨٢)

الضروي يوم القيامة، الذي يزول معه التكليف ويزول خلافهم فيه، ويعلم ايضا كل كافر انه
كان كاذبا في الدنيا في قوله: إن الله لايبعث احدا بعد موته، هذا إن جعلنا قوله " ليبين " متعلقا
ب (بلى) يبعثهم الله. ويحتمل ان يكون متعلقا بقوله " ولقد بعثنا في كل امة رسولا... ليبين
الذي يختلفون فيه " ويهديهم إلى طريق الحق ويثيبهم عليه قوله تعالى:
(إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)
(٤٠) آية بلاخلاف.

قرأ الكسائي وابن عباس " فيكون " نصبا. الباقرن رفعا. فمن نصب جعله عطفاً على " ان
نقول.. فيكون " ولا يجوز ان يكون نصبا على جواب الامر لان ماينتصب لاجل جواب الامر
هو مايكون فعلا، ويجب الثاني من اجل الاول، كقولك ائتني فأكرمك فالاكرام يجب من اجل
الاتيان، وليس كذلك في الآية، لانه انما هو فعل واحد أمر، واخبر انه يكون، ولذلك اجمع
القراء على رفع الذي في آل عمران في قوله " ان مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب
ثم قال له كن فيكون " (١) وقد أجاز الزجاج النصب على ان يكون جوابا، وهو غلط. من
رفع اراد أن يقول له كن، فانه يكون.

وقيل في معنى الآية قولان: أحدهما - انه بمنزلة قوله (كن) في انه يكون منا من غير كلفة ولامعانة والثاني - ان قول " كن " علامة للملائكة تدلهم على انه سيحدث كذا وكذا عند سماعه.

(١) سورة ال عمران اية ٥٩

(٣٨٣)

قوله تعالى:

(والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم في الدنيا حسنة ولاجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (٤٢) آيتان بلاخلاف. موضع " الذين " رفع بالابتداء، والخبر " لنبوئتهم " يقول الله تعالى ان الذين هاجروا من ديارهم فرارا بدينهم، واتباعا لنبيهم، من بعد ان ظلمهم قومهم وأذوهم وبخسوهم حقوقهم، فان الله تعالى يبوئهم في الدنيا حسنة. والتبوء الاحلال بالمكان للمقام، يقال تبوأ منزلا يتبوأ اذا اتخذه، وبوأه غيره تبوئاً اذا احله غيره، ومنه " بوأنا بني اسرائيل مبيء صدق " (١) وقال ابن عباس وقتادة والشعبي: تبوأهم الله المدينة، واحل لهم فيها غنيمة حسنة يأخذونها من اموال الكفار. ثم اخبر ان ما اعدة لهم من الاجر في الآخرة ونعيم الجنة اكثر من ذلك بكثير لو كانوا يعلمون. ثم وصف الذين هاجروا، فقال الذين صبروا على جهاد اعدائه واحتملوا الاذي في جنب الله واسندوا أمرهم اليه تعالى وتوكلوا عليه، فمن كان بهذه الصفة يستحق ما ذكرناه، ومن كان بخلاف لم يستحق منه شيئاً.

وقيل: إن الآية نزلت في عمار وصهيب وأمثالهم الذين كانوا يعذبون بمكة.

قوله تعالى:

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون (٤٣) بالبينات والزبر وأنزلنا إليك

(١) سورة يونس اية ٩٣

(٣٨٤)

الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلمهم يتفكرون) (٤٤) آيتان بلاخلاف.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم يقول له إنالم نرسل من قبلك إلا رجالا امثالك من البشر " نوحى اليهم " أي يوحى الله اليهم. ومن قرأ بالنون، وهو حفص، أراد نوحى نحن، إخبار منه تعالى. ثم قال الله لهم " فاسألوا اهل الذكر إن كنتم لاتعلمون " صحة ما اخبرناكم به من أنا ارسلنا رجالا قبلك وأوحينا اليهم. وقال ابن عباس ومجاهد: المعنى بأهل الذكر أهل الكتاب ومنهم من قال: المراد من آمن من اهل الكتاب، ومنهم من قال: امر مشركي العرب ان يسألوا اهل الكتاب عن ذلك فانهم لايتهمونهم. وقال ابن زيد: يريد اهل القرآن لان الذكر هو القرآن. وقال الرماني والازهري والزجاج: المعنى بذلك اهل العلم بأخبار من مضى من الامم، سواء كانوا مؤمنين او كفارا، وماأتاهم من الرسل قال: وفي ذلك دلالة على انه يحسن ان يرد الخصم - اذا التبس عليه امر - إلى أهل العلم بذلك الشئ ان كان من اهل العقول السليمة من أفة الشبه.

والذكر ضد السهو وسمى العلم بذلك، لانه منعقد بالعلم، وهو بمنزلة السبب المؤدى اليه في ذكر الدليل، واذا تعلق هذا التعلق حسن ان يقع موقعه وينبئ عن معناه.

وروى جابر عن ابي جعفر (ع) انه قال: (نحن اهل الذكر).

وقوله " بالبينات والزبر " العامل بالباء أحد امرين:

احدهما - قوله " أرسلنا " والتقدير ماارسلنا قبلك إلا رجالا بالبينات نوحى اليهم.

الثاني - ان يكون على حذف (أرسلنا بالبينات) كما قال الاعشى:

وليس مجيرا إن أتى الحي خائف * ولاقاتل إلا هو المتعبيا (١)

(١) ديوان دار بيروت) ٨ وتفسير الطبري ١٤ : ٦٩

(٣٨٥)

أي أعني المتعبيا، ومثل الاول، قول الشاعر:

نبئتهم عذبوا بالنار جارتهم * وهل يعذب إلا الله بالنار (١)

وقوله " بالبينات والزبر " اي بالدلالات الواضحات والكتب المنزلة. والزبر الكتب، واحدها زبور، يقال: زبرت الكتاب أزبره زبرا إذا كتبتة. ثم قال " وأنزلنا اليك " يامحمد " الذكر " يعنى القرآن " لتبين للناس منازل إليهم " فيه من الاحكام والدلالة على توحيد الله، لكي يتفكروا في ذلك ويعتبروا، وانما قال " وماأرسلنا من قبلك إلا رجالا " مع انه أرسل قبله الملائكة، لان المعنى وما أرسلنا من قبلك إلى الامم الماضية لإلرجالا بدلالة الآية، لانهما حجة عليهم في انكار رسول الله إلى الناس من الرجال.

قوله تعالى:

(أفأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الارض أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون (٤٥) أو يأخذهم في تقلبهم فماهم بمعجزين (٤٦) أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤف رحيم) (٤٧) ثلاث آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم " أفأمن الذين مكروا " بالنبي والمؤمنين، وفعلوا السيآت واحتالوا الفعل القبيح، على وجه الانكار عليهم، فاللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الانكار " أن يخسف الله بهم الارض " من تحتهم عقوبة لهم على كفرهم او يجيئهم العذاب من جهة، لايشعرون بها، على وجه الغفلة " أو يأخذهم في تقلبهم " وتصرفهم، بأن يهلكهم على سائر حالاتهم، حتى لاينفلت منهم أحد،

(١) تفسير الطبري ١٤: ٦٩ ومجمع البيان ٣: ٣٦٢ تفسير التبيان ج ٦ م ٢٥

(٣٨٦)

فماهم بفائتين. والمعنى إن مايريد الله بهم من الهلاك لايمتتع عليه مايريده منهم " أو يأخذهم على تخوف " وقيل في معنى " تخوف " قولان:

احدهما - قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد: على تنقص بمعنى انه يؤخذ الاول فالاول حتى لايبقى منهم احد، لان تلك حال يخاف معها الفناء ويتخوف معها الهلاك، وقال الشاعر:

تخوف السير منها تامكا قردا * كما تخوف عود النبعة السفن (١)

اي ينقص السير منامها بعدتموكه، كما ينحت العود فيدق بعد غلظه.
وقال الآخر:

تخوف عدوهم مالي وأهلي * سلاسل في الحلق لها صليل (٢)

والثاني - روي عن ابن عباس - في رواية أخرى - ان معناه على تفريع.
وقال الحسن: تهلك القرية فتخوف القرية الأخرى، وقال الفراء: تخوفته، وتحوفته - بالخاء والحاء - إذا انتقصته من حافاته. ومثله " ان لك في النهار سبحا طويلا " (٣) بالخاء والحاء، سمعت العرب تقول سبحي صوفك، وهو شبيهه بالندف، والسبخ مثل ذلك، قال المبرد: لايقال تحوفته، وإنما هو تحيفته.

قول تعالى:

(أو لم يروا إلي ماخلق الله من شئ يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمال سجدا لله وهم داخرون (٤٨) والله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملئكة وهم لا

(١) قائله ابن مقبل، اللسان (خوف) وتفسير الطبري ١٤ : ٧٠ ومجمع البيان ٣ : ٣٦٣ (٢) تفسير الطبري ١٤ : ٧١ ومجمع البيان ٣ : ٣٦٣ (٣) سورة المزمل آية ٧

(٣٨٧)

يستكبرون (٤٩) يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون)
(٥٠) ثلاث آيات بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي وخلف " اولم تروا " بالتاء، الباقون بالياء.
من قرأ بالتاء حمله على الجمع. ومن قرأ بالياء، فعلى ما قبله، من قوله " ان يخسف الله بهم الارض او يأتيهم.. او يأخذهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رأوا ذلك وتيقنوه، فلذلك عدل عن الخطاب.

وقرأ ابو عمرو ويعقوب " تنفيوا ظلاله " بالتاء. الباقون بالياء، فمن أنت فلتأنيث الظلال، لانه جمع ظل، فكل جميع مخالف الأدميين، فهو مؤنث تقول: هذه الاقطار وهذه المساجد. ومن ذكر، فلان الظلال وإن كان جمعا، فهو على لفظ الواحد مثل (جدار)، لان جمع التكسير يوافق الواحد.

يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار الذين جحدوا وحدانيته، وكذبوا نبيه، على وجه التنبيه لهم على توحيده " اولم يروا " هؤلاء الكفار " إلى ما خلق الله " من جسم قائم، شجر اوجبل او غيره، فصير ظلاله فيئا اي تدور عليه الشمس ثم يرجع إلى ما كان قبل زوال الشمس عنه. وقال ابن عباس (يتقيو) يرجع من موضع إلى موضع ويتميل، يقال منه: فاء الظل يفئ فيئا إذا رجع، وتقياً يتقيو تقيوا بمعنى واحد.

وقوله " عن اليمين والشمال " معناه في اول النهار وآخره - في قول قتادة والضحاك وابن جريج - يتقلص الفئ عن الجبل من جهة اليمين وينقص بالعشي من جهة الشمال. وإنما قال عن اليمين - على التوحيد - والشمال - على الجمع - لآحد أمرين:
أحدهما - انه اراد باليمين الايمان، فهو متقابل في المعنى، ويتصرف في اللفظ على الايجاز، كما قال الشاعر:

(٣٨٨)

بفي الشامتين الصخر ان كان هدني * زرية شبلي مخدر في الضرا غم (١)
والمعنى بأفواه، وقال آخر:

الواردون وتيم في ذرى سبأ * قد عض اعناقهم جلد الجواميس (٢)

وقوله " سجد الله وهم داخرون " معناه إنها خاضعة لله ذليلة، بما فيها من الدلالة على الحاجة إلى واضعها ومدبرها، بمالولاه لبطلت، ولم يكن لها قوام طرفة عين، فهي في ذلك كالساجد، من العباد بفعله، الخاضع بذاته، كأنه من بسط الشمس عليه في أول النهار. ثم قبضها عنه إلى الجهة الأخرى. ثم قبضها أيضا عنه، فتغيرت حاله. والتغيير يقتضي مغيرا غيره ومدبرا دبره. قال الحسن: اما ذلك فيسجد لله، واما انت فلا تسجد لله؟! بنس والله ما صنعت.

و (الداخر) الخاضع الصاغر، دخر يدخر دخرا ودخورا، إذا ذل وخضع قال ذو الرمة:

فلم يبق إلا داخر في مخيس * ومنجر في غير أرضك في جحر (٣)

ثم أخبر تعالى انه يسجد له جميع " مافي السموات ومافي الارض " والسجود هو الخضوع بالعبادة او الدعاء إلى العبادة، فكل شئ من مقدوراته تعالى يسجد بالدعاء إلى العبادة بمافيه من الآيات، الذي يقتضي الحاجة اليه تعالى، وكل محق من العباد فهو يسجد بالعبادة.

وقوله " من دابة " معنى (من) ههنا هي التي تبين، تبين الصفة، كأنه قال ومافي الارض الذي هو دابة تدب على الارض. وقوله " والملائكة " اي وتسجد له الملائكة، وتخضع له بالعبادة، و " هم " يعني الملائكة، غير مستكبرين،

(١) مجمع البيان ٣: ٣٦٣ وتفسير الطبري ١٤: ٧٣. وروايته:

بفي الشامتين ان كان هدني ودية شبلي محدد في الضراغم (٢) قائله جرير: ديوانه (دار بيروت) ٢٥٢، وتفسير

الطبري ١٤: ٧٣ ومجمع البيان ٣: ٣٦٣ وروايته الديوان:

تدعوك تيم وتيم في قرى سبا * قد عض اعناقهم جلد الجواميس

(٣) اللسان (خيس) نسبه إلى الفرزق خطأ

(٣٨٩)

ولاطالبين بذلك التكبر بل مذعنين بالحق متذللين، غير أنفين، من الأذعان به.

" يخافون ربهم من فوقهم، ويفعلون ما يؤمرون " قيل في معناه قولان:

احدهما - يخافون عقاب ربهم من فوقهم، لانه يأتي من فوق.

الثاني - انه لما وصف بأنه عال ومتعال، على معنى قادر، لا قادر أقدر منه، فقيل صفته في

أعلى مراتب صفات القادرين، حسن ان يقال " من فوقهم " ليدل على ان هذا المعنى من

الاقتدار الذي لايساويه قادر، وقوله " ويفعلون ما يؤمرون " يعني الملائكة يفعلون ما أمرهم

الله به، ولا يعصونه، كما قال " لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " (١)

قوله تعالى:

(وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فأياي فارهبون (٥١) وله مافي السموات والارض وله الدين واصبا أغير الله تتقون) (٥٢) آيتان بلاخلاف يقول الله تعالى ناهيا لعباده " لاتتخذوا إلهين اثنين " اي لاتعبدوا مع الله غيره، فتشركوا بينهما في العبادة. ثم اخبر انه إله واحد لا اكثر منه، لان لفظة (إنما) تفيد ثبوت الاله الواحد، ونفي مازاد عليه على مابيناه فيما مضى. وقوله " فأياي فارهبون " معناه ارهبوا عقابي وسخطي فلا تتخذوا معي إلهاً آخر ومعبوداً سواي.

وفي قوله " اثنين " بعد قوله " إلهين " قولان:

(١) سورة التحريم آية ٦

(٣٩٠)

احدهما - أنه قال ذلك تأكيداً، كما قال " إله واحد " تأكيداً. والثاني - ان يكون المعنى لاتتخذوا إثنين إلهين، فقدم وأخر وكلاهما جائزان. وقوله " وله مافي السموات والارض " معناه انه يجب علينا ان نتقي عقاب من يملك جميع مافي السموات والارض، لانه مالك الضر والنفع. ومعنى قوله " وله الدين واصبا " قال ابن عباس: يعني دائماً اي طاعته واجبة على الدوام، وبه قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة ابن زيد، ومنه قوله " ولهم عذاب واصب " (١) يقال منه: وصب الدين يصب وصوباً، ووصباً، قال أبوالاسود الدؤلي: لأبتغي الحمد القليل بقاؤه * يومابزم الدهر أجمع واصبا (٢) وقال حسان:

غيرته الريح تسفي به * وهزيم رعدده واصب (٣)
والوصب الالم الذي يكون عن الاعياء بدوام العمل مدة، يقال: وصب الرجل يوصب وصباً، فهو وصب قال الشاعر:

لايغمز الساق من اين ولا وصب * ولايعض على شر سوفه الصفر (٤)
وقيل: المعنى وله الطاعة، وان كان فيها الوصب، وهو الشدة والتعب قوله تعالى: (ومابكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون ٥٣) ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم

(١) سورة الصافات آية ٩ (٢) تفسير الطبري: ١٤: ٧٤ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣: ١٦٠ ومجمع البيان ٣: ٣٦٥ (٣) ديوانه (دار بيروت) ٢١ وتفسير الطبري ١٤: ٧٤ (٤) تفسير الطبري ١٤: ٧٤

(٣٩١)

يشركون (٥٤) ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون)
(٥٥) ثلاث آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لخلقه إن جميع النعم التي تكون بكم ولكم، من صحة في جسم وسعة في رزق او ولد، فكل ذلك من عند الله، ومن جهته وبخلقه لها ويتمكنكم من الانتفاع بها. والفاء في قوله " فمن الله " قيل في معناه قولان:

احدهما - ان تكون (ما) بمعنى الذي، وفيه شبه الجزاء، كما قال تعالى " قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم " (١) ويقول القائل: مالك هو لي

ولايجوز ان يقول مالك فهو لي، لانه خبر ليس على طريق الجزاء.

والقول الثاني على حذف الجزاء، وتقديره ما يمكن بكم من نعمة فمن الله.

وقوله " ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون " معناه متى ما لحقكم ضر وبلاء، وألم، وسوء حال، تضرعون اليه تعالى بالدعاء، وهو قول مجاهد. وأصل ذلك من جوار الثور، يقال: جأر الثور يجأر جؤارا إذا رفع صوته، من جوع او غيره قال الاعشى:

وماأبيلي على هيكل * بناه وصلب فيه وصارا

يراوح من صلوات الملى * - ك طورا سجودا وطورا جؤارا (٢)

وقال عدي بن زيد:

انني والله فاقبل حلفتي * بابيل كلما صلى جأر (٣)

وقوله " ثم إذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون " اخبار منه تعالى انه اذاكشف ضر من يجأر اليه ويخضع له، ويرفع البلاء عنه، يصير - طائفة من الناس - يشركون بربهم في العبادة جهلا منهم بربهم، ومقابلة للنعمة التي

(١) سورة الجمعة آية ٨ (٢) ديوانه (دار بيروت) ٨٤ واللسان (أبل) ذكر البيت الاول فقط (٣) اللسان (ابل) وروايته (فاسمع حلفي).

(٣٩٢)

هي كشف الضر بمعصية الشرك. وهذا غاية الجهل. وقوله " ليكفروا بما آتيناهم " اي ليكفروا بآيات إنعمنا عليهم، ورزقنا إياهم، فمعنى اللام في " ليكفروا " هو البيان عما هو بمنزلة العلة التي يقع لاجلها الفعل، لانهم بمنزلة من اشركوا في العبادة ليكفروا بما أوتوا من النعمة، كأنه

لاعرض لهم في شركهم إلا هذا، مع ان شركهم في العبادة يوجب كفر النعمة بتضييع حقها، فالواجب في هذا ترك الكفر إلى الشكر لله تعالى.
وقوله " فتمتعوا فسوف تعلمون " تهديد منه تعالى، لان المعنى تمتعوا بمافيه معصية له تعالى، فسوف تعلمون عاقبة امر كم من العقاب الذي ينزل بكم، وحذف لدلالة الكلام عليه، وهو ابلغ.
قوله تعالى:

(ويجعلون لما لايعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون (٥٦) ويجعلون الله البنات سبحانه ولهم مايشتهون)
(٥٧) آيتان بلاخلاف.

يقول الله تعالى إن هؤلاء الكفار " يجعلون لما لا يعلمون نصيبا " معناه إنهم يجعلون لما لا يعلمون انه يضر، ولاينفع " نصيبا مما رزقناهم " يتقربون " اليه، كما يجب ان يتقربوا إلى الله تعالى، وهو ماحكى الله عنهم في سورة الانعام " من الحرث والانعام " وغير ذلك " فقالوا هذاالله بزعمهم وهذا لشركائنا " فجعلوا نصيبا لله ونصيبا للانعام، وهو قول مجاهد وقتادة وابن زيد. ثم أقسم تعالى فقال " تالله لتسئلن " سؤال التوبيخ، لاسؤال الاستفهام " عما كنتم تعملون " في دار الدنيا لتلزموا به الحجة وتعاقبوا بعد اعترافكم على انفسكم. وانما كان سؤال التوبيخ، لانه لا جواب لصاحبه الا ما يظهر به فضيخته.

(١) سورة الانعام آية ١٣٦

(٣٩٣)

ثم اخبر تعالى عنهم بأنهم يجعلون لله البنات، لانهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله، كماقال تعال " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا " (١) فقال تعالى تنزيها لنفسه عما قالوه " سبحانه " اي تنزيها له عن اتخاذ البنات.

وقوله " ولهم مايشتهون " (ما) في قوله " ولهم ما " يحتمل وجهين من الاعراب:

احدهما - أن يكون في موضع نصب، والمعنى ويجعلون لهم البنين الذين يشتهون.

والثاني - ان يكون في موضع رفع والتقدير ولهم البنون، على الاستئناف.

قوله تعالى:

(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم (٥٨) يتوارى من القوم من سوء مايشتر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألساء مايحكمون (٥٩) للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم)

(٦٠) ثلاث آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبرا عن هؤلاء الكفار الذين جعلوا لله البنات ولانفسهم البنين. انهم متى بشر واحد منهم بأنه ولد له بنت " ظل وجهه مسودا " أي يتغير لذلك وجهه و (ظل) يقال لما يعمل صدر النهار، يقال: ظل يفعل كذا ومثله أضحى، غير انه كثر، فصار بمنزلة قولهم: أخذ يفعل، تقول: ظللت أظل ظلولا، ذكره الفراء.
وقوله " وهو كظيم " قال ابن عباس: معناه وهو حزين. وقال الضحاك:

(١) سورة الزخرف آية ١٩

(٣٩٤)

كئيب، وهو المغموم الذي يطبق فاه، ولا يتكلم للغم الذي به، مأخوذ به الكظامة وهو سد فم القربة.

وقوله " يتوارى من القوم " أي يختبئ ويختفي من القوم " من سوء ما يشربه " من الانثى، تميل نفسه بين أن " يمسكه على هون " أي على هوان ومشقة، ومنه قوله " عذاب الهون " (١) وهي لغة قريش، قال الشاعر:
فلست بوقاف على هون (٢)
وقال الحطيئة:

فلما خشيت الهون والعيير ممسك * على رغمه ما أثبت الخيل حافره (٣)

وبعض تميم يجعلون الهون من الشئ اللين، قال سمعت من بعضهم إن كان لقليل فهو هون المؤنة، فاذا قالوا أقبل يمشي على هون، لم يقولوا إلا بفتح الهاء، ومنه قوله " وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا " (٤) قال المبرد: الهون بضم الهاء لا أعرفه في الرفق، وانما هو بفتح الهاء، كما يقال: سر عليه هونا أي رفقا " أم يدسه في التراب " أي هو يميل بين إمساكه على مذلة او دفنه حيا في التراب.

ثم أخبر تعالى فقال " ألا ساء ما يحكمون " اي بنس الحكم الذي يحكمون، يجعلون لنفوسهم ما يشتهون، ويجعلون لله ما يكرهونه !! .

ثم قال تعالى " للذين لا يؤمنون " اي لا يصدقون بالبعث والنشور والدار الآخرة " مثل السوء. والله المثل الاعلى " اي لهم بذلك وصف سوء، والله الوصف الاعلى، من اخلاص التوحيد، ولا ينافي هذا قوله " فلاتضربوا الله الامثال " (٥)

لأنه بمعنى الامثال التي توجب الاشباه، فأما الامثال التي يضربها الله للناس لما فيها من الحكمة من غير تشبيه له تعالى بخلقه، فحق وصواب، كما قال تعالى " وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون " (٦) قال الرماني: وفي الآيات دلالة

(١) سورة الانعام آية ٩٣ وسورة الاحقاق اية ٢٠ (٢) لم أجده فيما رجعت اليه (٣) مجمع البيان ٣ / ٣٦٦ (٤) سورة الفرقان اية ٦٣ (٥) سورة النحل اية ٧٤ (٦) سورة العنكبوت اية ٤٣

(٣٩٥)

على انه لايجوز ان يضاف اليه تعالى الادون بدلا من الاصلح، لان اختيار الادون على الاصلح صفة نقص، وقد عابهم الله بإضافة ما لايرضونه لنفوسهم إلى ربهم، وهو قولهم: الملائكة بنات الله، فكما لايرضى الانسان لنفسه النقص الذي فيه، فهو ينفيه عنه، وعظماء الناس واجلاؤهم يرفعون نفوسهم عن صفات الادنى، دون العليا، فينبغي ان ينزه تعالى عن مثل ذلك.

وقوله " وهو العليم الحكيم " معناه عالم بوضع الاشياء في مواضعها، حكيم في انه لا يضعها الا في ما هو حكمة وصواب.

قوله تعالى:

(ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون (٦١) ويجعلون لله مايكرهون وتصف السنتهم الكذب أن لهم الحسنى لاجرم أن لهم النار وأنهم مفرطون (٦٢) تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم.

الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم) (٦٣)

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأنافع " مفرطون " بكسر الراء والتخفيف، من الافراط في الشئ اي الاسراف، بمعنى انهم مسرفون. وقرأ ابو جعفر مثل ذلك بالكسر غير انه شدد الراء من التفريط في الواجب. وقرأ الباقر بفتح الراء والتخفيف، ومعناه انهم متروكون في النار منسيون فيها - في قول قتادة ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك - وقال الحسن وقتادة - في رواية اخرى - ان المعنى انهم مقدمون بالاعجال إلى النار، وهو من قول العرب: افرطنا فلان في طلب الماء، فهو

(٣٩٦)

مفرط اذا قدم لطلبه، وفرط فهو فارط اذا تقدم لطلبه، وجمعه فراط، قال القطامي:

واستعجلونا وكانوا من صحابتنا * كما تعجل فراط لوراد (١)
ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم (انا فرطكم على الحوض) اي متقدمكم وسابقكم حتى
تردوه. ومنه يقال في الصلاة على الصبي الميت: اللهم اجعله لنا ولابويه فرطا.
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: (انا والنبيون فراط العاصين) اي المذنبين،
والتأويل الاول من قول العرب: ماأفرطت ورائي احدا اي ماخلفت ولا تركت. والمعنى يرجع
إلى التقدم اي ماتقدمت احدا ورائي.

اخبر الله تعالى انه لوكان ممن يؤاخذ الكفار والعصاة بذنوبهم، ويعاجلهم بعقوباتهم واستحقاق
جناياتهم وظلمهم " لماترك " على وجه الارض احدا، ممن يستحق ذلك من الظالمين. وانما
يؤخرهم تفضلا منه ليراجعوا التوبة، او لما في ذلك من المصلحة لباقي المكلفين والاعتبار
بهم، فلاتغثروا بالامهال، انكم مثلهم في استحقاق العقاب على ظلمكم. وقيل في وجه تعميمهم
بالهلاك مع ان فيهم مؤمنين قولان:

احدهما - ان الاهلاك وان عمهم فهو عذاب الظالم دون المؤمن، لان المؤمن يعوض عليه.
الثاني - ان يكون ذلك خاصة. والتقدير ماترك عليها من دابة من اهل الظلم. وقيل ان المعنى
أنه لو هلك الآباء بكفرهم لم يوجد الابناء.

وقوله " ولكن يؤخرهم إلى اجل مسمى " يعني الاجل الذي قدره لموتهم وهلاكهم، فاذا جاء
ذلك الاجل، لايتقدمون عليه لحظة ولايتأخرون.

وقوله " عليها " يعني على الارض لدلالة قوله " ماترك عليها من دابة " اي دابة عليها لانها
تدب على الارض.

وقوله " يجعلون لله مايكرهون " يعني يضيفون إلى الله البنات مع كراهية

(١) تفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ / ١٦٥ وتفسير الطبري ١٤ / ٧٩ واللسان (عجل)

(٣٩٧)

ذلك لنفوسهم " وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى " فقول (ان) بدل من الكذب، وموضعه
النصب. وقيل في معناه قولان:

احدهما - قال الحسن: فيماحكاه الزجاج: ان لهم الجزاء الحسنى ./

الثاني - قال مجاهد: ان لهم البنين مع جعلهم لله البنات اللاتي يكرهونهن.

ثم قال تعالى " لاجرم أن لهم النار " ومعناه حقا أن لهم النار، في اقوال المفسرين. وقيل:
معناه لايد ان لهم النار، فجرم على هذا اسم، كأنه قال:

قطع ان لهم النار وقال بعضهم " جرم " فعل ماض و (لا) رد لكلام متقدم، فكأنه قيل: قطع الحق أن لهم النار. وقيل: وجب قطعاً ان لهم النار. وقيل: كسب فعلهم أن لهم النار، وانهم مفرطون مقدمون ومعجلون إلى النار. وقال الخليل: " لاجرم " لا يكون الا جواباً، تقول: فعلوا كذا وكذا، فيقال: لاجرم انهم سيندمون قال الشاعر:

ولقد طعنت ابا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا (١)

اي بعثتهم على ذلك ومثله " لايجر منكم شقاقي " (٢) اي لا يبعثكم عداوتي " على ان يصيبكم " ومثله " لايجر منكم شنان قوم على ان لا تعدلوا " (٣)

ثم اقسام تعالى، فقال " لقد ارسلنا " يعني رسلا إلى امم من قبلك يامحمد " فزين لهم الشيطان اعمالهم " يعني كفرهم وضلالهم وتكذيب رسل الله زينه الشيطان لهم.

وقوله " فهو وليهم اليوم " قيل في معناه قولان:

احدهما - انه ناصرهم في الدنيا، لانه يتولى اغواءهم وسبب هلاكهم " ولهم عذاب اليم " يوم القيامة.

الثاني - انه يوم القيامة وليهم، لانه لا يمكنه ان يتولى صرف المكروه عن

(١) مر هذا البيت في ٣ / ٤٢٣، ٥ / ٤٧٣، ٥٣٤ (٢) سورة هود آية ٨٩ (٣) سورة المائدة آية ٩

(٣٩٨)

نفسه، فكيف يتولى صرفه عنهم.

ثم اخبر تعالى ان لهم عنده عذاباً أليماً موجعا مؤلماً جزاء على كفرهم ومعاصيهم.

قوله تعالى:

(وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (٦٤) والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون)

(٦٥) ايتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم إنا " ما أنزلنا عليك الكتاب " يعني القرآن " إلا " وأردنا منك ان تبين " لهم " وتكشف لهم " الذي اختلفوا فيه " من دلالة التوحيد والعدل وصدق الرسل وما أوجبت فيه من الحلال والحرام " وهدى ورحمة " اي أنزلته هدى ودلالة على الحق لقوم يؤمنون. " هدى ورحمة " نصب على انه مفعول له، ويجوز ان يكون رفعا على الابتداء، وانما اضافه إلى المؤمنين خاصة لانتفاعهم بذلك، وان كان دليلاً وحجة للجميع، كما قال في

موضع آخر " هدى للمتقين " (١) وقال " انما انت منذر من يخشاها " (٢) وان انذر من لم يخشاها.

ثم اخبر تعالى على وجه، من نعمه على خلقه، فقال " والله " المستحق للعبادة هو الذي " انزل من السماء ماء " يعني غيثا ومطرا " فأحيابه " يعني بذلك؟؟ " الارض بعد موتها " اي احيائها بالنبات بعد جدوبها وقحطها، ففي ذلك اعظم دلالة واجل آية " لقوم يسمعون " ذلك ويفكرون فيه ويعتبرون به.

١٩ سورة البقرة آية ٢ (٢) سورة النازعات آية ٤٥

(٣٩٩)

قوله تعالى:

(وإن لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين) (٦٦) ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية ليقوم يعقلون) (٦٧) آيتان بلاخلاف.

قرأ نافع وابن عامر وابوبكر عن عاصم " نسقيكم " بفتح النون الباقيون بضمها. والفرق بين اسقينا وسقينا أن معنى اسقينا جعلناه شرابا دائما من نهر أو لبن أو غيرهما، وسقينا شربة واحدة، ذكره الكسائي قال ليبيد:

سقي قومي بني مجد وأسقى * نميرا والقبائل من هلال (١)

فعلى هذاهما لغتان، والاضطرار ما قال الكسائي. عنداهل اللغة. وقال قوم: سقيته ماء كقوله " وسقاهم ربهم شرابا طهورا " (٢) واسقيته سألت الله ان يسقيه وانشد لذي الرمة:

وقفت على ربع لمية ناقتي * فمازلت أبكي عنده وأخاطبه وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه (٣)

وقيل ان ماكان من الانهار وبطون الاودية، فبالضم. وقال ابو عبيدة: إذا سقاه مرة يقال سقيته، وإذا سقاه دائما يقال أسقيته يقول الله تعالى لخلقه المكلفين " إن لكم في الانعام " يعني الابل والبقر والغنم " لعبرة " ودلالة لانا " نسقيكم ممافي بطونه " وقيل في تذكيره ثلاثة اقوال:

(١) ديوانه ١: ١٢٨ ونوادر ابي زيد ٢١٣ ومجاز القران ١: ٣٥٠ واللسان والتاج " سقى " ومجمع البيان ٣: ٣٧٠ " ٢ " سورة الدهر آية ٢١.

" ٣ " ديوانه ٢١٣ ونوادر ابي زيد ٢١٣ والمحاسن والاضداد للجاحظ ٣٣٥ ومجمع البيان ٣: ٣٣٣، ٣٥٩ وتفسير الطبري ١٤: ١٤ والتاج واللسان " سقى ".

(٤٠٠)

أحدها - انه رد إلى واحد. لان النعم والانعام بمعنى، قال سيبيويه: والاسم الواحد يجيء على (أفعال) يقال هو الانعام. قال تعالى " في بطونه " ذهب إلى أنه اسم واحد بلفظ الجمع، كما أن الخيل اسم مؤنث، لا واحد له، والنعم اسم مذكر للجماعة، لا واحد له، وقال الراجز:
وطاب ألبان اللقاح فبرد (١)
رده إلى اللبن.

الثاني - انه حمل على المعنى، والتقدير بطون ما ذكرنا، كما قال الصلتان العبدي:
إن السماحة والمرؤة ضمنا * قبرا بمر و في الطريق الواضح (٢)
كأنه قال شيئان ضمنا.

الثالث - لانه في موضع (اي) كأنه قال " نسقيكم مما في بطونه " اي من اي الانعام وكان في بطونه اللبن، لانه ليس كلها مما فيه لبنا.
وقوله وقوله " من بين فرث ودم لبنا خالصا " فالفرث الثقل الذي ينزل إلى الكرش فبين انه تعالى يخرج ذلك اللبن الصافي، اللذيذ، المشهى من بين ذلك، وبين الدم الذي في العرق النجس " سائغا للشاربين " أي مريئا لهم لا ينفرون منه، ولا يشرقون بشربه، وذلك من عجيب آيات الله ولطف تدبيره وبديع حكمته، الذي لا يقدر عليه غيره، ولا يتأتى من احد سواه.
ثم قال " ومن ثمرات " وهو جمع ثمرة، وهو ما يطعمه الشجر، مافيه اللذة والثمرة خاصة طعم الشجر مما فيه اللذة يقال: اثمرت الشجرة إثمارا اذا حملت كالنخلة والكرمة وغيرهما من اصناف الشجر.
وقوله " يتخذون منه سكرا " قيل في معنى السكر قولان:

(١) تفسير الطبري ١٤ : ٨١ واللسان (جبه)، (خرت) وقبله:

اذا رأيت اتجما من الاسد * جبهته او الخرات والكتد

بال سهيل في الفضيخ ففسد * وطاب ألبان اللقاح فبرد

(٢) تفسير الطبري ١٤ : ٨١ ومجمع البيان ٣ : ٣٧٠

(٤٠١)

أحدهما - تتخذون منه ما حل طعمه من شراب او غيره، ذكره الشعبي وغيره.
وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير وأبي رزين والحسن ومجاهد وقتادة: ان السكر محرم من الشراب، والرزق الحسن ما حل منه. والسكر في اللغة على اربعة اقسام: احدها ما سكر، والثاني ما طعم من الطعام كما قال الشاعر:

جعلت عيب الاكرمين سكرا (١)

اي طعاما، الثالث السكون قال الشاعر:

وجعلت عين الحرور تسكر (٢)

والرابع، المصدر من قولك سكر سكر، واصله انسداد المجاري بمايلقى فيها ومنها السكر. وقوله " منه " الكناية راجعة إلى محذوف، قال قوم:

تقديره ومن ثمرات النخيل والاعناب ماتخذون منه، فالهاء كناية عن (ما) المحذوفة وقال آخرون: تقديره ومن ثمرات النخيل والاعناب شئ تتخذون منه.

وقد استدل قوم بهذه الآية على تحليل النبيذ بأن قالوا: امتن الله علينا به وعده من جملة نعمه علينا أن خولنا الثمار نتخذ منها السكر، والرزق الحسن. وهو لايمتن بما هو محرم. وهذا لا دلالة فيه لأمور:

احدها - انه خلاف ما عليه المفسرون، لان احدا منهم لم يقل ذلك، بل كل التابعين من المفسرين، قالوا: اراد ما حرم من الشراب، وقال الشعبي منهم: انه اراد ما حل طعمه من شراب وغيره.

والثاني انه لو اراد بذلك تحليل السكر، لما كان لقوله " ورزقا حسنا " معنى، لان ما حلطه وابعاه، فهو ايضا رزق حسن، فلم فرق بينه وبين الرزق الحسن والكل شئ واحد؟ وانما الوجه فيه انه خلق هذه الثمار لتنتفعوا بها

(١ - ٢) تفسير الشوكاني ٣: ١٦٨ وتفسير الطبري ١٤: ٨٤ (واللسان سكر)

تفسير التبيان ج ٦ م ٢٦.

(٤٠٢)

فاتخذتم انتم منها ما هو محرم عليكم، وتركتم ما هو رزق حسن. واما وجه المنة فبالا مرين معا ثابتة، لان ما اباحه واحله فالمنة به ظاهرة لتعجل الانتفاع به وما حرمه الله فوجه المنة ايضا ظاهر به، لانه إذا حرم علينا، ووجب الامتناع منه ضمن في مقابلته الثواب الذي هو اعظم النعم، فهو نعمة على كل حال.

والثالث - اذا كان مشتركا بين المسكر وبين الطعام، وجب أن يتوقف فيه ولا يحمل على احدهما إلا بدليل، وما ذكرناه مجمع على أنه مراد، وما ذكره ليس عليه دليل، على انه كان يقتضي ان يكون ما اسكر منه يكون حلالا، وذلك خلاف الاجماع، لانهم يقولون: القدر الذي لايسكر هو المباح، وكان يلزم على ذلك أن يكون الخمر مباحا، وذلك لايقوله واحد، وكذلك كان يلزم ان يكون النقيع حلالا، وذلك خلاف الاجماع.

وقوله " إن في ذلك لآية لقوم يعقلون " معناه إن فيما ذكره دلالة ظاهرة للذين يعقلون عن الله ويتفهمون ويفكرون فيه.

قوله تعالى:

(وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) (٦٩) آيتان بلا خلاف.

قارئ " يعرشون " بضم الراء وكسرهما، وهما لغتان ومعناه: ومايبنونه من السقوف وقال ابن زيد: يعني الكروم، قال ابن عباس ومجاهد: يعني " واوحى ربك إلى النحل " ألهما الهاما، وقال الحسن: جعل ذلك في غرائزها اي ما

(٤٠٣)

يخفى مثله عن غيرها، وذلك احياء في اللغة. وقال ابو عبيد: (الوحي) على وجوه في كلام العرب: منها وحي النبوة، ومنها الالهام، ومنها الاشارة، ومنها الكتاب، ومنها الاسرار: فالوحي في النبوة ما يوحى الله إلى الانبياء، كقوله " إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه " (١)

والوحي بمعنى الالهام، قوله " واوحى ربك إلى النحل وقوله " واوحينا إلى ام موسى " (٢) وفي الارض " بأن ربك اوحى لها " (٣)

ووحي الاشارة كقوله " فأوحى اليهم أن سبحوا " (٤) قال مجاهد: اشار اليهم، وقال الضحاك: كتب لهم.

واصل الوحي عند العرب هو إلقاء الانسان إلى صاحبه ثيابا للاستتار والاختفاء.

ووحي الاسرار مثل قوله " يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا (٥) " فاما ما ووي عن ابن عباس انه قال: لاوحي إلا القرآن اراد ان القرآن هو الوحي الذي نزل به جبرائيل على محمد صلى الله عليه وسلم، دون ان يكون انكر ما قلناه.

ويقال: أوحى له وأوحى إليه قال العجاج:

أوحى لها القرار فاستقرت (٦)

قال المبرد: ماروي عن ابن عباس إنماقاله لما سئل عما كان وضعه المختار وسماه الوحي، فقال ابن عباس: لاوحي إلا القرآن جوابا عما أحدثه المختار وادعى تنزيله اليه.

وواحد " النحل " نحلة، والمعنى ان الله تعالى ألهم النحل اتخاذ المنازل والادكار، والبيوت في الجبال، وفي الشجر وغير ذلك " ومما يعرشون " يعني

(١) سورة الشورى آية ٥١ (٢) سورة القصص آية ٧ (٣) سورة الزلزال آية ٥ (٤) سورة مريم آية ١١ (٥) سورة الانعام آية ١١٢ (٦) مر هذا الرجز في ٢: ٤٥٩، ٣: ٨٤، ٤: ٦١

(٤٠٤)

سقوف البيوت " ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً " معناه انه تعالى ألهمها ايضاً أن تأكل من الثمرات وسائر الاشجار التي تحويها، والذلل جمع ذلول، وهي الطرق الموطأة للسلوك. وقيل: طرق لايتوعر عليها سلوكها عن مجاهد. وقال قتادة: معنى " ذللاً " اي مطيعة، ويكون من صفة النحل.

وقال غيره: هو من صفات الطريق ومعنى " ذللاً " إنه قد ذللها لك وسهل عليك سلوكها وفي ذلك اعظم العبر واطهر الدلالة على توحيده تعالى وأنه لايقدر عليه سواه.

ثم قال " يخرج من بطونها " يعني بطون النحل " شراب مختلف ألوانه " من أصفر وأبيض وأحمر، مع أنها تأكل الحامض والمر فيحيله الله عسلاً حلواً لذيذاً " فيه شفاء للناس " لما شفائها فيه، واكثر المفسرين على ان (الهاء) راجعة إلى العسل، وهو الشراب الذي ذكره، وأن فيه شفاء من كثير من الامراض، وفيه منافع جمّة. وقال مجاهد (الهاء) راجعة إلى القرآن " وفيه شفاء للناس "، لما فيه من بيان الحلال، والحرام، والفتيا، والاحكام، والاول أوثق.

ثم اخبر تعالى ان فيما ذكره آيات واضحات، ودلالات بينات، لمن يتفكر فيه ويهتدي بهديه، وانماقال " من بطونها " وهو خارج من فيها، لان العسل يخلقه الله في بطون النحل ويخرجه إلى فيه. ثم يخرج من فيه، ولو قال: من فيها لظن أنها تلقيه من فيها، وليس بخارج من البطن.

قوله تعالى:

(والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لايعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير) (٧٠) آية بلا خلاف.

هذه الآية فيها تعديد لنعم الله تعالى على عباده، شيئاً بعد شئ، ليشكروه عليها، وبحسبها يقول الله: إني أنا الذي خلقتكم وأخرجتكم من العدم إلى الوجود

(٤٠٥)

وأنعمت عليكم بضروب النعم، دينية ودنياوية، ثم الذي خلقكم يتوفاكم ويقبضكم أي يميّتكم " ومنكم من يرد إلى أرذل العمر " وهو أرداه وأوضعه، يقال منه:

رذل الشئ يرذل رذالة، وأرذله ان ارد الا يريد به حال الذم. وقيل انه يصير كذلك في خمس وسبعين سنة - في قول علي (ع)

وقوله " لكي لا يعلم بعد علم شيئاً " اخبار منه تعالى انه إنما يرده إلى أرذل العمر، ليرجع إلى حال الطفولية بنسيان ما كان علم للكبير، فكأنه لا يعلم شيئاً، مما كان علم. وفي ذلك أعظم دلالة وأبين اعتبار على قادر مصرف للخلق من حال إلى حال. ثم أخبر " ان الله عليم " بمصالح عبادته، قادر على ما يشاء من تدبيرهم وتغيير أحوالهم. قوله تعالى:

(والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون) (٧١) آية بلاخلاف. قرأ أبو بكر عن عاصم " تجحدون " بالتاء على معنى: قل لهم يا محمد أمن أجل ما انعم الله عليكم، أشرتم وبطرتم وجحدتم. وقرأ الباقرن بالياء. وبخهم الله تعالى على جحودهم نعمه، فيقول الله تعالى لخلقه، بأنه فضل بعضهم على بعض في الرزق، لانه خلق فيهم غنيا وفقيرا وقادرا وعاجزا، وفضل بني آدم على سائر الحيوان في لذيذ المأكّل، والمشرب، وجعل بعضهم مالكا لبعض، وبعضهم رقا مملوكا. وقوله " فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت ايماهم " قيل في معناه قولان: احدهما - انهم لا يشركون عبيدهم في اموالهم وازواجهم حتى يكونوا فيه

(٤٠٦)

سواء، لانهم لا يرضون بذلك لانفسهم، وهم يشركون عبيدي في ملكي وسلطاني ويوجهون العبادة والقربات اليهم، مثل قريهم إلى الله تعالى. ذكره ابن عباس وقتادة ومجاهد. الثاني - انهم سواء في أي رزقت الجميع، وأنه لا يمكن احد أن يرزق عبيده إلا برزقي إياه، أفبهذه النعم التي عدتها وذكرتها " يجحدون " هؤلاء الكفار. قوله تعالى:

(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وجفدة ورزقكم من الطيبات أفبا لباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون) (٧٢) آية بلاخلاف. يقول الله تعالى: إني أنا الذي جعلت لكم ازواجا " من انفسكم " يعني من البشر، والذين يلدونهم ليكون ذلك أنس لهم وأليق بقلبيهم، وخالقت من هؤلاء الازواج بنين تسرون بهم وتترينون بهم و " حفدة " اي وخلق لكم حفدة. وقيل في معناه اقوال:

قال مجاهد وطاؤوس: هم الخدم، وقال ابن عباس: هم الخدم والاعوان، وانشد قول جميل:

حفد الولائد حولها واستمسكت * بأكفهن أزمة الاجمال (١)

وفي رواية اخرى عن ابن عباس: إنهم البنون وبنو البنين. وفي رواية اخرى أنهم بنو امرأة الرجل من غيره. وقال الحسن: من أعانك، فقد حقدك من

(١) تفسير الطبري ١٤ / ٨٨، ٨٩ رواه مرتين مع اختلاف يسير، ومجمع البيان ٣ / ٣٨٣. ولم أجد في ديوان جميل بثينة، (دار بيروت) وهو في اللسان (حقد) غير منسوب وروايته (حولهن واسلمت) بدل (وحولها واستمسكت).

(٤٠٧)

البنين وبنو البنات والاعوان والاهل. وقال ابن مسعود، وابو الضحى، وابراهيم وسعيد بن جبير: هم الاختان، وهم ازواج البنات. وأصل الحقد الإسراع في العمل، ومنه يسعى ويحقد، ومر البعير يحقد حقدانا إذا مر يسرع في سيره، وحقد يحقد حقدنا وحقدانا، قال الراعي:

كلفت مجهولها نوقا يمانية * إذا الحداة على أكسائها حقدوا (١)

والحداة جمع حافة، مثل كامل وكملة. وقوله " ورزقكم من الطيبات " اي جعل لكم أشياء تستطيعونها وأباحها لكم. وانما دخلت (من) لانه ليس كل ما يستطعمه الانسان رزقا له، وانما رزقه. ماله التصرف فيه، وليس لغيره منعه منه. ثم قال " أقبالباطل " يعني عبادة الاوثان والاصنام، وماحرم عليهم الشيطان من البحائر والسائبة والوصيلة يصدقون، وبنعمة الله التي عددها لهم " يكفرون " اي يجحدون مألحه الله، وماحرم عليهم. قوله تعالى:

ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا ولا يستطيعون (٧٣) فلا تضربوا الله الامثال إن الله يعلم وأنتم لاتعلمون (٧٤) آيتان بلاخلاف. اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأنهم يجحدون نعم الله، بأنهم يوجهون عبادتهم من دون الله إلى " مالا يملك لهم رزقا " أي لايقدر عليه، يعني بها الاصنام التي لا تقدر لهم على نعمة، ولا على ما يستحق به العبادة، ولا على

(١) تفسير الطبري ١٤ / ٩٠ ومجمع البيان ٣ / ٣٧٣ واللسان (كسأ) وروايته (الحداد) بدل (الحداة)،

(٤٠٨)

رزق يرزقونهم من السموات والارض، ولا يستطيعون شيئا مما ذكرنا. ويتركون عبادة من يقدر على جميع ذلك ويفعله بهم، ورزق السماء الغيث الذي يأتي من جهتها، ورزق الارض النبات والثمار التي تخرج منها.

وقوله " فلا تضربوا الله الامثال " معناه لاتجعلوا لله الاشباه والامثال في العبادة فإنه لاشبه له ولا مثيل، ولا أحد يستحق معه العبادة، وذلك في اتخاذهم الاصنام آلهة، ذكره ابن عباس وقتادة.

وقوله " شيئا " نصب على أحد وجهين:

أحدهما - أن يكون بدلا من (رزقا) والمعنى ما لا يملك لهم رزقا قليلا، ولا كثيرا.

والثاني - أن يكون منصوبا ب " رزقا " كما قال " أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما " (١) كأنه قال لا يملك لهم رزق شيء.

وقوله " ان الله يعلم " أي يعلم أنه لاتحق العبادة إلا له " وأنتم لاتعلمون " ذلك بل تجهلون، ولكن يجب عليكم أن تنتظروا لتعلموا صحة ماقلناه.

قوله تعالى:

(ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستون أحمد الله بل أكثرهم لا يعلمون) (٧٥) آية بلاخلاف.

قيل في معنى هذه الآية قولان:

أحدهما - أنه مثل ضرب للكافر الذي لاخير عنده، والمؤمن الذي يكتسب الخير، للدعاء إلى حال المؤمن، والصرف عن حال الكافر، وهو قول ابن عباس وقتادة.

(١) سورة البلد آية ١٤ - ١٥

(٤٠٩)

الثاني - قال مجاهد: إنه مثل ضربه لعبادتهم الاوثان التي لاتملك، شيئا، والعدول عن عبادة الله الذي يملك كل شيء، والمعنى أن الاتنين المتساويين في الخلق إذا كان أحدهما قادرا على الانفاق مالكا، والآخر عاجزا لا يقدر على الانفاق لا يستويان، فكيف يسوى بين الحجارة التي لاتتحرك، ولاتعقل، وبين الله تعالى القادر على كل شيء، الرازق لجميع خلقه، فبين بذلك لهم أمر ضلالتهم وبعدهم عن الحق في عبادة الاوثان. ثم قال " الحمد لله " أي الشكر له تعالى، على نعمه، لا يستحقه من لانهمة له، " ولكن أكثرهم لا يعلمون " ذلك.

وفي هذه الآية دلالة على أن المملوك لا يملك شيئاً، لأن قوله "مملوكا لا يقدر على شيء" ليس المراد به نفي القدرة، لأنه قادر على التصرف، وإنما المراد أنه لا يملك التصرف في الأموال، وذلك عام في جميع ما يملك ويتصرف فيه.
قوله تعالى:

(وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) (٧٦) آية بلاخلاف.
قيل في معنى ضرب هذا المقل قولان:

أحدهما أنه مثل ضربه الله في من يؤمل الخير من جهته، وفي من لا يؤمل، فيؤمل الخير كله من الله تعالى، لامن جهة الأوثان والعباد، فلا ينبغي أن يسوى بينهما في العبادة.
الثاني - أنه مثل للكافر والمؤمن، ووجه التقابل في ضرب المثل بهذين الرجلين أنه على تقدير: ومن هو بخلاف صفته " يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم " في تدبير الأمور بالحق، وهذا زيادة في ضرب المثل من الله تعالى، فإنه يقول: إن الرجلين إذا كان أحدهما أبكم لا يقدر على شيء، وهو الذي لا يسمع

(٤١٠)

شيئاً ولا يبصر، ولا يعقل، وهو مع ذلك " كل على مولاه " أي وليه " أينما يوجهه لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل " مع كونه " على صراط مستقيم " والمراد أنهما لا يستويان قط. والابكم الذي يولد أخرس لا يفهم ولا يفهم. وقيل: أنه ضرب المثل للوثن مع إنهما كهم على عبادته، وهو بهذه الصفة.

وقيل " الابكم هو الذي لا يمكنه أن يتكلم. والكل الثقل: كل عن الأمر يكل كلاً إذا ثقل عليه، فلم ينبعث فيه، وكلت السكين كلولا إذا غلظت شفرتها، وكل لسانه إذا لم ينبعث في القول لغلظه وذهاب حده، فالاصل الغلظ الذي يمنع من النفوذ في الأمر.

وقوله " وهو على صراط مستقيم " أي هو مع أمره بالعدل، على طريق من الحق في دعائه إلى العدل فأمره به مستقيم لا يعوج ولا يزول عنه.
قوله تعالى:

(والله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير (٧٧) والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة لعلكم تشكرون) (٧٨) آيتان بلاخلاف.

أخبر الله تعالى أن له غيب السموات والأرض ومعناه أنه المختص بعلم ذلك، وهو ما غاب عن جميع العالمين، مما يصح أن يكون معلوماً، فإنه تعالى يختص بالعلم به وقال الجبائي: ويحتمل

أن يكون المعنى، والله ملك ماغاب مما في السموات والارض. ثم قال " وما أمر الساعة " أي مجيئها وهي يو القيامه، في السرعة وقرب المجئ " إلا كلمح البصر أو هو أقرب " من ذلك مبالغة في ضرب المثل به في السرعة، وأنه قادر عليه. ودخول " أو " في قوله " أو هو أقرب " لاحد أمرين.

(٤١١)

أحدهما - الابانة عن أنه، على إحدى منزلتين إما كلمح بالبصر أو اقرب من ذلك. والثاني - انه قال ذلك لشك المخاطب، وإنما قرب امرها، لانه بمنزلة " كن فيكون " فمن ههنا صح انها كلمح البصر او اقرب، ثم ذكر نعمه التي انعم بها على خلقه، فقال " هو " تعالى " الذي اخرجكم من بطون امهاتكم " وانعم عليكم بذلك وانتم في تلك الحال " لاتعلمون شيئاً " ولاتعرفونه، فتفضل عليكم بالحواس الصحيحة التي هي طريق العلم بالمدرجات، وجعل لكم قلوبا تفقهون بها الاشياء، لانها محل المعارف، لكي تشكروه على ذلك وتحمدوه على نعمه. قوله تعالى:

(ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء مايمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (٧٩) والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلي حين (٨٠) والله جعل لكم مما خلق ظلالاتا وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) (٨١) ثلاث آيات بلاخلاف.

قرأ نافع وابن كثير وابوعمر " ويوم ظعنكم " بتحريك العين. الباقر بنسكينها وهما لغتان، مثل نهر ونهر، وسمع وسمع. وقرأ ابن عامر وحمزة وخلف ويعقوب " ألم تروا " بالتاء على الخطاب. الباقر بالياء على وجه التذكير لما تقدم ذكره، والتنبيه لهم.

(٤١٢)

يقول الله تعالى منبها لخلقها على وجه الاستدلال على وحدانيته " ألم يروا " يعني هؤلاء الكفار الجاحدين لربوبيته " إلى الطير " قد سخرها الله " في جو السماء " وسط الهواء، حتى مكنها ان تتصرف في جو السماء على حسب إرادتها، ويعلمون أن لها مسخرا ومدبرا، لايشبه الاشياء، لان من المعلوم ان احدا، من البشر لا يقدر على مثل ذلك، ولايتأتى منه ذلك، وأن من مكن الطير من تلك الحال قد كان يجوز ان يمكنها منه ابتداء واختراعا، من غير اسباب ادت إلى أن صارت على تلك الاوصاف، لانه قادر لايعجزه شيء، ولايتعذر عليه شيء، وأنه إنما خلق

ذلك ليعتبروا به وينظروا فيه، فيصلوا به إلى الثواب الذي عرضهم له، ولو كان فعل ذلك لمجرد الانعام به على العبد كان حسنا، لكن ضم إلى ذلك التعريض للثواب على ما قلناه. وانما قال " مايمسكهن الا الله " وهي تستمسك بالقدرة التي اعطاها الله مبالغة في الصفة بأن الله يمكنها بالهواء الذي تتصرف فيه، لانه ظاهر انها بالهواء تستمسك عن السقوط، وأن الغرض من ذلك تسخير ماسخر لها. ثم قال " ان في " خلق " ذلك "، على ما وصفه، لدلالات لقوم يصدقون بتوحيد الله، ويصدقون انبياءه وخص المؤمنون بذلك لامرين: ادهما - من حيث هم المنتفعون بها دون غيرهم.

الثاني - لانهم يدللون بها على مخالفي التوحيد، وهي دلالة من الله للجميع، والجو - بالفتح - ما بين السماء والارض، قال الانصاري:

ويل امها في هواء الجو طالبة * ولا كهذا الذي في الارض مطلوب (١)
ثم عدد في الآية الاخرى نعمه، فقال: " والله جعل لكم من بيوتكم سكنا " أي مواضع تسكنون فيها " وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها " اي يخف عليكم حملها " يومن ظعنكم " أي ارتحالكم من مكان

(١) مجاز القرآن ١ / ٣٦٥ وخزانة الادب ٢ / ٢١٢ نسبة إلى امرئ القيس بن حجر الكندي وهو موجود في ديوانه ٦٩ وروايته (لاكالتى) والطبري ١٤ / ٩٣ نسبة إلى ابراهيم بن عمران الانصاري.

(٤١٣)

إلى مكان " ويوم اقامتكم " يعني اليوم الذي تنزلون موضعا تقيمون فيه، ثم قال " وجعل لكم من أصوافها " من أصواف الضأن وأوبار الابل واشعار المعز " أثانا " يعني متاع الكثير، من قولهم شعر أثيث اي كثير، وأث النبت يئث أنا إذكثر والتف، وكذلك الشعر، ولاواحد لللاثا، كما لاواحد للمتاع، قال الشاعر:

اهاجتك الضعائن يوم بانوا * بذى الرئي الجميل من الاثا (١)

وقوله " إلى حين " معناه. إلى وقت يهلك فيه، ثم قال " والله جعل لكم ممالق ظلالا " يعني من الشجر وغيره، ماتسكنون فيه من أذى الحر والبرد " وجعل لكم سراويل " يعني قمصا من القطن والكتان - في قول قتادة - واحدها سربال، ويقال للدروع سراويل، وهي التي تقى البأس، وقال الزجاج كل مالبيسته فهو سربال.

وقوله " تفيكم الحر " اي تمنعكم من الحر، وخص الحر بذلك مع ان وقايتها للبرد اكثر لامرين:

احدهما - إن الذين خوطبوا بذلك أهل حر في بلادهم فحاجتهم إلى ما يقي الحر أشد في قول عطاء.

الثاني - انه ترك ذلك لانه معلوم، كما قال الشاعر:

وما ادري اذ ايمت وجها * اريد الخبر ايهما يليني (٢)

فكنى عن الشر، ولم يذكره، لانه مدلول عليه ذكره الفراء.

وقوله " كذلك يتم نعمته عليكم " اي كما انعم عليكم بهذه النعم ينعم عليكم بجميع ماتحتاجون

اليه، وهو إتمام نعمه في الدنيا، وبين انه فعل ذلك لتسلموا

(١) قائله محمد بن نمير الثقفي. تفسير القرطبي ١٠ / ١٥٣ ومجاز القرآن ١ / ٣٦٥ والكامل للمبرد ٣٧٦ واللسان والناح (رأى) وروايته (اشاقتك).

(٢) قائلة المثقب العدي. اللسان (أم) وتفسير القرطبي ١٠ / ١٦٠ وقد مر في ٢ / ١١٣، ٥ / ٥٢٩ من هذا الكتاب.

(٤١٤)

وتؤمنوا. وقرأ ابن عامر بفتح التاء، والمعنى لتسلموا بتلك الدروع من الجراحات.

قوله تعالى:

(فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين (٨٢) يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون)

(٨٣) آيتان بلاخلاف.

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على وجه التسلية له عما كان يلحقه عند تولي

الكفار عن الحق الذي يلزمهم، واعراضهم عن القبول منه " فإن تولي " هؤلاء الكفار،

وأعرضوا عنك فانه لا يلزمك تقصير من اجل ذلك، لان الذي يلزمك " البلاغ المبين " يعني

الظاهر الذي يتمكنون معه من معرفته، وقد فعلته، وقد حذف جميع ذلك لدلالة الكلام عليه، ثم

اخبار عنهم بأن قال هؤلاء الكفار " يعرفون نعمة الله " عليهم، مما يجدون من خلق نفوسهم،

واقدارهم، واكمال عقولهم وما خلق الله من انواع المنافع، التي ينتفعون بها، ثم انهم مع ذلك

ينكرون تلك النعم ان تكون من جهة الله ومنسوبة اليه، وينسبونها إلى الاصنام ثم قال: "

واكثرهم الكافرون " وانما قال اكثرهم مع ان جميعهم كفار لامرين:

احدهما - لان فيهم من لقنوه الكفر، ممن لم يبلغ حد التكليف لصغره، ولم تقم الحجة عليه، أو

من هو ناقص العقل مأووف (١) فلا يحكم عليهم بالكفر.

الثاني - إن منهم من ينكر النعمة، في حال لم يقم عليه حجة للشواغل في قلبه التي تلهيه عن تأمل امره، والفكر في حاله، فيكون في حال حكم الساهي والصبي، وإن كان مكلفا بغير ذلك من الامور، فلا يكون كافرا بالانكار في

(١) معنى مأووف فيه آفة اي مرض في عقله.

(٤١٥)

تلك الحال. وقال الجبائي: هو وإن كان لفظا خاصا، فهو عام في المعنى. وقال الحسن: المعنى ان جميعهم الكافرون، وانما عزل البعض إحتقارا له أن يذكره. وفي الآية الثانية - دلالة على فساد مذهب المجبرة: من أنه ليس لله على الكافر نعمة، وقولهم: إن جميع ما فعله بهم نقمة وخذلان، حتى ارتكبوا المعصية، لان الله تعالى قد بين خلاف ذلك نسا في هذه الآية. قوله تعالى:

(ويوم نبعث من كل امة شهيدا ثم لايؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون (٨٤) وإذأرا الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون) (٨٥) آيتان بلا خلاف. يقول الله تعالى إن اليوم الذي يبعث فيه " من كل امة شهيدا " يشهد عليهم بكفرهم وضلالهم وجميع معاصيهم هو يوم القيامة، والشهيد في كل امة رسوله، ويجوز أن يكون قوم من المؤمنين المرضيين عند الله، وانما يقيم الشهادة عليهم مع أنه عالم بأحوالهم من حيث ان ذلك اهل في النفس واعظم في تصور الحال، واشد في الفضيحة إذا قامت به الشهادة بحضور الملا التي يكون من الله التصديق لها مع جلالة الشهود عند الله بالحق. وقوله " ثم لايؤذن للذين كفروا، ولا هم يستعتبون " قيل في معناه قولان: احدهما - انه لايؤذن لهم في الاعتذار، على أن الآخرة مواطن: فيها ما يمنعون وفيها مالا يمنعون.

الثاني - انهم لم يؤذن لهم في الاعتذار بما ينتفعون، ولا يعرضون للعتبي الذي هو الرضا. وقال الجبائي: المعنى ان الله يخلق فيهم العلم الضروري بانهم ان

(٤١٦)

اعتذروا لم تقبل معذرتهم، وإن استعتبوا لم يعتبوا ولم يرد أنهم لايؤمرون بالاعتذار، ولا يمكنون منه، لان الامر والتكليف قد زال عنهم.

ثم اخبر تعالى أن الظالمين إذا رأوا العذاب يوم القيامة وشاهدوه، فلا يخفف عنهم ذلك العذاب إذا حصلوا فيه " ولا ينظرون " اي لا يولجوا في وقت آخر، بل عذابهم دائم في جميع الاوقات، ووقت التوبة والندم قد فات.

قوله تعالى:

(وإذا رأ الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون (٨٦) وآلقوا إلى الله يومئذ السلم وصل عنهم ما كانوا يفترون (٨٧) الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) (٨٨) ثلاث آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى مخبرا عن حال المشركين والكفار في الآخرة وأنهم إذا رأوا شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله. وقيل انما سمعوا " شركاءهم " لامرين:

احدهما - لانهم جعلوا لهم نصيبا في أموالهم.

الثاني - لانهم جعلوهم شركاء في العبادة.

ومعنى قوله " هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك " اعتراف منهم على انفسهم بأنهم كانوا يشركون مع الله غيره في العبادة.

وقوله " فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون " قيل في معناه قولان:

احدهما - ألقى المعبودون القول " انكم لكاذبون " في أنا نستحق العبادة.

(٤١٧)

والثاني - " انكم لكاذبون " في قولكم إنا دعوناكم إلى العبادة.

وقيل: انكم لكاذبون بقولكم إنا آلهة.

وإلقاء المعنى إلى النفس إظهاره لها، حتى تدركه متميزا من غيره، فهؤلاء آلقوا القول حتى فهموا عنهم انهم كاذبون.

وقوله " وآلقوا إلى الله يومئذ السلم " معناه استسلموا بالذل لحكم الله - في قول قتادة - " وصل

عنهم ما كانوا يفترون " اي يضل ما كانوا يأملونه ويقدررون من ان آلهتهم تشفع لهم. ثم أخبر

تعالى ان الذين يكفرون بالله ويجحدون وحدانيته، ويكذبون رسله، ويصدون غيرهم عن اتباع

الحق الذي هو سبيل الله " زدناهم عذابا فوق العذاب ". قال ابن مسعود: أفاعي وعقارب النار

لها أنياب كالنخل الطوال جزاء " بما كانوا يفسدون " في الارض.

قوله تعالى:

(ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من انفسهم وجئناك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك

الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٨٩) آية بلاخلاف.

يقول الله تعالى إن اليوم الذي " نبعث في كل أمة شهيدا " اي من يشهد " عليهم من أنفسهم " اي من أمثالهم من البشر. ويجوز ان يكون ذلك نبيهم الذي بعث اليهم، ويجوز ان يكونوا مؤمنين عارفين بالله ونبيه، ويشهدون عليهم بما فعلوه من المعاصي. وفي ذلك دلالة على ان كل عصر لا يخلو ممن يكون قوله حجة على اهل عصره، عدل عند الله، وهو قول الجبائي، وأكثر أهل العدل، وهو قولنا وإن خالفناهم في من هو ذلك العدل والحجة.

تفسير التبيان ج ٦ م ٢٧

(٤١٨)

" وجنابك " يامحمد " شهيدا " على هؤلاء يعني كفار قريش وغيرهم، من الذين كفروا بنبوته. ثم قال " ونزلنا عليك الكتاب " يعني القرآن " تبيانا لكل شيء " اي بيانا لكل أمر مشكل. والتبيان والبيان واحد. ومعنى العموم في قوله " لكل شيء " المراد به من أمور الدين: إما بالنص عليه او الاحالة على ما يوجب العلم من بيان النبي صلى الله عليه وسلم والحجج القائمين مقامه، او اجماع الامة او الاستدلال، لان هذه الوجوه أصول الدين وطريق موصلة إلى معرفته.

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال: الكلام لا يدل على شيء، لان كلام الحكيم يدل من وجهين:

احدهما - أنه دليل على نفس المعنى الذي يحتاج اليه.
والآخر - أنه دليل على صحة المعنى الذي يحتاج إلى البرهان عليه. ولولم يكن كذلك لخرج عن الحكمة وجرى مجرى اللغو الذي لا فائدة فيه.

وقوله " وهدى ورحمة وبشرى " يعني القرآن دلالة ورحمة وبشارة للمسلمين بالجنة. قوله تعالى:

(إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) (٩٠)

وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفلون) (٩١) آيتان يقول الله تعالى مخبرا عن نفسه " ان الله بأمر بالعدل " يعنى الانصاف بين الخلق، وفعل مايجب على المكلف و " الاحسان " إلى الغير، ومعناه يأمركم بالاحسان، فألأمر بالاول على وجه الايجاب، وبالاحسان على وجه الندب. وفي

(٤١٩)

ذلك دلالة على ان الامر يكون أمرا بالندوب اليه دون الواجب، " وإيتاء ذي القربي " اي وأمرك باعطاء ذي القربي، ويحتمل امرين:

أحدهما - صلة الارحام، فيكون ذلك عاما في جميع الخلق.

والثاني - ان يكون أمرا بصلة قرابة النبي صلى الله عليه وسلم وهم الذين أرادهم الله بقوله " فإن لله خمسهُ وللرسول ولذي القربى " (١) على ما بيناه فيما قبل وقوله " وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغى " انما جمع بين الاوصاف الثلاثة في النهي عنها مع ان الكل منكر فاحش، ليبين بذلك تفصيل مانهى عنه، لان الفحشاء قد يكون مايفعله الانسان في نفسه مما لا يظهر أمره ويعظم قبحه.

والمنكر ما يظن للناس مما يجب عليهم إنكاره، والبغى ما يتناول به من الظلم.

لغيره، ولا يكون البغى إلا من الفاعل لغيره، والظلم قد يكون ظلم الفاعل لنفسه.

وروي عن ابي عبيدة، أنه قال: العدل هو استواء السريرة والعلانية، والاحسان ان تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر ان يكون علانيته أحسن من سريرته.

ثم بين تعالى أنه يعظ بما ذكره خلقه، لكي يذكروا ويتفكروا، ويرجعوا إلى الحق.

ثم أمر تعالى خلقه بأن يفوا بعهده اذا عاهدوا عليه، والعهد الذي يجب الوفاء به: هو كل فعل حسن اذا عقد عليه، وعاهد الله ليفعلنه بالعزم عليه، فانه يصير واجبا عليه، ولا يجوز له خلافه، ثم يكون عظم النقض بحسب الضرر به، فأما اذا رأى غيره خيرا منه فليأت الذي هو خير وليكفر، عند الفقهاء.

وقال اصحابنا: اذا وجد خيرا منه فعل الخير، ولا كفارة عليه، وهذا يجوز فيما كان ينبغي ان يشرط، فأما اذا أطلقه وهو لا يأمّن ان يكون غيره خيرا منه فقد أساء باطلاق العقد عليه.

(١) سورة الانفال آية ٤١ وقد بين معناها في ٥: ١٤٣

(٤٢٠)

ثم قال " ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها " نهي منه تعالى عن حنث الايمان بعد عقدها وتأكيدهما، يقال أكدته تأكيدا ووكدته توكيدا، والاصل الواو، وانما أبدلت الهمزة منها كما قالوا: وقبت في أوقبت.

وفي الآية دلالة على ان اليمين على المعصية غير منعقدة، لانها لو كانت منعقدة لماجاز نقضها، وأجمعوا على أنه يجب نقضها، ولا يجوز الوفاء بها، فعلم بذلك ان اليمين على المعصية غير منعقدة.

والنقض في المعاني يمكن في ما لا يجوز ان يصح مع خلافه، بل إن كان حقا فخلافه باطل، وإن كان باطلا فخلافه حق، نحو إرادة الشيء وكرهته، والأمر بالشيء والنهي عنه والتوبة من الشيء والعود فيه وما أشبه ذلك.

وقوله " وقد جعلتم الله عليكم كفيلا " اي حسيبا فيما عاهدتموه عليه " إن الله يعلم ما تفعلون " من نقض العهد والوفاء به، وذلك تهديد ووعد بأن يجازي على ما يكون منكم على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب.

وقيل: إن الآية نزلت في الذين بايعوا النبي صلى الله على وسلم على الاسلام. وقال بعضهم نزلت في الحلف الذي كان عليه أهل الشرك، فأمروا في الاسلام بالوفاء به ذكره ابن زيد. قوله تعالى:

(ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربي من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيمة ما كنتم فيه تختلفون (٩٢) ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون) (٩٣) آيتان بلاخلاف.

(٤٢١)

هذا نهي من الله تعالى للمكلفين ان يكونوا " كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا " فواحد الانكاث نكث، وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث: حبالا كان او غزلا، يقال منه: نكث فلان الحبل ينكثه نكثا، والحبل منتكث اذا انتقضت قواه. و (الدخل) ما أدخل في الشيء على فساد، والمعنى تدخلون الايمان على فساد للغرور، وفي نيتكم الغدر بمن حلفتم له، لانكم أكثر عددا منهم أو، لان غيركم اكثر عددا منكم وقيل والدخل الدغل والخديعة، وإنما قيل الدخل، لانه داخل القلب على ترك الوفاء والظاهر على الوفاء. وقيل (دخلا) غلا وغشا، ويقال: انا اعلم دخل فلان ودخله ودخيلته، والمعنى لا تنتفضوا الايمان لكثرتكم، وقلة من حلفتم له او لقلنتكم وكثرتهم، فاذا وجدتم اكثر منهم نقضتم بل احفظوا عهدكم. و " دخلا " منصوب بأنه مفعول له.

وقوله " ان تكون أمة هي أربا من أمة " اي اكثر عددا لطلب العز بهم مع الغدر بالاقبل، وهو (أفعل) من الربا، قال الشاعر:

واسمر خطي كأن كعوبه نوى * العسيب قد اربا ذراعا على عشر (١)

ومنه أربا فلان للزيادة التي يزيد بها على غريمه في رأس ماله (واربي) في موضع رفع. واجاز الفراء ان تكون في موضع نصب، وتكون هي عمادا.

وقال الزجاج: لايجوز ذلك، لان العماد لا يكون بين نكرتين، لان " امة " نكرة، ويفارق قوله " تجدوه عند الله هو خيرا " (٢) لان الهاء في تجدوه معرفة.
وقوله " انما يبلوكم الله به " معناه إنما يختبركم الله بالامر بالوفاء، فالهاء في (به) عائدة على الامر، وتحقيقه يعاملكم معاملة المختبر ليقع الجزاء بالعمل " وليبين لكم " أي ويفصل لكم ويظهر لكم " ماكنتم تختلفون " في صحته يوم القيامة.
والتي نقضت غزلها من بعد إبرام قيل: إنها ربطة بنت عمرو بن كعب ابن سعيد بن تميم بن مرة، وكانت حمقاء، فضربه الله مثلا، فقال " اوفوا بعهد الله إذا

(١) تفسير الطبري ١٤: ١٠٢ ومجمع البيان ٣: ٣٨١ (٢) سورة المزمل آية ٢٠.

(٤٢٢)

عاهدتم ولا تنتقضوا الايمان بعد توكيدها " فتكونوا إن فعلتم ذلك كإمرأة غزلت غزلا، وقوت قوته وأبرمت، فلما استحکم نقضته، فجعلته أنكاثا أي انقاضا، وهو ماينقض من اخلاق بيوت الشعر والوبر ليعزل ثانياة، ويعاد مع الجديد، ومنه قيل: لم بايع طائعا ثم خرج عليك ناكثا؟
لانه نقض ماوكده على نفسه بالايمان والعهود كفعل الناكثة غزلها.
ومعنى " أن تكون " لان تكون " أمة " أعز من أمة، وقوم أعلى من قوم، يريد لا تقطعوا بأيمانكم حقوقا لهؤلاء، فتجعلوها لهؤلاء. وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فإذا وجدوا أكثر منهم نقضوا حلف هؤلاء، وحالفوا أولئك الذين هم أعز، فنهاهم الله عن ذلك.
وقوله " ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة " اخبار منه تعالى عن أن العباد إذا خالفوا أمره لم يعاجزوه، ولم يغالبوه تعالى عن ذلك، لانه لو يشاء لآكرههم على أن يكونوا أمة واحدة، لكنه يشاء أن يجتمعوا على الايمان، على وجه يستحقون به الثواب. ومثله قوله " ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلوا بعضهم ببعض ")
كذلك قال سبحانه - ههنا - ولكن ليمتحنكم ويختبركم لتستحقوا النعيم الذي أرادكم، فيضل قوم، ويستحقوا الاضلال عن طريق الجنة، والحكم عليهم بأنهم ضالون. ويهتدي آخرون، فيستحقوا الهدى يعني الحكم لهم بالهداية، وإرشادهم إلى طريق الجنة. ثم قال " ولتسألن " يامعشر المكلفين " عما كنتم تعملون " في الدنيا من الطاعات والمعاصي، فتجازون عليه بقدره.

قوله تعالى:

و (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم (٩٤)

(٤٢٣)

ولاتشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون (٩٥) ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٩٦) ثلاث آيات بلاخلاف.

قرأ ابن كثير، وعاصم " وليجزين الذين صبروا " بالنون. الباقرن بالياء. من قرأ بالنون فحجته إجماعهم على قوله " ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " أنه بالنون. ومن قرأ بالياء، فلقوله " وما عند الله باق " وليجزين الله الذين صبروا. نهى الله عباده المكلفين ان يتخذوا ايمانهم دخلا بينهم، وقد فسرنا معنى دخلا، وبين تعالى انه متى خالفوا ذلك زلت اقدامهم بعد ثبوتها، وهو مثل ضربه الله، والمعنى أنهم يضل بعد ان كان على الهدى. وقال قوم: الآية نزلت في الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام والنصرة، نهوا عن نقض عهده، وترك نصرته.

وقوله " وتذوقوا السوء " يعني العذاب، جزاء على معاصيكم وما صدقتم عن اتباع سبيل الله، ولكم مع ذلك عذاب عظيم تعذبون به. ثم نهاهم، فقال:

" ولاتشتروا بعهد الله ثمنا قليلا " أي لاتخالفوا عهد الله بسبب شئ يسير تتألمونه من حطام الدنيا، فيكون قد بعتم ما عند الله بالشئ الحقير، وبين ان الذي عند الله هو خير، وأشرف لكم إن كنتم تعلمون حقيقة ذلك وتحققونه، ثم قال: إن الذي عند الله لا ينفد، هو باق، والذي عندكم من نعيم الدنيا وينفد ويفنى، ثم أخبر بأنه يجزي الصابرين على بلائه وجهاد أعدائه أجرهم وثوابهم " بأحسن ما كانوا يعملون " وإنما قال بأحسن ما كانوا، لان احسن أعمالهم هو الطاعة لله تعالى، وما عداه من الحسن مباح ليس بطاعة، ولا يستحق عليه أجر

(٤٢٤)

ولاحمد، وذلك يدل على فساد قول من قال: لا يكون حسن احسن من حسن.

قوله تعالى:

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حيوه طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (٩٧)

فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (٩٨) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٩٩) إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (١٠٠) أربع آيات.

هذا وعد من الله تعالى بأن من عمل صالحا من الطاعات سواء كان فاعله ذكرا أو أنثى، وهو مع ذلك مؤمن بتوحيد الله، مقر بصدق أنبيائه، فإن الله يحييه حياة طيبة. وقال ابن عباس: الحياة الطيبة هو الرزق الحلال. وقال الحسن:

هي القناعة. وقال قتادة: حياة طيبة في الجنة. وقال قوم: الأولى ان يكون المراد بها القناعة في الدنيا، لأنه عقيب ماتوعد غيرهم به من العقوبة فيها مع ان اكثر المؤمنين ليسوا بمتسعي الرزق في الدنيا.

ثم أخبر انه يجزيهم زيادة على الحياة الطيبة " أجرهم " وثوابهم " بأحسن ما كانوا يعملون " وقد فسرناه، وإنما قال " ولنجزينهم " بلفظ الجمع، لان (من)

يقع على الواحد والجميع، فرد الكناية على المعنى، ثم خاطب نبيه، فقال: يا محمد " إذا قرأت بالقرآن " والمراد به جميع المكلفين " فاستعذ بالله " والمعنى إذا اردت قراءة القرآن " فاستعذ بالله " كما قال: " إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا " (١) والمعنى إذا اردتم القيام

(١) سورة المائدة آية ٦

(٤٢٥)

اليها، لان بعد القراءة لا يجب الاستعاذة إلا عند من لا يعتد بخلافه. وقال قوم: هو على التقديم والتأخير، وهذا لا يجوز لانه ضعيف، لانه لا يجوز التقديم، والتأخير في كل شئ، ولذلك حدود في العربية لا تتجاوز. وإنما يجوز ذلك مع ارتفاع اللبس والشبهة، والاستعاذة عند التلاوة مستحبة غير واجبة - بلاخلاف - " من الشيطان الرجيم " أي استعذ بالله من المبعد من رحمة الله المرجوم، من سخطه.

ثم أخبر أنه " ليس " للشيطان سلطان ولا حجة " على الذين آمنوا " بالله وحده ولم يشركوا به سواه. وفوضوا أمرهم اليه وتوكلوا عليه. وإنما سلطانه وقدرته على الذين يتولونه ويقبلون منه، وعلى الذين يشركون في عبادة الله سواه.

وقال الجبائي: في الآية دلالة على ان الصرع ليس من قبل الشيطان، قال: لانه لو امكنه أن يصرعه، لكان له عليهم سلطان. وأجازه أبو الهذيل وابن الاخشاد، وقالوا: إنه يجري مجرى قوله " كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس " (١)

ولأن الله تعالى قال: "إنما سلطانه على الذين يتولونه" وإنما أراد سلطان الاغواء والاضلال عن الحق.

ومعنى قوله "والذين هم به مشركون" فيه قولان:

أحدهما - قال الربيع: من أن الذين يطيعونه فيما يدعو اليه من عبادة غير الله مشركون، فلما كان من اطاعه فيما يدعو اليه من عبادة غير الله مشركا، كان به مشركا، وهو من الايجاز الحسن.

والثاني - قال الضحاك: الذين هم بالله مشركون.

قوله تعالى:

(وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥

(٤٢٦)

أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون (١٠١) قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين (١٠٢) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى: مخبرا عن احوال الكفار بأن متى " بدلنا آية مكان آية بأن رفعنا آية ونسخناها، وأتينا بأخرى بدلها، نعلم في ذلك من مصلحة الخلق، وقد يكون تبديلها برفع حكمها مع ثبوت تلاوتها (وقد يكون برفع تلاوتها دون حكمها) (١) وقد يكون برفعهما. والتبديل - في اللغة - رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، تقول: بدله تبديلا وأبدله إبدالا، واستبدل به استبدالا. ثم قال:

" والله أعلم بما ينزل " مما فيه صلاح الخلق من غيره. وقوله: " قالوا إنما أنت مفتر " معناه يقول هؤلاء الذين جحدوا نبوتك وكفروا بآيات الله: إنما أنت يامحمد مفتر كذاب في إدعائك الرسالة من الله. ثم أخبر عنهم، فقال: " بل أكثرهم لا يعلمون " انك نبي، لتركهم النظر في معجزاتك، ولشبهه داخلة عليهم، وان علمه بعضهم وكابر، وجحد ما يعلمه، ثم امره بأن يقول لهم " نزله روح القدس " يعني القرآن نزله جبريل (ع) " ليثبت الذين آمنوا " وتثبيته لهم هو استدعاؤه لهم به وبالطافه ومعونته إلى الثبات على الاسلام وعلى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم. ثم بين أن القرآن هدى ودلالة وبشارة للمسلمين.

قوله تعالى:

ثم اخبر إن الذي يتخرص الكذب، ويفتري على الله، هو الذي لا يؤمن بآيات الله، ويججدها، وهم الكاذبون، وانما خص الذين لا يؤمنون بالله بالافتراء.

لانه لا يردعهم عن الكذب ايمان بالجزاء، " واولئك هم الكاذبون " على رسوله فيما ادعوا عليه. وقيل: المعنى في ذلك تعظيم كذبهم، كما يقول القائل: هؤلاء هم الرجال. قوله تعالى:

(من كفر بالله من بعد ايمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليه غضب من الله ولهم عذاب عظيم) (١٠٦) آية بلاخلاف.

نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر (رحمه الله) اكرهه المشركون بمكة بأنواع العذاب، وقيل: إنهم غطوه في بئر ماء على ان يلفظ بالكفر وكان قلبه مطمئنا بالايمان، فجاز من ذلك، وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم جزعا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كيف كان قلبك؟ قال كان مطمئنا بالايمان، فأنزل الله فيه الآية. واخبر ان الذين يكفرون بالله بعد ان كانوا مصدقين به بأن يرتدوا عن الاسلام " فعليه غضب من الله " ثم استثنى من ذلك من كفر بلسانه، وكان مطمئن القلب بالايمان في باطنه، فانه بخلافه. و " من كفر " رفع بما دل عليه خبر الثاني الذي هو قوله " ولكن من شرح بالكفر صدرا " كأنه قيل فعليه غضب من الله، كما تقول من يأتنا فمن يحسن نكرمه، فجواب الاول محذوف كفى فيه الثاني، وقال الزجاج " من كفر " رفع بأنه بدل من قوله " واولئك هم الكافرون " وقال ابو علي: هذه معاريض يحسن من الله مثلها، ولا يحسن من الخلق إلا عند التقية، قال: إلا ان على أهل العقول أن يعلموا ان الله لم يفعل ذلك الاعلى ما يصح ويجوز، وليس

(٤٢٩)

ذلك للانسان الا في حال التقية، لانه لا دليل يؤمن من الخطأ عليه، فعلى هذا يلزمه في النبي ان يحسن منه من غير تقية، لكونه معصوما لا يكذب في اخباره ولا خلاف بين أهل العدل أنه لا يجوز اظهار كلمة الكفر إلا مع التعريض بأن ينوي بقلبه ما يخرج عن كونه كاذبا، فأما على وجه الاخبار، فلا يجوز أصلا لانه قادر على التعريض الذي يخرج به عن كونه كاذبا. قوله تعالى:

(ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) (١٠٧) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون (١٠٨) لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون) (١٠٩) ثلاث آيات بلاخلاف.

قوله " ذلك " اشارة إلى ماتقدم ذكره من العذاب العظيم. أخبر الله تعالى ان ذلك العذاب العظيم إنما أعده لهم، لانهم آثروا الحياة الدنيا، والتلذذ فيها، والركون اليها على الآخرة، والمعنى انهم فعلوا ما فعلوه للدنيا طلبا لها دون طلب الآخرة. والعمل يجب أن يكون طلبا للآخرة، أو للدنيا والآخرة. فأما أن يكون لمجرد الدنيا دون الآخرة فلا يجوز، لانه إذا طلب الدنيا ترك الواجب من الطاعات لامحالة، وكذلك لا ينبغي أن يختار المباح على النافلة لان النافلة طاعة الله. والمباح ليس بطاعة له. ثم أخبر تعالى " أن الله لا يهدي القوم الكافرين " ومعناه أحد شيئين: احدهما - إنه لا يهديهم إلى طريق الجنة والثواب، لكفرهم.

الثاني - إنه لا يحكم بهدايتهم لكونهم كفارا. وأما نصب الدلالة، فقد هدى الله جميع المكلفين، كما قال " وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى " (١) وقيل: إنهم لم يهتدوا بتلك الأدلة، فكانها لم تكن نصبت لهم، ونصبت

(١) سورة حم السجدة (فصلت) آية ١٧

(٤٣٠)

للمؤمنين الذين اهتدوا بها، فلذلك نفاها عنهم فكأنها لم تكن لهم، ويجوز ان يكون المراد انه لا يهديهم بهدى المؤمنين من فعل اللطاف والمدح بالاهتداء، لكونهم كفارا. ثم اخبر ان اولئك الكفار هم " الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم واولئك هم الغافلون " وبيننا معنى الطبع على القلوب والسمع والابصار في سورة البقرة (٢) وان ذلك سمة من الله جعلها للملائكة ليفرقوا بين الكافر والمؤمن، جزاء وعقوبة على كفرهم، وان ذلك غير محيل بينهم وبين اختيار الايمان لو ارادوه، وانما وصفهم بعموم الغفلة مع الخواطر التي تزعجهم لامرين: احدهما - انهم بمنزلة الغافلين ذما لهم.

الثاني - لجهلهم عما يؤدى اليه حالهم، وان كانت الخواطر إلى النظر تزعجهم. وقوله " لاجرم انهم " معناه حق لهم " انهم في الآخرة هم الخاسرون " الذين خسروا صفقتهم لفوات الثواب وحصول العقاب وموضع (انهم) يحتمل أمرين من الاعراب:

احدهما - النصب على معنى: لا بد انهم اي لا بد من ذا، ويجوز على جرم فعلهم أن لهم النار اي قطع بذا وتكون (لا) صلة.

والثاني - الرفع والمعنى وجب قطعاً أن لهم النار و (لا) صلة أو رد لكلام من قال: ماذا لهم؟ فقيل وجب لهم النار.

قوله تعالى:

ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم
(١١٠) يوم يأتي

(١) في ١: ٦٣ - ٦٧. وفي ١: ٩٠ من هذا الكتاب.

(٤٣١)

كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون) (١١١) آيتان بلا خلاف.
قرأ ابن عامر وحده " فتنوا " جعل الفعل لهم. الباقيون " فتنوا " على مالم يسم فاعله، يقال:
فتنت زيدا، وهي اللغة الجيدة، وحكي افتنت. وحجة من قرأ على مالم يسم فاعله أن الآية
نزلت في المستضعفين المفتنين بمكة: عمار وبلال، وصهيب، فانهم حملوا على الارتداد عن
دينهم، فمنهم من اعطى ذلك تقية منهم: عمار، فانه اظهر ذلك تقية، ثم هاجر. ومعنى قراءة
بن عامر:

انه فتن نفسه، والمعنى من بعد ما فتن بعضهم نفسه باظهار ما ظهره بالتقية قال الرماني: في
الآية دلالة على انهم فتنوا في دينهم بمعصية كانت منهم، لقوله " ان ربك من بعدها لغفور
رحيم " لان المغفرة الصفح عن الخطيئة، ولو كانوا أعطوا التقية على حقها لم تكن هناك
خطيئة. وهذا الذي ذكره ليس بصحيح، ولا في الكلام دلالة عليه، وذلك ان الله تعالى إنما قال "
ان ربك من بعدها " يعني بعد الفتنة التي فتنوا بها " لغفور رحيم " أي سائر عليهم، لان
ظاهر ما اظهره يحتمل القبيح والحسن، فلما كشف الله عن باطن امورهم، واخبر انهم كانوا
مطمئنين بالايمان كان في ذلك ستر عليهم، وازالة الظاهر المحتمل إلى الأمر الجلي، وذلك
من نعم الله عليهم.

يقول الله تعالى: إن هؤلاء الذين هاجروا بعد ما فتنوا عن دينهم، وجاهدوا في سبيله وصبروا
على الاذي في جنب الله، فان الله اقسم انه ضمن لهم أن يفعل بهم الثواب، وسائر عليهم،
ورحيم بهم منعم عليهم.

وقوله " يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها " (يوم) منصوب بأحد شيئين:

احدهما - على معنى إن ربك من بعدها لغفور رحيم (يوم).

الثاني - على معنى واذكر يوم، لان القرآن عظة وتذكير، ومعنى تجادل عن نفسها تخاصم
كل نفس عن نفسها، وتحتج بما ليس فيه حجة عند الحساب.

(٤٣٢)

كما قال حكاية عنهم: " والله ربنا ما كنا مشركين " (١) وقال الاتباع " ربنا هؤلاء اضلونا فاتهم عذابا ضعفا من النار " (٢) فهم يجادلون الملك السائل لهم بين يدي الله، وقيل: تحتج عن نفسها بماتقدر به ازالة العقاب عنها.

ثم اخبر الله ان كل نفس توفى جزاء ما عملته على الطاعة الثواب وعلى المعصية العقاب، ولا يظلم احد في ذلك اليوم أحدا. قوله تعالى:

(وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها وغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) (١١٢) آية بلاخلاف.

التقدير ضرب الله مثلا مثل قرية، وقيل في القرية التي ضرب الله بها هذا المثل قولان: احدهما - قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: إنها مكة، لأنها كانت بهذه الصفات التي ذكرها الله. وقال آخرون: اي قرية كانت على هذه الصفة، فهذه صورتها.

وقوله " كانت آمنة مطمئنة " أي يأمن الناس فيها على نفوسهم واموالهم لا يخافون الغارة والنهب، كما يخاف سائر العرب، ويطمئنون فيها، لا يحتاجون فيها ان ينتجعوا إلى غيرها، كما يحتاج غيرهم اليه، وكان مع ذلك يجيؤها رزقها، اي رزق اهلها من كل موضع، لانه كان يجلب اليها تفضلا منه تعالى " فكفرت بانعم الله " والمراد كفر اهلها، " بانعم الله ". وانما اضاف الكفر إلى القرية مجازا، ولذلك أنث الفعل. وقيل في واحد انعم الله ثلاثة اقوال:

(١) سورة الانعام آية ٢٣ (٢) سورة الاعراف آية ٣٧

(٤٣٣)

احدها - يقال نعمة وانعم كشدة واشد.

الثاني - في جمع النعم كما قالوا أيام طعم ونعم ومثله ود وأود.

الثالث - نعماء كما جمعوا بأساء وابؤس وضراء واضر، وقالوا أشد جمع شد قال الشاعر. وعندني قروض الخير والشر كله فيؤس لدى بوسى ونعمى بأنعم وقوله " فأذاقها الله لباس الجوع " انما سماه لباس الجوع، لانه يظهر عليهم من الهزال وشحوب اللون وسوء الحال ما هو كاللباس. وقيل انهم شملهم الجوع والخوف كما شمل اللباس البدن. وقيل ان القحط دام بهم سنين وبلغ بهم إلى ان اكلوا القذ والطهن، وهو الوبر يخلط بالدم والقراد، ثم يؤكل، وانما يقال لصاحب الشدة: دق، لانه يجده وجدان الذائق في تفقده له، ولانه يتجدد عليه إدراكه كما يتجدد على الذائق، وهم مع ذلك خائفون وجلون من النبي صلى الله عليه وسلم.

واصحابه يغيرون على قوافلهم وتجاراتهم " جزاء بما كانوا يصنعون " من الكفر والشرك وتكذيب الرسل، واجرى الخطاب من أول الآية إلى ههنا على التأنيث إضافة إلى القرية، ثم قال - ههنا - " بما كانوا يصنعون " على المعنى أي بما كان أهلها يصنعون. وروي عن ابي عمرو انه قرأ " لباس الجوع والخوف " بالنصب، كأنه ضمن فعل إرزاقهم الله لباس الجوع، قاذفا في قلوبهم الخوف، لان الله تعالى لم يبعث النبي بالقحط والجوع والخوف، فقد قذف في قلوبهم الرعب من النبي وسراياه.

قوله تعالى:

(ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم تفسير التبيان ج ٦ م ٢٨)

(٤٣٤)

ظالمون (١١٣) فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون) (١١٤) آيتان بلاخلاف.

قوله " ولقد جاءهم رسول منهم " يعني اهل مكة بعث الله منهم رسولا من صميمهم، لا من غيرهم " فكذبوه " وجدوا نبوته " فأخذهم العذاب وهم ظالمون " أي في حال كفرهم ظالمين اخذهم العذاب، وعذابهم هو ماسلط الله تعالى النبي والمؤمنين حتى قتلوهم يوم بدر وغيره من الايام، وماحل بهم من أنواع العذاب من جهته من الخوف والجوع الذي تقدم ذكره. ومن قال: المراد بالقرية غير مكة قال: هو صفة تلك القرية التي بعث الله رسولا منهم، ثم خاطب المؤمنين، فقال " كلوا " فصيغته وإن كان صيغة الامر، فالمراد به الاباحة، لان الاكل غير واجب إلا عند الخوف من تلف النفس، ولا مندوب اليه إلا في بعض الاحوال " مما رزقكم الله " أي ملككم التصرف فيه على وجه ليس لاحد منعكم منه " حلالا " أي جعله لكم " حلالا طيبا واشكروا نعمة الله " واعترفوا بها " ان كنتم إياه تعبدون " اي ان كنتم تعبدون الله دون غيره وليس المعنى ان كنتم تعبدون غيره، فلا تشكروه، بل المعنى انه لا يصح لاحد أن يشكره إلا بأن يوجه العبادة اليه تعالى وحده.

قوله تعالى:

(إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولاعاد فإن الله غفور رحيم)

(١١٥) آية بلاخلاف قد بينا تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة (١) وهو ان الله حرم الميتة،

(٤٣٥)

وهو مالم يذك مما فيه نفس سائلة. " ولحم الخنزير " وبيننا أن الخنزير جميعه حرام، وانما خص اللحم تغليظا، " وما أهل لغير الله به " والمعنى ما ذكر غير الله على تذكيتة، لانهم كانوا يذبحونها للاصنام، ثم استثنى المضطر إلى تناول ذلك خوف التلف، فأباح جميع ذلك له، واستثنى من المضطرين البغاة، فلم يبحها لهم، وقد بينا الخلاف فيه، وان قول مجاهد وماذهب اليه أصحابنا هو من خرج على امام عادل. وقال قوم: معناه غير باغ بذلك الشبع والتقوي به على معصية " ولاعاد " اي يتعدى فيه مايجوز له. وفي تفسيرنا: أن معنى ولاعاد ماذهب اليه الحسن، وغيره ان الذي يخرج للاعتداء على الناس من قطاع الطريق، فانهم لا يرخصون ان يأكلوا، ذلك على وجه. ثم اخبر " ان الله غفور رحيم " اي ستار على عباده معاصيهم " رحيم " بهم بأن يغفرها لهم، بالتوبة تارة وتفضلا منه ابتداء تارة أخرى، والمعنى إنه لايعاقب من تناول ما حرم عليه في حال الضرورة.

والاهلال رفع الصوت بالكلام، ومنه الهلال لرفع الصوت بالتكبير عند رؤيته وشبهه به صوت الصبي عند الولادة وكل ما ذكر عليه اسم معمود غير الله لايجل أكله.
قوله تعالى:

(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون (١١٦) متاع قليل ولهم عذاب أليم (١١٧) وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (١١٨) ثلاث آيات.

(ما) في قوله " لما تصف " مصدرية، والتقدير: ولاتقولوا لوصف ألسنتكم الكذب

(٤٣٦)

" هذا حلال وهذا حرام " وقال الزجاج: قرئ " الكذب " على إنه نعت الالسنه، يقال لسان كذوب وألسنة كذب، وحكي أيضا بكسر الباء ردا على (ما) وتقديره للذي تصفه ألسنتكم الكذب، وهذا إنما قيل لهم لما كانوا حرموه وأحلوه، فقالوا " مافي بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا " (١)

وقد بيناه فيما تقدم. ثم أخبر عن هؤلاء الذين يقولون على الله الكذب بأنهم " لا يفلحون " أي لا ينجون ولا يفوزون بثواب الله.

وقوله تعالى " متاع قليل " معناه متاعهم هذا الذي فعلوه وتمتعوا به " متاع قليل " ويجوز في العربية (متاعا) أي يتمتعون بذلك متاعا قليلا " ولهم عذاب أليم " أي في مقابلة ذلك يوم القيامة. وقوله " وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل " يعني ما ذكره في سورة الانعام في قوله " وعلى الذين هادوا حرمنا.. " (٢) الآية، في قول قتادة والحسن وعكرمة. ثم أخبر تعالى أنه لم يظلمهم بذلك ولا يبخسهم حظهم " ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " بكفرهم بنعمة الله وجحودهم لانبيائه، فاستحقوا بذلك تحريم هذه الأشياء عليهم لتغيير المصلحة عند كفرهم وعصيانهم.

قوله تعالى:

(ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) (١١٩)
آية بلاخلاف.

يقول الله تعالى إن الذي خلقك يا محمد " للذين عملوا السوء " يعني المعصية " بجهالة " أي بداعي الجهل، لأنه يدعو إلي القبيح، كما أن داعي العلم يدعو إلي

(١) سورة الانعام آية ١٣٩، انظر ٤: ٣١٢ - ٣١٦ (٢) سورة الانعام آية ١٤٦، انظر ٤: ٣٢٩ - ٣٣٢

(٤٣٧)

الخير، فقد يكون ذلك للجاهل، بالشئ وقد يكون للغافل الذي يعمل عمل الجاهل بتغليب هواه على عقله.

وقوله " ثم تابوا " يعني رجعوا عن تلك المعصية، وندموا عليها، وعزموا على أن لا يعودوا إلى مثلها في القبح " وأصلحوا " نياتهم وأفعالهم، فإن الذي خلقك من بعد فعلهم ما ذكرناه من التوبة " غفور " لهم ستار عليهم " رحيم " بهم، منع عليهم. وإنما شرط مع التوبة فعل

الصلاح استدعاء إلى فعل الصلاح ولئلا يغتروا بماسلف من التوبة حتى يقع الإهمال لما يكون من الاستقبال.

قوله تعالى:

(إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين (١٢٠) شاكرا لانعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم (١٢١)

وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين (١٢٢)

ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين (١٢٣) إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيمة فيماكانوا فيه يختلفون (١٢٤) خمس آيات بلا خلاف.

أخبر الله تعالى عن إبراهيم (ع) انه " كان أمة " واختلفوا في معناه، فقال ابن مسعود: معناه إنه معلم الخير قدوة " قانتا لله " مطيعا. قال بعضهم: كان ذا أمة " قانتا لله ". وقال قتادة: معناه إنه امام هدى. والقانت الذي يدوم على العبادة لله، وقيل: جعل " أمة " لقيام الأمة به. والحنيف المستقيم على طريق الحق. وقوله " ولم يك " يعني إبراهيم " من المشركين " الذين يعبدون مع الله غيره، بل كان موحدا " شاكرا لانعمه " اي بل كان شاكرا لنعمه

(٤٣٨)

معترفا بها " اجتباه " يعني اختاره الله واصطفاه " وهداه إلى صراط مستقيم " اي حكم بأنه على صراط مستقيم اي لطف له حتى اهتدى إلى طريق الحق.

وقوله " وآتيناه في الدنيا حسنة " اي اعطيناه جزاء على هدايته في هذه الدنيا حسنة، وهي: تتويبه الله بذكره في الدنيا بطاعته لربه، ومسارعته إلى مرضاته، وإخلاصه لعبادته، حتى صار إماما يقتدى به، وعلما يهتدى بسنته.

قال قتادة: حتى ليس من اهل دين إلا وهو يتولاه ويرضاه. وقال الحسن:

معنى " حسنة " يعني نبوته. وقوله " وإنه في الآخرة لمن الصالحين " اخبار منه تعالى انه مع إيتائه الحسنة في الدنيا هو في الآخرة من جملة الصالحين. وانما لم يقل:

لفي اعلى منازل الصالحين، مع اقتضاء حاله ذلك، لمدح من هو منهم، والترغيب في الصلاح ليكون صاحبه في جنب إبراهيم، وناهيك هذا الترغيب في الصلاح، وهذا المدح لإبراهيم أن يشرف جملة هو منها، حتى يصير لاستدعاء إليها بأنه فيها.

وقوله " اوحينا إليك ان اتبع ملة ابن إبراهيم حنيفا " أي أمرناك ان اتبع ملة إبراهيم حنيفا مستقيم الطريق، في الدعاء إلى توحيد الله، وخلع الأنداد، والعمل بسنته، " وماكان " يعني إبراهيم " من المشركين " بعبادة الله غيره.

وقوله " انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه " اختلفوا في معناه، قال الحسن: معناه انه جعله عليهم بأن لعنهم بالمسح لاعتدائهم فيه. واختلفهم فيه كان بأن قال بعضهم: هو اعظم الايام حرمة، لانه تعالى فرغ فيه من خلق الاشياء كلها. وقال آخرون: بل الاحد أفضل، لانه ابتدا أخلق الاشياء فيه. وقال مجاهد، وابن زيد: عدلوا عما أمروا به من تعظيم الجمعة. ووجه اتصال هذه الآية بماتقدم أنه لما أمر باتباع الحق، حذر من الاختلاف فيه، بماذكره من حال المختلفين في السبت، بما ليس لهم ان يختلفوا فيه، فشدد عليهم فرضه، وضيق عليهم أمره وقال قوم: معنى " اختلفوا فيه " اي خالفوا فيه، لانهم نهوا عن الصيد فيه فنصبوا الشباك يوم الجمعة، ودخل فيها السمك يوم السبت، فأخذوه يوم الاحد. ثم قال " وان ربك " يامحمد " ليحكم بينهم " أي يفصل بينهم يوم القيامة في الذي كانوا مختلفين فيه، ويبين لهم الصحيح من الفاسد

(٤٣٩)

قوله تعالى:

(أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولنن صبرتم لهو خير للصابرين (١٢٦) واصبر وماصبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون (١٢٧) إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (١٢٨) أربع آيات بلا خلاف.

قرأين كثير وإسماعيل عن نافع " ضيق " بكسر الصاد. الباقون بفتحها، فمن فتح اراد " ضيق " فخفف مثل سيد وسيد، وميت وميت وهين وهين.

ويجوز ان يكون أراد جمع ضيقة كماقال الشاعر:

كشفت الضيقة عنا وفسح.

ومن كسر يجوز أن يجعله لغتين، ويجوز أن يكون الضيق إسما والضيق مصدرا والاختيار ان يقال: الضيق في المكان والمنزل، والضيق في غير ذلك، فان كان كذلك " فالاختيار ولاتك في ضيق " لانه تعالى لم يرد ضيق المعيشة، ولاضيق المنزله. وأصل " ولاتك " ولاتكن، فاستقلوا الضمة على الواو فنقلوها إلى الكاف، فالتقى ساكنان: الواو، والنون، فحذفوا الواو، لالتقاء الساكنين، ومن حذف النون أيضا، فلان النون ضارعت حروف المد واللين، وكثر استعمال (كان يكون) فحذفوها كذلك ألا ترى أنك تقول: لم يكونا. والاصل يكونان فأسقطوا النون بالجزم وشبهوا لم يك في حذف النون بلم يكونا.

أمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يدعو عباده المكلفين بالحكمة، وهو أن

(٤٤٠)

يدعوهم إلى أفعالهم الحسنة التي لها مدخل في استحقاق المدح والثواب عليها، لان القبائح يزرع عنها، ولا يدعو إليها، والمباح لا يدعو إلى فعله، لانه عبث، وإنما يدعو إلى ما هو واجب أو ندى، لانه يستحق بفعله المدح والثواب، والحكمة هي المعرفة بمراتب الافعال في الحسن والقبح والصلاح والفساد. وقيل لها: حكمة، لانها بمنزلة المانع من الفساد، وما لا ينبغي أن يختار، والاصل المنع كما قال جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم * إنني أخاف عليكم أن أغضبا (١)

أي امنعوهم من السفه، والفرق بين الحكمة والعقل: أن العاقل هو العاقد على ما يمنع من الفساد، والحكيم هو العارف بما يمنع من الفساد، الحكمة مشتركة بين المعرفة وبين العقل المستقيم، لان كل واحد منهما ممتنع من الفساد عار منه والقديم تعالى لم يزل حكيمًا بمعني لم يزل عالما، ولا يجوز لم يزل حكيمًا فيما يستحق لاجل الفعل المستقيم، وكل حكمة يكون بتركها مضيا لحق النعمة يجب على المكلف طلبها. معرفة كانت أو فعلا. والموعظة الحسنة. معناه الوعظ الحسن وهو الصرف عن القبيح على وجه الترغيب في تركه والترهيد في فعله. وفي ذلك تليين القلوب بما يوجب الخشوع. وقيل: ان الحكمة النبوة. والموعظة القرآن " وجادلهم بالتى هي أحسن " فالجدال فنل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج " بالتى هي أحسن " وفيه الرفق والوقار والسكينة مع نصرة الحق بالحجة. ثم أخبر " ان ربك " يامحمد " اعلم بمن ضل عن سبيله " بأن عدل عنها و " أعلم من غيره بمن اهتدى إليها وليس عليك غير الدعاء.

وقوله " وان عاقبتهم فعاقبوا " قيل: في سبب نزول هذه الآية قولان:

احدهما - ان المشركين لما مثلوا بقتلى أحد. قال المسلمون: متى اظهرنا الله عليهم لنمثلن بهم اعظم مما مثلوا بنا. ذكره الشعبي وقتادة وعطاء.

(١) مر هذا البيت في ١: ١٤٢، ٢: ١٨٨، ٤: ٤٩٦، ٥: ٥١٢

(٤٤١)

الثاني - قال مجاهد وابن سيرين وابراهيم: انه في كل ظالم بغصب او نحوه. فإنما يجازي بمثل ما عمل وقيل: ان هذه الآية منسوخة بأية القتال، لان هذا قبل ان يؤمروا بالجهاد ثم قال " ولئن صبرتم " اي إن تركتم المجازاة والقصاص وتجرعتم مرارته " لهو خير للصابرين " في العاقبة. ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته معه " واصبر " يامحمد وليس صبرك " إلا بالله " اي إلا بتوفيق الله وإقداره وترغيبه فيه " ولا تحزن عليهم "

يعني على المشركين، لاعراضهم عنك. وقيل المراد لاتحزن على قتلى أحد لما اعطاهم الله من الخير " ولاتك في ضيق مما يمكرون " اي لا يكن صدرك ضيقا مما يمكر به المشرك من الخديعة وغيرها، وما فعلوا بقتلى أحد من المثلى " إن الله مع الذين اتقوا " معاصيه خوفا من عقابه، بالنصر لهم والتأييد، ومع " الذين هم محسنون " في افعالهم، غير فاعلين للقبائح يقذف في قلوب اعدائهم الرعب، خوفا من رسول الله وسراياه

(٤٤٣)

(١٧) سورة الاسراء هي مكية في قول مجاهد وقتادة، وهي مئة واحدة عشرة آية في الكوفي ومئة وعشر آيات في البصري والمدني.

بسم الله الرحمن الرحيم.

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير (١) وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لنبى إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا (٣) ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) (٣) ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو وحده " ألا يتخذوا " بالياء. الباقون بالتاء، والمعنى فيهما قريب، والتقدير، وجعلناه هدى لنبى إسرائيل ألا تتخذوا " وقلنا لهم: لا تتخذوا، كما تقول: قلت لزيد قم، وقلت له ان يقوم. وقال تعالى " قل للذين

(٤٤٤)

كفروا ستغلبون (١) " بالتاء والياء. ومعنى " من دوني وكيلا " أي كافيًا وربا، ونصب " ذرية " على النداء، وهو خطاب لجميع الخلق، لان الخلق كله من نسل نوح من بنيه الثلاثة: حام: وهو ابو السودان، ويافت: وهو أبو البيضان: الروم والترك والصقالبة وغيرهم، وسام: وهو ابو العرب والفرس. وتقديره يا ذرية من حملنا، ووزن " ذرية " فعلية، من الذر، ويجوز ان يكون (فعولة) من الذر واصله (ذروية) فقلبت الواو ياء وادغمت في الياء، قال أبو علي النحوي:

ويجوز ان يكون نصبا على أنه مفعول الاتخاذ لانه فعل يتعدى إلى مفعولين كقوله " واتخذ الله ابراهيم خليلا " (٢) وقال " اتخذوا أيماهم جنة " (٣) وعلى هذا يكون مفعولا ثانيًا على القراءتين، ومتى نصبته على النداء، فانما يتأتى ذلك في قراءة من قرأ بالتاء، والاسهل أن يكون على قراءة من قرأ بالياء، لان الياء للغيبة، والنداء للخطاب، و (أن) في قوله " ألا تتخذوا " يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها أن تكون (أن) الناصبة للفعل، والمعنى جعلناه هدى، كراهة أن تتخذوا، أو لأن لا تتخذوا.

والثاني - أن تكون (أن) بمعنى أي، لأنه بعد كلام تام والتقدير أي لا تتخذوا.
والثالث - أن تكون (أن) زائدة، ويضم القول.

والوكيل لفظه واحد، والمراد به الجمع، لأن معناه حينئذ (فعيلاً) فيكون مفرد اللفظ والمراد به الجمع، نحو قوله " وحسن اولئك رفيقا " (٤). قال أبو عبيد: أهل المدينة يقولون في نصب (سبحان) أنه اسم في موضع مصدر سبحت الله تسبيحا، والتسبيح هو المصدر، وسبحان اسم منه، كقولك كفرت اليمين تكفيرا، أو كفرانا، والتكفير المصدر، الكفران الاسم، قال أمية ابن أبي الصلت:

(١) سورة آل عمران اية ١٢ (٢) سورة ٤ النساء آية ١٢٥ (٣) سورة ٥٨ المجادلة آية ١٦ (٤) سورة النساء آية ٦٩

(٤٤٥)

سبحانه ثم سبحانا يعود له * وقبلنا سبح الجودي والجمد (١)
وقال بعضهم انه يجوز أن يكون نصبا على النداء، يريد: ياسبحان ومعناه:
التنزيه لله والتباعد له من كل ما لا يليق به، والتسبيح يكون بمعنى الصلاة، كقوله " فلولا انه كان من المسبحين (٢) أي من المصلين - ذكره أكثر المفسرين - ومنه السبحة وهي الناقله.
وروي أنه كان ابن عمر يصلي سبحته في موضعه الذي يصلي فيه المكتوبة ويكون بمعنى الاستثناء، كقوله " فلولا تسبحون " أي فلولا لاتستثنون، وهي لغة لبعض أهل اليمن، ولا وجه للكلام غيره، لأنه قال " إنا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنة " إلى قوله " ولايستثنون " ثم " قال: أوسطهم ألم أقل لكم لو لاتسبحون " (٣) فذكرهم تركهم الاستثناء فأما سبحة النور التي دون الله، قال المبرد: لايعرف إلا من الخبر الذي روي (لولا ذلك لاحرقت سبحات وجهه) بمعنى نور وجهه أي الذي إذا رأى الرائي قال سبحان الله.

وقال سيبويه (سبحان) براءة الله من السوء وهذا اسم لهذا المعنى معرفة وقال الاعشى:

أقول لما جاءني فخره * سبحان من علقمة الفاخر (٤)

أي براءة منه ولاينزه بلفظ سبحان غير الله، وإنما ذكره الشاعر نادرا على الاصل واجراه كالمثل في قوله " وان من شئ الا يسبح بحمده " (٥) معناه ليس شئ إلا وفيه دلالة على تنزيه الله مما لا يليق به، وقولهم: سبح تسبيحا أي قال سبحان الله، والسبح في التعظيم الجري فيه. والاسراء سير الليل، اسرى اسراء وسرى سرى لغتان، قال الشاعر:

وليلة ذات جى سریت * ولم يلتني عن سراها لیت (٦)

(١) مر هذا البيت في ٣: ٨٢، ٥: ٥٦٣ (٢) سورة ٣٧ الصافات آية ١٤٣ (٣) سورة ٢٧ القلم اية ١٧ - ٢٩ (٤) ديوانه (دار بيروت) ٩٤ وقد مر في ١: ١٢٤، ٨١، ٥: ٢٤١، ٣٩٥ (٥) سورة ١٧ الاسرى آية ٤٤ (٦) تفسير القرطبي ١٠: ٢٠٥ ورايته (ندى) بدل (دجى) وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٥: ٣، واللسان (ليت) ولم يعرف قائله. والمعنى: سرت في ليلة دجى، ولم يؤخرني، ولا منعتني عن السير مانع.

(٤٤٦)

وقوله " ليلا " معناه بعض الليل، على تقليل وقت الاسراء، ويقوي ذلك قراءة حذيفة، وعبدالله " من الليل " وروت أم هاني بنت ابي طالب: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في منزلها ليلة أسري به. وقال الحسن وقتادة: كان في نفس المسجد الحرام. وروي عن أم هاني أن الحرم كله مسجد. والمسجد الاقصى هو بيت المقدس، وهو مسجد سليمان بن داود - في قول الحسن وغيره من المفسرين - وانما قيل له: الاقصى، لبعد المافة بينه وبين المسجد الحرام. وقال الحسن:

صلى النبي صلى الله عليه وسلم المغرب في المسجد الحرام. ثم أسري به إلى بيت المقدس في ليلة ثم رجع، فصلى الصبح في المسجد الحرام، فلما اخبر به المشركين كذبوا ذلك، وقالوا: يسير مسيرة شهر في ليلة واحدة؟! وجعلوا يسألون عن بيت المقدس وما رأى في طريقه، فوصفه لهم شيئاً شيئاً بما يعرفونه ثم اخبرهم انه رأى في طريقه قعباً مغطاً مملوءاً ماء فشرب الماء كله ثم غلظاه كما كان، ووصف لهم صفة إيل كانت لهم في طريق الشام تحمل المتاع، فقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورك، فقعدو في ذلك اليوم يستقبلونها، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد أشرفت، ولم تأت وقال آخر هذا والله العير يقدمها جمل أورك، كما ذكر محمد، فكان ذلك معجزة له باهرة، ودلالة واضحة لولا العناد، وكان نفس الاسراء حجة له صلى الله عليه وسلم لا انه يحتاج إلى دلالة كغيره، ولذلك قال تعالى " لنريه من آياتنا " فكان الاسراء من جملة الآيات التي تأكد بها يقينه وازدادت به بصيرته، لانه كان قد علم نبوته بما تقدم له من الآيات، فكان هذا على وجه التأكيد لذلك.

وعند أصحابنا وأكثر أصحاب التأويل، وذكره الجبائي ايضاً: انه عرج به في تلك الليلة إلى السماء وأت حتى بلغ سدره المنتهى في السماء السابعة، وراه الله من آيات السموات والارض ما زاد به معرفة ويقينا، وكان ذلك في يقظته دون منامه، والذي يشهد به القرآن الاسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى، والباقي يعلم بالخبر.

وقوله " الذي باركنا حوله " يعني بالثمار ومجاري الانهار، وقيل " باركنا "

(٤٤٧)

حواله بمن جعلنا حوله من الانبياء والصالحين، ولذلك جعله مقدسا. " لنريه من آياتنا " من العجائب التي فيها اعتبار.

وروي أنه كان رأى الانبياء حتى وصفهم واحدا واحدا.

وقوله " إنه هو السميع البصير " اخبار منه تعالى أنه يجب أن يدرك المبصرات والمسموعات اذا وجدت، لانه حي ولايجوز عليه الآفات.

وقوله " وآتينا موسى الكتاب " يعني التوراة " وجعلناه " يعني التوراة التي انزلها " هدى " ودلالة لبني اسرائيل، وقلناهم " لاتتخذوا من دوني وكيفا " أي ربا تتوكلون عليه وكافيا تسندون اموركم اليه وقال مجاهد: معنى " وكيفا " شريكا، قال المبرد: هذا لا شاهد له في اللغة. وقلنا يا " ذرية من حملنا مع نوح " في سفينته وقت الطوفان " انه كان عبدا شكورا " يعني نوحا كان عبدا، كان لله شاكرا له على نعمه.

وروي انه اذا كان اراد أكل طعام أو شراب قال: بسم الله، إذا شبع قال الحمد لله، ومن قال: هونصب على أنه مفعول، فانه قال تقديره لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح وكيفا من دوني.

قوله تعالى:

(وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا (٤) فإذا جاء وعد أولهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا (٥) ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) (٦) ثلاث آيات بلاخلاف.

القضاء على أربعة أقسام: بمعنى الخلق والاحداث، كماقال " فقضاهن سبع

(٤٤٨)

سماوات " (١) وبمعنى فصل الحكم كقوله " والله يقضي بالحق (٢) وبمعنى الامر كقوله " وقضى ربك أن تعبدوا إلا اياه " (٣) وبمعنى الاخبار كقوله " وقضينا إلى بني اسرائيل " اي اخبرناهم واعلمناهم بما يكون من الامر المذكور، من انهم سيفسدون في الارض مرتين، ويعلون علوا كبيرا، اي عظيما اي يتجبرون على عباد الله.

قال ابن عباس وقتادة: المبعوث عليهم في المرة الاولى جالوت إلى ان قتله داود، وكان ملكهم طالوت.

وقال سعيد ابن المسيب: هو بخت نصر، وقال سعيدبن جبير: هو سنحاريب وقال الحسن: هم العمالقة، وكانوا كفارا.

والفساد الذي ذكره: هو قتلهم الناس ظلما وتغلبهم على اموالهم قهرا واخراب ديارهم بغيا.

والآية تدل على ان قضاء الله بالمعاصي هو اخباره انها تكون.
وقوله " فلما جاء وعد أولاهما " يعني وقت فناء آجالهم ووقت عقوباتهم.
والوعد هو الموعدوبه - ههنا - ووضع المصدر موضع المفعول به.
وقوله " بعثنا عليكم عبادا لنا اولي بأس شديد " قيل في معنى (بعثنا)
قولان:

احدهما - قال الحسن: انا خلينا بينهم وبينكم، خاذلين لكم، جزاء على كفركم، ومعاصيكم،
كماقال: " ان ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازا " (٤)
الثاني - قال ابو علي: امرناهم بقتالكم. وقوله " فجاسوا خلال الديار " اي ترددوا وتخللوا بين
الدور، يقال: جست أجوس جوسا وجوسانا، قال حسان:

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١٢ (٢) سورة ٤٠ المؤمن (غافر) آية ٢٠ (٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٢٣
(٤) سورة ١٩ مريم آية ٨٤

(٤٤٩)

ومنا الذي لاقى بسيف محمد * فجاس به الاعداء عرض العساكر (١)
معناه تخللهم قتلا بسيفه، وقيل: الجوس طلب الشئ باستقصاء. وقوله " وكان وعدا مفعولا "
أي كائنا لامحالة على ما أخبرنا به، ثم قال لهم " رددنا لكم الكرة عليهم " يعني الرجعة
والنصرة عليهم " وأمددناكم بأموال وبنين " أي أعانكم وكثرتناكم " وجعلناكم اكثر نفيرا " اي
اكثرت انصارا، ونصبه على التمييز، قال الزجاج: يجوز أن يكون (نفيرا) جمع نفير كعبيد
وضنين ومعين قال الفراء:
زعموا أن رجلا من همدان بعثه الله على بخت نصر، فقتله وعاد الملك إلى بني إسرائيل
فعاشوا.

قوله تعالى:

(إن أحسنتم أحسنتم ل أنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا
المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) (٧) آية بلاخلاف.

قرأ الكسائي " لنسو وجوهكم " بالنون وفتح الواو، كما يقال: لن ندعو، فعلامة النصب فتحة
الواو وقرأ ابن عامر، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم بالياء على واحد " ليسوي " الباقون بالياء
والمدة، وعلامة النصب - ههنا - حذف النون، وإنما مدوا، لتمكين الهمزة، لان كل واو سكنت
وانضم ما قبلها وثبتت بعدها همزة، فلا بد من مد، في كلمة كانت أو كلمتين، نحو " قالوا آمنة "

(٢) وفي

(١) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٥ : ٢١ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٠٢ ولم اجده في ديوان حسان المطبوع في بيروت (دار صادر، دار بيروت). وهو ايضا في تفسير القرطبي ١٠ : ٢١٦ .
(٢) سورة ٢ البقرة اية ١٤ تفسير التبيان ج ٦ م ٢٩

(٤٥٠)

كلمة واحدة نحو " تبوء باثمي " (١) " وتبوء بحمله " وفي قراءة أبي " ليسؤن وجوهكم " بنون خفيفة للتأكيد، كقوله " لنسفعا بالناصية " (٢)
قال أبو علي الفارسي: لما قال " لتفسدن في الارض مرتين " وبين المرة الاولى قال " فإذا جاء وعد الآخرة " أي المرة الآخرة بعثناهم " ليسوعوا وجوهكم " فحذف (بعثناهم) لانه تقدم ذكره، لانه جواب (إذا)، وشرطها يقتضيه، فحذف للدلالة عليه فأما معنى " ليسؤوا " فقال أبو زيد: يقال: سؤته سأة وساءة ومساءة ومسائية وسوأية، وقال " وجوهكم " على أن الوجوه مفعول ل " يسؤوا " وعدي إلى الوجوه، لان الوجوه قد يراد بها ذوو الوجوه كقوله " وكل شئ هالك إلا وجهه " (٣) وقال " وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة " (٤) وقال " ووجوه يومئذ ناضرة " (٥) وقال النابغة:

أقارع عوفا لا أحاول غيرها * وجوه قرود تبتغي من تجادع (٦)

فكان الوجوه إنما خصت بذلك، لانها تدل على ماكان من تغير الوجوه من الناس، من حزن أو مسرة، وبشارة وكآبة.

وحجة من قرأ بالياء والجمع انه أشبه بما قبله ومابعده، لان الذي جاء قبله " بعثنا عليكم رجالا " وبعده " وليدخلوا المسجد " وهو بيت المقدس، والمبعوثون في الحقيقة هم الذين يسؤونهم لقتلهم إياهم وأسرههم لهم، فهو وفق المعنى.

ومن قرأ بالياء والتوحيد، ففاعل " ليسوعوا " أحد شئئين.

أحدهما - أن يكون اسم الله، لان الذي تقدم " بعثنا " ورددنا لكم " و " امددناكم " .

والآخر - ان يكون البعث والوعد، ودل عليه " بعثنا " المتقدم كقوله " لا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم " (٧) اي البخل.

(١) سورة ٥ المائدة اية ٣ (٢) سورة ٩٦ العلق اية ١٥ (٣) سورة ٢٨ القصص اية ٨٨ (٤) سورة ٨٠ عبس اية ٤٠ (٥) سورة ٧٥ القيامة اية ٢٣ (٦) ديوانه (دار بيروت) ٨٠ واللسان (جدع)
(٧) سورة ٣ آل عمران اية ١٨٠

ومن قرأ بالنون كان المعنى كقول من قدر أن الفعل ماتقدم من اسم الله وجاز ان تنسب المساءة إلى الله، وإن كانت من الذين جاسوا خلال الديار في الحقيقة، لانهم فعلوها بقدره لاله وتمكينه، فجاز ان تنسب اليه، كماقال " ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى " (١) ويجوز ان يكون اللام في قوله " ليسؤوا " وليدخلوا " وليتبروا " لام العاقبة، لان الله لا يريد منهم ذلك من حيث كان ذلك ظلما وفسادا.

يقول الله تعالى لخالقه من المكلفين " إن أحسنتم " اي فعلتم الافعال الحسنة من الانعام إلى الغير، والافعال الجميلة التي هي طاعة " أحسنتم لانفسكم "، لان ثواب ذلك، واصل اليكم " وإن أسأتم " إلى الغير وظلمتموه " أسأتم " لانفسكم لان وبال ذلك وعقابه واصل اليكم، وإنما قال " فلها " ليقابل قوله " احسنتم لانفسكم " والمعنى ان اسأتم فإليها، كمايقال: احسن إلى نفسه ليقابل اساء إلى نفسه، على ان حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض اذا تقاربت معانيها، قال تعالى " بأن ربك اوحى لها " (٢) والمعنى اوحى اليها. ومعنى انت في منتهى لاساءة، وانت المختص بالاساءة، متقارب.

" فإذا جاء وعد الآخرة " يعني وعد المرة الآخرة " ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد " يعني المبعوثين عليكم " كمدخلوه " في المرة الاولى يعني غيرهم، لان هؤلاء بأعيانهم لم يدخلوها في الدفعة الاولى " وليتبروا ماعلوا تتبيرا " فالتبار والهالك، والدمار واحد، وكل ما انكسر من الزجاج والحديد والذهب تبر. ومعنى " ماعلوا تتبيرا " ماغلبوا عليه، وجواب (اذا) محذوف وتقديره: فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم. وقيل: بعثناهم ليسؤوا قوله تعالى: (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم

(١) سورة ٨ الانفال اية ١٧ (٢) سورة ٩٩ الزلزال اية ٥

للكافرين حصيرا (٨) إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبيش المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا (٩) وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما (١٠) ثلاث آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وسلم: بأن قل لبني اسرائيل " عسى ربكم أن يرحمكم " إن أقمتم على طاعته وترك معاصيه (وعسى) من الله واجبة، ويجوز ان يكون

بمعنى الابهام على المخاطب. وقوله " وإن عدتم " يعني في معاصي الله، والكفر به ووجد أنبيائه " عدنا " في عذابكم، والتسليط عليكم، كما فعلناه أول مرة، وقال ابن عباس وقتادة: عادوا فبعث الله عليهم المسلمين يذلونهم بالجزية والمحاربة إلى يوم القيامة. قوله " وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا " قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة: محبسا، والحصير الحبس، ويقال للملك حصير، لانه محجوب، قال لبيد:

وقماقم غلب الرقاب كأنهم * جن لدى باب الحصير قيام (١)

وقال الحسن: يعني مهادا، كماقال " لهم من جهنم مهاد " (٢) والحصير البساط المرمول، يحصر بعضه على بعض بذلك الضرب من النسج، ويقال للجنيين: الحصيران، لحصرهما ما أحاطا به من الجوف ومافيه. وفيه لأن بعض أضلاعه حصر مع بعض، يسمى البساط الصغير حصيرا، وحصير بمعنى محصور، كرضي بمعنى مرضي. ثم أخبر تعالى أن هذا القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم " يهدي " أي يدل

(١) ديوانه ٢ / ٣٩ وتفسير القرطبي ١٠ / ٢٢٤ / مجاز القرآن ١ / ٣٧١ وتفسير الطبري ١٥ / ٣ / سمط اللالي

٩٥٥ وروح المعاني ١٥ / ٢١ / الصحاح، والتاج، واللسان (حصر)

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ٤١

(٤٥٣)

" للتي هي أقوم " قال الفراء: لشهادة أن لا إله إلا الله. ويحتمل أن يكون المراد يهدي لجميع سبل الدين، التي هي أصوب من غيرها: من توحيد الله، وعدله، وصدق أنبيائه، والعمل بشريعته، وفعل طاعاته، وتجنب معاصيه " ويبسر؟ المؤمنون " يعني القرآن يبشرهم " بأن لهم أجرا كبيرا " وثوابا عظيما، على طاعتهم، يبشرهم أيضا ب " أن الذين لا يؤمنون بالآخرة " ويجحدون البعث والنشور أعد الله لهم " عذابا أليما " يعني مؤلما موجعا، " واعتدنا " أصله أعددنا فقلبت إحدى الدالين تاء، فرارا من التضعيف إلى حرف من مخرج الدال، وتكون البشارة قد أوقعت على أن لهم الجنة، وأن لعدوهم النار، فلذلك نصب (أن) في الموضعين. ويحتمل أن يكون نصب (أن) الثانية على حذف اللام، والتقدير، لان الذين لا يؤمنون بالآخرة أعددنا لهم عذابا أليما، ولو كسرت على الاستئناف جاز غير أنه لا يقرأ به احد. قوله تعالى:

(ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا (١١) وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا) (١٢) آيتان بلاخلاف.

قبل في معنى قوله " ويدع الانسان " قولان:

أحدهما - مذكره ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد انه يدعو علي نفسه وولده عند غضبه، فيقول: اللهم العنة واغضب عليه وماشبهه، فيمنعه الله، ولو اعطاه لشق عليه.
والثاني - قال قوم: انه يطلب ما هو شر له لتعجيل الانتفاع به مثل دعائه بما هو خير له، ويقوي ذلك قوله " وكان الانسان عجولا " ومعنى قوله " وكان

(٤٥٤)

الانسان عجولا " قال مجاهد: لانه يجعل بالدعاء بما لا يجوز. وقال ابن عباس:

على طبع آدم لما نفخ فيه الروح فبلغت إلى رجليه، قبل ان تجري فيهما، رام النهوض.
العجلة طلب الشيء قبل وقته الذي لا يجوز تقديمه عليه او ليس بأولى فيه والسرعة عمل الشيء في أول وقته الذي هو أولى به.

ثم أخبر أنه تعالى جعل " الليل والنهار آيتين " يريد الشمس والقمر في هذا الموضع - عند قوم - وقال الجبائي: هما الليل والنهار، وهو الظاهر، وهما دليلان على توحيد الله، لان احدا لا يقدر على الايتين بالنهار، ولا على اذهابه والايتين بالليل، وانما يقدر عليه القادر لنفسه الذي لا يتعذر عليه شيء.

ثم اخبر انه جعل احدى الآيتين محوطة وهي الليل اي لا تبصر فيها المرئيات كما لا يبصر ما يحى من الكتاب، وهو من البلاغة العظيمة.

وقال ابن عباس: محو آية الليل السواد الذي في القمر، وروي عن علي (ع)

أنه اللطخة التي في القمر.

وقوله " وجعلنا آية النهار مبصرة " قيل في معناه قولان:

أحدهما - مضيئه للابصار.

الثاني - جعلنا أهله بصرا، فيه كما يقال: رجل مخبث أي أهله خبثاء ورجل مضعف أي أهله ضعفاء، فكذلك النهار مبصرا أي أصحابه بصراء. ثم بين الغرض بذلك، وانما جعله كذلك " لتبتغوا فضلا " أي تطلبوا فضلا من ربكم " وتعلموا عدد السنين والحساب " في مواقيتكم ومعاملاتكم ومعرفة سنينكم وغير ذلك، فيكثر بذلك انتفاعكم " وكل شيء فصلناه تفصيلا " أي ميزنا كل شيء، تمييزا ظاهرا بينا لا يلتبس، وبيناه بيانا لا يخفى.

قوله تعالى:

(وكل إنسان أزمانه طائرته في عنقه ونخرج له يوم القيمة

(٤٥٥)

كتابا يلقيه منشورا (١٣) إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (١٤) من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (١٥) ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ أبو جعفر " ويخرج " بضم الياء، وفتح الراء، وقرأ يعقوب بالياء وفتحها وضم الراء. الباقر بالنون، وضمها، وكسر الراء. واتفقوا على نصب " كتابا " وقرأ ابن عامر وأبو جعفر " يلقيه " بضم الياء، وفتح اللام وتشديد القاف.

الباقر بفتح الياء وسكون اللام وفتح القاف وتخفيفها، ونصب كل انسان بفعل يفسره ألزمناه " وتقديره ألزمنا كل انسان ألزمناه، كما قال " والقمر قدرناه " (١)

فيمن نصب. ومعنى طائره قال ابن عباس، ومجاهد وقتادة: عمله من خير أو شر كالطائر الذي يجئ من ذات اليمين، فيتبرك به، والطائر الذي يجئ من ذات الشمال فيتشاءم به، وطائره عمله. والزام الله طائره في عنقه: الحكم عليه بما يستحقه من ثواب أو عقاب. وقيل: معناه ان يحكم بأن عمله كالطوق في عنقه.

ثم اخبر تعالى أنه يخرج للانسان المكلف يوم القيامة كتابا فيه جميع أفعاله مثبتة ما يستحق عليه ثواب أو عقاب.

وقوله " يلقيه " قرأ ابن عامر يضم الياء وفتح اللام، وتشديد القاف، بمعنى ان الملائكة يستقبلونهم. الباقر بفتح الياء والقاف، بمعنى أنهم يلقونه ويرونه.

فمن قرأ بالتخفيف، فمن لقيت الكتاب، فاذ ضاعفت قلت لقانيه، وقد يتعدى بتضعيف العين إلى مفعولين بعد ان كان متعديا إلى مفعول واحد، فاذا بني للمفعول به نقص مفعول واحد من المفعولين، لان أحدهما يقول مقام الفاعل،

(١) سورة يس آية ٣٩

(٤٥٦)

لاسناد الفعل اليه، فيبقى متعديا إلى مفعول واحد، وعلى هذا قوله " ويلقون فيها تحية وسلاما " (١) وفي البناء للفاعل " ولقاهم نصره وسرورا " (٢) وحكي عن الحسن ومجاهد أنهما قرءا " ويخرج " بفتح الياء وضم الراء، والمعنى يخرج طائره له " كتابا " نصب على التمييز، وقيل في (طائره) أنه عمله. وقيل: أنه حظه، وما قدمه من خير أو شر قال المؤرخ: الطائر العمل، بلغة الانصار، ويكون المعنى على هذا ويخرج؟ عمله له كتابا أي ذا كتاب، ومعناه أنه مثبت في الكتاب الذي قال فيه " لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها " (٣) وقال " هاؤم اقرؤا كتابيه " (٤) وانما قيل لعمله طائره - وطيره في بعض القراءات - على تعارف العرب،

يقولون: جرى طائرهم بكذا، ومثله قوله " قالوا طائرهم معكم " (٥) وقوله " انما طائرهم عندالله " (٦) وقال ابو زيد: مامر من طائر أو ظبي أو غيره، كل ذلك عندهم طائر، قال ابو زيد: قولهم: سألت الطير، وقلت للطير، انما هو زجر، وقولهم زجرني الطباء والطير معناه وقع زجري عليهما، على كذا وكذا، من خير أو شر، ومنه قول الكميت: ولا أنا ممن يزجر الطير همه * أصاح عزاب أو تعرض ثعلب (٧) وقال حسان:

ذريني وعلمي بالامور وشيمتي * فمطائري فيها عليك بأخيلا (٨)
اي ليس رأيي بمشوم، وقال كثير:

أقول إذا ما الطير مرت مخيلة * لعلك يوما فانتظر ان تتالها (٩)
معنى مخيلة مكروهة من الاخيل، ومعنى " في عنقه " لزوم ذلك له وتعلقه

(١) سورة الفرقان آية ٧٥ (٢) سورة الدهر آية ١١ (٣) سورة الكهف آية ٥٠ (٤) سورة الحاقة آية ١٩ (٥) سورة يس آية ٣٦ (٦) سورة الاعراف ١٣١ (٧) امالي الشريف المرتضى ١: ٦٧ ومجمع البيان ٣: ٤٠٣ (٨) ديوانه ٢٠٦ واللسان (خيل) ومجمع البيان ٣: ٤٠٣ (٩) مجمع البيان ٣: ٤٠٣

(٤٥٧)

به، ومثله قولهم: طوقتك كذا، وقلدتك كذا اي الزمته اياك ومثله، قلده السلطان كذا، اي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة، وإنما خص إلزام الطائر بالعنق، لانه إضافة مايزين من طوق، او مايشين من عمل يضاف إلى الاعناق، ولان في عرف الناس ان يقولوا: هذا في رقبتك. وقد يضاف العمل إلى اليد ايضا كماقال " ذلك بما قدمت ايديكم " (١) وإن كان كسبه بفرجه ولسانه، وغير ذلك، وإنما يذم بذلك على وجه التقريع والتبكييت بما فعله من المعاصي، ويكون في العلم بذلك لطف في دار الدنيا، وان كان الله عالما بتفصيل ما فعلوه.

وقوله " كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا " اي حسبك نفسك اليوم حاكما عليك في عملك وماتستحقه من ثواب على الطاعة ومن عقاب على المعصية، لانه أنصفك من جعلك حسيبا على نفسك بعملك. وقيل معنى " حسيبا " شاهدا وشهيدا.

وقوله " من اهتدى " يعني فعل الخيرات والطاعات وانتفع بهداية الله اياه " فإنما يهتدي لنفسه " وأن ثواب ذلك واصل اليه " ومن ضل " اي جار عن الحق وعدل عن الصواب وارتكب المعاصي " فإنما يضل عليها " اي يجوز عليها لان عقاب ذلك ووباله واصل اليه، لان الله تعالى قال " لاتزر وازرة وزر أخرى " اي لا يأخذ احدا بذنب غيره، والوزر الاثم، وقيل معناه لايجوز لاحد أن يعمل الاثم، لان غيره عمله، والاول أقوى.

وقوله " وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا " اخبار من الله أنه لا يعاقب احدا على معاصيه، حتى يستظهر عليه بالحجج وانفاذ الرسل ينبهونه على الحق، ويهدونه اليه ويرشدونه إلى سلوكه، استظهارا في الحجة، لانه اذا اجتمع داعي القعل وداعي السمع إلى الحق، تأكد الامر وزال الريب فيما يلزم العبد، وليس في ذلك دلالة على انه لولم يبعث رسولا لم يحسن منه ان يعاقب اذا ارتكب العبد

(١) سورة آل عمران آية ١٨٢

(٤٥٨)

القبائح العقلية، اللهم إلا أن يفرض أن في بعثه الرسول لطفًا، فإنه لا يحسن من الله تعالى مع ذلك أن يعاقب احدا إلا بعد أن يعرفه ماهو لطف له ومصلحة لتزاح علتة. وقيل: معناه " وماكنا معذبين " بعذاب الاستئصال والاهلاك في الدنيا " حتى نبعث رسولا ". وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة: من ان الله يعذب اطفال الكفار بكفر آبائهم، لانه بين أنه لا يأخذ احدا بجرم غيره.
قوله تعالى:

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) (١٦) آية بلاخلاف.

قرأ يعقوب " أمرنا " بمد الهمزة. وعن الحسن " أمرنا " بالتشديد، وروي عنه " أمرنا " بكسر الميم خفيفة وهي ردية.
ذكر في هذه الآية وجوه أربعة:

أحدها - ان مجرد الاهلاك لا يدل على أنه حسن أو قبيح، بل يمكن وقوعه على كل واحد من الامرين، فإذا كان واقعا على وجه الظلم، كما قبيحا، وإذا كان واقعا على وجه الاستحقاق أو على وجه الامتحان، كان حسنا، فتعلق الارادة به لا يقتضى تعلقها على الوجه القبيح. وإذا علمنا أن القديم لا يفعل القبيح، علمنا أن إرادته الاهلاك على الوجه الحسن.

وقوله " أمرنا مترفيها المأمور به محذوف، وليس يجب أن يكون المأمور به هو الفسق وان وقع بعده الفسق، بل لا يمتنع أن يكون التقدير: وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرناهم بالطاعة، ففسقوا فيها فحق عليها القول، وجرى ذلك مجرى قولهم: أمرته فعصى ودعوته فأبى، والمراد أمرته بالطاعة ودعوته إلى الاجابة والقبول، فعصى.

(٤٥٩)

فإن قيل: أي معنى لتقدم الإرادة؟ فإن كانت متعلقة بإهلاك يستحق بغير الفسق المذكور في الآية، فلامعنى لقوله " إذا أردنا.. أمرنا "، لأن أمره بما يأمر به لا يحسن إرادته للعقاب المستحق بما تقدم من الأفعال، وإن كانت الإرادة متعلقة بالاهلاك المستحق بمخالفة الأمر المذكور في الآية، فهو الذي تأبونه، لأنه يقتضي أنه تعالى مرید لاهلاك من لم يستحق العقاب !! .

قلنا: لم تتعلق الإرادة إلا بالاهلاك المستحق بما تقدم من الذنوب، وإنما حسن قوله " إذا أردنا.. أمرنا " أن في تكرار الأمر بالطاعة بالایمان إعدارا للعصاة وإنذارا لهم وإيجابا للحجة عليهم، ويقوي ذلك قوله قبل هذه الآية " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " منبها بذلك أنه أراد إثبات الحجة وتكررها عليهم الثاني - أن يكون قوله " أمرنا مترفيها " من صفة القرية وصلتها، ولا يكون جوابا لقوله " وإذا أردنا " ويكون تقدير الكلام: وإذا أردنا أن نهلك قرية من صفتها أنا " أمرنا مترفيها ففسقوا فيها " ولا يكون ل (إذا) جواب ظاهر في اللفظ، للاستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة عليه، ومثله قوله " حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم " إلى قوله " فنعم أجر العاملين " (١) ولم يأت ل (إذا) جواب في طول الكلام للاستغناء عنه، وقال الهذلي:

حتى إذا أسلكوهم في قنائة * شلا كما يطرد الجمالة الشردا (٢)

فحذف جواب (إذا) ولم يأت به، لأن هذا البيت آخر القصيدة.

الثالث - أن يكون الكلام على التقديم والتأخير، وتقديره إذا أمرنا مترفي قرية بالطاعة، فعصوا، واستحقوا العقاب، أردنا إهلاكهم، ويشهد بهذا التأويل قوله " يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم " (٣) فالطهارة إنما

(١) سورة الزمر آية ٧٣ - ٧٤ (٢) تفسير روح المعاني ١٥: ٣ وقدمر في ١: ١٢٨، ١٤٩ (٣) سورة ه المائدة آية ٦

(٤٦٠)

تجب قبل القيام إلى الصلاة. ومثله قوله " وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتنم طائفة منهم معك " (١) وقيام الطائفة معه يجب أن يكون قبل إقامة الصلاة لأن إقامتها هو الاتيان بجميعها على الكمال. ومثله قوله " ما إن مفاتحه لتتوء بالعصبة أولي القوة " (٢) والتقدير ما إن مفاتحه لتتوء بها العصبة أي يتقلون بها، ومثله قول الشاعر:

ذعرت القطا ونفيت عنه * مقام الذئب كالرجل اللعين (٣)

أراد مقام الذئب اللعين، وقد فصلوا بين المضاف والمضاف إليه قال الشاعر:

بين ذراعي وجبهة الاسد (٤)

اراد بين ذراعي الاسد وجبته.

والرابع - أن يكون ذكر الارادة في الآية مجازا واتساعا وتبنيها على المعلوم من حال القوم وعاقبة أمرهم، وأنهم متى أمروا فسقوا وخالفوا، وجرى ذلك مجرى قولهم: إذا أراد التاجر أن يفتر أنته النوائب من كل وجه، وجاء الخسران من كل طريق، وإذا اراد العليل ان يموت خلط في مأكله، ومعلوم ان احدا ممن ذكرناه لم يرد ذلك، لكن لماكان المعلوم من حال هذا الخسران، ومن حال ذاك الهلاك، حسن هذا الكلام، وكان أفصح وأبلغ، لمافيه من الاستعارة والمجاز الذي لا يكون الكلام بليغا من دونهما. ويكون تلخيص الكلام: إذا اردنا اهلاك قرية كقوله " جدارا يريد ان ينقض " (٥) أمرناهم بالطاعة، ففسقوا فيها، فحق عليها القول. وانما خص المترفون بذكر الامر، لانهم الرؤوساء الذين من عداهم تبع لهم، كما أمر فرعون ومن عداه تبع له من القبط. ومن حملة على ان المراد به أكثرنا قال: لان الامر بالطاعة ليس بمقصور على المترفين، بل هو عام لجميعهم، فلذلك شدد الميم أو مد الهمزة.

(١) سورة ٤ النساء اية ١٠٢ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٧٦ (٣) مر هذا البيت في ١: ٣٤٣، ٢: ٤٧ (٤) تفسير الطبري ١٥: ٣٤ (الطبعة الاولى)
(٥) سورة ١٨ الكهف آية ٧٧

(٤٦١)

وانما قال " ففسقوا فيها " ولم يقل: فكفروا، لان المراد فتمردوا في كفرهم لان الفسوق في الكفر الخروج إلى افحشه، فكأنه قال ففسقوا بالخروج عن الامر إلى الكفر. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: المعنى أمرناهم بالطاعة، ففسقوا، ومثله امرتك فعصيتني. ومن قرأ " أمرنا مترفيها " بتشديد الميم من التأمير بمعنى التسليط، وقد يكون بمعنى أكثرنا. ويجوز ان يكون المعنى أكثرنا عددهم أو مالهم، وقرئ (أمرنا) ممدودا، والمعنى اكثرنا مترفيها، وإنما قيل في الكثرة أمر القوم، لانهم يحتاجون إلى أمير يأمرهم وينهاهم، فقد أمروا لذلك، قال ليبيد:

ان يغبطوا يهبطوا وان أمروا * يوما يصيروا للهلاك والفند (١)

وروى والكند وقال بعضهم أمرنا بمعنى أكثرنا، وقال ابو عمرو: ولا يكون من هذا المعنى (أمرنا) قال ابو عبيد: يدل على هذه اللغة قولهم: سكة مأبورة ومهرة مأمورة، أي كثيرة الولد. ومن قال بالاول قال هذا لمكان الازدواج، كماقالوا الغدايا والعشايا، والغداء لايجمع على غدايا، ولكن قيل ذلك ليزدوج الكلام مع قولهم: العشايا، وقال قوم: يقال أمر الشئ وأمرته اي

كثير وكثرته لغتان، مثل رجع ورجعته. والمشهور الاول. وإنما تعدى اما بالتضعيف او الهزمة، وإذا كان مخففا فهو من الامر الذي هو خلاف النهي، على ما بيناه. وقال المبرد: " أمرنا " خفيفة بمعنى اكثرنا، وروى الجرمي: فعلت وأفعلت (٢) - عن ابي زيد بمعنى واحد، قال وقرأته على الاصمعي. و " دمرنا " معناه أهلكنا، والدمار الهلاك.

(١) تفسير الطبري ١٥: ٦١ والشوكاني (الفتح القدير) ٣: ٢٠٧ ولكن الكذب والفند. الهلاك.

(٢) هذا مافي المخطوطة، وكان في المطبوعة (ثقلت واثقلت).

(٤٦٢)

قوله تعالى:

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا (١٧) من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانثاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا (١٨) ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) (١٩) ثلاث آيات بلاخلاف.

اخبر الله تعالى بأنه اهلك من القرون من بعدنوح، أما كثيرة، لان " كم " يفيد التكثر ضد (رب) الذي يفيد التقليل، (والقرن) قيل: مئة وعشرون سنة - في قول عبدالله ابن أبي أو في وقال محمد بن القاسم المازني: هو مئة سنة، وقال قوم: هو اربعون سنة. وادخلت الباء في قوله " كفى بربك " للمدح: كما تقول: ناهيك به رجلا، وجاد بثوبك ثوبا، وطاب بطعامك طعاما واکرم به رجلا، وكل ذلك في موضع رفع، كما قال الشاعر:

ويخبرني عن غائب المرء هديه * كفى الهدى عما غيب المرؤ مخبرا (١)

فرفع لما اسقط الباء. والمعنى: كفى ربك عالما وحسيبا بذنوب عباده بصيرا بها، ثم قال " من كان يريد " المنافع " العاجلة " في الدنيا عجلنا له فيها " يعني في الدنيا القدر الذي نريده لمن نريد، لا على قدر ما يريدون، لان ما يريدونه ربما كانت فيه مفسدة، لايجوز إعطاؤهم إياه، ثم بين انه إذا اعطاهم ما طلبوه عاجلا جعل لهم جهنم جزاء، على معاصيهم وكفرهم يصلونها مذمومين مدحورين، اي في حال ذمنا إياهم، يقال: ذمته، وذمته، وذمته بمعنى واحد

(١) مجمع البيان ٣: ٤٠٧ وتفسير الطبري ١٥: ٤٢

(٤٦٣)

فهو مذموم ومذموم، يكون ذامته اي طردته، فهو مذموم. و " مدحورا " اي متباعدة من رحمة الله دحرته أدره دحرا اي باعدته.

ثم قال " ومن أراد الآخرة " اي خير الآخرة، ثواب الجنة " وسعى لها سعيها " بأن فعل الطاعات وتجنب المعاصي، وهو مع ذلك مؤمن مصدق بتوحيد الله ومقر بأنبيائه، فإن أولئك يكون " سعيهم مشكورا " اي تكون طاعاتهم مقبولة. وقال قتادة: شكر الله حسناتهم، وتجاوز عن سيئاتهم. والمعنى أحلهم محلايشكر عليه في حسن الجزاء كما قال: " من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا " (١).

قوله تعالى:

(كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا (٢٠) أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (٢١) لاتجعل مع الله إليها آخر فتقعد مذموما مخذولا (٢٢) ثلاث آيات بلا خلاف.

قوله " كلا نمد هؤلاء وهؤلاء " نصب (كلا) ب " نمد و (وهؤلاء) بدل منه والمعنى إنا نعطي البر والفاجر، والمؤمن والكافر في الدنيا. واما الآخرة فللمتقين خاصة " وما كان عطاء ربك محظورا " اي لم يكن عطاء الله ممنوعا، ثم قال لنبيه والمراد به أمته معه " انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض " بأن جعلنا بعضهم اغنياء، وبعضهم فقراء، وبعضهم موالى، وبعضهم عبيدا، وبعضهم اصحاء وبعضهم مرضى، بحسب ما علمنا من مصالحهم. ثم قال " وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا " لانهم معطون على مقدار طاعتهم، فمن كان كثير الطاعة.

(١) سورة البقره اية ٢٤٥

(٤٦٤)

حصلت له الدرجات العالية من الثواب. وإنما اراد يبين أن التفاضل في الدنيا إذا كان يتنافس عليه، فالتفاضل في الجنة أولى بن يرغب فيه.

ثم قال لنبيه والمراد به أمته " لاتجعل مع الله إليها آخر " توجه إليه عبادتك وتستدعي الحوائج من قبله فإنك إن فعلت ذلك قعدت مذموما مخذولا، وإذا كان الخطاب عاماماكان التقدير، فلا تجعل ايها الانسان مع الله إليها آخر. ونصب

" فتقعد " لانه جواب النهي.

قوله تعالى:

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً (٢٣) واخفص لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) (٢٤) آيتان بلا خلاف.

قرا حمزة والكسائي وخلف " يبلغان " بألف وكسر النون على التنثية. الباقرن يبلغن على الوحدة. وقرأ ابن كثير، وابن عباس، ويعقوب " اف " بفتح الفاء من غير تنوين. وقرأ اهل المدينة وحفص بكسر الفاء مع التنوين. الباقرن بكسر الفاء من غير تنوين، ومثله في الاحقاف.

قال ابو علي الفارسي قوله " احدهما " مرتفع بالفعل، وقوله " او كلاهما " معطوف عليه، والذكر الذي عاد من قوله " احدهما " يغني عن إثبات علامة الضمير في يبلغن)، فلا وجه لمن قال: إ الوجه إثبات الالف، لتقدم ذكر الوالدين.

ويجوز ان يكون رفع (احدهما) على البديل من الضمير في (بيلغان) ويجوز ان يرفعه بفعل مجدد على تقدير إما يبلغان عندك الكبر. يبلغ احدهما او كلاهما،

(٤٦٥)

ويكون رفعا على السؤال والتفسير كقوله " واسروا النجوى الذين ظلموا " (١) ومن اثبت الالف، فعلى وجه التأكيد، ولولم يذكر لم يخل بالكلام نحو قوله " اموات غير أحياء " (٢) فقوله " غير أحياء " توكيد، لان قوله " اموات " دل عليه " قال: وقول ابن كثير (أف) يبني الفاء على الفتح، لانه وان كان في الاصل مصدرا من قولهم (أفه وتفه) يراد به نتنا وذفرا، لقد سمي الفعل به فبني، وهذا في البناء على الفتح كقولهم (سرعان ذا إهالة) لما سار اسما ل (سرع)، فكذلك (أف) لما كان اسما (كره)، ومثله ريدا، في أنه سمي به الفعل، فبني ولم يلحق التنوين إلا ان هذا للامر والنهي، واف في الخبر. وقول نافع في البناء على الكسر مع التنوين، مثل (أف) في البناء على الفتح: إلا أنه بدخول التنوين دل على التتكير مثل إيه ومه وصه، ومثله قولهم صه، فبنوه على الكسر، وإن كان في الاصل مصدرا، كما كان (أف) في الاصل كذلك، ومن كسر ولم ينون جعله معرفة، فلم ينون، كما أن من قال: صه وضاف، فلم ينون اراد به المعرفة.

وموضع (أف) على اختلاف القراءات موضع الجمل، مثل (رويد) في أن موضعه موضع الجمل وكذلك لو قلت: هذا فدا (٣) قال أبو الحسن. وقول من قال (اف) اكثر وأجود ولوجاء (أفا لك) أحتمل أمرين: احدهما - أن يكون الذي صار إسما للفعل لحقه التنوين لعلامة التتكير. والآخر أن يكون نصبا معربا، وكذلك الضمير، فإن لم يكن معه لك

كان ضعيفا، كما انك لاتقول ويل حتى تقرن به لك، فيكون في موضع الخبر و (أف) كلمة
يكنى بهاعن الكلام.

القبيح ومايتأفف به، لان التف وسخ الظفر و (الاف) وسخ الاذن. وقيل التف كل ما رفعت
بيدك من حقير من الارض، وقيل معنى الاف الثوم، وقيل

(١) سورة ٢١ الانبياء اية ٣ (٢) سورة ١٦ النحل اية ٢١ (٣) في المخطوطة (هذا قفا) ونسخة اخرى (هذا فداء
لك) وقد تركنا مافي المطبوع على حاله فلم نغير فيه شئ.

تفسير التبيان ج ٦ م ٣٠

(٤٦٦)

الشر، وقد جرى مجرى الاصوات، فزال عنه الاعراب مثل (صه) ومعناه اسكت، ومه ومعناه
كف وهيئات هيهات اي بعيد بعيد، فاذا نونت أردت النكرة أي سكونا وقبحا، واذالم تتون
أردت المعرفة. وإنما جاز تحريك الفاء بالضم والفتح والكسر، لان حركتها ليست حركة
إعراب، وانماهي حركة التقاء الساكنين فتفتح لخرة الفتحة، وتضم اتباعا للضم قبله، وقيل تضم
تشبيها بقبل وبعد وتكسر على أصل حركة التقاء الساكنين.

وفي (أف) سبع لغات: أف واف واف وافاوا في مماله، وزاد ابن الانباري بسكون الفاء.
وروي عن الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد (ع) انه قال (لو علم الله لفظ أوجز في ترك
عقوق الوالدين من (أف) لاتي به). فان قيل هل اباح الله أن يقال لهما أف قبل أن يبلغا الكبر؟
قلنا: لا، لان الله أوجب على الولد إطاعة الوالدين على كل حال. وحظر عليه أذاهما وإنما
خص الكبر، لان وقت كبر الوالدين مما يضطر فيه الوالدان إلى الخدمة اذاكانا محتاجين عند
الكبر، وفي المثل يقال فلان أبر من النسر، لان النسر إذاكبر ولم ينهض للطيران جاء الفرخ
فزقه، كما كان أبواه يزقانه، ومثله قوله " ويكلم الناس في المهدي وكهلا " (١) والوجه في قوله
" وكهلا " مع ان الناس يكلمون كلهم حال الكهولة ان الله اخبر أن عيسى يكلم في المهدي
أعجوبة وأخبر أنه يعيش حتى يكتهل ويتكلم بعد الكهولة، ونحوه قوله " والامر يومئذ لله " (٢)
وانما خص ذلك اليوم بأن الامر لله، لان في الدنيا مع أنه يملك، قد ملك اقواما جعلهم ملوكا
وخلفاء، وذلك اليوم لايملك سواه.

معنى قوله " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه " أمر، في قول ابن عباس والحسن وقتادة وابن
زيد. فإن قيل: الامر لا يكون أمرا بالألا يكون الشئ، لانه يقتضي إرادة المأمور به، والارادة
لا تتعلق بالألا يكون الشئ، وإنما تتعلق بحدوث الشئ.

قلنا: المعنى انه كره ربكم عبادة غيره وأراد منكم عبادته على وجه الاخلاص

(١) سورة ٣ ال عمران اية ٤٦ (٢) سورة ٨٢ الانفطار اية ١٩

(٤٦٧)

وسمى ذلك أمرا ب " أن لا تعبدوا إلا إياه " لان معناهما واحد. وقوله " وبالوالدين احسانا " العامل في الباء يحتمل شيئين: أحدهما - وقضى بالوالدين إحسانا. والثاني - وأوصى، وحذف لدلالة الكلام عليه، والمعنى متقارب، والعرب تقول: أمر به خيرا وأوصى به خيرا، وقال الشاعر:

عجبت من دهماء إذ تشكونا * ومن أبي دهماء إذ يوصينا

خيرا بها كأننا جافونا (١)

فأعمل " يوصينا " في الخير، كما أعمل في الاحسان. وقوله " إما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما " معناه متى بلغ واحد منهما أوهما الكبر " فلاتقل لهما أف " أي لاتؤذهما بقليل ولاكثير " ولانتهرهما " أي لاتزجرهما بإغلاظ وصياح يقال: نهره ينهره نهرا، وانتهره انتهره إذا أغلظ له " وقل لهما قولا كريما " أي شريفا تكرمهما به. وتوقرهما " واخفض لهما جناح الذل " أي تواضع لهما واخضع لهما.

وقرأ سعيد بن جبير " الذل " بكسر الذا والذال والذلة مصدر الذليل، والذل مصدر الذلول، مثل الدابة والارض تقول: جمل ذلول، ودابة ذلول " وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا " أي ادع لهما بالمغفرة والرحمة كما ربياك في حال صغرك. وقال قوم الاستغفار لهما منسوخ إذا كانا مشركين بقوله " ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين " (٢). وقال البلخي: الآية تختص بالمسلمين.

قوله تعالى:

(ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٤٤ (الطبعة الاولى)

(٢) سورة ٩ التوبة آية ١١٤

(٤٦٨)

للاوابين غفورا (٢٥) وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيرا (٢٦) إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا (٢٧) ثلاث آيات.

يقول الله تعالى مخاطبا للمكلفين من عباده إنه أعلم بهم، ومعناه إن معلوماته أكثر من معلوماتكم، وقد يقال: أعلم بمعنى أثبت فيما به يعلم، فيجئ من هذا إن الله تعالى أعلم بأن الجسم حادث من الانسان العالم به. وكذلك كل شئ يمكن ان يعلم على وجوه متغايرة، فالله تعالى عالم به على تلك الوجوه وإن خفي على الواحد منا بعضها.

ومعنى " بمافي نفوسكم " اي بما تضررونه وتخفونه عن غيركم، فالله أعلم به منكم، وفي ذلك غاية التهديد. ثم قال " ان تكونوا صالحين " اي تفعلون الافعال الصالحة الحسنة الجميلة، فان الله " كان للاوابين غفورا " معنى " الاوابين " التوابين وهم الذين يتوبون مرة بعد مرة - في قول سعيد بن المسيب - كلما أذنب ذنبا بادر بالتوبة. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: الاواب هو الراجع عن ذنبه بالتوبة. وأصله الرجوع يقال: آب يؤوب أوبا إذا رجع من سفره، قال عبيد بن الابصر.

وكل ذي غيبة يؤب * وغائب الموت لا يؤب (١)

ثم قال " وآت ذا القربى حقه " وهو أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ان يعطي ذوي القربى حقوقهم النبي جعلها الله لهم، فروي عن ابن عباس والحسن: انهم قرابة الانسان. وقال على بن الحسين (ع): هم قرابة الرسول، وهو الذي رواه ايضا اصحابنا. وروي انه لما نزلت هذه الآية استدعى النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة (ع) وأعطها فدكا وسلمه اليها، وكان وكلاؤها فيها طول حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما مضى النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٦ وتفسير الطبري ١٥ : ٤٨

(٤٦٩)

أخذها ابوبكر، ودفعها عن النحلة. والقصة في ذلك مشهورة، فلما لم يقبل بينتها، ولاقبل دعوها طالبت بالميراث، لان من له الحق إذا منع منه من وجه جاز له ان يتوصل اليه بوجه آخر، فقال لها: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (نحن معاشر الانبياء لانورث ماتركناه صدقة) فمنعها الميراث أيضا وكلامهما في ذلك مشهور، لانطول بذكره الكتاب.

وقوله " والمسكين وابن السبيل " أي واعطوا هؤلاء أيضا حقوقهم التي جعلها الله لهم من الزكوات وغير ذلك. ثم نهاهم عن التبذير بقوله " ولاتبذر تبذيرا " والتبذير التفريق بالاسراف. وقال عبدالله: التبذير إنفاق المال في غير حقه، وهو قول ابن عباس وقتادة. وقال مجاهد لو انفق مدا في باطل كان تبذيرا.

ثم قال " إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين " وقيل في معناه قولان.

احدهما - إن الشيطان أخوهم باتباعهم آثاره وجريهم على سنته.

والثاني - انهم يقرون بالشيطان في النار. ثم أخبر عن حال الشيطان بأنه كفور لنعم الله تعالى وجاحد لآلائه.

قوله تعالى:

(وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا (٢٨) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك. ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا (٢٩) إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) (٣٠)
ثلاث آيات بلاخلاف.

(٤٧٠)

يقول الله تعالى " وإما تعرضن " وتقديره، وإن تعرض و (ما) زيادة.

والمعنى: ومتى ماصرفت وجهك عنهم، يعني عن الذين أمروا بإعطائهم حقوقهم ممن تقدم ذكره، لأنه قد تعرض عند عوز ماطلبوه، لئيتغي الفضل من الله، والسعة التي يمكنه معها البذل، والتقدير وإذا أتتك قرابتك أو سواهم من المحتاجين يسألونك فأعرضت عنهم لأنه لا شيء عندك، فقل لهم قولا حسنا، أي عدهم عدا جميلة. والاعراض صرف الوجه عن الشيء، وقد يكون عن قلى وقد يكون للاشتغال بما هو الاولى، وقد يكون لاذلال الجاهل مع صرف الوجه عنه، كما قال " واعرض عن الجاهلين " (١) وقوله " ابتغاء رحمة من ربك ترجوها " والابتغاء الطلب. وقوله " ترجوها معناه تأملها، والرجاء تعلق النفس بطلب الخير ممن يجوز منه، ومن يقدر على كل خير وصرف كل شر، فهو أحق بأن يرجا، ولذلك قال أمير المؤمنين (ع) (ألا لا يرجون احدكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه).

وقوله: " وقل لهم قولا ميسورا " المعنى إذا عرضت ابتغاء رزق من ربك، فقل لهم قولا لينا سهلا، مثل: زقنا الله تعالى، وهو قول الحسن ومجاهد وابراهيم وغيرهم. وقال ابن زيد: تعرض عنهم إذا خشيت أن ينفقوا بالعطية على معاصي الله، فيكون تبتغي رحمة من الله لهم بالتوبة، وأصل التيسير التسهيل، واليسر خلاف العسر، وقد يكون التيسير بالتقليل، فيسهل عليه لقلته، ويكون بمنزلة المعونة على عمله.

ثم قال تعالى " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك " أي لا تكن ممن لا يعطي شيئا ولا يهب، فتكون بمنزلة من يده مغلولة إلى عنقه، لا يقدر على الاعطاء وذلك مبالغة في النهي عن الشح والامساك " ولا تبسطها كل البسط " أي ولا تعط ايضا جميع ما عندك، فتكون بمنزلة من بسط يده حتى لا يستقر فيها شيء وذلك كناية عن الاسراف. وقوله " فتقعد ملوما محسورا " معناه إن امسكت

(٤٧١)

قعدت ملوما عند العقلاء مذموما، وإن اسرفت بقيت محسورا، أي مغموما متحسرا، وأصل الحسر الكشف من قولهم، حسر عن ذراعيه يحسر حسرا، إذا كشف عنهما. والحسرة الغم لانحسار مافات، ودابة حسير إذا كلت لشدة السير، لانحسار قوتها بالكلال. وكذلك قوله " ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير " (١) والمحسور المنقطع به لذهاب مافي يده، وانحساره انقطاعه عنه، قال الهذلي:

إن العسير بها داء مخامرها * فشطرها نظر العينين محسور (٢)

ثم قال " إن ربك " يامحمد " يبسط الرزق لمن يشاء " فيوسعه عليه على حسب مايعلم له من المصلحة فيه " ويقدر " أي يضيق عليه لعلمه بمافييه من الصلاح، كماقال " ولوبسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض (٣) " وقوله " انه كان بعباده خبيرا بصيرا " أي وهو عالم بأحوالهم، لا يخفى عليه ما يصلحهم، وما يفسدهم، فيفعل معهم بحسب ذلك.

قوله تعالى:

(ولانقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا (٣١) ولاتقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا (٣٢) ولانقتلوا النفس التي حرم الله الإباحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا) (٣٣) ثلاث آيات.

(١) سورة ٦٧ الملك (تبارك) اية ٤ (٢) الشاعر هوقيس بن خويلد الهذلي، الكامل ١٠٩، ١٠٠، واللسان والتاج (حسن)

(شطر) ومجاز القرآن ١: ٣٧٥ (٣) سورة ٤٢ الشورى اية ٢٧

(٤٧٢)

قرأبن كثير " خطأ " بكسر الخاء وبألف بعد الطاء ممدودا. وقرأ أبو جعفر وابن ذكوان - بفتح الخاء والطاء - من غير ألف بعدها وبغير مد.

الباقون بكسر الخاء من غير مد، إلا ان الداجوني عن هشام روى وجهين:

أحدهما - مثل أبي عمرو، والآخر - مثل أبي جعفر. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما " فلاتسرف " بالتاء. الباقون بالياء. قال ابو علي الفارسي: قول ابن كثير (خطأ) يجوز ان يكون مصدر خاطأ، ان لم يسمع (خاطأ) ولكن قد جاء مايدل عليه، لان ابا عبيدة انشد:

تخاطأت النبل أحشأه (١)

وانشدنا محمد بن السدي في وصف كماًة:
 وأسعث قد ناولته أحرس القرى * أدرت عليه المدجنات الهواضب
 تخاطاه القناص حتى وجدته * وخرطومه من منقع الماء راسب (٢)
 فتخاطأت مما يدل على خطأ، لان (تفاعل) مطاوع (فاعل) كما ان (تفعل) مطاوع فعل، وقول
 ابن عامر (خطأ)، فان اخطأ مالم يتعمد، وماكان المأثم فيه موضوعا عن فاعله، وقد قالوا:
 اخطأ في معنى خطئ، كما ان خطئ في معنى اخطأ، قال الشاعر:
 عبادك يخطئون وأنت رب * كريم لاتليق بك الذموم (٣)
 فحوى الكلام أنهم خاطئون، وفي التنزيل " لاتؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا " فالمؤاخذة من
 المخطئ موضوعة، فهذا يدل على ان اخطأ في قوله:
 يالهدف هند إذ خطئن كاهلا (٤)

(١) تفسير القرطبي ١٠: ٢٥٣ واللسان " خطئ " وعجزه:
 و آخر يوم فلم اعجل " ٢ " تفسير القرطبي ١٠: ٢٥٣ وتفسير روح المعاني ١٥: ٦٧ (٣) اللسان " خطا " (٤) قائله
 امرؤ القيس: ديوانه " الطبعة الرابعة " ١٧٥ واللسان " خطأ ". وهو مطلع رجز قاله عند ماغار على بني اسد لما
 نزلوا على بني كنانة وبعده:
 تالله لا يذهب شيخي باطلا * حتى ابير مالك وكاهلا
 القاتلين الملك الحلا حلا

(٤٧٣)

وفي قول آخر:
 والناس يلحون الامير اذا هم * خطئوا الصواب ولايلام المرشد (١)
 اي اخطؤه، وكذلك قول ابن عامر (خطأ) في معنى أخطأ، وجاء الخطأ في معنى الخطاء،
 كما جاء خطئ في معنى اخطأ. وقال ابوالحسن: هذا خطأ من رايك، فيمكن أن يكون خطأ لغة
 فيه أيضا. ومن قرأ " خطأ " فلانه يقال خطئ يخطأ خطأ إذا تعمد الشئ حكاه الاصمعي،
 والفاعل منه خاطئ، وقد جاء الوعيد فيه في قوله " لا يأكله إلا الخاطئون " (٢) ويجوز أن
 يكون الخطأ لغة في الخطأ مثل المثل والمثل، والشبه والشبهه، والبدل والبدل، قال الفراء:
 لغتان مثل قنتب وتقب، بدل وبدل، وحكى ابن دريد عن أبي حاتم، قال تقول:
 مكان مخطو فيه من خطئت ومكان مخطأ فيه من اخطأ يخطئ، ومكان مخطو بغير همزة من
 تخطى الناس فيخطئ، ومن همزه تخطيت الناس، ففقد غلط وقال المبرد: خطأه وخطاه بمعنى،
 عند ابي عبيدة والفراء والكسائي، إلا ان (الخطأ) بكسر الخاء أكثر في القرآن (والخطأ) بالفتح
 افشى في كلام الناس ولم يسمع الكثير في شئ من اشعارهم الا في بيت قاله الشاعر:

الخطأ فاحشة والبر فاضلة * كعجوة غرست في الارض توبير (٣)
قال ابو عبيد: وفيه لغتان، خطئت وأخطأت، فمن قال: خطئت قال خطأ الرجل يخطأ خطأ،
وخطاء، يكون الخطأ بفتح الخاء هو المصدر، وبكسرهما الاسم. ومن قال اخطأت كان الخطأ
بالفتح والكسر، جميعا اسمين والمصدر الاخطاء.
وقال أبو علي: قوله " فلايسرف في القتل " فاعل يسرف يجوز أن يكون أحد شيئين:
أحدهما - أن يكون القاتل الاول، فيكون التقدير فلا يسرف القاتل في القتل

(١) قائله عبيد ابن الابرص. ديوانه " دار بيروت " ٥٨ وروايته (إذا غوى خطب)
وقد مر في ٢: ٣٨٧.

(٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٣٧ (٣) تفسير الطبري ١٥: ٥٤

(٤٧٤)

وجاز أن يضمر، وإن لم يجر له ذكر، لان الحال تدل عليه، ويكون تقديره بالاسراف جاريا
مجري قوله في أكل مال اليتيم " ولاتأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا " (١) وإن لم يجر أن
تأكل منه لاعلى الاقتصاد ولا على غيره، لقوله " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما
يأكلون في بطونهم نارا " (٢) فحظر أكل مال اليتيم حظرا عاما وعلى كل حال، فكذا
لايتمتع أن يقال للقاتل الاول لاتسرف في القتل، لانه يكون بقتله مسرفا، ويؤكد ذلك قوله "
ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم " (٣) فالقاتل داخل في هذا الخطاب - بلاخلاف - مع
جميع مرتكبي الكبائر، ويكون الضمير على هذا في قوله " انه كان منصورا " على قوله "
ومن قتل مظلوما " (وتقديره، فلا يسرف القاتل الاول بقتله في القتل، لان من قتل مظلوما كان
منصورا) (٤) بأن يقتص له وليه أو السلطان إن لم يكن له ولي غيره، فيكون هذا ردعا للقاتل
عن القتل، كما أن قوله " ولكم في القصاص حياة " (٥) كذلك، فالولي إذا اقتص، فإنما يقتص
للمقتول، ومنه انتقل إلى الولي بدلالة أن المقتول يبرئ من السبب المؤدي إلى القتل، ولم يكن
للولي أن يقتص، ولو صالح الولي من العمد - على مال كان - للمقتول أن يؤديه منه دينا
عليه أن يقتص منه دون المقتول، ولايتمتع أن يقال في المقتول منصور، لانه قد جاء قوله "
ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا "

والآخر - أن يكون في يسرف ضمير الولي، وتقديره فلايسرف الولي في القتل، وإسرافه فيه
أن يقتل غير من قتل او يقتل اكثر من قاتل وليه، لان مشركي العرب كانوا يفعلون ذلك،
والتقدير فلايسرف في القتل ان الولي كان منصورا بقتل قاتل وليه. والاقتصاص منه.

ومن قرأ بالتاء احتمل ايضا وجهين:

(١) سورة ٤ النساء اية ٥ (٢) سورة النساء ٩ (٣) سورة الزمر آية ٥٣ (٤) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة (٥) سورة البقرة اية ١٧٩

(٤٧٥)

احدهما - ان يكون المستثنى القاتل ظلما، فقبل له لانسرف ايها الانسان فقتل ظلما من ليس لك قتله، اذ من قتل مظلوما كان منصورا بأخذ القصاص له.

والآخر - ان يكون الخطاب للولي، والتقدير لانسرف في القتل ايها الولي فتتعدى قاتل وليك إلى من لم يقتله، لان المقتول ظلما كما منصورا، وكل واحد من المقتول ظلما ومن ولي المقتول قد تقدم في قوله " ومن قتل مظلوما " الآية.

وقوله " ولاتقتلوا " يحتمل موضعه شيئين من الاعراب:

احدهما - ان يكون نصبا ب " قضى ربك ان لاتعبدوا إلا اياه.. ولاتقتلوا " ويحتمل ان يكون جزما على النهي، فيكون الله تعالى نهى الخلق عن قتل اولادهم خشية الاملاق.

و (الاملاق) الفقر، وهو قول ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وانما نهاهم عن ذلك لانهم كانوا يئدون البنات بدفنهم احياء فنهاهم الله عن ذلك.

وقوله " نحن نرزقهم واياكم " إخبار منه تعالى انه الذي يرزق الاولادو الآباء فلا ينبغي قتلهم خوف الفقر، واخبر ان قتلهم في الجاهلية " كان خطأ كبيرا " وهو الان خطأ وإثم كبير، ثم قال " ولاتقربوا الزنى " ومعناه لاتزنوا، والزنا هو وطؤ المرأة حراما بلا عقد ولاشبهة عقد مختارا، ثم اخبر ان الزنا فاحشة اي معصية كبيرة " وساء سبيلا " اي بنس الطريق ذلك. وفي الناس من قال:

الزنا قبيح بالعقل لما في ذلك من ابطال حق الولد على الوالد، وفساد الانساب.

وقوله " ولاتقتلوا النفس التي حرم الله " نهى من الله تعالى عن قتل النفوس المحرم قتلها، واستثنى من ذلك من يجب عليه القتل إما لكفره، اوردته، او قتله قصاصا، فان قتله كذلك حق، وليس بظلم، وقد فسرنا تمام الآية.

والسلطان الذي جعله الله للولي، قال ابن عباس، والضحاك: هو القود أو الدية او العفو. وقال قتادة الهاء في قوله " انه كان منصورا " عائدة على الولي. وقال مجاهد عائدة على المقتول. ونصرة الله له بذلك حكمه له بذلك. وقيل نصرة النبي والمؤمنين، ان يعينوه وقيل الولي هم الوراث من الرجال من الاولاد الذكور ومن الاقارب من كان من قبل الاب.

(٤٧٦)

قوله تعالى:

(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً (٣٤) وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً (٣٥) ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) (٣٦) ثلاث آيات قرأ أهل الكوفة إلا أبابكر عن عاصم " بالقسطاس " بكسر القاف. الباكون بالضم، وهما لغتان. وقال الزجاج: القسطاس هو الميزان صغر أو كبر. وقال الحسن: هو القبان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية وهو القرصطون. وقال قوم: هو الشاهين. وقرأ أبوبكر عن عاصم " بالقسطاس " بالصاد قلبت السين صاداً مثل (صراط، وسراط) لقرب مخرجهما. في الآية الأولى نهى من الله تعالى لجميع المكلفين أن يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وهو أن يحفظوا عليه ويثمروه أو ينفقوا عليه بالمعروف على ما لا يشك أنه أصلح له، فأما لغير ذلك، فلا يجوز لأحد التصرف فيه. وإنما خص اليتيم بذلك وإن كان التصرف في مال البالغ بغير إذنه لا يجوز أيضاً، لأن اليتيم إلى ذلك أحوج والطمع في مثله أكثر. وقوله " حتى يبلغ أشده قال قوم: حتى يبلغ ثمانية عشرة سنة. وقال آخرون: حتى يبلغ الحلم. وقال آخرون - وهو الصحيح - حتى يبلغ كما العقل ويؤنس منه الرشد. وقوله " وأوفوا بالعهد " أمر من الله تعالى بالوفاء بالعهود، وهو العقد الذي يقدم للتوثق من الأمر، ومتى عقد عاقد على ما لا يجوز، فعليه نقض ذلك العقد

(٤٧٧)

الفاقد والتبرؤ منه. وإنما يجب الوفاء بالعقد الذي يحسن. وقيل المعنى في الآية أوفوا بالعهد في الوصية بمال اليتيم وغيرها. وقيل كل ما أمر الله به ونهى عنه، فهو من العهد، وقد يجب الشيء للنذر، وللعهد، والوعد به، وإن لم يجب ابتداءً، وإنما يجب عند العقد. وقوله " إن العهد كان مسؤولاً " قيل في معناه قولان:

أحدهما - أنه كان مسؤولاً عنه للجزاء عليه، فحذف (عنه) لأنه مفهوم والثاني - كأن العهد يسأل فيقال له: لم نقضت؟ كمتسأل المؤددة بأي ذنب قتلت ثم أمرهم أن يوفوهم الكيل إذا كالواهم، ولا يبخسوهم ولا ينقصوهم، وإن يوفوا، بالميزان المستقيم الذي لا غبن فيه، فإن ذلك خير وأحسن تأويلاً، أي أحسن عاقبة، وهو ما يرجع إليه أمره. ثم نهى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقفو ما ليس له به علم، وهو متوجه إلى جميع المكلفين، ومعناه لا تقل: سمعت، ولم تسمع، ولا رأيت ولا علمت، ولم تر، ولم تعلم - في قول قتادة - وأصل القفو اتباع الأثر، ومنه القيافة، وكأنه يتبع قفا الأثر المتقدم قال الشاعر:

ومثل الدمى سم العرانيين ساكن * بهن الحيا لا يشعن النفاقيا (١)

أي التقاذف. وقال أبو عبيد والمبرد: القفو العضية، " ولا تقف " بضم القاف وسكون الفاء - من قاف يقوف، ويكون من المقلوب مثل جذب وجذب. " ومسؤولا " نصب على أنه خبر كان.

واستدل بهذه الآية، على أنه لا يجوز العمل بالقياس ولا بالخبر الواحد، لانهما لا يوجبان العلم، وقد نهى الله تعالى أن يتبع الإنسان ما لا يعلمه. وقوله " ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا " أي يسأل عما يفعل بهذه الجوارح من الاستماع لما لا يحل، والابصار لما لا يجوز. والارادة لما يقبح. وإنما قال " كل أولئك " ولم يقل كل ذلك، لان أولئك وهؤلاء للجمع القليل من المذكر والمؤنث فإذا أراد الكثير جاء بالتأنيث. فقال: هذه وتلك، قال الشاعر:

(١) قائله النابغة الجعدي. شواهد الكشاف ٣٢٧ وتفسير الطبري ١٥ / ٥٨ ومجاز القرآن ١ / ٣٧٩

(٤٧٨)

ذم المنازل بعدمنزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الايام (١)
قوله تعالى:

(ولا تمش في الارض مرحا إنك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا (٣٧) كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها (٣٨) ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا) (٣٩) ثلاث آيات.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع " سئ " منونا غير مضاف. الباقرن على الاضافة فمن قرأ على الاضافة قال: لانه قد تقدم ذكر حسن وسئ في قوله " وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا " فخص من ذلك السئ بأنه مكروه عندالله، لانه تعالى لا يكره الحسن، وقروا ذلك بقراءة أبي " كان سيئاته " بالجمع مضافا. وقال آخرون إنما أراد بذلك المنهي عنه فقط، وقالوا: ليس فيما نهى الله تعالى عنه حسن بل جميعه مكروه، " وكل " وإن كان لفظه لفظ الواحد فمعناه معنى الجميع، فلذلك قال كان بلفظ الواحد. ومثله قوله " وكل أتوه داخرين " (٢) وقال " ان كل من في السموات والارض إلا آتى الرحمن عبدا " (٣) و (مكروها) على هذه القراءة نصب على الحال من الضمير في " عند ربك " أو يكون بدلا من قوله " سيئته " .

وفي ذلك دلالة على بطلان مذهب المجبرة من أن الله تعالى يريد المعاصي، لان هذه الآية صريحة بأن السئ من الافعال مكروه عند الله.

(١) تفسير القرطبي ١٠ / ٢٦٠ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ / ٢١٩ وروح المعاني ١٥ : ٧٤ (٢) سورة ٢٧ النمل آية ٨٧ (٣) سورة ١٩ مريم آية ٩٤

(٤٧٩)

وقوله " ولاتمش في الارض مرحا " نهى للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به الاممة أن يمشوا في الارض مرحين.

وقيل في معنى المرح أربعة أقوال: اولها - انه البطر والاشتر. والثاني - التبخر في المشي والتكبر. الثالث - تجاوز الانسان قدره مستخفا بالواجب عليه والرابع - شدة الفرح بالباطل. وقول " انك لن تخرق الارض " مثل ضربه الله بانك يا إنسان لن تخرق الارض من تحت قدمك بكبرك " ولن تبلغ الجبال " بتناولك. والمعنى انك لن تبلغ بما تريد كثير مبلغ، كما لايمكنك ان تبلغ هذا، فما وجه المكابرة على ما هذه سبيله مع زجر الحكمة عنه. وأصل الخرق القطع، خرق الثوب تخريفا أي قطعة ورجل خرق أي يقطع الامور التي لاينبغي ان يقطعها. والخرق الفلاة، لانقطاع اطرافها بتباعدها قال رؤبة:

وقائم الاعماق خاو المخترق * مشتبه الاعلام لماع الخفق (١)

أي خاو المنقطع، والمرح شدة الفرح، مرح يمرح مرحا، فهو مرح. وقال قتادة: مرحا خيلاء وكبرا. وقوله " ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة " أي ذلك الذي ذكرناه وقصصناه من جملة ما اوحى اليك يا محمد ربك من الحكمة أي الدلائل التي تؤدي إلي المعرفة بالحسن والقبيح، والفرق بينهما، والواجب مما لايجب، وذلك كله مبين في القرآن، فهو الحكمة البالغة. ثم نهاه ان يتخذ مع الله معبودا آخر يشركه في العبادة مع الله، فانك متى فعلت ذلك ألقيت في " جهنم ملوما " أي مذموما " مدحورا " مطرودا - في قول ابن عباس. قوله تعالى:

(أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون

(١) ديوانه ١٠٨ وقد مر قسم من هذا الرجز في ١ : ٢٩٦ وفي ٤ : ٢٩٧

(٤٨٠)

قولا عظيما (٤٠) ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعلموا وما يزيدهم إلا نفورا (٤١) قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا (٤٢) ثلاث آيات بلاخلاف.

الالف في " أفأصفاكم " ألف استفهام، والمراد بها الإنكار لانه لا جواب لمن سئل إلا بما فيه أعظم الفضيحة، وفي ذلك تعليم سؤال المخالفين للحق، وهذا خطاب لمن جعل الله بنات، وقال الملائكة بنات الله، فقال الله تعالى لهم:

أأخلص لكم البنين واختار لكم صفوة الشئىء دونه؟ وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه، فاختصكم بالارفع وجعل لنفسه الادون؟! ! ثم أخبر أنهم يقولون في ذلك " قولا عظيما " أي عظيم الوبال والوزر.

وقوله " لقد صرفنا في هذا القرآن ليتذكروا " وقرأ حمزة والكسائي في جميع القرآن خفيفا، من ذكر يذكر. والباقون بالتشديد في جميع القرآن بمعنى ليتذكروا، فادعموا التاء في الذا. وفي ذلك دلالة على بطلان مذهب المجبرة لانه أراد التصريف في القرآن، ليذكر المشركون مايردهم إلى الحق، وهذا مما علقت الارادة الفعل فيه بالمعنى من التذكر. ولولاها لم يتعلق. ثم اخبر انه وان اراد منهم الايمان والهداية بتصريف القرآن لا يزدادون هم إلا نفورا عنه فان قيل كيف يجوز أن يفعل تعالى مايزدادون عنده الكفر؟ وهل ذلك الا استفساد ومنع اللطف؟! قلنا: ليس في ذلك منع اللطف، بل فيه إظهار الدلائل، مما لا يصح التكليف إلا معه ولولم تظهر الدلائل، لازدادوا فسادا بأعظم من هذا الفساد، وفي إظهار الدلائل صلاح لمن نظر فيها وأحسن التدبر لها. وإنما جاز أن يزدادوا بما يؤنس من الدلائل نفورا، باعتقادهم أنها حيل وشبه، فنفروا منها أشد النفور لهذا الاعتقاد الفاسد، ومنعهم ذلك من التدبر لها وادراك منزلتها في عظم الفائدة، وجلالة المنزلة.

(٤٨١)

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم " قل " يا محمد لهؤلاء المشركين " لو كان مع الله آلهة " أخرى كما يزعمون " لا تبغوا " ما يقربهم اليه لعلوه عليهم وعظمتهم عندهم - في قول قتادة والزجاج - وقال الحسن والجبائي: لا تبغوا سبيلا إلى مغالبتة ومضادته، كما قال " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " (١) قوله تعالى:

(سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا (٤٣) تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا (٤٤) وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) (٤٥) ثلاث آيات بلاخلاف.

قرأ أهل العراق إلا أبابكر " تسبح " بالتاء. وقرأ ابن كثير وحفص " عما يقولون " بالياء. وقرأ أهل الكوفة إلا أبابكر " عما تقولون " بالتاء.

قال ابو علي: فمن قرأ " عما يقولون " بالياء فالمعنى على ما يقول المشركون. ومن قرأ بالتاء
يحتمل شيئين:

احدهما - أن يعطف على قوله " كما تقولون " كما عطف قوله " يحشرون " على " ستغلبون ".
والثاني - ان يكون نزه نفسه عن دعواهم، فقال " سبحانه عما يقولون ". وقرأ عاصم ونافع
وابن عامر وابن عباس: بالياء عطف على ماتقدم. وقوله " عما يقولون "

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٢٢ تفسير التبيان ج ٦ م ٣١

(٤٨٢)

على أنه نزه نفسه عن قولهم أو على معنى قل لهم سبحانه عما يقولون فأما قوله " يسبح " بالياء
والتاء، فحسنان. وقد بينا في غير موضع معناه، ويقوي التأييد قراءة عبد الله فسبحت له
السموات.

لما اخبر الله تعالى أنه " لو كان معه آلهة " سواه على ما يدعيه المشركون " لبيتخوا إلى ذي
العرش سبيلا " ونزه نفسه عن ذلك، فقال " سبحانه " ويحتمل أن يكون أمر نبيه أن يقول "
سبحانه " أي تنزيها له تعالى " عما يقولون " أي عن قولهم، ويجوز ان يكون المراد عن الذي
يقولونه من الاقوال الشنيعة فيه بأن معه آلهة " علوا كبيرا " وإنما لم يقل تعاليا، لانه وضع
مصدرا مكان مصدر نحو " وتبتل اليه تبتيلا " (١) ومعنى " تعالى " اي صفاته في أعلى
المراتب، فانه لا مساوي له فيها، لانه قادر، ولأحد أقدر منه، وعالم لا أحد أعلم منه، ولا
مساوي له في ذلك.

ثم أخبر أنه " يسبح له " اي ينزهه عن ذلك " السموات السبع والارض ومن فيهن " يعني في
السموات والارض من العقلاء، وتنزيه السموات والارض هو ما فيهما من الدلالة على توحيده
وعدله، وأنه لا يشركه في الالهية سواه. وجرى ذلك مجرى التسبيح باللفظ، وتسبيح العقلاء
يحتمل ذلك: تسبيحهم باللفظ، غير أن ذلك يختص بالموحدين منهم دون المشركين.

وقوله " وإن من شيء إلا يسبح بحمده " اي ليس شيء من الموجودات إلا يسبح بحمد الله، يعني
كل شيء يسبح بحمده، من جهة خلقته، او معنى صفته اذ كل موجود سوى القديم تعالى حادث،
يدعو إلى تعظيمه لحاجته إلى صانع غير مصنوع، صنعه أو صنع من صنعه، فهو يدعو إلى
تثبيت قديم غني بنفسه عن كل شيء سواه، لا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات، وماعده
الحادث يدل على تعظيمه بمعنى حدثه من معدوم لا يصح الابيه، لدخوله في مقدوره او مقدور

(٤٨٣)

مقدوره ومما سبّحه من يسبح بحمده من جهته، معنى صفة في قوله، فهو على العموم في كل شيء.

وقال بعضهم: سل الأرض من شق أنهارك؟ وغرس أشجارك؟ وجنى ثمارك؟ فان لم تجيبك حوارا أجابتك اعتبار.

وقال الحسن: المعنى وإن من شيء من الأحياء إلا يسبح بحمده. وقال علي ابن ابراهيم وغيره من اهل العلم: كل شيء على العموم يسبح بحمده حتى صرير الباب.

وقوله " ولكن لاتفقهون تسبيحهم " اي لستم تفقهون تسبيح هذه الاشياء، من حيث لم تتظنوا فيها، فتعلموا كيفية دلالتها على توحيده.

وقوله " إنه " كان حلّيا غفورا " اي كن حلّيا حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على كفركم، وأمهلكم إلى يوم القيامة، وستره عليكم، لأنه ستر على عباده، غفور لهم إذ تابوا وأنابوا اليه.

وقوله " وإذا قرأت القرآن " خطاب لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم انه متى قرأ القرآن " جعلنا بينك " يامحمد " وبين " المشركين " حجابا مستورا " اي كأن بينك وبينهم حجابا من أن يدركوا مافيه من الحكمة وينتفعوا به. وقيل: " مستورا " عن أبصار الناس. وقيل " مستورا " - ههنا - بمعنى ساترا عن إدراكه، كما يقال: مشؤم عليهم أو ميمون في موضع شائم ويامن، لأنه من شؤمهم ويمنهم.

والاول أظهر وقيل قوله " وجعلنا بينك " وبينهم " حجابا مستورا " نزل في قوم كانوا يأذونه باللسان إذا تلا القرآن، فحال الله بينهم وبينه حتى لا يؤذوه.

والاول - قول قتادة: والثاني - قول ابو علي، والزجاج. وقال الحسن: معناه إن منزلتهم فيما أعرضوا عنه منزلة من بينك وبينه حجاب.

قوله تعالى:

(وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا

(٤٨٤)

ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أديبارهم نفورا (٤٦)

نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا " (٤٧) أنظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) (٤٨)

ثلاث آيات.

معنى قوله " وجعلنا على قلوبهم أكنة " أي حكمنا بأنهم بهذه المنزلة ذما لهم على الامتناع من تفهم الحق، والاستماع اليه، لتأمل معانيه، مع الاعراض عنه عداوة له ونفورا منه. وقال الجبائي: إنه تعالى منعهم من ذلك وحال بينهم وبينه في وقت مخصوص، لئلا يؤذوا النبي صلى الله عليه وسلم وإنما قال " وجعلنا " ولم يقل وجعلناهم " على قلوبهم أكنة " لانه ابلغ في الذم مع قيام الدليل من جهة التكليف أنه ليس على جهة المنع، ونمالم يجز المنع والحيلولة بينهم وبين ان يفقهوه، لان ذلك تكليف مالا يطاق، وذلك قبيح لا يجوز ان يفعله الله تعالى، على انه لا يصح ان يريد تعالى ما يستحيل حدوثه، وإنما يصح ان يراد ما يصح ان يحدث اويتوهم ذلك منه، لان استحالة صارفة عن ان يراد، ولاداع يصح أن يدعو إلى ارادته، وتجري استحالة ذلك مجرى استحالة ان يريد كون الشئ موجودا معدوما في حال واحده.

(والاكنة) جمع كنان، وهو ما ستر. وقوله " وفي آذانهم وقرا " أي وجعلنا في آذانهم وقرا. (والوقر) - بفتح الواو - الثقل في الاذن، وبالكسر الحمل. والاصل فيه الثقل إلا انه خولف بين البنائين للفرق.

وقوله " وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده " يعني إذا ذكرته بالتوحيد وانه لا شريك له في الالهية " ولوا " عنك ولم يسمعوه " على ادبارهم نفورا " نافرين عنك. وقال بعضهم: إذا سمعوا بسم الله الرحمن الرحيم ولوا. ثم اخبر تعالى عن نفسه انه " اعلم " من غيره " بما يستمعون اليك " في حال ما " يستمعون اليك " اي يصغون إلى سماع قراءتك ويعلم أي شئ غرضهم فيه

(٤٨٥)

وقوله: " وإذ هم نجوى " معناه اذ يتناجون بأن يرفع كل واحد سره إلى الآخر، ووصفوا بالمصدر، لان نجوى مصدر، ونجواهم زعمهم انه مجنون، وانه ساحر وانه اتى بأساطير الاولين - في قول قتادة - وكان من جملتهم الوليد بن المغيرة وقوله " إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا " قيل في معناه قولان:

أحدهما - إنكم ليس تتبعون إلا رجلا قد سحر، فاختلط عليه أمره، يقولون ذلك للتنفير عنه، كما يقال: سحر فلان، فهو مسحور إذ اختلط عقله. وقيل " مسحورا " أي مصروفا عن الحق، يقال: ماسحرك عن كذا؟ أي ماصرفك.

الثاني - ان له سحرا أي رئة، لا يستغني عن الطعام والشراب، فهو مثلكم. والعرب تقول للجبان: انتفخ سحره قال ألبيد:

فان تسلينا فيم نحن فإننا * عصافير من هذا الانام المسحر (١)

وقال آخر:

ونسحر بالطعام وبالشراب (٢)

وقيل: إن " نفورا " جمع نافر، كقاعد وقعود، وشاهد وشهود، وجالس وجلوس. وقيل: مسحور معناه مخدوع. ومعنى الآية البيان عما يوجبه حال الجاحد للحق المعادي لاهله وذمه بأن قلبه كأنه في أكنة عن تفهمه، وكأن في أذنيه وقرا عن استماعه فهومول على دبره، نافر عنه بجهله ينجي بالانحراف عنه جهالا مثله، قد تعبوا بالحجة حتى نسبوا صاحبها إلى أنه مسحور، لمالم يكن إلى مقاومة مأتى به سبيل، ولاعلى كسره دليل.

(١) ديوانه ٨٠ / ١ وتفسير القرطبي ٢٧٢ / ١٠ ومجاز القرآن ١ / ٣٨١ وتفسير الطبري ١٥ / ٦٣ واللسان (سحر) وروح المعاني ١٥ : ٩٠ وقد مر في ١ : ٣٧٢ (٢) قائله امرؤ القيس. ديوانه (الطبعة الرابعة) ٦٣ القصيدة ٣ وهو مطلعها. وتفسير القرطبي ١٠ : ٢٧٣ ومجاز القرآن ١ : ٣٨٢ واللسان (سحر) وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٢٣ وتفسير روح المعاني ١٥ : ٩٠ وغيرها، وقد مر في ١ : ٣٧٢، ٥ : ٢٦٨ من هذا الكتاب، وصدده:
ارانا موضعين لامر غيب

(٤٨٦)

وقوله " انظر " أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن ينظر " كيف ضربوا لك الامثال " أي كيف ضرب هؤلاء المشركون له المثل بالمسحور وغير ذلك، فجاروا بذلك عن طريق الحق، فلا يسهل عليهم ولايخف الرجوع اليه ولااتباع سبيل الدين، ويحتمل أن يكون المعنى إنهم لايقدرّون على تكذيبك، وإن ماذكروه فيك من قولهم مسحور وكذاب صرفهم ولا يستطيعون على ذلك.

قوله تعالى:

(وقالوا إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا (٤٩) قل كونوا حجارة أو حديدا (٥٠) أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا) (٥١) ثلاث آيات بلاخلاف.

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين أنكروا البعث، والنشور، والثواب والعقاب: أنهم يقولون " إذا كنا عظاما " أي إذا متنا وأنتثرت لحومنا وبقينا " عظاما ورفاتا " قال مجاهد: الرفات التراب. وبه قال الفراء وقال: لاواحد له من لفظه، وهو بمنزلة الدقاق، والحطام، قال المبرد: كل شئ مدقوق مبالغ في دقه حتى انسحق، فهورفات، يقال: رفت رفتا، فهو مرفوت إذا صير كالحطام.

و (إذا) في موضع نصب بفعل يدل عليه " لمبعوثون " وتقديره أنبعث " إذا كنا عظاما. ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا " وصورته صورة الاستفهام وإنما هم منكرون لذلك متعجبون منه وكل ماتحطم وترضض يجئ أكثره على (فعال) مثل (حطام، ورضاض ودقاق وغبار وتراب)) والخلق الجديد: هو المجدد أي يبعثهم الله أحياء بعد أن كانوا أمواتا، أنكروا ذلك وتعجبوا منه، فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم " قل " لهم " كونوا حجارة أو حديدا " أي لم كنتم حجارة أو حديدا

(٤٨٧)

بعد موتكم لأحياءكم وحشركم ولم تفوتوا الله، إلا أنه خرج مخرج الامر، لأنه أبلغ في الالزام، كأن أكثر ما يكون منهم مطلوب حتى يروا أنه هين حقير " أو خلقا مما يكبر في صدوركم " فقيل في معناه ثلاثة أقوال:

قال مجاهد: السموات والارض والجال. وقال قتادة: أي شئ استعظموه من الخلق. وقال ابن عباس. وسعيد بن جبير والفراء: انه الموت. قال الفراء قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أرأيت لو كنا الموت من كان يميئتا؟! فأنزل الله " او خلقا مما يكبر في صدوركم " يعني الموت نفسه اي ليبعث الله عليكم من يميئتم ثم يحييكم.

" فسيفولون من يعيدنا " اخبا رمنه حكاية عن هؤلاء الكفار انهم يقولون من يعيدنا احياء؟ فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم " قل الذي فطركم اول مرة " اي الذي خلقكم ابتداء يقدر على إعادتكم، لان ابتداء الشئ اصعب من إعادته، كما قال " وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه " (١) وقال لما قالوا " من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم " (٢) وإنما قال لهم ذلك، لانهم كانوا يقرون بالانشأة الاولى.

وقوله " فسينغضون اليك رؤوسهم " معناه انهم إذا سمعوا لهذا حركوا رؤوسهم مستبعبدين لذلك. وقال ابن عباس يحركون رؤوسهم مستهزئين، يقال:

انغضت رأسي انغضه انغاضا، ونغض براسه ينغض نغضا إذا حركه والنغض تحريك الراس بارتفاع وانخفاض. ومنه قيل للظلم نغض، لانه يحرك رأسه في مشيه بارتفاع وانخفاض قال العجاج:

اصك نغضا لايني مستهدجا (٣)

ونغضت سنه إذا تحركت من اصلها قال الراجز:

ونغضت من هرم اسنانها (٤)

- (١) سورة ٣٠ الروم آية ٢٧ (٢) سورة ٣٦ يس آية ٧٩ (٣) تفسير الطبري ١٥ : ٦٥ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٢٦
(٤) تفسير الطبري ١٥ / ٦٥ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٢٦ وتفسير القرطبي ١٠ : ٢٧٤ ومجاز القرآن ١ : ٣٨٢

وقال آخر:

لما رأته أنغضت لي الرأس (١)

" ويقولون " هؤلاء الكفار " متى هو " يعنون بعثهم وإعادتهم أحياء فقال الله تعالى " قل " لهم يامحمد " عسى ان يكون قريبا " وعسى من الله واجبة، وكل ما هو آت قريب، ومن كلام الحسن انه قال: كأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تنزل.

قوله تعالى:

(يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا (٥٢) وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا (٥٣) ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا) (٥٤) ثلاث آيات بلاخلاف. " يوم " يتعلق بقوله " قل عسى ان يكون " بعثكم ايها المشركون " قريبا يوم يدعوكم " وقيل في معني قوله " يوم يدعوكم " قولان:

احدهما - انهم ينادون بالخروج إلى ارض المحشر بكلام تسمعه جميع العباد، وذلك يكون بعد ان يحييهم الله، لانه لا يحسن ان ينادى المعدوم والالجماد. الثاني - انهم يسمعون صيحة عظيمة، فتكون تلك داعية لهم إلى الاجتماع إلى ارض القيامة، ويجوز أن يكون ذلك عبارة عن البعث ويكون اجري صرخة ثانية

(١) مجاز القرآن ١: ٣٨٢ وتفسير الطبري ١: ٦٥٥ والشوكاني ٣: ٢٢٦

بسرعة فأجرى مجرى، دعي فأجاب في الحال " فيستجيبون بحمده " قيل في معناه قولان:

احدهما - تستجيبون حامدين، كما يقول القائل: جاء فلان بغضبه اي جاء غضبان.

الثاني - تستجيبون على ما يقتضيه الحمد لله (عزوجل)، وقيل: معناه يستجيبون معترفين بأن الحمد لله على نعمه، لا ينكرونه، لان معارفهم هناك ضرورة قال الشاعر:

فإني بحمد الله لاثوب فاجر * لبست ولامن غدره اتقنع (١)

والاستجابة موافقة الداعي فيمادعا اليه بفعله من اجل دعائه، وهي والاجابة واحدة إلا ان الاستجابة تقتضي طلب الموافقة بالارادة بأوكد من الاجابة.

وقوله " وتظنون إن لبثتم إلا قليلا " قيل في معناه قولان:

احدهما - انهم لما يرون من سرعة الرجوع يظنون قلة اللبث.

الثاني - انه يراد بذلك تقريب الوقت، كما حكي عن الحسن انه قال: كأنك بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل. وقال قتادة: المعنى احتقارا من الدنيا حين عاينوا يوم القيامة. وقال الحسن ان " لبئتم إقليلا " في الدنيا لطول لبئتم في الآخرة. وقوله " وقل لعبادي يقول التي هي احسن " قال الحسن: معناه " قل " يامحمد " لعبادي " يأمرؤا بما امر الله به، وينهوا عما نهى عنه. وقال الحسن: معناه قل لعبادي يقل بعضهم لبعض أحسن ما يقال، مثل رحمك الله ويغفر الله لك. ثم أخبر تعالى فقال " إن الشيطان ينزع بينهم " اي يفسد بينهم ويلقي بينهم العداوة والبغضاء. وقال " إن الشيطان كان " في جميع الاوقات عدوا مبائنا " للانسان " آدم وذريته. وقوله " وربكم أعلم بكم " معناه التحذير لعباده من إضمار القبيح، والترغيب

(١) تفسير القرطبي ١٠: ٢٦٦ وتفسير الشوكاني ٣: ٢٢٦ وتفسير روح المعاني ١٥: ٩٣

(٤٩٠)

في الجميل، لانه عالم به يقدر أن يجازي على كل واحد منه بما هو حقه " إن يشأ يرحمكم بالتوبة " وإن يشأ يعذبكم " بالاقامة على المعصية. وقوله " وما أرسلناك عليهم وكيلًا " معناه إنا ماوكلناك بمنعهم من الكفر بل أرسلناك داعيا لهم إلى الايمان وزاجرا عن الكفر، فإن أجابوك، وإلا، فلا شئ عليك واللائمة والعقوبة يحلان بهم. قوله تعالى:

(وربك أعلم بمن في السموات والارض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيننا داود زبورًا (٥٥) قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا (٥٦) أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) (٥٧) ثلاث آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى لنبيه " إن ربك " يامحمد " أعلم بمن في السموات والارض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض " وانماقال ذلك ليدل على أن تفضيل الانبياء بعضهم على بعض وقع موقع الحكمة، لانه من عالم بباطن الامور، واذا ذكر ما هو معلوم فانما يذكره ليدل به على غيره. والانبياء وان كانوا في أعلى مراتب الفضل، لهم طبقات بعضهم أعلى من بعض، وإن كانت المرتبة الوسطى لاتلحق العليا ولايلحق مرتبة النبي من ليس بني أبدا. وقوله " وآتيننا داود زبورًا " اي خصصناه بالذكر، وفيه لغتان فتح الزاي، وضمها. والفتح أفصح. ثم قال لنبيه "

قل " لهم " ادعوا الذين زعمتم من دونه " يعني الذين زعمتم انهم ارباب وآلهة من دون الله ادعوهم اذا نزل بكم ضرر، فانظروا هل يقدررون على دفع ذلك ام لا.

(٤٩١)

وقال ابن عباس والحسن " الذين من دونه " الملائكة والمسيح وعزير. وقال ابن مسعود: أراد به ماكانوا يعبدون من الجن: وقد أسلم اولئك النفر من الجن لان جماعة من العرب كانوا يعبدون الجن، فأسلم الجن وبقي الكفار على عبادتهم.

وقال أبو علي: رجع إلى ذكر الانبياء في الآية الاولى. والتقدير إن الانبياء يدعون إلى الله يطلبون بذلك الزلفة لديه ويتوسلون به اليه والى رضوانه وثوابه، أيهم كان أفضل عندالله، واشد تقربا اليه بالاعمال. ثم قال " فلايملكون " يعني الذين تدعون من دون الله " كشف الضر والبلاء " عنكم " ولاتحويله إلى سواكم.

ثم قال " اولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب.. " الآية قوله " اولئك " رفع بالابتداء و " الذين " صفة لهم و " يبتغون إلى ربهم " خبر الابتداء. والمعنى الجماعة الذين يدعون يبتغون إلى ربهم " أيهم " رفع بالابتداء و " اقرب " خبره. والمعنى يطلبون الوسيلة ينظرون ايهم اقرب فيتوسلون به، ذكره الزجاج. وقال قوم: الوسيلة هي القرية والزلفة. وقال الزجاج: الوسيلة والسؤال والسؤل والطلبة واحد، والمعنى إن هؤلاء المشركين يدعون هؤلاء الذين اعتقدوا فيهم انهم ارباب ويبتغي المدعوون اربابا إلى ربهم القرية والزلفة لانهم اهل إيمان به. والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله، ايهم اقرب عندالله بصالح اعماله واجتهاده في عبادته، فهم يرجون بأفعالهم رحمته ويخافون عذابه بخلافهم إياه " إن عذاب ربك كان محذورا " اي متقى.

قوله تعالى:

(وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيمة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا (٥٨) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون و آتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا (٥٩)

(٤٩٢)

وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرعي التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا (٦٠) ثلاث آيات.

اخبر الله تعالى انه ليس " من قرية إلا " والله تعالى مهلكها " قبل يوم القيامة " .

بكفر من فيها من معاصيهم جزاء على افعالهم القبيحة " او معذبوها عذابا شديدا " والمعنى ان يكون إما الاهلاك والاستئصال أو العذاب، والمراد بذلك قرى لكفر والضلال دون قرى الايمان. وقيل إن ذلك يكون في آخر الزمان، فيهلك الله كل قرية بعقوبة بعض من فيها، ويكون امتحانا للمؤمنين الذين فيها.

وقيل: ان المعنى مامن قرية إلا والله مهلكها إما بالموت لاهلها او عذاب يستأصلهم ثم اخبر أن ذلك كائن لامحالة، ولا يكون خلفه، لان ذلك مسطور في الكتاب يعني في اللوح المحفوظ، والمسطور هو المكتوب يقال: سطر سطرا، قال العجاج:

واعلم بأن ذا الجلال قد قدر * في الصحف الاولى التي كان سطر (١)

ثم قال " ومامننا ان نرسل بالآيات " يعني الآيات التي اقترحتها قريش من قولهم: حول لنا الصفا ذهباً وفجر لنا من الارض ينبوعاً، وغير ذلك، فأنزل الله الآية إنى إن حولته، فلم يؤمنوا لم امهلهم كسنتي فيمن قبلهم، وهو قول قتادة وابن جريج. والمنع وجود ما لا يصح معه وقوع الفعل من القادر عليه فكأنه قد منع منه، ولا يجوز إطلاق هذه الصفة في صفات الله، والحقيقة إننا لم نرسل بالآيات لئلا يكذب بها هؤلاء كما كذب من قبلهم، فيستحقوا المعالجة بالعقوبة.

وقال قوم: يجوز أن يكون قوله تعالى " إلا أن كذب بها الاولون " تكون (إلا) زائدة، وتقديره مامننا ان نرسل بالآيات " ان كذب بها الاولون " أي لم يمنعنا ذلك من إرسالها بل أرسلناها مع تكذيب الاولين. ومعنى " ان كذب

(١) ديوان ١٩ ومجاز القرآن ١: ٣٨٣ وتفسير الطبري ١٥: ٩٩ واللسان والتاج (نتر)

(٤٩٣)

هو التكذيب، كما تقول: أريد ان تقوم بمعنى أريد قيامك. ويحتمل ان يكون " إلا " بمعنى (الواو) كما قال " لئلا يكون للناس عليكم حجة، إلا الذين ظلموا " (١) معناه والذين ظلموا منهم، فلا حجة لهم عليهم. ويكون المعنى ومامننا أن نرسل بالآيات وإن كذب بها الاولون أي لسنا نمتنع من إرسالها، وإن كذبوا بها و (أن) الاولى في موضع نصب بوقوع " منعنا " عليها. و (أن) الثانية رفع والمعنى، ومامننا إرسال الآيات إلا تكذيب الاولين من الامم، والفعل ل (أن) الثانية.

وقوله " وآتينا ثمود الناقة مبصرة " معناه مبصرة تبصر الناس بما فيها من العبر، والهدى من الضلالة والشقاء من السعادة، ويجوز أن يكون المراد انها ذات إبصار، حكى الزجاج: مبصرة

بمعنى مبينة، وبالكسر معناه تبيين لهم، قال الفراء: مبصرة مثل مجبنة ومنحلة، وكل (مفعلة) وضعته موضع (فاعل) أغنت عن الجمع والتأنيث، تقول العرب: هذا عشب ملبنة، مسمنة. والولد مجبنة منحلة. وان كان من الياء والواو، فظاهرهما، تقول سراب مبولة، وكلام مهينة للرجال قال عنتره:

والكفر مخبئة لنفس المنعم (٢)

ومعنى مبصرة مضيئة، قال الله تعالى " والنهار مبصرا " (٣) اي مضيئا. وقوله " فظلموا بها " يعني بالناقاة (لانهم نحروها وعصوا الله في ذلك، لانه نهاهم عن ذلك، فخالفوا ونحروها. وقيل: ظلموا بها) (٤) معناه ظلموا بتكذيبهم اياها بانها معجزة باهرة. وقوله " ومانرسل بالآيات إلا تخويفا " اي لم نبعث الآيات ونظهرها إلا

(١) سورة البقرة آية ١٥٠ (٢) من معلقته المشهورة ديوانه (دار بيروت) ٢٨ وصدرة:
نبئت عمرا غير شاكر نعمتي (٣) سورة ١٠ يونس آية ٦٧ وسورة ٢٧ النمل اية ٨٦ وسورة ٤٠ المؤمن (غافر)
اية ٦١ (٤) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة.

(٤٩٤)

لتخويف العباد من عقوبة الله ومعاصيه. وقوله " واذا قلنا لك " اي اذكر الوقت الذي قلنا لك يا محمد " ان ربك احاط بالناس " اي احاط علما باحوالهم، وما يفعلونه من طاعة او معصية، وما يستحقونه على ذلك من الثواب والعقاب، وقادر على فعل ذلك بهم، فهم في قبضته، لا يقدر على الخروج من مشيئته. وقوله " وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس " قيل في معنى ذلك قولان: احدهما - انه اراد رؤية عين، ليلة الاسراء إلى البيت المقدس، فلما اخبر المشركين بما رأى كذبوا به، ذكره ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وابراهيم، وابن جريج، وابن زيد، والضحاك، ومجاهد.

الثاني - في رواية اخرى عن ابن عباس: انه رؤيا نوم، وهي رؤيا انه سيدخل مكة، فلما صده المشركون في الحديبية شك قوم ودخلت عليهم الشبهة، فقالوا يارسول الله: أوليس قد اخبرتنا انا ندخل المسجد؟ فقال: قلت لكم انكم تدلوننا السنة؟! فقالوا: لا، فقال سندخلنها إن شاء الله، فكان ذلك فتنة وامتحانا وروي عن ابي جعفر وابي عبدالله (ع) ان ذلك رؤيا رآها في منامه أن قرودا تصعد منبره وتنزل، فسأه ذلك، وروى مثل ذلك سهل بن سعد الساعدي عن أبيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ذلك، ومثله عن سعد بن بشار، (١) فأنزل الله عليه جبرائيل واخبره ما يكون من تغلب أمر بني أمية على مقامه وصعودهم منبره.

وقوله " والشجرة ملعونة في القرآن " قال ابن عباس والحسن وأبومالك وسعيد بن جبير وإبراهيم ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد: إنها شجرة الزقوم التي ذكرها الله في قوله " ان شجرة الزقوم طعام الايثم " (٢) والمعنى ملعون آكلها، وكانت فتنتهم بها قول ابي جهل وذويه النار تأكل الشجرة وتحرقها، فكيف ينبت فيها الشجر، وعن أبي جعفر ان الشجرة ملعونة هم بنو امية،

(١) في المخطوطة (سعيد بن يسار) (٢) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٣

(٤٩٥)

وقال البلخي: يجوز ان يكون المراد به الكفار. وقوله " ونخوفهم " أي نرهبهم بما نقص عليهم من هلاك من مضى بها، فما يزدادون عند ذلك " إلا طغيانا كبيرا " أي عتوا عظيما وتماديا وغيا. قوله تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَنُخْرِتَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا) (٦٣) ثلاث آيات.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم واذكر " إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس " وقد بينا أن امر الله تعالى بأن اسجدوا لآدم تعظيم لآدم وتفضيله عليهم وإن كانت القربى (١) بذلك السجود إلى الله تعالى، وفي الناس من قال: انه كان بمنزلة القبلة لهم وإن كان فيه تشريف له.

ثم اخبر تعالى ان الملائكة امتثلت امر الله فسجدت له " إلا إبليس " فقد قلنا ان اخبارنا تدل على ان إبليس كان من جملة الملائكة، وانما كفر بامتناعه من السجود، ومن قال ان الملائكة معصومون فان إبليس لم يكن من جملة الملائكة والاستثناء في الآية استثناء منقطع و (إلا) بمعنى (لكن) وإنماضه إلى الملائكة من حيث جمعهم في الامر، والتكليف بالسجود، فلذلك استثناء من جملتهم.

ثم اخبر تعالى عن إبليس أنه قال " أأسجد لمن خلقت طينا " على وجه الانكار

(١) في المخطوطة (وان كان الغرض)

(٤٩٦)

لذلك، وأن من خلق من نار أشرف وأعظم، من الذي خلق من طين، وآدم اذا كان مخلوقا من طين كيف يسجد له من هو مخلوق من نار، وهو إبليس، وذلك يدل على ان إبليس فهم من ذلك الامر تفضيله عليه، ولو كان بمنزلة القبلة لما كان لامتناعه عليه وجه، ولالدخول الشبهة بذلك مجال.

و " طينا " نصب على التمييز، ويجوز ان يكون نصبا على الحال. والمعنى إنك انشأته في حال كونه من طين.

ووجه الشبهة الداخلة على إبليس ان الفروع ترجع إلى الاصول فتكون على قدرها في التكبر أو التصغر، فلما اعتقد أن النار اكرم أصلا من الطين جاء منه انه أكرم ممن خلق من طين، وذهب عليه بجعله أن الجواهر كلها متماثلة، وان الله تعالى يصرفها بالاعراض كيف شاء مع كرم جوهر الطين وكثرة ما فيه من المنافع التي تقارب منافع النار او توفى عليها.

وانما جاز ان يأمره بالسجود له، ولم يجز ان يأمره بالعبادة له، لان السجود يترتب في التعظيم بحسب ما يراد به، وليس كذلك العبادة التي هي خضوع بالقلب ليس فوقه خضوع، لانه يترتب في التعظيم بحسب نيته، يبين ذلك انه لو سجد ساهيا لم يكن له منزلة في التعظيم على قياس غيره من افعال الجوارح.

قال الرماني: الفرق بين السجود لآدم والسجود إلى الكعبة، ان السجود لآدم تعظيم له باحسانه، وهذا يقارب قولنا في أنه قصد بذلك تفضيله بأن امره بالسجود له.

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعنى ما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا محققين ظن إبليس فيهم مخالفين موجب نعمة ربهم على أمتهم وعليهم ثم حكى تعالى عن إبليس أنه قال " أرأيتك هذا الذي كرمت علي " ومعناه اخبرني عن هذا الذي كرمته علي لم كرمته علي؟ وقد خلقتني من نار وخلقته من طين ! فحذف لدلالة الكلام عليه.

وإنما قال " أسجد " بلا حرف عطف، لانه على قوله " أسجد " لمن خلقت طينا " والكاف في قوله " أرأيتك " لاموضع لها من الاعراب، لانها ذكرت في

(٤٩٧)

المخاطبة توكيدا، و (هذا نصب ب (أرأيتك)، والجواب محذوف. والمعنى ما قدمناه. وقوله " لئن اخرتن إلى يوم القيامة لاحتتكن ذريته إلا قليلا "، ومعنى لاحتتكن لا قطعهم إلى المعاصي، يقال منه: احتتكت فلان ما عند فلان من مال أو علم او غير ذلك، قال الشاعر:

أشكو اليك سنة قد أجهفت * جهدا إلى جهدنا وأضعفت

واحتتكت أموالنا وجلفت (١)

وقال ابن عباس: معنى " لاحتكن " لاستولين، وقال مجاهد: لاحتوين، وقال ابن زيد: لاضلنهم، وقال قوم: لاستأصلن ذريته بالاغواء، وقال آخرون: لاقودنهم إلى المعاصي، كمتقاد. الدابة بحنكها إذاشد فيها حبل تجر به. وقوله " الا قليلا " استثناء من ابليس القليل من ذرية آدم الذين لا يتبعونه ولايقبلون منه. فقال الله تعالى عند ذلك " اذهب " يا ابليس " فمن تبعك " من ذرية آدم واقتفى أثرك وقبل منك " فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا " أي كاملا، يقال منه: وفرته أفره وفرا، فهو موفور، وقال زهير:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه * يفره ومن لايتق الشتم يشتم (٢)
ووفرته توفيراً، ويقال: موفورا بمعنى وافر، في قول مجاهد، كأنه ذو وفر، كقولهم: لابن أي ذولين، وقد دل على انهم لاينقصون من عقابهم الذين يستحقونه شيئاً، وفي ذلك استخفاف به وهوان له. وانما ظن ابليس هذا الظن الصادق، بأنه يغوي اكثر الخلق، لان الله تعالى كان قد أخبر الملائكة أن سيجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، فكان قد علم بذلك. وقيل:

(١) تفسير الطبري ١٥: ٧٥ (٢) ديوانه (دار بيروت) ٨٧ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ / ٢٣٣ وتفسير روح المعاني ١٥ / ١١٠ تفسير التبيان ج ٦ م ٣٢

(٤٩٨)

انما قال ذلك، لانه وسوس إلى آدم فلم يجده عزمًا، فقال: بنو هذا مثله في ضعف العزيمة، ذكره الحسن. وهذا الوجه لايصح على اصلنا، لان عندنا ان آدم لم يفعل قبيحا، ولاترك واجبا، فلوظن ابليس ان اولاده مثله، لانتقض غرضه، ولم يخبر بماقال. و (لئن) حرف شرط، ولايليه الا الماضي، والشرط لا يكون الا بالمستقبل والعلة في ذلك ان اللام في (لئن) تأكيد يرتفع الفعل بعده و (ان) حرف شرط ينجزم الفعل بعده، فلما جمعوا بينهما، لم يجز ان يجرم فعل واحد ويرفع، فغير المستقبل إلى الماضي، لان الماضي لايبين فيه الاعراب، ذكر هذه العلة ابن خالوية. قوله تعالى:

(واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (٦٤) إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى ربك وكيفا (٦٥) ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا (٦٦) ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ حفص وحده " ورجلك " بكسر الجيم. الباقون بتسكينها.

من سكن أراد جمع (راجل) مثل صاحب وصحب، وراكب وركب. ومن كسر اراد قولهم:
رجل يرجل، فهو راجل.
قوله: " واستفزز.. واجلب " صورته صورة الامر والمراد به التهديد، وجرى

(٤٩٩)

مجرى قوله " اعملوا ماشئتم " (١) وكما يقال للانسان: اجهد جهدك، فسترى ما ينزل بك، وانما
جاء التهديد بصيغة الامر، لانه بمنزلة من امر باهانة نفسه، لان هذا الذي يعمله هوان له وهو
مأمور به. ومعنى (استفزز) استزل، يقال:

استفزه واستزله بمعنى واحد، وتفزز الثوب اذ تمزق، وفززه تفززا، وأصله القطع، فمعنى
استفزه استزله بقطعه عن الصواب " من استطعت منهم " فالاستطاعة قوة تتطاع بها الجوارح
للفعل، ومنه الطوع والطاعة، وهو الانقياد للفعل.

وقيل في الصوت الذي يستفززهم به قولان:

أحدهما - قال مجاهد: صوت الغناء واللهو.

الثاني - قال ابن عباس: هو كل صوت يدعا به إلى معصية الله. وقيل: كل صوت دعي به
إلى الفساد، فهو من صوت الشيطان.

وقال: " واجلب عليك بخيلك " فالاجتلاب السوق بجلبة من السائق. وفي المثل (اذا لم تغلب
فاجلب) يقال: جلب يجلب جلبا واجلب إجلابا، واجتلب اجتلابا، واستجلب استجلابا، وجلب
تجلبيا مثل صوت، واصل الجلبة شدة الصوت، وبه يقع السوق.

وقوله: " بخيلك ورجلك " قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: كل راكب او ماش في معصية الله
من الانس والجن، فهو من خيل ابليس ورجله، والرجل جمع راجل مثل تجر وتاجر، وركب
وراكب.

وقوله: " وشاركهم في الاموال والاولاد " فمشاركته إياهم في الاموال كسبها من وجوه
محظورة او إنفاقها في وجوه محظورة، كما فعلوا في السائبة والبحيرة والحام، والاهلال به
لغير الله، وغير ذلك. ومشاركته في الاولاد، قال مجاهد والضحاك: فهم اولاد الزنا. وقال ابن
عباس: المؤودة. وقيل: من هودوا ونصروا، في قول الحسن وقتادة. وقال ابن عباس في
رواية: هو تسميتهم عبد

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٤٠

(٥٠٠)

الحارث، وعبد شمس، وماشبه ذلك. وقيل: ذلك واحد من هذه الوجوه، وهو أعم. وقوله " وعدهم " اي منهم البقاء وطول الامل. ثم قال تعالى " وما يعدهم الشيطان " أي ليس يعدهم الشيطان " الا غرورا " ونصب على انه مفعول له (اي ليس يعدهم الشيطان الا لاجل الغرور) (١). ثم قال تعالى " ان عبادي " يعني الذين يطيعوني ويقرون بتوحيدي ويصدقون أنبيائي، ويعملون بما اوجبه عليهم، وينتهون عن معاصي " ليس لك " يا ابليس " عليهم " حجة ولاسلطان. قال الجبائي: معناه ان عبادي ليس لك عليهم قدرة، على ضرر ونفع اكثر من الوسوسة، والدعاء إلى الفساد، فأما على كفر أو ضرر، فلا، لانه خلق ضعيف متخلخل، لايقدر على الاضرار بغيره.

ثم قال " وكفى بربك " اي حسب ربك " وكيفا " اي حافظا، ومن يسند الامر اليه ويستعان به في الامور.

ثم خاطب تعالى خلقه فقال: ربكم الذي خلقكم " هو الذي " يزجي لكم الفلك في البحر " قال ابن عباس: معناه يجريها، وبه قال قتادة، وابن زيد يقال: أزجى يزجي ازجاء إذاساق الشئ حالاً بعد حال " لتبتغوا من فضله " اي لتطلبوا فضل الله في ركوب البحر من الارياح وغيرها " انه كان بكم رحيماً " اي منعماً عليكم راحم لكم، يسهل لكم طرق ما تنتفعون بسلوكه دينا ودنيا. قوله تعالى:

(وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجمكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا (٦٧) أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة.

(٥٠١)

وكيفا (٦٨) أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا (٦٩) ثلاث آيات.

قرأ ابن كثير وابوعمر " أن نخسف.. او نرسل.. أن نعيدكم.. فنرسل " بالنون فيهن الباقون بالياء. الابا جعفر، وورش، فانهما قرأا " فتغرقكم " بالتاء يردانه إلى الريح. ومن قرأ بالنون اراد الاخبار من الله عن نفسه. ومن قرأ بالياء اراد أن محمدا اخبر عن الله، والمعنيان متقاربان. وقال ابو علي: من قرأ بالياء فلانه تقدم " ضل من تدعون الا اياه، فلما نجاكم إلى البر.. أفأمنتم ان يخسف بكم " ومن قرأ بالنون، فلان مثله قد ينقطع بعضه عن بعض. والمعنى واحد، يقول الله تعالى لخلقته: انه اذا نالكم الضر، وانتم ركاب البحر بان أشرفتم على الهلاك وخب بكم البحر وماجت الامواج " ضل من تدعون " اي يكون بمنزلة من يضل عنكم،

ولأينجيك من أهواله الا الله تعالى. وانما خص البحر بذكر النجاة، لان له أهوالا هيجانية وخبة، لايطمع عاقل في ان ينجيه احد منه الا الذي خلق النفس وانعم بما وهب من العقل والسمع والبصر. وقال: اذا دعوتموه في ذلك الحال، ونجاكم، وخلصكم، واخرجكم منه إلى البر اعرضتم عن ذكر الله، والاعتراف بنعمه.

ثم قال تعالى: " وكان الانسان كفورا " لنعم الله تعالى، ثم قال مهددا لهم: " أفأمنتم " اي هل أمنتم اذا ضربتم في البر " أن يخسف بكم " جانبه ويقلب اسفله اعلاه فتهلكون عند ذلك، كما خسفنا بمن كان قبلكم من الكفار نحو قوم لوط وقوم فرعون " أو يرسل عليكم حاصبا " بمعنى حجارة تحصبون بها او ترمون بها والحصباء الحصى الصغار، ويقال: حصب الحصى يحصبه حصبا اذ رماه رميا متتابععا، والحاصب ذو الحصب. والحاصب فاعل الحصب " ثم لاتجدوا لكم وكيلا " أي من يدفع ذلك عنكم.

(٥٠٢)

ثم قال: " أم " اي هل " أمنتم أن يعيدكم " في البحر دفعة اخرى بان يجعل لكم إلى ركوبه حاجة " فيرسل عليكم قاصفا من الريح " فالقاصف الكاسر بشدة قصفه يقصفه قصفا، فهو قاصف، وتقصف شعره تقصفا، وانقصف الرجل انقصافا وقصف الشيء تقصيفا، " فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا " اي من يتبع إهلاككم للمطالبة بدمائكم او يأخذ بشاركم، وقيل ان القاصف الريح الشديدة تقصف الشجر بشدتها. وانما قيل: حاصب على وزن فاعل لامرين:

احدهما - ريح حاصب أي تحصب الحجارة من السماء، قال الشاعر:
مستقبلين شمال الشام يضرينا * بحاصب كنديف القطن منثور (١)
وقال الآخر:

ولقد علمت إذا العشار تروحت * حتى تبيت على العصاة حفالا (٢)
الثاني - حاصب ذو حصب.

قوله تعالى:

(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (٧٠) يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا (٧١) ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) (٧٢) ثلاث آيات بلا خلاف.

(١) قائله الفرزدق ديوانه (دار بيروت) ٢١٣: ١ وتفسير الطبري ١٥ / ٧٩ وتفسير القرطبي ١٠ / ٢٩٢ والشوكاني ٣ / ٢٣٥ وروح المعاني ١٥ / ١١٦ (٢) تفسير الطبري ١٥ / ٩٧

(٥٠٣)

اخبر الله تعالى: انه كرم " بني آدم " وانما عنى بني آدم بالتكريمة مع ان فيهم كفارا، لان المعنى كرمناهم بالنعمة على وجه المبالغة في الصفة. وقال قوم: جرى ذلك مجرى قوله " كنتم خير أمة اخرجت للناس (١) " فاجرى الصفة على جماعتهم من اجل من فيهم على هذه الصفة. ثم بين تعالى الوجوه التي كرم بها بني آدم بأنه حملهم في البر والبحر على ما يحملهم من الابل وغيرها، كما قال: " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة " (٢) والبحر، والسفن التي خلقها لهم واجراها بالرياح فوق الماء ليبلغوا بذلك حوائجهم " ورزقناهم من الطيبات " يعني من الثمار والفواكه وطيبات الاشياء، وملاذها التي خص بها بني آدم ولم يشرك شيئا من الحيوان فيها من فنون الملاذ. وقيل: من تفضيل بني آدم ان يتناول الطعام بيديه دون غيره، لان غيره يتناوله بفيه، وانه ينتصب، وما عداه على اربع او على وجهه.

وقوله: " وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " وليس المراد بذلك تفضيلهم بالثواب، لان الثواب لا يفضل به ابتداء، وانما فضلهم ابتداء بان خلق لهم من فنون النعم وضروب الملاذ مالم يجعله لشيء من الحيوان، وانما فعل ذلك تفضلا منه تعالى، ولما في ذلك من اللطف للعاقل، والصلاح الذي ينتظم ويتم بهذا التأويل، واستدل جماعته بقوله " وفضلناهم على كثير ممن خلقنا " على تفضيل الملائكة على الانبياء، قال لان قوله " على كثير ممن خلقنا " يدل على ان ههنا من لم يفضلهم عليهم، وليس الا الملائكة، لان ابن آدم افضل من كل حيوان سوى الملائكة بلا خلاف. وهذا باطل بما قلناه من ان المراد بذلك تفضيلهم بالنعم الدنياوية، والالطاف، وليس المراد بذلك الثواب بدلالة ابتدائهم بهذا التفضيل.

والثواب لا يجوز الابتداء به.

وقوله " يوم ندعو كل أناس بإمامهم " قال الزجاج: يتعلق بقوله " يعيدكم .. يوم ندعو " وقيل: تقديره اذكر يوم. وقيل انه يتعلق بقوله " وفضلناهم على

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ (٢) سورة النحل آية ٨

(٥٠٤)

كثير ممن خلقنا تفضيلا.. يوم ندعو "، لان ما فعله بهم من الالطاف في الدنيا، لان يطيعوا ويفعلوا من الافعال ما يدعون به يوم القيامة.

واختلفوا في الامام الذي يدعون به يوم القيامة، فقال مجاهد وقتادة: إمامه نبيه. وقال ابن عباس: إمامه كتاب علمه. وروي عنه ايضا أن إمامهم كتابهم الذي انزل الله اليهم فيه الحلال والحرام والفرائض والاحكام. وقال البلخي:

بماكانوا يعبدونه، ويجعلونه إماما لهم. وقال ابو عبيد: بماكانوا يأتون به في الدنيا. وهو قول ابي جعفر وابي عبدالله (ع).

وقوله " فمن أرتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم.. " الآية، جعل الله تعالى إعطاء الكتاب باليمين من علامة الرضا والخلص، وأن من أعطي كتابه باليمين تمكن من قراءته وسهل له ذلك، وكان فحواه أن من أعطي كتابه بشماله أو وراء ظهره، فإنه لا يقدر على قراءة كتابه، ولا يتأتى له، بل يتلجج فيه، لما يراه من المعاصي الموبقات.

وقوله " ولا يظلمون فتيلًا " معناه لا يبخص أحد حقه، ولا يظلم شيئًا، سواء كان مستحقًا للثواب أو العقاب، فإن المستحق للثواب لا يبخص منه شيئًا والمستحق للعقاب لا يفعل به أكثر من استحقاقه، فيكون ظلما له. (والفتيل)

هو المفتول الذي في شق النواة - في قول قتادة - وقيل الفتيل في بطن النواة، والنقير في ظهرها، والقطير قشر النواة، ذكره الحسن.

وقوله " ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا " قرأ أهل العراق إلا حفصا والاعشى " ومن كان في هذه أعمى " بالامالة. الباقر بالتفخيم وقرأ حمزة والكسائي إلا نصيرا، وخلفا، وأبأبكر إلا الاعشى والبرجمي " فهو في الآخرة أعمى " بالامالة: الباقر بالتفخيم.

وقيل في معنى الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، ومجاهد وقتادة، وابن زيد: من كان في أمر هذه

(٥٠٥)

الدنيا، وهي شاهدة له من تدبيرها وتوثقها وتقلب النعم فيها أعمى عن اعتماد (١) الصواب الذي هو مقتضاها، فهو في الآخرة التي هي غائبة (٢) عنه " أعمى وأضل سبيلا " وقال قوم: من كان في هذه الدنيا أعمى عن طريق الحق، فهو في الآخرة أعمى عن الرشيد المؤدي إلى طريق الجنة. وقال أبو علي: فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة. ومن فخم في الموضوعين، فلان الياء فيهما قد صارت ألفا لانفتاح ما قبلها. والاصل فمن كان في هذه اعمى، فهو في الآخرة أعمى، ومن كان فيما وضعناه من نعيم الدنيا اعمى، فهو في نعيم الآخرة اعمى. واما تفريق ابي عمرو بين اللفظين فلا ختلاف المعنى، فقال ومن كان في هذه اعمى ممالا، فهو في الآخرة اعمى بالفتح اي أشد عما، فجعل الاول صفة بمنزلة أحمر وأصفر،

والثاني بمنزلة أفعل منك، كقوله " وأضل سبيلا " اي اعمى قلبا. والعمى في العين لايتعجب منه بلفظة (أفعل)، ولا يقال ماعماء، بل يقال مأشد عماء، وفي القلب ماعماء بغير أشد، لان عما القلب حمق، كماقال الشاعر لمرو مأمحمره وأبيضه، فقال:
أما الملوك فأنت اليوم الأهمم * لؤما وأبيضهم سربال طباخ (٣)
وقال بعضهم: لاوجه لتفريق ابي عمرو، لان الثاني، وإن كان بمعنى (أفعل منك " فلايمنع من الامالة، كالم يمنع بالذي هو ادنى، قال ابن خالويه ابو عبدالله إنماراد ابو عمرو ان يفرق بينهما لما اختلف معناهما، واجتمعا في آية واحده، كماقرأ " ويوم القيامة يردون " يعني الكفار، ثم قال في آخر؟ " عما تعملون " (٤)
اي أنتم وهم، ولو وقع مفردا، لاجاز الامالة والتفخيم فيهما، قال ابو علي: ومن أمال الجميع كان حسنا، لانه ينحو نحوالياء بالالف ليعلم انها منقلبة إلى الياء وان كانت فاصلة او مشبهة للفاصلة، فالامالة حسنة فيها، لان الفاصلة موضع

(١) في المخطوطة (اعتقاد)

(٢) أثبتنا مافي المخطوطة، وكان في المطبوعة (غايته)

(٣) تفسير القرطبي ١٠ / ٢٩٩ وتفسير الشوكاني ٣ / ٢٣٨ (٤) سورة البقرة آية ٨٥

(٥٠٦)

وقف، والالف تخفى في الوقف، فأما إذا أمالها، نحا بهانحو الكسرة وليكون أظهر لها وأبين. قوله تعالى:

(وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا (٧٣) ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا (٧٤) إذا لاذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا) (٧٥) ثلاث آيات.

قال الزجاج: معنى الكلام كادوا يفتنونك، ودخلت (ان واللام) للتوكيد ومعنى (كاد) المقاربة. وقوله " وإن كادوا " قال الحسن: معناه قارب بأن هم من غير عزم. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم (ان الله وضع عن أمتي ماحدثت به نفسها إلا من عمل شيئا او تكلم به) وقيل انهم قالوا: لاندعك تستلم الحجر حتى تلم بالهتتا. وقال مجاهد، وقتادة: الفتنة التي كاد المشركون ان يفتنوا النبي صلى الله عليه وسلم.

بها الالمام بالهتتهم ان يمسه في طوافه، لما سأله في ذلك، ولطفوه.

وقال ابن عباس: هم بإنظار تقيف بالاسلام حتى يقبضوا مايهدي لآلهتهم ثم يسلموا فيها.

امتن الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأنه لو لا انه ثبته بلطفه، وكثرة زواجه وتواتر نهيه، لقد كاد يركن اي يسكن، ويميل إلى المشركين قليل، على ما يريدون يقال: ركن يركن، وركن يركن، ثم قال " إذا لاذقناك ضعف الحياة، وضعف المماة " اي لو فعلت ذلك، لاذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب المماة لعظم ذلك منه لو فعله، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك. وإنما كان يعظم عذابه بالركون اليهم لكثرة زواجه وفساد العباد به.

(٥٠٧)

وقيل لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم " اللهم لا تكني إلى نفسي طرفة عين) روى ذلك قتادة. ومعنى الفتنة - ههنا - الضلال، والتقدير وإن كادوا ليفتنونك ليضلوك عن الذي اوحينا اليك، في قول الحسن وأصل الفتنة المحنة التي يطلب بها خلاص الشئ مما لابسها، فطلبوا إخراجها إلى الضلالة.

وقوله " لتفتري علينا غيره " اي لتكذب علينا غير ما اوحينا اليك وإن فعلت ذلك لاتخذوك خليلاً وديداً.

وقوله " ثم لاتجد لك علينا نصيراً " اي لو فعلت الركون اليهم لاذقناك ماقلناه من العذاب، ثم لاتجد لك علينا ناصرًا يدفع عنك ما تريد فعله بك.

قوله تعالى:

(وإن كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلاً (٧٦) سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولاتجد لسنتنا تحويلاً (٧٧) أقم الصلوة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) (٧٨) ثلاث آيات.

قرأ ابن عامر واهل الكوفة الا ابابكر " خلفك ". الباقر " خلفك " فمن قرأ " خلفك " فلقوله " فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها " (١) وقوله " بمقعدهم خلاف رسول الله " (٢) اي لمخالفتهم إياه، ومن قرأ " خلفك " قال بعدك وخلفك وخلافك بمعنى واحد، يقول الله تعالى " وإن كادوا " يعني المشركين " ليستفزونك من الارض " قال الحسن: معناه ليقتلونك، وقال غيره: الاستخفاف بالانزعاج.

(١) سورة البقرة آية ٦٦ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٨٢

(٥٠٨)

وقال ابو علي: هموا بأن يخرجوه من ارض العرب لامن مكة فقط، إذ قد أخرجوه من مكة، وقال المعتمد ابن ابي سليمان عن ابيه: الارض التي ارادوا استزلاله منها: هي ارض المدينة، لان اليهود قالت له: هذه الارض ليست ارض الانبياء وانما ارض الانبياء الشام. وقال قتادة ومجاهد: هي مكة، لان قريشا همت بإخراجه منها. ثم قال تعالى: انهم لو اخرجوك من هذه الارض لمالبتوا، لما قاموا بعدك فيها إلا قليلا. وقال ابن عباس والضحاك: المدة التي لبثوا بعده هو ما بين خروج النبي من مكة، وقتلهم يوم بدر. ومن قرأ خلافاك اراد بعدك، كما قال الشاعر:

عقب الرذاذ خلافاها فكأنما * بسط الشواطب بينهن حصيرا (١)

الرذاذ المطر الخفيف، يصف روضة وأرضا غب مطرها، وكانت حضراء وقال الحسن الاستقزاز - ههنا - الفتل.

وقوله " وإذا لا يلبثون " بالرفع، لان (إذا) وقعت بعد الواو، فجاز فيها الالغاء، لانها متوسطة في الكلام، كما انه لا بد من ان تلغى في آخر الكلام.

وقوله " سنة من قد ارسلنا " انتصب (سنة) بمعنى لا يلبثون. وتقديره: لا يلبثون لعذابنا إياهم كسنة من قبلك، إذ فعلت امهم مثل ذلك. ثم قال " لاتجد لسنتنا تحويلا " اي تغييرا وانتقالا من حالة إلى حالة اخرى. بل هي على وتيرة واحدة. ثم امر نبيه صلى الله عليه وسلم فقال " اقم الصلاة " والمراد به أمته معه " لدلوك الشمس " اختلفوا في الدلوك، فقال ابن عباس، وابن مسعود، وابن زيد: هو الغروب والصلاة المأمور بها - ههنا - هي المغرب، وقال ابن عباس في رواية اخرى والحسن، ومجاهد، وقتادة: دلوكها زوالها، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبدالله (ع). وذلك ان الناظر اليها يدلك عينيه، لشدة شعاعها. واما عند غروبها فيدلك عينيه لقلّة تبيينها، والصلاة المأمور بها عند هؤلاء الظهر، وقال الراجز:

(١) مجاز القرآن ١ / ٣٨٧ وتفسير الطبري ١٠ / ١٢٧، ١٥ / ٨٤ واللسان والتاج (خلف) وتفسير الشوكاني ٣: ٢٣٩ وقد روي (عقب الربيع) وفي رواية اخرى (عفت الديار).

(٥٠٩)

هذا مقام قدمي رباح * للشمس حتى دلكت براح (١)

ورباح اسم ساقى الابل. من روى بكسر الباء اراد براحتة، قال الفراء:

يقال: بالراحة على العين، فينظر هل غابت الشمس بعد، قال الفراء هكذا فسروه لنا، ومن

رواه بفتح الباء جعله اسما للشمس مبنيا على (فعال) مثل قطام وحذام وقال العجاج:

والشمس قد كادت تكون دنفا * ادفعها بالراح كي تزحلفا (٢)

وغسق الليل ظهور ظلامه، ويقال غسقت القرحة إذا انفجرت، فظهر ما فيها. وقال ابن عباس وقتادة: هو بدؤ الليل، قال الشاعر:

إن هذا الليل اذ عسقا (٣)

وقال الجبائي غسق الليل ظلمته، وهو وقت عشاء الآخرة. وقوله " وقرآن الفجر " قال قوم يعني القرآن الفجر في الصلاة، وذلك يدل على أن الصلاة، لا تتم إلا بالقراءة، لأنه أمر بالقراءة وأراد بها الصلاة، لأنها لا تتم إلا بها.

وقوله: " إن قرآن الفجر كان مشهودا " معناه يشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار، ذهب إليه ابن عباس، وقتادة ومجاهد وإبراهيم. وروى عن أمير المؤمنين (ع) وأبي بن كعب أنها الصلاة الوسطي، وقال الحسن: " لدلوك الشمس " لزوالها: صلاة الظهر، وصلاة العصر إلى " غسق الليل " صلاة المغرب والعشاء

(١) البيت من نوادر أبي زيد. تفسير القرطبي ١٠: ٣٠٣ ومجاز القرآن ١: ٣٨٧ وتهذيب الالفاظ ٣٩٣ والمجالس للثعالبي ٣٧٣ وتفسير الشوكاني ٣: ٢٤١ وتفسير الطبري ١٥: ٨٥ وغيرها. وقد روى (عدوة) بدل للشمس) وروى أيضا (ذبيب) في رواية أخرى.

(٢) ديوانه ٨٢ وتفسير القرطبي ١٠: ٣٠٣ وتفسير الطبري ١٥: ٨٦ وتفسير القرطبي ١: ٢٦١ (٣) قائله عبدالله بن قيس الرقيات. ديوانه (دار بيروت) ١٨٨ وتفسير روح المعاني ١٥: ١٣٢ وتفسير القرطبي ١٠: ٣٠٤ وتفسير الطبري ١٥: ٨٧ ومجاز القرآن ١: ٣٨٨ واللسان والتاج (غسق) وتفسير الشوكاني ٣: ٢٤١ وعجزه: واستكن الهم والارقا.

(٥١٠)

الآخرة، كأنه يقول من ذلك الوقت إلى هذا الوقت على مايبين لك من حال الصلوات الاربع، ثم صلاة الفجر، فأوردت بالذكر. وقال الزجاج: سمي صلاة الفجر " قرآن الفجر "، لتأكد أمر القراءة في الصلاة، ومعنى " لدلوك الشمس " أي عند دلوبها. واستدل قوم بهذه الآية على أن وقت الاولى موسع إلى آخر النهار، لأنه أوجب إقامة الصلاة من وقت دلوك الشمس إلى وقت غسق الليل، وذلك يقتضي ان مابينهما وقت. وهذا ليس بشيء، لان من قال: إن الدلوك هو الغروب لادلالة فيها عليه عنده، لان من قال ذلك يقول: انه يجب إقامة المغرب من عند المغرب إلى وقت اختلاط الظلام الذي هو غروب الشفق، ومابين ذلك وقت المغرب.

ومن قال: الدلوك هو الزوال يمكنه أن يقول: المراد بالآية البيان لوجوب الصلوة الخمس على ما ذكره الحسن، لايان وقت صلاة واحدة، فلا دلالة له في الآية.

و (مشهودا) قيل في معناه قولان:

احدهما - تشهده ملائكة الليل، والنهار.

والثاني - قال الجبائي: فيه حث للمسلمين على ان يحضروا هذه الصلاة ويشهدوها للجماعة.
قوله تعالى:

(ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (٧٩) وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا (٨٠) وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) (٨١) ثلاث آيات.
هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى له: " ومن الليل فتهجد وانهجد

(٥١١)

التيقظ بماينفي النوم، والهجود النوم، وهو الاصل، هجد يهجد هجودا، فهو هاجد إذا نام، قال
ليبيد:

قلت هجدنا فقد طال السرى (١)

وقال الشاعر:

ألا طرقتنا والرفاق هجود * فباتت بعلات النوال تجود (٢)

وقال الحطيئة:

ألا طرقت هند الهنود الصحبتي * بحوران حوران الجنود هجود (٣)

وقال علقمة، والاسود: التهجد يكون بعد نومة. وقال المبرد: - التهجد عند أهل اللغة - السهر
للصلاة، أو لذكر الله، فاذا سهر للصلاة قيل تهجد، وإذا أراد النوم قال هجدت. والنافلة فعل
مافيه الفضيلة مما رغب الله فيه، ولم يوجبه. والنافلة. الغنيمة، قال الشاعر:

إن تقوى ربنا خير نفل * وياذن الله ريثي والعجل (٤)

اي خير غنيمة. والحسن من افعال العباد على ثلاثة أقسام: واجب، وندب، ومباح. وقال
الرماني: يجوز ان يكون نافلة اكثر ثوبا من فريضة إذا كان ترك الفريضة صغير، لان نافلة
النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من هذه الفريضة، من فرائض غيره.
وقد تكون نعمة واجبة أعظم من نعمة واجبة، كنعم الله تعالى، لانه يستحق بها العباد من نعمة
الانسان التي يستحق بها الشكر فقط.

وقوله: " نافلة لك " وجه هذا الاختصاص هو أنه أتم، للترغيب لمافي ذلك من صلاح أمته في
الابتداء به والدعاء إلى الاستئان بسنته. وروي أنها فرضت عليه، ولم تفرض على غيره،
فكانت فضيلة له، ذكره ابن عباس، فيجوز ذلك

(٢) تفسير القرطبي ١٠: ٣٠٨ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣: ٢٤٢ وتفسير الطبري ١٥: ٨٩ (٣) تفسير الطبري ١٥: ٨٩ (٤) قائله لبيد بن ربيعة وقد مر هذا الرجز في ٥: ٨٦ من هذا الكتاب

(٥١٢)

بترغيب يخصه في شدته وقال مجاهد: لانها فضيلة له ولغيره كفارة، لان الله تعالى غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر، وهذا ايضا من إختصاصه بما ليس لغيره. وقوله: " عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا " معناه متى فعلت مانبناك اليه من التهجذ يبعثك الله مقاما محمودا، وهي الشفاعة، في قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة. وقال قوم:، المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد.

و (عسى) من الله واجبه. وقد أنشد لابن مقبل في وجوبها:

ظني بهم كعسى وهم بتنوفة * يتنازعون جوائز الامثال (١)

يريد كيقين، ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول: " ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق " قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: إدخاله المدينة حين أخرج من مكة. وقيل ادخلني فيما أمرتني واخرجني عما نهيتني بلطف من أطفائك. وقال الفراء: قال ذلك حين رجع من معسكره الذي أراد أن يخرج إلى الشام، حين قالوا له: ليست المدينة أرض الانبياء، و " أخرجني مخرج صدق " يعني إلى مكة.

وقال أيضا: يامحمد قل " واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا " قال الحسن وقتادة: معناه اجعل لي عزا امتنع به ممن يحاول صدي عن إقامة فرائض الله في نفسه وغيره. وقال مجاهد: حجة بينة. ثم قال: " وقل جاء الحق " يعني التوحيد وخلع الانداد والعبادة لله وحده لاشريك له " وزهق الباطل " قال ابن عباس: معناه ذهب الباطل، وزهقت نفسه زهوقا إذا خرجت، فكأنه خرج إلى الهلاك، وقيل امر بهذا الدعاء إذا دخل في أمر او خرج من امر. ثم قال تعالى وأخير " ان الباطل كان زهوقا " باطلا هالكا لاثبات له، وانه يضمحل ويتلاشى. وروي عن ابن مسعود أنه قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح مكة، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بعود، ويقول: " جاء الحق

(١) اللسان (ظنن)

(٥١٣)

زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " وجاء الحق ومايبدي الباطل ومايعيد. قوله تعالى:

(وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا (٨٢) وإذا انعمنا على الانسان أعرض وناً بجانبه وإذا مسه الشركان يؤسا (٨٣) قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) (٨٤) ثلاث آيات بلا خلاف.

أخبر الله تعالى: أنه أنزل القرآن وفيه شفاء، ووجه الشفاء فيه من وجوه: أحدها - مافيه من البيان الذي يزيل عمى الجهل وحيرة الشك.

وثانيها - أنه من جهة نظمه وتأليفه يدل على انه معجز دال على صدق من ظهر على يده. وثالثها - انه يتبرك به فيدفع به كثيرا من المكاره والمضار، على ما يصح ويجوز في مقتضى الحكمة.

ورابعها - مافي العبادة بتلاوته من الصلاح الذي يدعو إلى امثاله بالمشاكلة التي بينه وبينه إلى غير ذلك. ثم قال: " ولا يزيد الظالمين " يعني القرآن لا يزيد الظالمين بمعنى انهم لا يزدادون عنده " الاخسارا " يعني يخسرون ثوابهم ويستحقون العقاب لكفرهم به وحرمان أنفسهم تلك المنافع التي فيه، صار كأنه يزيد هؤلاء خسارنا بدل زيادة المؤمنين تقى وايماننا. ثم قال: " واذا أنعمنا على الانسان أعرض " تفسير التبيان ج ٦ م ٣٣

(٥١٤)

أي ولى عرضه، كأنه لم يقبل علينا بالدعاء والابتهال، وباعد عن انعامنا عليه بضروب النعم، فلا يشكرها، كما عرض عن النعمة بالقرآن.

وقوله: " ونأى بجانبه " أي بعد بنفسه عن القيام بحقوق نعم الله. وقال مجاهد: معناه تباعد منا " واذا مسه الشركان يؤسا " يعني اذا لحق الانسان شر وبلاء " كان يؤسا " اي فنوطا من رحمة الله، فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم: " كل يعمل على شاكلته " أي على طريقته التي تشاكل اخلاقه. وقال مجاهد: على طبيعته وقيل على عادته التي ألفها. والمعنى انه ينبغي للانسان ان يحذر إلف الفساد فلا يستمر عليه، بل يرجع عنه. ثم قال: " وربكم اعلم بمن هو أهدى سبيلا " يعني انه عالم بمن يهتدي إلى الحق ممن يسلك طريق الضلال، لا يخفى عليه شئ من أحوالهم.

وأمال حمزة والكسائي " ونأى بجانبه " بكسر النون والهمزة، وأمالوا الياء، وأمالوا النون لمجاورة الهمزة، لأنها من حروف الحلق، كما يقولون: رغيف وشعير وبعير بكسر أولهن. وقرأ ابن عامر " وناء بجانبه " من ناء ينوء، فانقلبت الواو الفا لانفتاح ما قبلها، ومدت الالف تمكينا للهمزة.

وقرأ ابو عامر عن عاصم وابوعمر - في رواية عياش - " ونثي " بفتح النون وكسر الهمزة مما لاو مثل ذلك رأى ورئي، وراء ورأه في القلب، فاذا قالوا فعلت، قالوا رأيت بلاخلاف. وانشد المبرد حاكيا عن ابي عبيد:

أغلام معلل راء رؤيا * فهو يهذي بمارأى في المنام (١)
قوله تعالى:

ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (٨٥) ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا (٨٦) إلا رحمة من ربك إن فضله

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٩٦

(٥١٥)

كان عليك كبيرا) (٨٧) ثلاث آيات.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم " يسألونك عن الروح " يامحمد. واختلفوا في الروح الذي سألوا عنه. فقال ابن عباس: هو جبرائيل. وروي عن علي (ع) أن الروح ملك من الملائكة له سبعون الف وجه في كل وجه سبعون الف لسان يسبح الله بجميع ذلك. وقيل: هو روح الحيوان، وهو الاظهر في الكلام.

وقال قتادة: الذي سأله عن ذلك قوم من اليهود. وقيل: الروح هو القرآن، ذكره الحسن، لقوله: " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا " (١) واختاره البلخي، وقوى ذلك بقوله بعدها: " ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك " يعني القرآن، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم " الروح من أمر ربي " فعلى قول من قال: انهم سألوا عن القرآن أو عن جبرائيل أو الملك أو روح الحيوان، فقد أجاب عنه لانه قال: " من أمر ربي " أي من خلق ربي وفعله. وعلى قول: من قال انهم سألوه عن ماهية الانسان، لم يجب، وانما عدل عن جوابهم، لانهم وجدوا في كتابهم انه إن أجاب عن الروح، فليس بنبي، فاراد صلى الله عليه وسلم ان يصدق نبوته بموافقة امتناعه من الجواب، لمافي كتابهم. ويقوي ذلك قوله:

" وما اوتيتم من العلم إلا قليلا " اي لم أعط من العلم الا شيئا يسيرا، والاكثر لا اعلمه، لان معلومات الله تعالى لا نهاية لها. والروح من الامور المتروكة التي لا يصلح النص عليها، لانه ينافي الحكمة، لمافيه من الاستفساد. وانما اعلم مانص لي عليه مما يقتضي المصلحة، وهو قليل من كثير.

وقيل ايضا انهم لم يجابوا عن الروح، لان المصلحة اقتضت ان يحالوا على ما في عقولهم من الدلالة عليه، لما في ذلك من الرياضة على استخراج الفائدة، وان ما طريقه السمع، فقد اتى به،

وماطريقه العقل، فانما يأتي به مؤكدا لما في العقل لضرب من التأكيد، ولمافيه من المصلحة. والروح جسم رقيق هوائي على بنية حيوانية في كل جزء منه حياة، ذكره الرماني. وقال: كل حيوان،

(١) سورة الشورى آية ٥٢

(٥١٦)

فهو روح وبدن الا أن فيهم من الاغلب عليه الروح، وفيهم من الاغلب عليه البدن. ثم قال: " ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك " ومعناه اني اقدر ان آخذ ما أعطيتك، كما منعتك من غيرك، لكنني ي دبرتك بالرحمة لك، فأعطيتك ما تحتاج اليه ومنعتك ما لا تحتاج اليه والى النص عليه. وان توهم. قوم أنه مما يحتاج اليه، فتدبر أنت بتدبير ربك وارض بما اختاره لك، ولو فعلنا ذلك لم تجد لك علينا وكيلا يستوفي ذلك منا، وقال قوم: معنى " وان شئنا لنذهبن " اي لنمحوه - هنا - القرآن من صدرك وصدر أمتك. وقوله: " الا رحمة من ربك " اعطاك ما اعطاك من العلوم ومنعك مامنعك منها " إن فضل الله كان " فيما مضى وفيما يستقبل " عليك كبيرا " عظيما، فقابله بالشكر. قوله تعالى:

(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٨٨) ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا (٨٩) وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا) (٩٠) ثلاث آيات. قرأ اهل الكوفة " تفجر " بالتخفيف. الباكون بالتشديد، يقال: فجر يفجر بالتخفيف إذا شق الانهار، ومن شدد، فلقوله " وفجرنا خلالها نهرا " (١) اي مرة بعد مرة، ولقوله " فتفجر الانهار خلالها تفجيرا " فالتفجير لا يكون إلا من فجر. في الآية الاولى، تحدي للخلق ان يأتوا بمثل هذا القرآن وأنهم يعجزون عن

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٣٤

(٥١٧)

ذلك ولا يقدر على معارضته، لانه تعالى قال " قل " يا محمد لهؤلاء الكفار " لئن اجتمعت الانس والجن " متعاونين متعاضدين " على أن يأتوا بمثل هذا القرآن " في فصاحته وبلاغته ونظمه، على الوجه الذي هو عليه، من كونه في الطبقة العليا من البلاغة وعلى حد يشكل

على السامعين ما بينهما من التفاوت، لما أتوا بمثله، ولعجزوا عنه " ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " اي معينا، والمثلية التي تحدوا بالمعارضة بها معتادة بينهم، كمعارضة علقمه لامرئ القيس، ومعارضة الحرث ابن حلزة عمرو بن كلثوم، ومعارضة جرير الفرزدق. وما كان ذلك خافيا عليهم.

ثم قال " ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل " وتصريفه إياه هو توجيهه إياه في معان مختلفة. وقال الرماني: هو تصيير المعنى دائرا فيما كان من المعاني المختلفة. وذلك أنه لو أدير في المعاني المتفقة لم يعد ذلك تصريفا، فالتصريف تصيير المعنى دائرا في الجهات المختلفة.

وقوله " لا يأتون بمثله " انما رفعه لانه غلب جواب القسم على جواب (إن) لوقوعه في صدر الكلام، وقد يجوز أن يجزم على جواب (إن) إلا أن الرفع الوجه، وقال الاعشى:

لئن منيت بنا عن غب معركة * لالتقنا من دماء القوم ننتقل (١)
وقوله " فأبى أكثر الناس إلا كفورا " معناه إنما " صرفنا في هذا القرآن من كل مثل " ليستدلوا به على كونه من قبل الله تعالى ومع ذلك يأبى أكثر الناس إلا الجحد به، وإنكاره، فالكفور - ههنا - هو الجحود للحق بالاستكبار ويقولون مع ذلك " لن نؤمن لك " يامحمد " حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا " ومعناه حتى تشقق من الارض عينا ينبع بالماء أي يفور، فهو على وزن

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٤٩ وروايته (تلفنا) بدل (تلقنا) والمعنى واحد. وهو في تفسير روح المعاني ١٥: ١٣٦ وتفسير الطبري ١٥: ١٠٠

(٥١٨)

(مفعول) من (نبع)، يقال نبع الماء ينبع، فهو نابع، وجمعه ينابيع، وانما طلبوا عيوننا ببلدهم - في قول قتادة - والتفجير التشقيق عما يجري من ماء او ضياء، ومنه سمي الفجر، لانه ينشق عن عمود الصبح، ومنه الفجور، لانه خروج إلى الفساد لشق عمود الحق.
قوله تعالى:

(أو تكون لك جنة من نخيل وعب فنفجر الانهار خلالها تفجيرا (٩١) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملئكة قبلا (٩٢) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا (٩٣) ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر " قال سبحان ربي " الباقون " قل سبحان ربي " وقرأ أهل المدينة وابن عامر وعاصم " كسفا " بفتح السين. الباقون باسكانها من قرأ " قال سبحان " معناه إن الرسول قال ذلك عند إقتراحهم ماتقدم ذكره، مما لا يدخل تحت مقدور البشر. ومن قرأ " قل " فعلى أنه أمر بأن يقول لهم ذلك ويقويه قوله " قل إنما أنا بشر مثلكم " (١)

قال ابو زيد: يقال: كسفت الثوب أكسفه كسفا إذا قطعة قطعة، والكسف القطع واحده كسفة مثل قطعة. قال ابو عبيد: كسفا قطعاً. ومن فتح السين جعله جمع كسفة، قال كسفا مثل قطعة وقطع. ومن سكنه جاز ان يريد

(١) سورة ١٨ الكهف آية ١١٠

(٥١٩)

الجمع، مثل وسدر ويجوز ان يريد به المصدر. والمعنى اطبق علينا السماء كسفا اي طبقا. نزلت هذه الآية في أقوام اقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات، قالوا " لن نؤمن لك " اي لن نصدقك في أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تأتي بها، وهم كانوا جماعة من قريش، منهم عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وابوسفيان، والاسود ابن المطلب بن أسد، وزمعة بن الاسود، والوليد بن المغيرة، وابوجهل ابن هشام، وعبدالله بن أبي أمية، وأمّية بن خلف، والعاص بن ابل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان. على ما ذكر ابن عباس. فمن الآيات التي اقترحوها ما ذكره في الآية المتقدمة بأن قالوا " لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا " اي تشقق لنا من الارض عيون ماء في بلادنا " او تكون لك جنة " يعني بستانا من نخيل وعنب، وتشقق الانهار خلالها اي في خلالها، ووسطها تشققا " او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا " وقرئ بسكون السين، وفتحها، والكسف القطع، في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. ويحتمل وجهين:

احدهما - ان يكون جمع كسفة وكسف بسكون السين كسفرة وسدر بسكون الدال، وهو للجنس يصلح، للكثير والقليل، ويقول العرب: اعطني كسفة من هذا الثوب أي قطعة منه، حكى ذلك الفراء، انه سمعه من بعض العرب، ومن ذلك الكسوف، لانقطاع نوره.

والثاني - يجوز ان يكون الكسف مصدرا من كسفت الشيء إذا غطيته الغطاء عن يراه فكأنهم قالوا: تسقطها طبقا علينا.

وقوله " أو تأتي بالله والملائكة قبيلا " فيه دلالة على أنهم كانوا مشبهة، لان العارف بالله على الحقيقة لا يقول هذا، لانه لا يجوز عليه تعالى المقابلة، ولاله استعمال هذا على معنى دلائل

وآيات الله إذ لادلائل تدل على ذلك، فلا يشترط في الظاهر ما ليس فيه، لانه لم يثبت معرفتهم وحكمتهم، فيصرف ذلك عن

(٥٢٠)

ظاهره. ومعنى " قبيلًا " قال الفراء: معناه كفيلاً بذلك، يقال قبلت وكفلت، وزعمت وحملت قبله. وقال غيره: يعني مقابلة وقال قتادة وابن جريج والزجاج: معناه نعاينهم معاينة، قال الشاعر:

نصالحكم حتى تبؤوا بمتلها * كصرخة حبلى بشرتها قبيلها (١)

اي قابلتها، وهي مقابلة لها، والعرب تجرية في هذا المعنى مجرى المصدر فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث.

وقوله " او يكون لك بيت من زخرف " قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتة، والفراء: يعني بيتاً من ذهب " او ترقى في السماء " اي تصعد إليها أماناً بحذائنا بسلم، قال الفراء إنما قال في السماء، ولم يقل إلى، لان المراد او ترقى في سلم إلى السماء، فأتى ب (في) ليدل على ما قلناه يقال: رقيت في السلم أرقى رقياً، ورقيت من الرقياً أرقوه رقياً ورقياً " ولن تؤمن لرقيك " اي لصعودك حتى تنزل علينا كتاباً مكتوباً نقرأه كما أنزل على موسى الألواح، فقال الله تعالى له " قل " يا محمد " سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً " وإنما أجابهم بذلك، لان المعنى انكم تقترحون علي الآيات وليس أمرها الي وإنما أمرها إلى الذي أرسلني والذي هو أعلم بالتدبير مني وما ينص عليه من الدليل، فلا وجه لطلبكم هذا مني مع ان هذه صفتي، لاني رسول أؤدي اليكم ما أوحى الي وأمرت بان أؤديه اليكم. ومن قرأ " قال سبحان " حمله على أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك ابتداء من قبل نفسه، قبل ان يؤمر به، لعلمه بأن الآيات لا تتبع الشهوات، والاقتراحات،

(١) قائله الاعشى ديوانه (دار بيروت) ١٣٥ وقد مر تخريجه في ١: ٣٥٠ ورواية الديوان أصالحكم حتى تبوءوا بمتلها * كصرخة حبلى يسرتها قبولها وكان على هامش المطبوعة حاشية هي (كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها، ويروى قبولها اي يئست منها والقبيل والقبول كلاهما بمعنى القابلة - هنا - سميت بذلك لقبولها الولد، وتلقيها اياه عند الولادة)

نتهى. وعلى هذه الحاشية المذكورة علامة تدل على انها وجدت في بعض المخطوطات.

(٥٢١)

وانما تتبع المصالح، ولو تبعت الشهوات لكان كل واحد يقترح غير ما يقترحه الآخر فيؤدي إلى الفساد.

قوله تعالى:

(ومانع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا (٩٤) قل لو كان في الأرض ملئكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (٩٥) قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) (٩٦)
ثلاث آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى وماصرف الناس، يعنى المشركين الذين لم يؤمنوا، وانما أخبر عنه بالمنع مبالغة له في الصرف، لان المنع يستحيل معه الفعل، والصرف يمكن معه الفعل، لكنه لشدة صرفه شبه بالمنع. وقوله " أن يؤمنوا " اي ماصرفهم عن التصديق بالله ورسوله حين جاءهم الهدى، يعنى الحجج والبيانات، وطريق الحق إلا قولهم " أبعث الله بشرا رسولا " فدخلت عليهم الشبهة في أنه لايجوز من الله أن يبعث رسولا إلا من الملائكة، كما دخلت عليهم الشبهة في أن عبادتهم لاتصلح لله، فوجهوها إلى الاصنام، فعظموا الله تعالى بجهلهم، بما ليس فيه تعظيم. وهذا فاسد، لان تعظيم الله إنما يكون بأن يشكر على نعمته بغاية الشكر ويحمد غاية الحمد، ويضاف اليه الحق دون الباطل، وهم عكسوا فأضافوا الباطل اليه ومايتعالى عن فعله أو إرادته. وإنما عدلوا عن الهدى إلى الضلال تقليدا لرؤسائهم. واعتقادا للجهل بالشبهة. فان قيل لم جاز ان يرسل الله إلى النبي - وهو من البشر - ملكا ليس من جنسه؟ ولم يجز أن يرسل إلى غير النبي مثل ذلك؟!

(٥٢٢)

قلنا: لانه صاحب معجزة، وقد اختير للهداية والمصلحة، فصارت حاله بذلك مقاربة لحال الملك، وليس كذلك غيره من الامة، مع ان الجماعة الكثيرة ينبغي ان يتخير لها ما تجتمع عليه هممها بما لا يحتاج اليه في الواحد منا إذا اريد صلاح الجميع. وقيل: لانهم لايجوز ان يروا الملك، وهم على هذه الهيئة التي هم بها.
على أنه يلزمهم على الامتناع من اتباع النبي - لانه بشر مثلهم - الامتناع من اتباع الملك، لانه عبد ومحدث مثلهم في العبودية والحدوث، فان جاز ذلك، لان الله تعالى عظمه وشرفه واختاره، جاز ايضا في البشر لمثل هذه العلة.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم " قل " لهم " لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين " قال الحسن معنى " مطمئنين " قاطنين فيها. وقال الجبائي: " مطمئنين " عن امر الله تعالى الذي يلزم بالاعراض عنه الذم، كما قال تعالى " ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه " (١). ثم قال له " قل " لهم كفى بالله، أي حسبي الله شهيدا وعالما بيني وبينكم " انه كان بعباده خبيرا بصيرا " أي عالما بكم وبني، مدرك لنا. ونصب " شهيدا " على التمييز، وتقديره حسبي الله من

الشهداء، ويجوز ان يكون نصبا على الحال، وتقديره كفى الله في حال شهادته. وإنما قال هذا جوابا لهم حين قالوا: من يشهد لك بأنك رسول الله؟ فقال الله له " قل كفى بالله شهيدا ".
قوله تعالى:

(ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيمة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا (٩٧) ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا (٩٨) أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والارض

(١) سورة الاعراف اية ١٧٥

(٥٢٣)

قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا) (٩٩) ثلاث آيات.

قيل في معنى قوله " من يهد الله فهو المهتد " قولان:

أحدهما - من يحكم الله بهدأيته وتسميته بها بإخلاصه الطاعة، فهو المهتدي في الحقيقة، وفيه دعاء إلى الاهتداء، وترغيب فيه وحث عليه. وفيه معنى الامر به.

الثاني - من يهديه الله إلى طريق الجنة، فهو المهتدي إليها.

وقوله " ومن يضلل " يحتمل أيضا أمرين:

أحدهما - من يحكم الله بضلاله وتسميته ضالا بسوء اختياره للضلالة فإنه لا ينفعه ولاية ولي له، فلو تولاه لم يعتد بتوليئه، لانه من اللغو الذي لا منزلة له، ولذلك حسن أن ينفي، بمنزلة مالم يكن.

والثاني - من يضله الله عن طريق الجنة، وأراد عقابه على معاصيه لم يوجد له ناصر يمنعه من عقابه.

ثم أخبر عن صفة حشرهم إلى أرض القيامة، يعنى الكفار، إنه يحشرهم " يوم القيامة " مجرورين " على وجوههم عميا " كما عموا عن الحق في الدنيا " بكما " جزاء على سكوتهم عن كلمة الاخلاص " وصما " لتركهم سماع الحق واصغائهم إلى الباطل " كلما خبت " النار، والخبوة هدوء النار عن الالتهاب خبت النار تخبو خبوا اذا سكنت، والمعنى: كلما سكنت التهب واستعرت، وذلك من غير نقصان آلام أهلها، قال عدي بن زيد:

وسطه كالسراج أو سرح المجدل * حينما يخبو وحينما يغير (٢)

فان قيل: كيف يحشرهم الله يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما، مع قوله " ورأى
المجرمون النار، فظنوا انهم مواقعوها " (٣) وقوله " سمعوا لها تغيظا

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٦ (٢) تفسير الطبري ١٥: ١٠٥ (٣) سورة؟؟ الكهف آية ٥٤

(٥٢٤)

وزفيرا (١) " وقوله " دعوا هنالك ثبورا " (٢)

قلنا عنه جوابان:

احدهما - انهم يحشرون كذلك، ثم يجعلون يبصرون ويشهدون وينطقون.

الثاني - قال ابن عباس والحسن: إنهم عمي عما يسرهم، بكم عن التكلم بما ينفعهم صم عما
يمتعهم " مأواهم جهنم " أي مستقرهم.

فإن قيل: لم جاز أن يكونوا عميا عن العذاب يوم القيامة، ولم يجز أن يكونوا جهالا به؟.
قلنا: لان الجاهل به لا يجد من ألمه ما يجده العالم، ولان الحكمة تقتضي إعلامه أن عقابه من
أجل جرمه، لانه واقع موقع التوبيخ له، وموقع الزجر في الخبر به.

وقوله " ذلك " يعني ما قدم ذكره من العقاب جزاؤهم " استحقوه بكفرهم بآيات الله.

وقوله " إذا كنا عظاما ورفاتا مثل التراب متحطمين مترضضين " أننا لمبعوثون خلقا جديدا
وإنما قالوا ذلك، لانكارهم الحشر والبعث يوم القيامة والثواب والعقاب. ثم قال " أو لم يروا "
يعني هؤلاء الكفار " ان الله الذي خلق السموات والارض " لانهم كانوا مقرين بأن الله
خالقهما، " قادر على ان يخلق مثلهم " لان القادر على الشئ قادر على أمثاله إذا كان له مثل
وأمثال في الجنس " وجعل لهم أجلا " يعيشون اليه ويحشرون عنده، لاشك فيه. وقال الجبائي:
جعل الله لهم أجلا لمعادهم وحشرهم لاشك فيه.

ثم أخبر تعالى فقال " فأبى الظالمون " لنفوسهم الباخسون حقها بفعل المعاصي " إلا كفورا "
أي كفروا ووجدوا بآيات الله ونعمه.

وفي الآية دلالة على ان القادر على الشئ قادر على جنس مثله إذا كان له مثل.

وفيه دلالة على أن يجب أن يكون قادرا على ضده، لان منزلته في المقدر منزلة

(١، ٢) سورة ٢٥ الفرقان آية ١٢ - ١٣

(٥٢٥)

مثله. وفيه دلالة على انه يقدر على إعادته إذا كان مما يبقى وتصح عليه الاعداء.

قوله تعالى:

(قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لامسكم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا) (١٠٠) آية بلاخلاف.

يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم " قل " لهؤلاء الكفار: لو انكم ملكتم " خزائن رحمة ربي " أي ما يقدر عليه من النعم قدرتم على مثله لما انفقتموه في طاعة الله، وامسكتموه خوفا من الفقر. ثم اخبر بأن الانسان كان قتورا، يعني مضيقا سئ الظن بالله وبالخلف عن الانفاق، وهو جواب لقولهم " لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا " (١) فاعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الله، لامسكوا بخلا بها وشحا خشية نفاذها، يقال: نفقت نفقات القوم إذا نفدت، وانفقها صاحبها أي انفدها حتى افتقر، وقال قتادة: خشية الانفاق أي خشية الفقر. والمراد بالانسان في الآية. - قول ابن عباس والحسن: هو الكافر. والقنور المضيق للنفقة، يقال قنر يقنر وأقنر إذا قدر النفقة. و (أنتم) مرفوع بفعل مضمر، والمعنى قل لو تملكون أنتم، لان (لو) يقع بعدها الشيء، لوقوع غيره، فلا يليها إلا الفعل، وإذا وليها اسم يعمل فيه الفعل المضمر قال الشاعر:

لو غيركم علق الزبير بحبله * أدى الجوار إلى بني العوام (٢)

والقنور البخيل - في قول ابن عباس - قال أبو داود:

لا أعد الاقتار عدما ولكن * فقد من قد رزئته الأعدام (٣)

وظاهر قوله " وكان الانسان قتورا " العموم، وقد علمنا أن في الناس الجواد، والوجه فيه أحد أمرين:

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٩١ (٢) مر هذا البيت في ٤: ٣٥١ (٣) تفسير الطبري ١٥: ١٦

(٥٢٦)

أحدهما - ان الاغلب عليهم من ليس بجواد، ومن مقتصد أو بخيل، فجاز تغليب اللاكث. والثاني - أنه لا أحد إلا وهو يجر إلى نفسه نفعا بما فيه ضرر على الغير، فهو بخيل بالاضافة إلى جود الله تعالى.

قوله تعالى:

ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فستل بني اسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنني لأظنك ياموسى مسحورا (١٠١)

قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والارض بصائر وإنني لأظنك يافرعون مثبورا (١٠٢) آيتان بلاخلاف.

قرأ الكسائي وحده " لقد علمت " بضم التاء. الباقيون بفتحها.

حجة من فتح أنه قال: إن فرعون وملاه ممن تبعه قد علموا صحة أمر موسى وأن مأتى به ليس بسحر بدلالة قوله " لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك (١) " وقوله " فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا " (٢) وقولهم " يا أيها الساحر ادع لنا ربك " (٣)

ومن قرأ بضم التاء فمن علم موسى.

فان قيل له كيف يصح الاحتجاج عليهم بعلمه، وعلمه لا يكون حجة على فرعون وملائه، وانما يكون علم فرعون ما علمه من صحة أمر موسى حجة عليه؟.

نقول: إنه لما قيل له " إن رسوالم الذي أرسل اليكم لمجنون " (٤) كان ذلك قدحا في علمه، لان المجنون لا يعلم، فكأنه نفى ذلك، فقال لقد علمت صحة

(١) سورة الاعراف آية ١٣٣ (٢) سورة النمل آية ١٣ - ١٤ (٣) سورة الزخرف آية ٤٩ (٤) سورة ٢٦ الشعراء آية ٢٧

(٥٢٧)

مأتيت به، وأنه ليس بسحر، علما صحيحا كعلم العقلاء، فصارت الحجة عليه من هذا الوجه. ورويت هذه القراءة عن أمير المؤمنين (ع) يقول الله تعالى مخبرا عما أعطى موسى من الآيات وذكر أنها تسع آيات معجزات بينات ظاهرات دلالات على صحة نبوته. واختلفوا في هذه التسع:

فقال ابن عباس والضحاك: هي يد موسى، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم " آيات مفصلات ". وقال محمد ابن كعب القرظي: الجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والبحر، وعصاه والطمسة، والحجر. والطمسة دعاء موسى وتأمين هرون، فقال الله تعالى " قد اجيببت دعوتكما (١) " وفي رواية عكرمة عن ابن عباس، ومطر الوراق: الطوفان والجراد، والقمل، والضفادع والدم، والعصا، واليد، والسنون، ونقص من الثمرات. وبه قال الشعبي ومجاهد. وقال الحسن مثل ذلك، غير أنه جعل الاخذ بالسنين ونقص الثمرات آية واحدة. وجعل التاسعة تلقف العصا ما يأفكون.

وقال صفوان ابن عسال: سأل يهودي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التسع آيات، فقال: (هن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تغفلوا النفس التي حرمها الله الابالحق، ولا تمشوا ببرئ إلى السلطان يقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربو، ولا تغدقوا المحصنة، ولا تولوا الفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة يا يهود أن لاتعتدوا في السبت) (٢) فقبل يده، وقال أشهد

أنك نبي الله. وقوله " فاسأل بني إسرائيل " أمر النبي أن يسأل بني إسرائيل " اذ جاءهم موسى ". وقال الحسن عن ابن عباس، قال: معناه سؤلك إياهم، نظرك في القرآن. وروي عن ابن

(١) سورة ١٠ يونس آية ٨٩ (٢) في بعض المخطوطات (لاتسخرُوا في السبت) وفي بعضها (لاتصيدوا في السبت) وقد اثبتنا مافي المطبوعة لموافقته لقوله تعالى " لاتعدوا في السبت " في سورة النساء آية ١٥٤، وفي سورة البقرة آية ٦٥ " ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت " وفي سورة الاعراف آية ١٦٢ " اذيعدون في السبت "

(٥٢٨)

عباس أنه كان يقرأ " فسأل بني إسرائيل " يعني فسأل موسى فرعون بني إسرائيل أن يرسلهم معه.

وقوله " فقال له فرعون " حكاية عما قال فرعون لموسى " إني لاضنك يا موسى مسحورا " أي معطا علم السحر بهذه العجائب التي تفعلها من سحرك، وقد يجوز أن يكون المراد " إني لاطنك ياموسى " ساحرا، فوضع (مفعول)

موضع (فاعل)، مثل مشؤم وميمون موضع شائم ويامن. وقيل معناه: إنك سحرت، فانت تحمل نفسك على مايقوله السحر الذي بك وقيل مسحور بمعنى مخدوع.

وقوله " قال لقد علمت " حكاية عما أجاب به موسى فرعون فإنه قال " لقد علمت " يافرعون أن ماجئت به ليس بسحر وإني صادق. ومن قرأ بضم التاء معناه إنه لما قال له فرعون " إني لاطنك ياموسى مسحورا " قال له موسى " لقد علمت " اني لست كذلك وأنه ماأنزل هذه الآيات " إلا رب السموات والارض " الذي خلقهن وجعلهن " بصائر " أي حججا واضحة واحدها بصيرة " واني لاطنك يافرعون مثبورا " اي ملعوننا ممنوعا من الخير، تقول العرب ما تبرك عن هذا الامر أي مامنعك منه، وماصرفك عنه، وثبره الله، فهو يثبره ويثبره لغتان. ورجل مثبور محبوس عن الخيرات. قال الشاعر:

إذا جرى الشيطان في سنن الغي فمن مال ميله مثبور (١)

وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير، وقال قوم: معناه مغلوبا، روي ذلك عن ابن عباس في رواية أخرى، وبه قال الضحاك. وقال مجاهد: هالكا، وبه قال قتادة. وقال عطية العوفي: مغيرا مبدلا. وقال ابن زيد: معناه مخبولا لا عقل له.

قوله تعالى:

(فأراد أن يستفزه من الارض فاغرقناه ومن معه جميعا (١٠٣))

(٥٢٩)

وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الارض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيها (١٠٤) آيتان بلاخلاف.

قوله " فأراد " يعني فرعون " أن يستفزهم " يعني موسى وبني إسرائيل " من الارض " أي يخرجهم منها بالنفي والقتل والازعاج كرها، من أرض مصر. وأصله القطع بشدة، فزر الثوب إذا قطعه بشدة تخريق.

فأخبر الله تعالى إنا أغرقناه عند ذلك في البحر، " ومن معه " من جنده وأتباعه ونجينا بني إسرائيل مع موسى (ع) وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون " اسكنوا الارض " يعني أرض الشام، " فإذا جاء وعد الآخرة " يعني يوم القيامة وهي الكرة الآخرة " جئنا بكم لفيها " أي حشرناكم إلى أرض القيامة، مختطفين من كل قوم ومن كل قبيلة، قد التف بعضهم على بعض لا تتعارفون، ولا ينحاز منكم أحد إلى قبيلة، ومن ذلك قولهم: لفتت الجيوش إذا ضربت بعضها ببعض فاختلف الجميع، وكل شئ اختلط بشئ فقد لف به، وقال مجاهد: معناه جئنا بكم من كل قوم. وقال قتادة:

جئنا بكم أجمع أولكم وآخركم، وهو قول ابن عباس ومجاهد - في رواية - والضحاك. و (لفيف) مصدر تقول لفته لفا ولفيفا، فلذلك أخبر به عن الجميع ولفيفا نصب على الحال. قوله تعالى:

(وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا (١٠٥) وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)
(١٠٦) آيتان بلاخلاف.

تفسير التبيان ج ٦ م ٣٤

(٥٣٠)

قوله " وبالحق أنزلناه " يعني القرآن أنزله الله يأمر فيه بالعدل وبالانصاف، والاخلاق والجميلة والامور الحسنة الحميدة، وينهي فيه من الظلم وأنواع القبائح والاخلاق الذميمة. " وبالحق نزل " معناه بما ذكرناه من فنون الحق نزل القرآن من عند الله على نبيه صلى الله عليه وسلم. قال البلخي: يجوز أن يكون أراد موسى، ويكون ذلك كقوله " وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد " (١) ويجوز أن يكون أراد الآيات فكفى عنها بالهاء وحدها، دون الهاء والالف، ويريد أنزلنا ذلك، كما قال أبو عبيدة قال أنشدني رؤبة:

فيه خطوط من سواد وبلق * كأنه في العين توليع البهق (٢)

فقلت له: إن أردت الخطوط فقل كأنها، وإن أردت السواد والبياض فقل كأنهما، قال: فقال لي: كأن ذلك وتلك.

ثم قال " وما أرسلناك " يامحمد " إلا مبشرا " للمطيعين بالجنة " ونذيرا " أي مخوفا للعصاة من النار.

وقوله " وقرآنا فرقنا " قرأه أهل الابصار بالتخفيف. وحكي عن ابن عباس بتشديد الراء، بمعنى نزلناه شيئا بعد شيء، آية بعد آية، وقصة بعد قصة. ومعنى " فرقناه " فصلنا فيه الحلال والحرام، وميزنا بينهما، وهو قول ابن عباس. وقال أبي بن كعب معناه بيناه. وقال الحسن وقتادة: فرق الله فيه بين الحق والباطل.

ومن قرأ بالتشديد، قال ابن عباس وقتادة وابن زيد: إن معناه أنزل متفرقا لم ينزل جميعا، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة. ونصب " قرآنا " على معنى وأحكمنا قرآنا " فرقناه " أو آتيناك قرآنا. وقال بعضهم: نصب بمعنى ورحمة كأنه قال " وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا " ورحمة، قال لان القرآن رحمة.

وقوله " لتقرأه على الناس على مكث " معناه على توتدة، فترتله وتبينه ولا تعجل

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٥ (٢) مرهنا الرجزي في ١ / ٢٩٦

(٥٣١)

في تلاوته، فلا يفهم عنك، وهو قول ابن عباس ومجاهد وابن زيد، ويقال في المكث لغات: مكث بضم الميم وعليه القراء، وبفتح الميم وسكون الكاف، وبفتح الميم وكسر الكاف، وحكي مكثي مقصور ومكاثاء ممدود.

وقوله " ونزلناه تنزيلا " أي أنزلناه شيئا بعد شيء، وهو قول الحسن وقتادة وقوله " ونزلناه تنزيلا " يدل على أن القرآن محدث، لان القديم لا يجوز وصفه بالمنزل والتنزيل، لان ذلك من صفات المحدثين.

وقيل في معنى " على مكث " أنه كان ينزل منه شيء ثم يمكنون ماشاء الله وينزل شيء آخر. قوله تعالى:

(قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله.

إذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا (١٠٧) ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا (١٠٨) ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا (١٠٩) ثلاث آيات في الكوفي خاصة، تمام الاولى سجدا، وآيتان فيما سوى ذلك.

يقول الله تعالى لنبيه " قل " لهؤلاء الذين اقترحوا عليك الآيات، وقالوا " لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا " (١) على وجه التبكيت لهم في عدولهم عن نبيه وكفرهم به، وأنه لا يستنصر بترك إيمانهم، لأن عيبه راجع عليهم " آمنوا " بهذا القرآن الذي لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله، وتعاونوا عليه لما

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٠

(٥٣٢)

قدروا عليه " أولا تؤمنوا " وتجحدوه، فإن إيمانكم لن يزيد في خزائن الله شيئا، ولا ترككم الايمان به ينقص ذلك، وإن تكفروا به، فإن الذين أوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتاب، وهم الذين أسلموا " إذا يتلى عليهم " من القرآن " يخرون " تعظيما له وتكريما، لعلمهم بأنه من عند الله، لاذقانهم سجدا بالارض واختلفوا في المعنى بقوله " يخرون للاذقان " فقال بعضهم: أراد به الوجوه روى ذلك عن ابن عباس وقتادة. وقال قوم يعني بذلك اللحى، حكى ذلك عن الحسن. وقوله " ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا " حكاية من الله عن هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبل نزول هذا القرآن خروا للاذقان سجودا عند استماعهم القرآن يتلى عليهم تنزيها لله تعالى وتبرئة له مما يضيف اليه المشركون، ويقولون لم يكن وعد ربنا من ثواب وعقاب إلا مفعولا حقا يقينا إيمانا بالقرآن وتصديقا له. والاذقان جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين. وقال مجاهد ابن زيد:

" الذين أوتوا العلم من قبله " إلى قوله " خشوعا " ناس من أهل الكتاب حيث سمعوا ما أنزل الله على محمد " قالوا سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا " وقال ابن جريج: إذا يتلى عليهم كتابهم وقال قوم " الذين أوتوا العلم " يعني به محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. ويراد بقوله " إذ يتلى عليهم " يعني القرآن، لأنه من سياق ذكر القرآن، ولم يكن يجري لغيره من الكتب ذكر، وهو الأقوى، لأن الآية فيها مدح لمن وصف بما فيها، وذلك لا يليق بالكفار إلا أن يراد بذلك من آمن منهم وكان عالما قبل ذلك بصحة القرآن اذ علموا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة والانجيل ويحتمل ذلك اذا على ما بيناه.

وقوله " ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا " يقول الله يخرون هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان اذا يتلى عليهم القرآن " لاذقانهم يبكون ويزيدهم " مافي القرآن من المواعظ والعبر " خشوعا " يعني خضوعا لامر الله وطاعته واستكانة له.

(٥٣٣)

قوله تعالى:

(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الاسماء الحسني ولا تجهر بصلاتك وبتخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا (١١٠) وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا) (١١١) آيتان بلا خلاف.

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن " قل " يامحمد لمشركي قومك المنكرين لنبوتك الجاحدين لدعائك وتسميتك الله تعالى بالرحمن " ادعوا الله أو ادعوا الرحمن " أيها القوم " أيما تدعوا فله الاسماء الحسني " معناه بأي أسمائه تعالى تدعون ربكم به، وانما تدعون واحد، فله الاسماء الحسني، وانما أمره بذلك، لان مشركي قومه لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الله تارة بأنه الله وتارة بأنه الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهين حتى قال بعضهم: الرحمن رجل باليمامة، فأنزل الله هذه الآية احتجاجا لنبيه صلى الله عليه وسلم بذلك، وانه شئ واحد، وإن اختلفت أسماؤه وصفاته، وبه قال ابن عباس ومكحول ومجاهد وغيرهم. (وما) في قوله " أيما " يحتمل أن يكون صلة، كقوله " عما قليل ليصبحن نادمين " (١)، ويحتمل أن يكون بمعنى أي كررت لاختلاف لفظها، كما قالوا: مارأينا كالليلة ليلة.

وقوله " ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا " نهي من الله تعالى عن الجهر العظيم في حال الصلاة، وعن المخافتة الشديدة وأمر بأن يتخذيبن

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٤٠

(٥٣٤)

ذلك سبيلا. وحد أصحابه الجهر فيما يجب الجهر فيه بأن يسمع غيره، والمخافتة بأن يسمع نفسه.

واختلفوا في الصلاة التي عنى بها بالآية في قوله " ولا تجهر بصلاتك " فقال الحسن لا تجهر بإشاعتها عند من يؤذيك، ولا تخافت بها عند من يلتبسها منك.

وقال قوم: لاتجهر بدعائك ولا تخافت، ولكن بين ذلك، قالوا: والمراد بالصلاة الدعاء، ذهبت اليه عائشة، وابن عباس، وأبو عياض، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعبدالله بن شداد، والزبير، ومكحول. وروي عن ابن عباس - في رواية أخرى - أن النبي كان إذا صلى يجهر في صلاته، فسمعه المشركون فشتموه وآذوه وآذوا أصحابه، فأمر الله بترك الجهر، وكان ذلك

بمكة في اول الامر، وبه قال سعيد بن جبير. وقال قوم: أراد لاتجهر بتشهدك في الصلاة ولا تخافت به، روي ذلك عن عائشة - في رواية أخرى - وبه قال ابن سيرين.

وقال قوم: كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي بمكة جهرا فأمر بإخفائها، ذهب اليه عكرمة والحسن البصري، وقال قوم: معناه لا تجهر بصلاتك تحسنها مرا آة، في العلانية، ولا تخافت بها، تنني في القيام بها في السريرة، روي ذلك عن الحسن وقتادة وابن عباس في رواية. وبه قال ابن زيد وابن وهب. وقال الطبري:

يحتمل أن يكون المراد لاتجهر بصلاتك صلاة النهار العجماء، ولاتخافت بها، يعني صلاة الليل التي تجهر فيها بالقراءة، قال: وهذا محتمل غير انه لم يقل به احد من أهل التأويل.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قل يا محمد " الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا " فيكون مربوبا لا ربا، لان رب الارباب لايجوز أن يكون له ولد " ولم يكن له شريك " في ملكه فيكون عاجزا محتاجا إلى غيره ليعينه فيكون ضعيفا، ولايجوز أن يكون الاله بهذه الصفة " ولم يكن له ولي من الذل " معناه لم يكن له حليف حالفه لينصره على من يناوئه، لان ذلك صفة ضعيف عاجز، ولايجوز أن يكون الاله بهذه الصفة، ثم أمره بأن يعظمه تعظيما لايساويه تعظيم، ولايقاربه لعلو منزلته.

(٥٣٥)

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلم أهله هذه الآية. وما قلناه هو قول مجاهد وسعيد بن جبير وابن عباس. وقال محمد بن كعب القرظي: في هذه الآية رد على اليهود والنصارى حين قالوا اتخذ الله الولد - وعلى مشركي العرب حيث قالوا: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك. وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا: لولا اولياء الله لذل الله. فأنزل الله ردا لقولهم أجمعين.

وليس لاحد أن يقول: كيف يحمد الله على ان لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، والحمد إنما يستحق على فعل ماله صفة التفضل، وذلك أن الحمد في الآية ليس هو على أن لم يفعل ذلك. وإنما هو حمد على أفعاله المحمودة، ووجه إلى من هذه صفته، لا من أجل أن ذلك صفته، كما تقول: أنا أشكر فلانا الطويل الجميل، ليس انك تشكره على جماله وطوله، بل على غير ذلك من فعله ومعنى " وكبره تكبيرا " صفة بصفاته التي لا يشركه فيها أحد.

وقيل: كبره عن كل مالا يليق وصفه به.